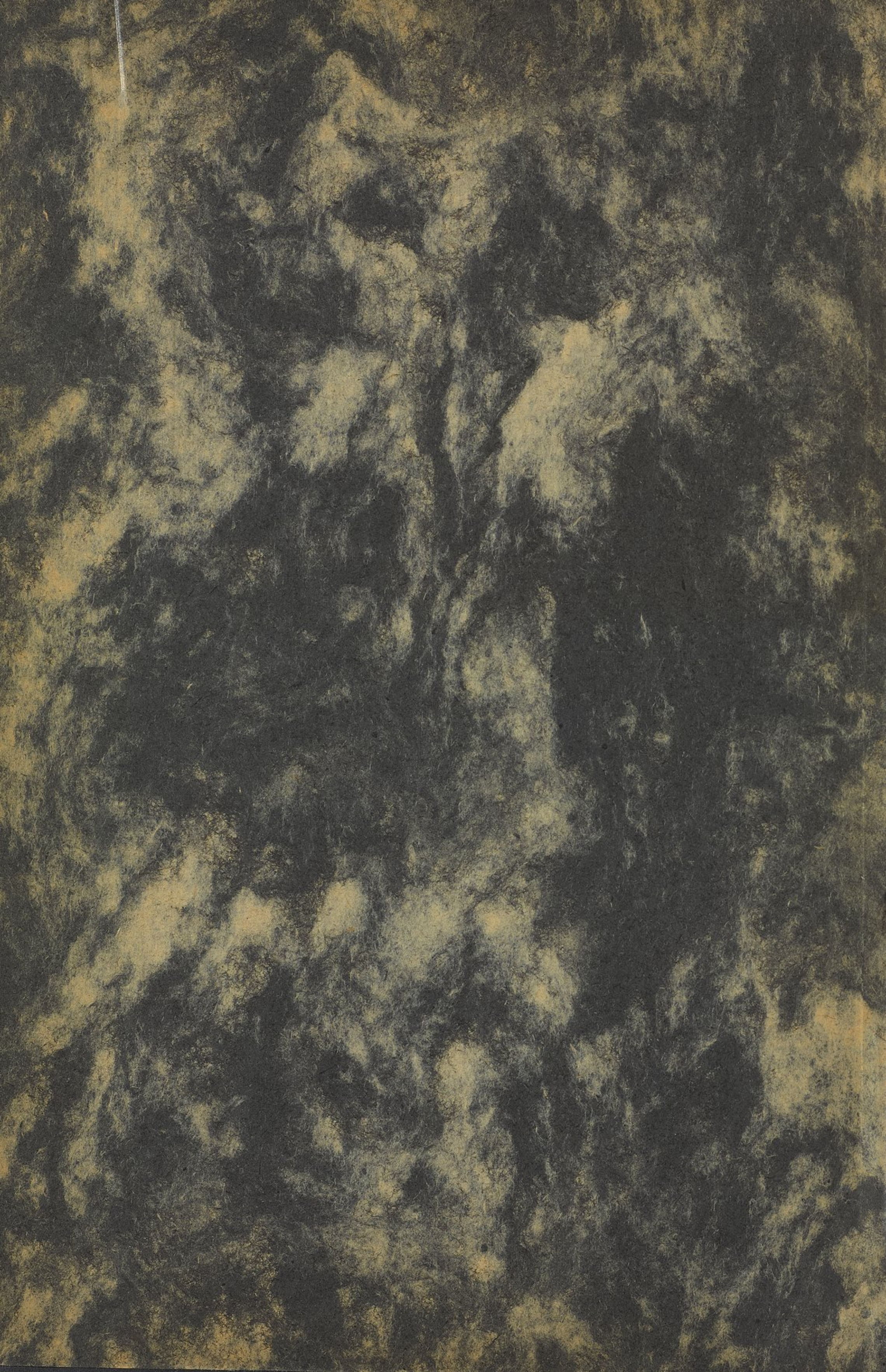
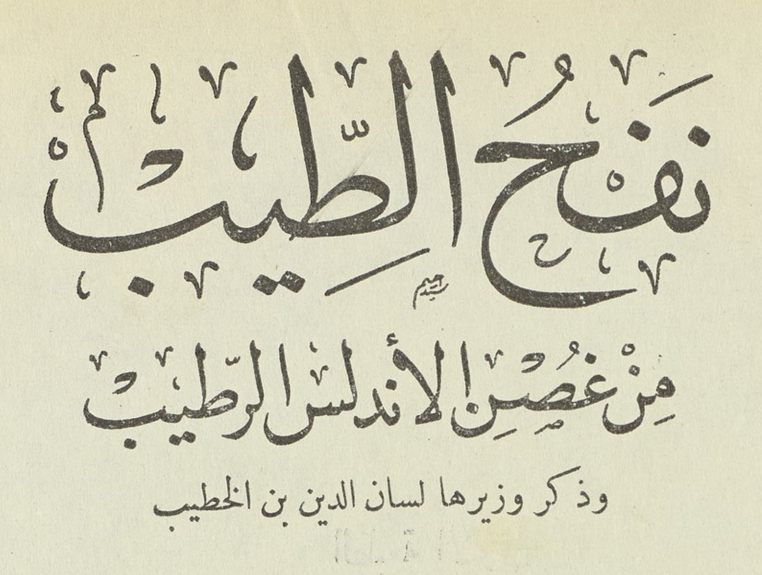



SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI
IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN







نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

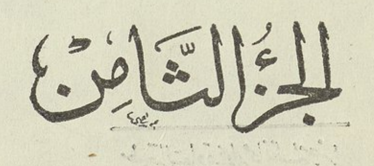
أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

المتوفى فى عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محيي الدين عبد الحميد

عفا الله عنه !



الجزء الثامن

الطبعة الأولى

فى عام ١٣٦٩ هـ — ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى ، بشارع محمد على ، بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رُسُلِ الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

أبو زكريا يحيى بن هذيل

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الحكيم العلامة التعاليمى ، الشاعر البايغ ، أعجوبة زمانه فى الاطلاع على علوم الأوائل ، أبو زكريا يحيى ابن هذيل ، وقد قال فى « الإحاطة » فى حقه ما ملخصه : يحيى بن أحمد ابن هذيل ، التجيبى ، أبو زكريا ، شيخنا ، جرى ذكره فى التاج المحلى بما نصه : دُرة بين الناس مُغْفَله ، وخزانة على كل فائدة مقفله ، وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة ، أبدع من رتب التعاليم وعلمها ، وركض فى الألواح قلمها ، وأتقن من صور الهيأة ومثلها ، وأسس قواعد البراهين وأثَّلَها ، وأعرف من زاول شكايه ، ودفع عن جسم نكايه ، إلى غير ذلك من المشاركة فى العلوم ، والوصول من المجهول إلى المعلوم ، والمحاضرة المستفزة للحلوم ، والدعابة التى ما خالعُ العذار فيها بالمَلُوم ، فما شئت من نفس عذبة الشيم ، وأخلاق كالزهر من بعد الدِّيَم ، ومحاضرة تتحف المجالس والمحاضر ، ومذاكرة يروق فى النواظر زهرها الناضر ، وله أدب ذهب فى الإجادة كل مذهب ، وارتدى من البلاغة بكل رداء مُذْهَب ، والأدب نقطة من حوضه ، وزهرة من زهرات روضه ، وسيمرُّ له فى هذا الديوان ما يبهر العقول ، ويحاسنُ برُوَائة ورائق بهائه الفِرِنْدُ المصقول ، فمن ذلك ما خرجته من ديوانه المسمى بالسليمانيات والعرفيات قوله :

ألا أستودع الرحمن بدراً مكملا ... بفاس من الدرب الطويل مطالعه
ففى فلك الأزرار يطلع سعده ... وفى أفق الأكباد تلفى مواقعه
يصبر مرآه منجم مقلتى ... فتصدق فى قطع الرجاء قواطعه
تجسم من ماء الملاحة خده ... وماء الحيا فيه تَرَجْرَجَ مائعه
تلوّن كالحرباء فى خجلاته ... فيحمرُّ قانيه ويبيض ناصعه
إذا اهتز غَنَّى حَلْيُه فوق نحره ... كغصن النقا غنت عليه سواجعه
يذكر حتف الصب عاملُ قده ... وتعطف من واو العذار توابعه
أعدَّ الورى سيفاً كسيف لحاظه ... فهذا هو الماضى وذاك يضارعه

وقال :

وصالك هــذا أم تحية بارق وهجرك أم ليل السليم لتائق
أياديك والأشواق تركض حجرها بصفحة خدى من دموع سوابق
أبارق ثغر من عذيب رُضابهِ قضت مهجتى بين العذيب وبارق

ومنها :

فلا تتعبن ريح الصبا فى رسالة ولا تخجل الطيف الذى كان طارقى
متى طعمت عينى الـكرى بعد بعدكم فإنى فى دعوى الهوى غير صادق

وقال :

بدا بدر تمٍّ فوقه الليل عَسْعَسَا وجنة أنس فى صباح تنفسا
حوى النجم قرطاً والدرارى مقلدا وأسبل من مسك الذوائب حندسا
كأن سَنَى الإصباح رام يزورنا وخاف العيون الرامقات فغلَّسَا
أتى يحمل التوارة ظبيا مزنرا لطيف التثنى أشنب الثغر ألعسا
وقابل أحبـــار اليهود بوجهه فبارك مولانا عليه وقدَّســـا
فصير دمعى أعينا شرب سبطه وعمرىَ تيها والجوانح مقدسا

وقال منها :

رويت ولوعى عن ضلوعى مسلسلا فأصبحت فى علم الغرام مدرسا
نفى النوم عنى كى أكون مسهداً فأصبحت فى صيد الخيال مهندسا
غزال من الفردوس تسقيه أدمعى ويأوى إلى قلبى مقيلا ومكنسا
طَغَى وردُ خدّيه بجنات صُدْغه فأضعفه بالآس نبتا وما أسا

وهذا البيت محال على معنى فِلاَحى ، قال أهل الفلاحة : إن الآس إذا اغترس بين شجر الورد أضعفه بالخاصية .

وقال رحمه الله تعالى ورضى عنه :

نام طفل النبت فى حِجْر النُّعامَى لاهتزاز الطل فى مهد الخُزامَى

وسقى الوسْمِىُّ أغصان النقا ... فهوت تلثم أفـواه الندامى
كحل الفجر لهم جفن الدجى ... وغدا فى وجنة الصبح لثاما
تحسب البدر محيـا ثَمِلٍ ... قد سَقَتْه راحةُ الصبح مُدَاما(١)
حوله الزهر كؤسٌ قد غدت ... مسكة الليل عليهن ختاما
يا عليـلَ الريح رفْقاً على ... أشف بالسقم الذى حُزْتَ سَقَامَا
أبلغَنْ شـوقى عُرَيْباً باللوى ... هِمْتُ فى أرض بها حَلُّوا غراما
فَرَشُوا فيهـا من الدر حَصًى ... ضربوا فيها من المسك خياما
كنت أشفى غلة من صدٍّ كم ... لو أذنْتُمْ لجفونى أن تناما
واستفدت الروح من ريح الصبا ... لو أتت تحمل من سلمى سلاما

وقال منها أيضاً :

نشأت للصب منهـا زفرة ... تسكب الدمع على الربع سجاما
طرب البرق مع القلب بهـا ... وبهـا الأنَّاتُ طارحن الحماما
طلل لا تشتفى الأذن به ... وهو للعين قد ألقى كلاما
ترك الساكن لى من وصله ... ضمة الجدران لثمـا والتزاما
نزعات من سليمان بهـا ... فهم القلب معانيهـا فهاما
شادنٌ يرعى حشاشات الحشى ... حسب حظى منه أن أرعى الذماما

وقال :

أأرجو أمانا منك واللحظُ غادر ... ويثبت عقلى فيك والطرف ساحر

ومنها :

أعدَّ سليمان أليمَ عذابه ... لطائر قلبى فهو للبين صائر
أشاهد منه الحسن فى كل نظرة ... وناظر أفكارى بمغناه ناظر

---

(١) الثمل — بفتح فكسر — شارب الخمر ، والمدام — بضم الميم — الخمر .

دعت للهوى أنصار سحر جفونه ... فقلبى له عن طيب نفس مهاجر
إذا شق عن بدر الدجى أفق زره ... فإنى بتمويه العواذل كافر
وفى حرم السلوان طابت خواطرى ... وقلبى لما فى وجنتيه مجاور
وقد ينزع القلب المبلى لسلوة ... كما اهتز من قطر الغمامة طائر(١)
يقابل أغراضى بضدّ مرادها ... ولم يدر أن الضد للضد قاهر
ونار اشتياقى صعّدتْ مزن أدمعى ... فمضمر سرى فوق خدى ظاهر(٢)
وقد كنت باكى العين والبين غائب ... فقل لىَ كيف الدمع والبين حاضر
وليس النوى بالطبع مراً ، وإنما ... لكثرة ما شقت عليه المرائر

وقال :

يا بارقا قاد الخيال فأومضا ... أقصد بطيفك مدنفا قد غمضا
ذاك الذى قد كنت تعهد نائما ... بالسهد من بعد الأحبة عوضا
لا تحسبنى معرضاً عن طيفه ... لكن منامى عن جفونى أعرضا

ومنها :

عجب الوشاة لمهجتى أنْ لم تذب ... يوم النوى وتشككت فيما مضى
خفيت لهم من سر صبرى آية ... ما فهمت إلا سليمان الرضا
لله درك ناهجاً سبل الهوى ... فلمثله أمر الهوى قد فوّضا
أمّنْتَ نملا فوق خدك سارحا ... وسللت سيفاً من جفونك مُنْتَضَى

وقال فى المدح :

حريص على جر الذوائب والقنا ... إذا كَعّتِ الأبطال والجوّ عابس
وتعتنق الأبطال لولا سقوطها ... لقلت لتوديع أتته الفوارس

---

(١) أخذ هذا من قول الهذلى :

وإني لتعرونى لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

(٢) أصل المزن المطر ، شبه به فى كثرته دمع عينيه .

إذا اختطفتهم كفه فسروجهم مجال ، وهم فى راحتيه فرائس

وقال يمدح السلطان أبا الوليد بن نصر عند قدومه من فتح أشكو :

بجيث البنود الحمر والأسد الورد كتائب سكانُ السماء لها جند(١)

وتحت لواء النصر مَلْكٌ هو الورى تضيق به الدنيا إذا راح أو يغدو

تأمنت الأرواح فى ظل بَنْدِهِ كأن جَنَاح الروح من فوقه بند(٢)

فلو رام إدراك النجوم لنالها ولو هم لانقادت له السند والهند

ومنها :

بعينىَ بحرُ النقع تحت أسنة تنمنمه وَهْناً كما نمنم البرد

سماء عجاج والأسنة شهبها ووقع القنا رعد إذا برق الهند(٣)

وظنوا بأن الرعد والصعق فى السما محاق به من أيده الصعق والرعد

عجائب أشكال سما هرمس بها مهندسة تأبى الجبال فتنهدّ

ألا إنها الدنيا تريك عجائبا وما فى القوى منها فلا بد أن يبدو

وقال وهو معتقل :

تباعد عنى منزلٌ وحبيب وهاج اشتياقى والمزارُ قريبُ

وأنى على قريب الحبيب مع النوى يكاد إذا اشتدّ الأنين يجيب

لقد بعدت عنى ديار قريبة عجبت لجار الجَنْبِ وهو غريب

أعاشر أقواما تقر نفوسهم فللهم فيها عند ذاك ضروب

إذا شعروا من جارهم بتأوّه أجابته منهم زَفْرة ونَحيبُ

فلا ذاك يشكوهمَّ هذا تأسفا لكل امرىء مما دهاه نصيب

كأنى فى غاب الليوث مسالم يروّعنى منه الغداة وثوب

---

(١) البنود : جمع بند ، وهو العلم ، والأسد الورد : الجرىء ، وأراد الفرسان فشبههم به ، وسكان السماء : الملائكة

(٢) الروح هنا : جبريل ملك الوحى

(٣) أصل هذا قول بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

يحكم فيها الدهر والعقل حاضر ... بكل قياس والأديب أديب
ولو مال بالجهال ميلته بنا ... لجاء بعذر ؛ إن ذا لعجيب
رفيق بمن لا ينثنى عن جريمة ... بَطُوشٌ بمن ما أو بقته ذنوب(١)
ويطمعنا منه بوارق خُلَّب ... تقول عساه يرعوى فيؤب(٢)
إذا ما تشبثنا بأذيال برده ... دهتنا إذا جر الخطوب خطوب
أدار علينا صوجانا ، ولم يكن ... سوى أنه بالحادثات لعوب

ومنها :

أيادهر إنى قد سئمت تهدفى ... أجرنى فإن السهم منك مصيب
إذا خفق البرق الطروق أجابه ... فؤادى ودمع المقلتين سَكُوبُ
وإن طلع الكف الخضيب سُحَيرة ... فدمعى بحنَّاءِ الدماء خضيب
تذكرنى الأسحار دارا ألفتها ... فيشتد حزنى والحمام طروب
إذا علقت نفسى بليْتَ وربما ... تكاد تفيض أو تكاد تذوب(٣)
دعوتك ربى والدعاء ضراعة ... وأنت تناجى بالدعا فتجيب
لئن كان عقبى الصبر فوزا وغبطة ... فإنى على الصبر الجميل دروب

قال : و بعثت إليه هدية من البادية ، فقال يصف منها ديكا :

أيا صديقا جعلته سَنَدَا ... فراح فيما أحبه وغَدَا
طلبت منكم سريدكا خنثا ... وجئتم لى مكانه لبدا
صير منى مؤرخا ولكم ... ظللت فى علمه من البُلَدَا
قلت له : آدم أتعرفه ... قال : حفيدى بعصرنا ولدا
نوح وطوفانه رأيتهما ؟ ... قال : علونا بفيضه أُحُدَا

(١) لا ينثنى : لا يرجع ولا يكف , وأوبقته : أهلكته
(٢) الخلب ـ بزنة السكر ـ السحاب الذى يطمع فى المطر وليس معه مطر
(٣) بليت وربما : أراد بها تين الكلمتين ، كقولك : ليتنى أراه ، أو قولك : ربما ألقاه ، ونحو ذلك .

فقلت : هل لى بجرهم خبر ... فقال : قومى وجيرتى السعدا
فقلت: قحطان هل مررت به ... قال : نفشنا ببرده العقدا
فقلت: صف لى سبا وساكنها ... فعند هذا تنفس الصُّعَدَا
فقال : كم لى بدجنهم سحرا ... من صرخة لى وللنوم هدا
فقلت: هاروت هل سمعت به ... فقال : ريشى لسهمه نفدا
فقلت: كسرى وآل شرعته ... فقال : كنا بجيشه وفدا
ولوا وصاروا وها أنا لبد ... فهل رأيتم من فوقهم أحدا(١)
ديك إذا ما انثنى لفكرته ... رأى وجودا طرائقا قددا
يرفل فى طيلسانه ولها ... قد صير الدهر لونه كمدا
إذا دَجا الليلُ غاب هيكله ... كأن حبرا عليه قد جمدا
كأنما جُلَّنار لحيته ... برجان جازا من الهواء مدى
كأن حصنا علا بهامته ... أعده للقتال فيه عدا
يرنو بياقوتَتَيْ لواحظه ... كأنما اللحظ منه قد رَمِدَا
كأن منجالتى ذوائبه ... قوس سماء من أصله بعدا
وعوسج مَدَّ من مخالبه ... طغى بها فى نقاره وعدا
فذاك ديك جَلَّتْ محاسنه ... له صراخ بين الديوك بدا
يطلبنى بالذى فعلت به ... فكم فللنا بلبته مُدَى
وَجَّهْتَه محنة لآكله ... والله ما كان ذاك منك سدى

ولم نزل بعدُ نستعدى عليه فإقراره بقتله ، ونطلبه بالقود عند تصرفه بالعمل فيوجه الدية لنا فى ذلك رسائل .

---

(١) لبد : اسم لآخر نسور لقمان التى طلب أن يعيش بمقدار أعمارها ، وهو مضرب المثل فى التعمير وطول البقاء ، وانظر إلى قول النابغة الذبيانى :

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وانظر إلى قول أبى السرى سهل بن أبى غالب الخزرجى فى معاذ بن مسلم الهراء :

يا بكر حواء ، كم تعيش ؟ وكم ... تسحب ذيل الخلود يا لبد ؟

وقال فى غرض أبى نُوَاس :

طرقنا دُيُورَ القومِ وَهْناً وتَغْلِيسَا وقد شرفوا الناسوت إذ عبدوا عيسى
وقد رفعوا الإنجيل فوق رؤسهم وقد قَدَّسُوا الروح المقدس تقديسا
فما استيقظوا إلا لصكة بابهم فأدهش رهبانا وروّع قسيسا
وقام بها البطريق يسعى ملبيا وقد لين الناقوس رفعا وتأنيسا
فقلنا له أمنا فإنا عصابة أتينا لتثليث و إن شئت تسديسا[١]
وما قصدنا إلا الكؤس و إنما لحنَّا له فى القول خبثا وتدليسا[٢]
ففتِّحت الأبواب بالرحب منهم وعرّس طلابُ المدامة تعريسا[٣]
فلما رأى رقى أمامى ومزهرى دعانى أتأنيسا لحنت وتلبيسا
وقام إلى دنٍّ يفض ختامه فكيس أجرام الغياهب تكييسا
وطاف بها رطب البنان مزنر فأبصرت عبدا صير الحر مرؤسا
سلافا حواها القار لبسا فخلتها مثالا من الياقوت فى الحبر مغموسا

ومنها:

إلى أن سطا بالقوم سلطانُ نومهم ورأس قبيل الشمع نكس تنكيسا
وثَبْتُ إليه بالعناق فقال لى بحق الهوى هب لى من الضم تنفيسا
كتبت بدمع العين صفحة خده فطلس حبر الشعر كتبى تطليسا
فبئس الذى احتلنا ، وكدنا عليهم وبئس الذى قد أضمروا قبل ذا بيسا
فبتنا يرانا الله شر عصابة نطيع بعصيان الشريعة إبليسا

وقال بديهة فى غزالة من النحاس ترمى الماء على بركة :

عَنَّتْ لنا من وحش وَجْرَةَ ظبية جاءت لورد الماء ملء عنانها

---

(١) أراد بالتثليث شرب ثلاثة أقداح وبالتسديس شرب ستة كما ذكر فى البيت بعده
(٢) لحن فى القول : أى قال كلاما وهو يقصد معنى غير الذى يدل بظاهره عليه
(٣) التعريس : النزول فى الليل .

وأظنها إذ حددت آذانها ... رِيعَتْ بنا فتوقفت بمكانها
حيتْ بقرنى رأسها إذ لم تجد ... يوم اللقاء تحية ببنانها
حنت على الندمان من إفلاسهم ... فرمت قضيب لجينها لحنانها
لله در غزالة أبدت لنا ... در الحباب تصوغه بلسانها

قال لسان الدين : وفُلِجَ المذكور ، فلزم منزلى لمكان فضله ووجوب حقه ، وقد كانت زوجه توفيت ، وصحبه عليها وَجْد ، فلما ثقل وقربت وفاته استدعانى وكاد لسانه لا يبين ، فأوصانى وقال :

إذا مت فادفنى حذاء حليلتى ... يخالط عظمى فى التراب عظامها
ولا تدفِنَنِّى فى البقيع فإننى ... أريد إلى يوم الحساب التزامها
ورتب ضريحى كيفما شاءه الهوى ... تكون أمامى أو أكون أمامها
لعل إله العرش يجبر صدعتى ... فيعلى مقامى عنده ومقامها

ومات رحمة الله تعالى فى الخامس والعشرين لذى قعدة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ودفن بحذاء زوجه كما عهد رحمه الله تعالى ، انتهى .

ومن نظم ابن هذيل :

وظبى زارنى والليل طِفْلٌ ... إلى أن لاح لى منه اكتهال[1]
وألغى الشك من وصل فقلنا ... بليل الشك يرتقَبُ الهلالُ

الوزير أبو بكر ابن الحكيم الرندى

ومن أشياخ لسان الدين : الشيخ أبو بكر بن ذى الوزارتين ، وهو أعنى أبا بكر الوزير الكاتب الأديب الفاضل المشارك المتفنن المتبحر فى الفنون أبو بكر محمد ابن الشيخ الشهير ذى الوزارتين أبى عبد الله الحكيم الرندى ، ومن نظمه قوله :

تصبَّرْ إذا ما أدركتك ملمة ... فصنع إله العالمين عجيب[2]

---

(١) الليل طفل : يريد أن ذلك كان فى أول الليل

(٢) الملمة : أصلها اسم فاعل مؤنث فعله « ألم يلم إلماما » أى نزل ، ثم أطلقت على الحادثة من حوادث الدهر والنازلة من نوازله .

وما يلحق الإنسان عار بنكبة ينكب فيها صاحب وحبيب[1]
ففيمن مضى للمرء ذى العقل أسوة وعيش كرام الناس ليس يطيب
ويوشك أن تهمى سحائب نعمة فيخصب ربع للسرور جديب
إلٰهك يا هذا قريب لمن دعا وكل الذى عند القريب قريب

قال ابن خاتمة : وأنشدنى لوزير أبو بكر مَقْدَمَه على المرية غازيا مع الجيش المنصور قال : أنشدنى أبى :

ولما رأيت الشيب حل بمفرقى نذيراً بترحال الشباب المفارق
رجعت إلى نفسى فقلت لها انظرى إلى ما أرى ، هذا ابتداء الحقائق

وبيتهم بيت كبير ، وأخذ عن غير واحد وعن والده ، وهو ذو الوزارتين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن يحيى ، اللخمى ، الرندى ، الكاتب البليغ الأديب الشهير الذكر بالأندلس ، وأصل سلفه من إشبيلية من أعيانها ، ثم انتقلوا إلى رُنْدة فى دولة بنى عباد ، ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم لطبه ، وقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبى عبد الله محمد بن محمد بن نصر إثرَ قفوله من الحج فى رحلته التى رافق فيها العلامة أبا عبد الله ابن رشيد الفهرى ، فألحقه السلطان بكتابه ، وأقام يكتب له فى ديوان الإنشاء إلى أن توفى هذا السلطان وتقلد الملك بعده ولى عهده أبو عبد الله المخلوع ، فقلده الوزارة والكتابة ، وأشرك معه فى الوزارة أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الدانى ، فلما توفى أبو سلطان أفردهُ السلطان بالوزارة ، ولقبه ذا الوزارتين ، وصار صاحب أمره إلى أن توفى بحضرة غرناطة قتيلا نفعه الله تعالى غُدْوَةَ يوم الفطر مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة ، وذلك لتاريخ خلع سلطانه وخلافة أخيه أمير المسلمين أبى الجيوش مكانه ، ومولده

---

(١) ينكب : مضارع « نكب فلان عن الطريق » بتشديد الكاف – إذا انحرف عنه ، وهو يريد لا عار على أحد فى أن تنزل به نكبة لا يواسيه فيها أصدقاؤه .

بِرُنْدَة سنة ستين وستمائة ، وكان رحمه الله تعالى علما فى الفضيلة والسراوة ومكارم الأخلاق ، كريم النفس ، واسع الإيثار، متين الحرمة، عالى الهمة ، كاتباً بليغاً أديباً شاعراً ، حسن الخط ، يكتب خطوطاً على أنواع كلها جميلة الانطباع ، خطيباً فصيح القلم ، زاكى الشيم ، مؤثراً لأهل العلم والأدب ، براً بأهل الفضل والحسب ، نفقت بمدته للفضائل أسواق ، وأشرقت بإمداده للأفاضل آفاق ، ورحل للمشرق كما سبق ، فكانت إجازته البحر من المرية ، فقضى فريضة الحج ، وأخذ عمن لقى هنالك من الشيوخ ، فمشيخته متوافرة ، وكان رفيقه كما مر الخطيب أبا عبد الله ابن رشيد الفهرى ، فتعاونا على هـذا الغرض ، وقضيا منه كل نفل ومفترض ، واشتركا فيمن أخـذا عنه من الأعلام ، فى كل مقام ، وكانت له عناية بالرواية وولوع بالأدب ، وصبابة باقتناء الكتب ، جمع من أمهاتها العتيقة ، وأصولها الرائقة الأنيقة ، مالم يجمعه فى تلك الأعصر أحد سواه ، ولا ظفرت به يداه ، أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبى العاصى ، وتدبج معـه رفيقه أبو عبد الله ابن رشيد وغير واحد ، وكان ممدحا ، وممن مدحه الرئيس أبو محمد عبـد المهيمن الحضرمى والرئيس أبو الحسن بن الجياب ، وناهيك بهما .

ومن بديع مدح ابن الجياب له قصيدة رائية رائقة يهنيه فيها هى بعيد الفطر منها فى أولها :

يا قادما عمت الدنيـا بشائره ... أهلا بمقدمك الميمون طائره

ومرحباً بك من عيد تحف به ... من السعادة أجنـاد تظافره

قدمت فالخلق فى نعمى وفى جذَل ... أبدى بك البشر باديه وحاضره[1]

والأرض قد لبست أثواب سندسها ... والروض قد بَسَمَتْ منه أزاهره

---

(١) الجذل ـ بفتح الجيم والذال جميعا ـ الفرح ، وأبدى : أظهر ، وباديه : أراد سكان البادية ، وحاضره : أراد سكان الحاضرة .

حاكت يد الغيث فى ساحاته حللا ... لما سقاها دِرَاكاً منه باكره(١)
فلاح فيها من الأنوار باهرها ... وفاح فيها من النوار عاطره
وقام فيها خطيب الطير مرتجلا ... والزهر قد رصعت منه منابره
مَوْشِىّ ثوب طواه الدهر آونة ... فها هو اليوم للأبصار ناشره
فالغصن من نشوة يثنى معاطفه ... والطير من طرب تشدو مزاهره
وللكمام انشقاق عن أزاهرها ... كما بدت لك من خل ضمائرُهُ
لله يومك ما أذكى فضائله ... قامت لدين الهدى فيه شعائره
فكم سريرة فضل فيك قد خبئت ... وكم جَمَالٍ بدا للناس ظاهره
فافخر بحق على الأيام قاطبة ... فما لفضلك من ند يظاهره
فأنت فى عصرنا كابن الحكيم إذا ... قيست بفخر أولى العليا مفاخره
يلتاح منه بأفق الملك نور هدى ... تضاءل الشمس مهما لاح زاهره
مجد صميم على عرش السماك سما ... طالت مبانيه واستعلت مظاهره
وزارة الدين والعلم الذى رفعت ... أعلامه والندى الفياض زاخره
وليس هذا بِبدْعٍ من مكارمه ... ساوت أوائله فيه أواخره
يلقى الأمور بصدر منه منشرح ... بحر وآراؤه العظمى جواهره
راعى أمور الرعايا معملا نظراً ... كمثل علياهُ معدوما نظائره
والملك سير فى تدبيره حكما ... تنال ما عجزت عنه عساكره
سياسة الحلم لا بَطْشٌ يكدرها ... فهو المهيب وما تخشى بوادره
لا يصدر الملك إلا عن إشارته ... فالرشد لا تَتَعَدَّاه مصايره
تجرى الأمور على أقصى إرادته ... كأنما دهره فيه يشاوره

(١) حاكت : نسجت ، وأراد بالحلل ما اكتسى به وجه الأرض من العشب والنبات ، ودراكا : أى متتابعاً ، وباكر الغيث : الذى كان منه أول الأمر .

وكم مقام له فى كل مكرمة — أنست موارده فيها مصادره
ففضلها طبق الآفاق أجمعها — كأنه مثل قد سار سائره
فليس يجحده إلا أخو حسَدٍ — يرى الصباح فيعشى منه ناظره(١)
لا ملك أكبر من ملك يدبره — لا ملك أسعد من ملك يوازره(٢)
يا عِزَّ أمرٍ به اشتدت مضار به — ياحسن ملك به ازدانت محاضره
تثنى البلاد وأهلوها بما عرفوا — ويشهد الدهر آتيه وغابره(٣)
بشرى لآمله الموصول مأمله — تَعْساً لحاسده المقطوع دابره
فالعلم قد أشرقت نُورًا مطالعه — والجود قد أسبلت سَحًّا مواطره
والناس فى بشر والملك فى ظفر — عال على كل عالى القدر قاهره
والأرض قد ملئت أمنا جوانبها — بيمن من خلصت فيها سرائره
والى أياديه من مثنى وموحدة — تُسَاجِلُ البحر إن فاضت زواخِرُهُ
فكل يوم تلَقَّانا عوَارِفُهُ — كساه أمواله الطولى دفاتِرُه
فمن يؤدى لما أولاه من نعم — شكرا ولو أن سحبانا يظاهره
يا أيها العيد بادر لثم راحته — فلثمها خير مأمول تبادره
وافخر بأن قدلقيت ابن الحكيم على — عصر يباريك أو دهر تفاخرُهُ
ولَّى الصيام وقد عظمت حرمته — فأجْرُهُ لك وافيه ووافره(٤)
وأقبل العيد فاستقبل به جذلا — واهنأ به قادما عمت بشائره

ومن نثر ذى الوزارتين آخر إجازة ما صورته : وها أنا أجرى معه على حسن معتقده ، وأ كِلُهُ فى هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تودُّده ، وأجيز له ولولديه أقر الله بهما عَيْنَه ، وجمع بينهما و بينه ، رواية جميع ما نقلته وحملته ، وحُسْنُ اطلاعه يُفَصِّل من ذلك ما أجملته ، فقد أطلقت لهم الإذن فى جميعه ، وأبحت لهم الحمل عن

(١) يعشى : مضارع « عشى » من باب فرح – إذا ضعف بصره ، هذا أصله ، وأراد هنا ضعف البصر مطلقاً
(٢) يوازره : يعينه ويساعده
(٣) غابره : ماضيه
(٤) وافره : كثيره .

ولهم الاختيار فى تنويعه ، والله سبحانه يخلص أعمالنا لذاته ، ويجعلها فى ابتغاء مَرْضَاته ، قال هذا محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامدا الله عز وجل ، ومصلياً ومسلماً .

ومن شعر ذى الوزارتين ابن الحكيم قوله :

ما أحسن العقل وآثاره لولازم الإنسانُ إيثاره
يَصُونُ بالعقل الفتى نَفْسَهُ كما يصون الحر أسراره
لا سيا إن كان فى غربة يحتاج أن يعرف مقداره

وقوله رحمه الله :

إنى لأعْسِرُ أحيانا فيلحقنى يسر من الله إن العسر قد زالا
يقول خير الورى فى سُنَّةٍ ثبتت «أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا»

وهو من أحسن ما قال رحمه الله

ومن شعر ذى الوزارتين المذكور قوله :

فقدت حياتى بالعراق ومَنْ غدا بحال نوى عمن يُحِبُّ فقد فقد
ومن أجل بعدى عن ديار ألفتها جحيم فؤادى قد تلظَّى وقد وَقَدْ(١)

وقد سبقه إلى هذا القائل :

أوارى أوارى بالدموع تجلدا وكم رمت إطفاء اللهيب وقد وقد(٢)
فلا تعذلوا مَنْ غاب عنه حبيبه فمن فقد المحبوب مثلى فقد فقد

كذا رواه ابن خاتمة ، ورواه غيره هكذا :

* أوارى أوارى والدموع تبينه *

وهو الصواب ، قال : ابن خاتمة وأنشدنى رئيس الكتاب الصدرُ البليغ

(١) تلظى : توقد والتهب ، وقد الأولى حرف دال على التحقيق ، وقد الثانية فعل ماض ، تقول « وقدت النار تقد » تريد التهبت .

(٢) الأوار — بضم الهمزة — حرارة الباطن من عشق أونحوه ، وأوارى : فعل مضارع من المواراة ، وهى التستر .

الفاضل أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البخارى ، قال : أنشدنى رئيس الكتاب الجليل أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى ، قال : أنشدنى رئيسُ الكتاب ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم رحمه الله :

صح الكتاب وعنه واختم على مكتَّمَنِه(١)
واحذر عليه من مخا لسة الرقيب بجفنه
واجعل لسانك سجنه كيلا تُرَى فى سجنه

قال ابن خاتمة : وفى سند هذه القطعة نوع غريب من التسلسل .

وحكى أن ذا الوزارتين المذكور لما اجتمع مع الجليل الفقيه الكاتب ابن أبى مدين أنشده ابن أبى مدين :

عشقتكمو بالسمع قبل لقاكمو وسَمْعُ الفتى يهوى لعمرى كطرفه
وحببنى ذكر الجليس إليكمو فلما التقينا كنتمو فَوْقَ وصْفِهِ

فأنشده ذو الوزارتين بن الحكيم :

ما زلت أسمع عن علياك كل سَناً أبهى من الشمس أو أجلى من القمر
حتى رأى بصرى فوق الذى سمعت أذنى فوفَّقَ بين السمع والبصر(٢)

ويعجبنى فى قريب من هذا المعنى قولُ الحاج الكاتب أبى إسحاق الحساوى رحمه الله :

سحر البيان بنانى صار يعقده والنَّفْثُ فى عقده من منطق الحسن
لا أنشد المرء يلقانى ويبصرنى أنا المُعَيْدِىُّ فاسمع بى ولا ترنى

رجع ـ وقال لسان الدين فى « عائد الصلة » فى حق ذى الوزارتين ابن الحكيم ما صورته : كان رحمه الله فريد دهره سماحةً ، وبشاشة ، ولوذعِيَّةً ، وانطباعاً ، رقيق

---

(١) مكتنه : مستتره (٢) الأصل فى هذا البيت قول ابن هانى :

كانت مساءلة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أصدق الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

الحاشية ، نافذ العزمة ، مهتزاً للمديح ، طَلْقا للآمل ، كَهْفاً للغريب ، بَرْمَكى المائدة[١] مُهَلّبى الحلوى[٢] ، ريان من الأدب ، مضطلعاً بالرواية ، مستكثراً من الفائدة ، يقوم على المسائل الفقهية ، ويتقدم الناسَ فى باب التحسين والتقبيح ، ورَفْعِ راية الحديث والتحديث ، نَفّق بضاعة الطلب ، وأحْيا معالم الأدب ، وأكرم العلم والعلماء ، ولم تَشْغَله السياسة عن النظر ، ولا عاقَه تدبيرُ الملك عن المطالعة والسماع ، وأفرط فى اقتناء الكتب حتى ضاقت قصوره عن خزائنها ، وأثرت أنديته من ذخائرها ، قام له الدهرُ على رجل ، وأخدمه صدور البيوتات وأعلام الرياسات ، وخوطب من البلاد النازحة ، وأمل فى الآفاق النائية ، انتهى المقصود منه .

ومن أحسن مارثى به الوزير ابن الحكيم رحمه الله قولُ بعضهم :

قتلوك ظلماً واعْتَدَوْا ... فى فعلهم حَدَّ الوجوب
ورَمَوْكَ أشلاء ، وذا ... أمر قَضَتْه لك الغيوب
إن لم يكن لك سيدى ... قبر فقبرك فى القلوب

وقال لسان الدين فى « الإحاطة » فى حق رحلة ذى الوزارتين ابن الحكيم ماصورته : رحل إلى الحجاز الشريف من بلده على فَتَاء سنه أوّل عام ثلاثة وثمانين وستمائة ، فحج وزار ، وتجوّل فى بلاد المشرق منتجعا عَوَالىَ الرواية فى مَظَانّها ، ومنقراعنها عند مُسِنّى شيوخها ، وقيد الأناشيد الغريبة والأبيات المرقصة ، وأقام بمكة شرفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم ، فأخذ بها عن جماعة ، وانصرف إلى المدينة المشرفة ، ثم قفَلَ مع الركب الشامى إلى دمشق ، ثم كر إلى المغرب ، لا يمر بمجلس علم أو تعلم إلا رَوَى أو روّى ، واحتل رُنْدَة حرسها الله أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة ، فأقام بها عيناً فى قرابته ، وعلماً فى أهله ، معظما

---

(١) برمكى المائدة : منسوب إلى البرامكة وزراء الدولة العباسية ، وكانوا مضرب المثل فى الجود والترف واليسار .

(٢) مهلبى الحلوى : منسوب إلى المهلب بن أبى صفرة ، وكان أميرا قائدا مظفر فى عهد عبد الملك بن مروان .

لديهم ، إلى أن أوقع السلطان بالوزراء من بنى حبيب الوقيعةَ البرمكية وورد رُنْدة فى أثر ذلك ، فتعرض إليه وهنأه بقصيدة طويلة من أوليات شعره أوّلها :

هل إلى ردِّ عشيّات الوصالْ سَبَبٌ أم ذاك من ضَرْب المحال ؟

فلما أنشدها إياه أعجِبَ به و بحسن حظه ونصاعة ظرفه ، فأثنى عليه ، واستدعاه إلى الوفادة على حضرته ، فوفد آخر عام ستة وثمانين ، فأثبته فى خواصِّ دولته ، وأحظاه لديه ، إلى أن رقاه إلى كتابة الإنشاء ببابه ، واستمرت حالُه معظم القدر مخصوصاً بالمزية ، إلى أن توفى السلطان ثانى الملوك من بنى نَصْر ، وتقلد الملك بعده ولى عهده أبو عبد الله ، فزاد فى إحظائه وتقريبه ، وجمع له بين الكتابة والوزارة ، ولقبه بذى الوزارتين ، وأعطاه العلامة ، وقلده الأمر ، فبعد الصيت وطاب الذكر ، إلى أن كان من أمره ما كان ، انتهى ملخصاً .

وقال فى « الإحاطة » بعد كلام طويل فى ترجمته : قال شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم ولده : وجدت بخطه رحمه الله تعالى رسالة خاطب بها أخاه الأكبر أبا إسحاق إبراهيم افتتحها بقصيدة أوّلها :

ذكَرَ اللِّوَى شوقا إلى أقماره فقَضَى أسًى أو كاد من تذْكاره
وعلا زفيُر حريق نارِ ضلوعه فرمى على وَجَناته بشَرَاره[١]

وقد ذكرناها فى غير هذا المحل .

ومن نظمه مما يكتب على قوس :

أنا عُدّة للدين فى يد مَنْ غدَا لله منتصراً على أعـــدائه
أحكى الهلال وأسهمى فى رجمها لمن اعتدى تحكى نجوم سمائه
قد جاء فى القرآن أنى عـــدة إذ نص خير الخلق محكم آيه

(١) أراد من شرار النار دموعه التى أفاضها من عينيه .

وإذا العدو أصابه سهمى فقد سبق القضاء بهلكه وفنائه

قال لسان الدين : ومن توقيعه مانقلته من خط ولده يعنى أبا بكر فى كتابه المسمى « بالموارد المستعذبة » وكان بوادى آش الفقيه الطريفى ، فكتب إلى خاصة والدى أبى جعفر بن داود ، قصيدة على روى السين ، يتشكى فيها من مشرف بلدهم إذ ذاك أبى القاسم بن حسان منها :

فياصَفِيَّ أبى العباس كيف ترى وأنت أكيسُ من فيها مِنَ اُ كْيَاسِ ؟
ولوه إن كان ممن ترتضون به فقد دنا الفتح للاشراف فى فاس

ومنها يستطرد ذكر ذى الوزارتين :

للشرق فضل فمنه أشرقت شهب من نورهم أقْبَسُونَا كل مقباس

فوقع عليها رحمه الله تعالى :

إن أفرطَتْ بابن حسان غوائلُه فالأمر يكسوه ثوب الذكر والباس
وإن تزلَّ به فى جوره قدم كان الجزاء له ضربا على الراس
فقد أقامنىَ المولى بنعمته لِبَثِّ أحكامه بالعدل فى الناس

ثم أطال فى أمره ، إلى أن قال فى ترجمة قتله ما صورته : واستولت يد الغوغاء على منازله ، شغلهم بها مدبر الفتنة خيفةً من أن يعاجلوه قبل تمام أمره ، فضاع بها مال لا يكتب ، وعروض لايعلم لها قيمة من الكتب والذخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والخرثىّ ، وأخْفِرَتْ ذمته [1] ، وتعدى به عدوه القتل إلى المُثْلَة [2] ، وقانا الله مصارع السوء ، فطيف بشلوه [3] ، وانتهب ، فضاع ، ولم يقبر ، وجرت فيه شناعة كبيرة ، رحمه الله تعالى ! انتهى المقصود منه .

رجع — ومن مشايخ لسان الدين الأستاذ أبو الحسن على القيجاطى .

---

(١) أخفرت ذمته : أراد نقضوا عهوده ولم يحتفظوا بما كان يجب له من حرمة

(٢) المثلة — بضم الميم وسكون الثاء — التمثيل بالقتيل بنحو تقطيع أطرافه .

(٣) شلوه — بكسر الشين وسكون اللام — أراد جسمه .

ترجمة أبي الحسن علي ابن عمر القيجاطي

وقال فى حقه فى « الإحاطة » ما محصله : على بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكنانى ، القيجاطى ، أبو الحسن ، أوحد زمانه علما وتخلقاً وتواضعا وتفننا ، ورد على غرناطة مستدعًى عام أثنى عشر وسبعمائة ، وقعد بمسجدها الأعظم يقرئ فنونا من العلم من قراءات وفقه وعربية وأدب ، وولى الخطابة ، وناب عن بعض القضاة بالحضرة ، مشكور المأخذ ، حسن السيرة ، عظيم النفع ، وقصده الناس وأخذوا عنه ، وكان أديباً لوذعيا ، فكها حلواً ، وهو أول أستاذ قرأت عليه القرآن والعربية والأدب إثر قراءة المكتب ، وله تآليف فى فنون وشعر ونثر ، فمن شعره قوله :

روض المشيب تفتحت أزهاره ... حتى استبان ثغـامُهُ وبَهَاره

ودجى الشباب قد استبان صباحه ... وظلامه قد لاح فيه نهاره

فأتى حمام لا يعـاف وقوعه ... ومضى غراب لا يخاف مطاره

وَالعُمْرُ مثل البدر يبدو حسنه ... حينا ويعقب بعد ذاك سَرَارُه

ما للإخاء تقلصت أفياؤه ... ما للصفاءِ تكدرت آثاره

والحر يصفح إن أخل خليلة ... والبر يسمح إن تجرأ جاره

فتراه يدفع إن تمكن جاهه ... وتراه ينفع إن علا مقداره

ولأنت تعلم أننى زَمَنَ الصبا ... مازلت زندًا والحياء سواره

ولأنت تعلم أننى زمن الصبا ... ما زلت ممن عف فيه إزاره

والهجر ما بين الأحبة لم يزل ... تركُ الكلام أو السلام مَنَاره

ولكم تجافى عن جفاء خليله ... فطن ، وقد ظفرت به أظفاره

ولكم أصَرَّ على التدابر مدبر ... أفضى إلى ندم به إصراره

فأقام كالكُسَعِيِّ بان نهاره ... أو كالفرزدق فارقته نَوَاره[1]

---

(١) الكسعى : مضرب المثل فى الندم ، والفرزدق : الشاعر المشهور ، ونوار : امرأة الفرزدق ، وقد طلقها فى قصة مشهورة ، ثم ندم فقال :

ندمت ندامة الكسعى لما ... غدت منى مطلقة نوار

أنكرتم من حق معترف لكم بالحق مالا ينبغى إنكاره
والشرع قد منع التقاطع نَصُّه قطعاً ، وقد وردت به أخباره[١]
والسن سن تورُّعٍ وتبرع وتسرع لتشرع تختاره
ما يومنا من أمسنا متدارك ذهب الشباب فكيف يبقى عاره
هَلاَّ حظرتم أو حذرتم منه ما حَقٌّ عليكم حَظْره وحذاره
عجباً لمن يجرى هواه لغاية محدودة أضماره مضماره
يأتى ضحى ما كان يأتيه دجى فكأنه ما شاب منه عِذاره
فيعدُّ ما تفنى به حسناته ويعيد ما تبقى به أوزاره
فالنفس قد أجرته ملء عنانها يشتد فى مضمارها إحضاره[٢]
والمرء من إخوانه فى جنة بل جنة تجرى بها أنهاره
واليمن قد مُدت إليه يمينه واليسر قد شُدت عليه يساره
شعر به أشعرت بالنصح الذى يهديه من أشعاره إشعاره
ولو اختبرتم نقده بمحكة لامتاز بَهْرَجه ولاح نُضَاره
هذا هدى فبه اقتده تنل المنى أو أنت فى هذا وما تختاره
وعليكم منى سلام مثل ما أرِجَتْ بروض يانع أزهاره

وقال من قصيدة رثائية :

حَمَام حِمَام فوق أيك الأسى تشدو تهيج من الأشجان ماأوجد الوجد
وذلك شجو فى حناجرنا شَجًى وذلك هزل فى ضمائرنا جد
أرى أرجل الأرزاء تشتد نحونا وأيديها تسعى إلينا فتمتدُّ
ونحن أولو سَهْوٍ عن الأمر مالنا سوى أمل إيجابُنَا عنده جَحْدُ

---

(١) يشير إلى نحو قوله عليه الصلاة والسلام « لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تناجشوا »

(٢) الإحضار : الجرى السريع

فإن خطرت للمرء ذكرى بخاطر فتسبيحه الساهى إذا سمع الرعد
مصاب به قُدَّتْ قلوب وأنفس لدينا إذا فى غيره قطعت برد
تلين له الصُّمُّ الصِّلابُ وتنهمى عيون ويبكى عنده الحجر الصَّلْدُ
فلا مقلة ترنو ولا أذن تعى ولا راحة تعطو ولا قدم تعدو
وقد كان يبدو الصبر منا تجلداً وهذا مصاب صبرنا فيه ما يبدو

مولده عام خمسين وستمائة ، وتوفى بغرناطة ضحى السبت فى السابع والعشرين لذى حجة عام ثلاثين وسبعمائة ، وحضره السلطان فمن دونه ، رحمه الله تعالى! انتهى

أبو سعيد فرج بن لب

ومنهم العلامة شيخ الشيوخ أبو سعيد فرج بن لب .

قال فى « الإحاطة » فى حقه ما محصله : فرج بن قاسم بن أحمد بن لب ، قال ابن الصباغ : من شعر ابن لب يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إذا القلب ثار أثار ادِّكَارَا لقلبى فأذكى عليه أوارا[1]
تروم جفونى لنار الهوى خمودا فتهمى دموعا غزاراً[2]
فمـاء جفونى تسحُّ انهمالا ونار فؤادى تهيج استعارا
أطيل العويل صباحا مساء كئيباً ، ولست أطِيق اصطبارا
رقيت مراقىَ للحب شتَّى فأفنى مراراً وأحيا مرارا
أحنّ اشتياقا لريح سرت وأبدى هياما لبرق أنارا
حنيناً وشوقا إلى مَعْلَم حوى شرفاً خالدا لايجارى
به أسكن الله أسمى الورى نبيًّا كريماً وصحباً خيارا
هو المصطفى المنتقى المجتَبَى أرى معجزات وآيا كبارا
يحق علينا ركوب البحار وَجَوْبُ القفار إليه ابتدارا

---

(١) الادكار : التذكر ، وهو مصدر ادكر — بتشديد الدال — وأصله اذتكر افتعل من الذكر ، وأذكى : ألهب وأشعل (٢) غزارا : كثيرة

ومنها :

فيا فوز من فاز فى طيبة بلثم المغانى جدارا جدارا
وألصق خدًّا على تربها وأكمل حجًّا بها واعتمارا
وأهدى السلام لخير الأنام على حين وافى عليه مزارا
فيا هادىَ الخلق دار نعيم تناهت جمالا وطابت قرارا
لأنت الوسيلة والمرتجَى ليوم يُرَى الناس فيه سكارى (١)
وما هم سكارى ، ولكنهم دهتهم دواهٍ فهاموا حيارى
ترى المرء للهول من أمه ومن أقربيه يُطيل الفرارا
وكل يخاف على نفسه فيكسوه خوف الإله انكسارا
فصلى الإله رسولَ الهدى عليك ، وأبقى هداك منارا
وقدَّسَ ربِّى ثرى روضة يعم الجهاتِ سناها انتشارا
أعير شذا المسك منها الثرى بل المسك منه شذاه استعارا
هنيئا لمن بهداك اهتدى ومغناك وافى وإياك زارا

وقصد رحمه الله تعالى بهذه القصيدة معارضة قصيدة الشهاب محمود التى نظمها بالحجاز فى طريق المدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام ، وهى طويلة ، ومطلعها :

وَصَلْنَا السُّرَى وهجرنا الديارا وجئناك نطوى إليك القِفَارَا

وقد تبارى الشعراء فى هذا الوزن وهذا الروى ، ومنه القصيدة المشهورة :

* أقول وآنست بالحى نارا *

ولابن لب رحمه الله تعالى الفتاوى المشهورة .

---

(١) أراد ليوم القيامة ، وأخذ هذا من قوله تعالى : (إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد)

وقال فى « الإحاطة » فى حقه ما محصله : فرج بن قاسم بن أحمد بن لب ، التغلبى ، غرناطى ، أبو سعيد ، من أهل الخير والطهارة والذكاء والديانة وحسن الخلق ، رأس بنفسه ، وبرز بمزية إدراكه وحفظه ، فأصبح حامل لواء التحصيل وعليه مدار الشورى ، وإليه مرجع الفتوى ، لقيامه على الفقه ، وغزارة علمه وحفظه ، إلى المعرفة بالعربية واللغة ، ومعرفة التوثيق ، والقيام على القراءات ، والتبريز فى التفسير ، والمشاركة فى الأصلين والفرائض والأدب ، وجودة الحفظ ، وأقرأ بالمدرسة النَّصْرية فى الثامن والعشرين لرجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة ، معظما عند الخاصة والعامة ، مقرونا اسمه بالتسويد ، قعد للتدريس ببلده على وفور الشيوخ ، وولى الخطابة بالجامع معظما عند الخاصة والعامة ، قرأ على القيجاطى ، والعربية على ابن الفخار ، وأخذ عن ابن جابر الوادى آشى ، فمن شعره فى النسب :

خذوا للهوى من قلبىَ اليوم ما أبْقَى ... فما زال قلبى كله للهوى رقا
دعوا القلب يصلى فى لظى الوجد ناره ... فنار الهوى الكبرى وقلبى هو الأشقى (1)
سَلُوا اليوم أهل الوجد ماذا به لَقُوا ... فكلٌّ الذى يلقون بعضُ الذى ألقى
فإن كان عبد يسأل العتق سيدا ... فلا أبتغى من مالكى فى الهوى عتقا
بدعوى الهوى يدعو أناس وكلهم ... إذا سئلوا طرق الهوى جَهِلُوا الطرقا
فطرق الهوى شتى ولكنّ أهله ... يحوزون فى يوم السِّباق بها السبقا
وكم جمعت طرقُ الهوى بين أهلها ... وكم أظهرت عند السوى بينهم فَرْقَا
بسيما الهوى تسمو معارف أهله ... فحيث ترى سيما الهوى فاعرف الصدقا
فمن زَفْرة ترجى سحائب عبرة ... إذا زفرة تَرْقى فلا عبرة ترقا (2)
إذا سكتوا عن وجدهم أعربت به ... بواطنُ أحوال وما عرفت نطقا

---

(١) يشير بهذا إلى قوله تعالى : (لا يصلاها إلا الأشقى)
(٢) زفرة : أنة من ألم الهوى ، وترقى : تتصعد من كبده ، وعبرة ـ بفتح العين ـ الدمعة ، وترقا : أصله ترقأ ـ بالهمز ـ ومعناه تسكن .

وقال فى وداع شهر رمضان :

أأزمعت يا شهر الصيام رحيلا وقاربت يا بدر الزمان أفولا[١]
أجِدَّكَ قد جَدَّتْ بك الآنَ رحلةٌ رويدك أمسك للوداع قليلا
نزلت فأزمعت الرحيل كأنما نويت رحيلا إذ نويت نزولا[٢]
وما ذاكَ إلا أن أهلك قد مَضَوْا تفانَوْا فأبصرت الديار طلولا
تفكرت فى الأوقات ناشئة التقى أشـــد به وَطْأً وأقوم قيلا[٣]

وهى طويلة .

وكان موجودا عندتأليف « الإحاطة » رحمه الله تعالى ! انتهى بالمعنى .

وقال الحافظ ابن حجر : إنه صنف كتابا فى الباء الموحدة ، وأخذ عنه شيخنا بالإجازة قاسم بن على المالقى ، ومات سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ، انتهى

وقال تلميذه المنثورى ما نصه : من شيوخى الشيخ الأستاذ الخطيب المقرى المتفنن المفتى أبو سعيد بن لب ، مولده سنة إحدى وسبعمائه ، وتوفى ليلة السبت لسبع عشرة ليلة مضت من ذى الحجة عام اثنين وثمانين ، انتهى .

وهو مخالف لما سبق عن ابن حجر ، لـكن صاحبُ البيت أدرى ، إذ المنثورى تلميذه ، ونحوه للشيخ أبى زكريا السراج فى فهرسته ، إذ قال : شيخنا الفقيه الخطيب الأستاذ المقرى العالم العلم الصدر الأوحد الشهير ، كان شيخ الشيوخ وأستاذ الأساتذة بالأندلس ، إليه انتهت فيها رياسة الفتوى فى العلوم ، كان أهل زمانه يَقِفُون عندما يشير إليه ، قرأ على أبى على القيجاطى بالسبع ، وتفقه عليه كثيراً فى أنواع العلوم ، ولازمه إلى أن مات ، وأجازه عامة ، وعليه اعتمد ، وأخذ عن أبى جعفر ابن الزيات ، وأبى إسحاق بن أبى العاصى ، وابن جابر الوادى

---

(١) الأفول : الغروب

(٢) كنى بذلك عن قلة مكثه ، ومثله قولهم « ما أدرى سلم أم ودع »

(٣) أخذ هذا من قوله تعالى : (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) .

آشى ، وقاضى الجماعة أبى بكر ، سمع عليه البخارى ، وتفقه عليه ، وقرأ عليه أكثر عقيدة المقترح تفهما ، وبعض « الإرشاد » و بعض التهذيب ، وعن أبى محمد ابن سلمون ، والبركة أبى عبد الله الطنجالى الهاشمى ، وأجازهُ ، انتهى بمعناه .

وبالجملة فهو من أكابر علماء المالكية بالمغرب حتى قال الموّاق فيه : شيخ الشيوخ أبو سعيد بن لب ، الذى نحن على فتاويه فى الحلال والحرام ، انتهى .

وقَلَّ من لم يأخذ عنه فى الأندلس فى وقته ، فممن أخذ عنه الشاطبى ، وابن علاف ، وأبو محمد بن جُزَى ، والأستاذ القيجاطى ، والأستاذ الحفار ، والشيخ الوزير ابن الخطيب السلمانى ، والكاتب بن زَمْرَك ، فى خلق كثير من طبقتهم ، ثم من الطبقة الثانية أبو يحيى بن عاصم ، وأخوه القاضى أبو بكر بن عاصم ، والشيخ أبو القاسم بن سراج ، والمنثورى ، فى خلق لا يُحْصَوْنَ .

وله تواليف ، فمنها شرح جُمَل الزجاجى ، وشرح تصريف التسهيل ، وكتاب « ينبوع عين الثرة ، فى تفريع مسألة الإمامة بالأجرة »(١) وله فتاوى مدوّنة بأيدى الناس ، وممن جمعها الشيخ ابن تركاط الأندلسى ، وله كتابة فى مسألة الأدعية إثر الصلوات على الهيئة المعروفة ، وقد رد عليه فى هذا التأليف تلميذُه أبو يحيى بن عاصم الشهيد فى تأليف نبيل انتصارا لشيخه أبى إسحاق الشاطبى ، رحم الله تعالى الجميع !

و القاسم محمد
ن أحمد بن
زى الكلبى

ومن أشياخ لسان الدين بن الخطيب أبو القاسم بن جُزَى ، ففى « الإحاطة » ما ملخصه : محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف ابن جُزَى ، الكلبى ، أبو القاسم ، من أهل غَرْنَاطَة ، وذوى الأصالة والنباهة فيها ، شيخُنَا ، وأصل سلفه من ولبة من حصن البراجلة ، نزل بها أوّلهم عند الفتح صحبة قريبهم أبى الخطار حسام بن ضرار الكلبى ، وعند خلع دولة المرابطين كان

---

(١) أراد البحث فى أنه : هل يجوز أن يأخذ الإنسان أجرة من الدولة على إمامة الناس فى الصلاة ، والمختار جوازه لأن أرزاق العلماء فى بيت مال المسلمين إذا انقطعوا لحاجة الناس ، ومثله الوظائف العامة كالقضاء ونحوه .

لجدّهم يحيى رياسة وانفراد بالتدبير، وكان رحمه الله تعالى على طريقة مُثْلى من العُكوف على العلم، والاقتصار على الاقتيات من حُرّ النشب[1]، والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين، فقيها، حافظا، قائما على التدريس، مشاركا فى فنون من عربية وفقه وأصول وقراآت وأدب وحديث، حُفَظَة للتفسير، مستوعبا للأقوال، جماعة للكتب، ملوكى الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغَوْر، صحيح الباطن، تقدم خطيبا بالمسجد الأعظم من بلده على حَدَاثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سَنَن أصالته، قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزبير العربية والفقه والحديث والقرآن، وعلى ابن الكماد، ولازم الخطيب أبا عبد الله بن رشيد وطبقتهم كالحضرمى وابن أبى الأحوص وابن برطال وأبى عامر بن ربيع الأشعرى والولى أبى عبد الله الطنجالى وابن الشاط .

وله تواليف منها «وسيلة المسلم، فى تهذيب صحيح مسلم» و«الأنوار السنيه، فى الكلمات السنيه» و«الدعوات والأذكار، المخرجة من صحيح الأخبار» و«القوانين الفقهية، فى تلخيص مذهب المالكية» و«التنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية» وكتاب «تقريب الوصول، إلى علم الأصول» وكتاب «النور المبين، فى قواعد عقائد الدين» وكتاب «المختصر البارع، فى قراءة نافع» وكتاب «أصول القراء الستة غير نافع» وكتاب «الفوائد العامة، فى لحن العامة» إلى غير ذلك مما قيده فى التفسير والقراآت وغير ذلك، وله فهرسة كبيرة اشتهرت واشتملت على جملة كبيرة من علماء المشرق والمغرب .

وله شعر، فمن شعره قوله فى الأبيات الغينية ذاهبا مذهب المعرى وابن المظفر والسلفى وأبى الحجاج بن الشيخ وأبى الربيع بن سالم وابن أبى الأحوص وغيرهم :

---

(١) النشب — بفتح النون والشين جميعا — المال، وحره : خالصه .

لكل بنى الدنيا مُرَاد ومَقْصد وإن مرادى صحة وفراغ
لأبلغ من علم الشريعة مبلغا يكون به لى للجَنَان بَلَاغ (١)
ففى مثل هذا فلينافس أولو النهى وحسبىَ من دار الغرور بلاغُ (٢)
فما الفوز إلا فى نعيم مؤبد به العيش رَغْد والشراب يُسَاغ

وقال :

أروم امتداح المصطفى فيردنى قصورىَ عن إدراك تلك المناقب
ومن لى بحصر البحر والبحرُ زاخر ومن لى بإحصاء الحصى والكواكب
ولو أن أعضائى غدت ألسُنًا إذًا لما بلغت فى المدح بعض مآربى
ولو أن كل العالمين تسابقوا إلى مدحه لم يبلغوا بعضَ واجب
فأمسكْتُ عنه هيبة وتأدبا وعجزا وإعظاما لأرفع جانب
وَرُبَّ سكوت كان فيه بلاغة ورب كلام فيه عَتْبٌ لعاتب

وقال :

يارب إن ذنوبى اليوم قد كثرت فما أطيقُ لها حصرا ولا عددا
وليس لى بعذاب النار من قِبَلٍ ولا أطيق لها صبرا ولا جلدا
فانظر إلٰهى إلى ضعفى ومسكنتى ولا تذيقَنَّنِى حر الجحيم غدا

وقال :

وكم من صفحة كالشمس تبدو فيسبى حسنُها قلبَ الحزين
غضضت الطرف عن نظرى إليها محافظة على عرضى ودينى

مولده يوم الخميس تاسع ربيع الثانى عام ثلاثة وتسعين وستمائة ، وفقد وهو يحرّض الناس يوم الكائنة بطريف ضحوة يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى عام أحد

---

(١) الجنان — بفتح الجيم ، بزنة السحاب — العقل ، والبلاغ ، هنا : الكفاية
(٢) البلاغ ، هنا : التبليغ والإيصال .

وأربعين وسبعمائة ، وعقبُه طاهر بين القضاء والكتابة ، انتهى .

وأذكرنى روى الغين الصعب قولَ الشيخ أبى عبد الله محمد بن على بن يوسف السكونى الأندلسى المعروف بابن لؤلؤة رحمه الله ورضى عنه :

أمن بَعْدِ ما لاح المشيب بمفرقى ... أميل لزور بالغرور يصاغ

وأرتاح للذَّات والشيب منذر ... بما ليس عنه للأنام مراغ

ومن لم يمت قبل الممات فإنه ... يُرَاع بهَوْل بعده ويراغ

فيارب وفقنى إلى ما يكون لى ... به للذى أرجوك منه بلاغ

توفى المذكور بالطاعون سنة ٧٥٠ ، وكان خطيبا بحصن قمارش رحمه الله تعالى

ومن نظم ابن جُزَى المذكور قوله :

أيا من كففت النفس عنه تعففا ... وفى النفس من شوقى إليه لهيبُ غرامُ

ألا إنما صبرى كصبر، وإنما ... على النفس من تقوى الإله رقيب لجام

وهما من التخيير المعلوم فى فن البديع .

وقول لسان الدين رحمه الله تعالى « وله عقب طاهر بين القضاء والكتابة » يريد به بنيه البارع أبا بكر والعلامة أبا عبد الله والقاضى أبا محمد عبد الله .

أبو بكر أحمد ابن لب

ولنذكرهم فنقول : أما أبو بكر أحمد فهو الذى ألف أو أبوه « الأنوار السنية » وهو من أهل الفضل والنزاهة وحسن السَّمْت والهمة واستقامة الطريقة ، غرب فى الوقار ، ومال إلى الانقباض ، وله مشاركة حسنة فى فنون من فقه وعربية وأدب وخط ورواية وشعر تسمو ببعضه الإجادة إلى غاية بعيدة ، وقرأ على والده ولازمه ، واستظهر ببعض تآليفه ، وتفقه وتأدب به ، وقرأ على بعض معاصرى أبيه ، ثم ارتسم فى الكتابة السلطانية لأول دولة السلطان أبى الحجاج بن نصر ، وولى

---

(١) يمت قبل الممات : يريد يميت نفسه وشهواته ولذائذه قبل أن يحل به الموت ، ويراع — بالبناء للمجهول — يخوف ، والهول — بالفتح — الخطب العظيم تخاف منه وتحذره ، ويراغ — بالغين معجمة ، مبنيا للمجهول أيضا — أى يطلب .

القضاء ببرجة وبأندرش ثم بوادى آش ، مشكور السيرة ، معروف النزاهة .

ومن شعره :

أرى الناس يُولُونَ الغنىَّ كرامة ... وإن لم يكن أهلا لرفعة مقدار

ويلوون عن وجه الفقير وجوههم ... وإن كان أهلا أن يلاقى بإكبار

بَنُو الدهر جاءتهم أحاديث جمة ... فما صححوا إلا حديث ابن دينار

ومن بديع نظمه الصادر عنه تصديره أعجاز قصيدة امرئ القيس بن حجر الكندى بقوله :

أقول لعزمى أو لصالح أعمالى ... (ألا عم صباحا أيها الطل البالى)

أمَا واعظى شيب سما فوق لمتى ... (سُمُوَّ حَباب الماء حالا على حال)

أنار به ليل الشباب كأنه ... (مصابيح رهبان تُشَبُّ لقفال)

نهانىَ عن غى وقال مُنَبِّهاً ... (ألست ترى السمار والناس أحوالى)[1]

يقولون غيره لتنعم برهة ... (وهل يعمن من كان فى العصر الخالى)

أغالط دهرى وهو يعلم أننى ... (كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالى)

ومؤنس نار الشيب يقبح لهوه ... (بآنسة كأنها خط تمثال)[2]

أشيخًا وتأتى فعلَ كان عمره ... (ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال)

وتشغفك الدنيا وما إن شغفتها ... (كما شغف المهنوءة الرجل الطالى)

ألا إنها الدنيا إذا ما اعتبرتها ... (ديار لسلمى عافيات بذى خال)

فأين الذين استأثروا قبلنا بها ... (لناموا فما إن من حديث ولا صال)

ذهلت بها غيا فكيف الخلاص من ... (لعوب تنسينى إذا قمت سربالى)

وقد علمت منى مواعد توبتى ... (بأن الفتى يهذى وليس بفعال)

---

(١) السمار : جمع سامر ، وهو الذى أخذ فى السمر ، والسمر — بفتح السين والميم جميعا — حديث الليل ، يريد ليس الوقت وقت زيارة لأن اللوام لم يغشهم النعاس

(٢) خط تمثال : أراد كأنها تمثال من العاج ونحوه قد نقش وصور على ما يشتهى النقاش .

ومذ وثقت نفسى بحب محمد (هصرت بغصن ذى شماريخ ميال)
وأصبح شيطان الغَوَاية خاسئاً (عليه قتَام سَيِّء الظن والبال)(١)
ألا ليت شعرى هل تقول عزائمى (لخيليَ كرى كرة بعد إجفال)
فأنزل دارا للرسول نزيلهُا (قليلُ هموم ٍ ما يبيت بأوجال)(٢)
فطوبى لنفس جاورت خير مرسل (بيثرب أدنى دارها نظر عالى)
ومن ذكره عند القبول تعطرت (صبا وشمال فى منازل قفال)
جوار رسول الله مجد مؤثل (وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى)
ومن ذا الذى يثنى عنان السرى وقد (كفانى، ولم أطاب قليل من المال)
ألم تر أن الظبية استشفعت به (تميل عليه هونة غير مجفال)
وقال لها عودى فقالت له نعم (ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى)
فعادت إليه والهوى قائل لها (وكان عداء الوحش منى على بالى)
رثى لبعير قال أزمع مالكى (ليقتلنى والمرء ليس بفعال)
وثور ذبيح بالرسالة شاهد (طويل القرَا والروق أخنس ذيال)
وحن إليه الجذع حنة عاطش (لغيث من الوسمى رائده خال)
وأصلين من نخل قد الْتأماله (فما احتبسا من لين مس وتسهال)
وقبة ترب منه ذلت لها الظُّبَا (ومسنونة زرق كأنياب أغوال)
وأضحى ابن جحش بالعسيب مقاتلا (وليس بذى رمح وليس بنبال)
وحسبك من سوط الطفيل إضاءة (كمصباح زيت فى قناديل ذبال)
وبدَّت به العجفاء كل مطهم (له حجبات مشرفات على الفال)
ويا خسف أرض تحت باغيه إذعلا (على هيكل نهد الجزارة جوّال)

---

(١) أصل القتام الغبار والدخان ونحوهما ، والبال : الشأن والحال .

(٢) الأوجال : المخاوف ، وأراد الأمور التى تبعث على الخوف .

وقد أخمدت نار لفارس طالما (أصابت غَضَى جزلا وكفت بأجذال)[١]

أبان سبيل الرشد إذ سبل الهدى (يَقُلْنَ لأهل الحلم ضُلاًّ بتضلال)

لأحمد خير العالمين انتقيتها (ورِيضَتْ فذلت صعبة أى إذلال)[٢]

وإن رجائى أن ألاقيه غداً (ولست بمقلىّ الخِلال ولا قالى)

فأدرك آمالى وما كل آمل (بمدرك أطراف الخطوب ولا والى)

ولا خفاء ببراعة هذا النظم ، وإحكام هذا النسج ، وشدة هذه العارضة .

قصيدة لحازم صدر بها معلقة امرىء القيس

قلت : وقد أذكرنى هذا التصدير قصيدة الأديب حازم صاحب المقصورة ، إذ صدر قصيدة امرىء القيس « قفا نبك » ولنذكرها هنا ، قال رحمه الله تعالى :

لعينيك قل إن زرت أفضل مرسل (قفا نبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل)

وفى طيبة فانزل ولا تغش منزلا (بسقط اللوى بين الدخول فحومل)

وزر روضة قد طالما طاب نشرها (لما نسجتها من جنوب وشمأل)

وأثوابك أخلع محرماً ومصدّقاً (لدى الستر إلا لبسة المتفضل)

لدى كعبة قد فاض دمعى لبعدها (على النحر حتى بل دمعى محملى)

فيا حادى الآبال سِرْ بى ولا تقل (عقرت بعيرى ياامرأ القيس فانزل)

فقد حلفت نفسى بذاك وأقسمت (علىَّ وآلت حلفة لم تحلل)

فقلت لها لا شك أنى طائع (وأنك مهما تأمرى القلب يفعل)

وكم حملت فى أظهر العزم رحلها (فيا عجبا من رحلها المتحمل)

وعاتبت العجز الذى عاق عزمها (فقالت لك الويلات إنك مُرْجِلِى)

نبى هدى قد قال للكفر نوره (ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى)

تلا سوراً ما قولها بمعارض (إذا هى نصته ولا بمعطل)

---

(١) الغضى : شجر سريع الاشتعال شديده

(٢) ريضت : ذللت وعودت علي ما يراد منها ، وذلت : انقادت

لقد نزلت فى الأرض ملة هديه (نزول اليمانى ذى العياب المحمل)
أتت مغرباً من مشرق وتعرضت (تعرض أثناء الوشاح المفصل)
ففازت بلاد الشرق من زينة بها (بشق وشق عندنا لم يحوّل)
فصلى عليه الله ما لاح بارق (كلمع اليدين فى حَبِىٍّ مكلل)
نبى غزا الأعداء بين تلائع (وبين أكام ، بعْدَ ما متأملى)
فكم ملك وافاه فى زى منجد (بمنجرد قيد الأوابد هيكل)(١)
وكم من يمان واضح جاءه اكتسى (بضاف فويق الأرض ليس بأعزل)
ومن أبطحىّ نيط منه نجاده (بجيد مُعِمٍّ فى العشيرة مخول)
أزالوا ببدر عن بروجهم العدا (كما زلت الصفواء بالمتنزل)
وقادوا ظُبَاهم لا يفتك فتى ولا (كبير أناس فى بجاد مزمل)
وفضى جموعًا فَدْفَداً جامعاً بها (لنا بطن حقف ذى ركام عقنقل)(٢)
وأحموا وطيساً فى حنين كأنه (إذا جاش فيه حَمْيه غلى مرجل)
ونادوا بنات النبع بالنصر أثمرى (ولا تبعدينا من جنَاك المعلل)
وممن له سددت سهمين فاضربى (بسهميك فى أعشار قلب مقتل)
فما أغنت الأبدان درع بها اكتست (ترائبها مصقولة كالسجنجل)(٣)
وأضحت لواليها ومالكها العدا (يقولون لا تهلك أسًى وتجمل)
وقد فر منصاع كما فر خاضب (لدى سَمُرات الحى ناقف حُنظلِ)(٤)
وكم قال ياليل الوغى طلت فانبلج (بصبح وما الإصباح منك بأمثل)
فليت جوَادى لم يَسِرْ بى إلى الوغى (وبات بعينى قائماً غير مرسل)
وكم مرتق أوطاس منهم بمسرج (متى ما ترق العين فيه تَسهَّلِ)

---

(١) الأوابد : الوحش ، وقيدها : يعنى أنه متى رآها أدركها فلم تستطع أن تفوته ، كنى بذلك عن سرعة سيره ، وهذه إحدى الكنايات التى يذكرون أن امرأ القيس أول من قالها . (٢) فى المعلقة * بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل *
(٣) السجنجل : المرآة . (٤) ناقف حنظل : كناية عن انهمار دموعه ، يذكرون أن ناقف الحنظل لا تزال عينه تدمع

وقرطه خرصا كمصباح مسرج (أمال السَّليط بالذُّبال المفتل)(١)
فيرنو لهاد فوق هاديه طرفه (بناظرة من وَحْش وَجْرة مُطْفِل)(٢)
ويسمع من كافورتين بجانبي (أثيث كقنو النخلة المتعشكل)
ترفَّعَ أن يُعْزَى له شَدُّ شادن (وإرخاء سرحان وتقريب تَتْفُلِ)
ولكنه يمضى كما مر مزبد (يكب على الأذقان دوح الكنهبل)
ويغشى العدا كالسهم أو كالشهاب أو (كجلْمُودِ صخرحطه السيل من عل)
جياد أعادت رسم رستم دارساً (وهل عند رسم دارس من معوّل)
وريعت بها خيل القياصر فاختفت (جواحرها فى صرة لم تزيل)
سبت عربا من نسوة العرب تستبى (إذا ما اسبكرّت بين درع ومجول)
وكم من سبايا الفرس والصفر أسهرت (نؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل)
وحزن بدوراً من ليالى شعورها (تضل العقاص فى مثنى ومرسل)
وأبقت بأرض الشام هاما كأنها (بأرجائها القصوى أنابيشُ عُنْصُل)
وما جف من حَبِّ القلوب بغورها (وقيعانها كأنه حب فلفل)
لخضراء ما دَبَّتْ ولا نبتت بها (أساريع ظبى أو مساويك إسحل)
شَدَا طيرها فى مثمر ذى أرومة (وساق كأنبوب السقى المذلل)
فشدت بروض ليس يذبل بعدها (بكل مُغَار الفتل شدت بيذبل)(٣)
وكم هجرت فى القيظ تحكى ذوارعا (عذارَى دَوَارٍ فى مُلاَء مذيل)
وكم أدلجت والقتر يهفو هزيزه (ويلوى بأثواب العنيف المثقل)
وخضن سيولا فِضْنَ بالبيد بعدما (أثرن غبارا بالكديد المركل)
وكم ركزوا رمحا بدِعْصٍ كأنه (من السيل والغثاء فلكة مغزل)

---

(١) السليط : الزيت (٢) مطفل : ذات طفل .

(٣) مغار الفتل : أراد حبلا قد أحكم فتله ، ويذبل : اسم جبل ، كنى عن طول الليل وأن نجومه لا تتحول .

فلم تبن حصنا خوف حصنهم العدا (ولا أطما إلا مَشِيداً بجنـــدل)(١)
فهدت بعضب شِيبَ بعد صقاله (بأمراس كتان إلى صُمِّ جنـدل)(٢)
وجيش بأقصى الأرض ألقى جِرَانَه (وأردف أعجازا وناء بكلكل)
يدكُّ الصفا دكا ولو مر بعضـه (وأيسره عالى الستار ويذبل)
دعا النصرَ والتأييد راياته أُسحى (على أثَرَيْنَا ذيل مرط مرحل)
لواء منير النصـــل طاو كأنه (منـــارة ممسى راهب متبتل)
كأن دم الأعداء فى عـذباته (عصارة حناء بشيب مرجل)
صحاب بَرَوْا هام العداة وكم قروا (صفيف شـواء أو قدير معجل)
وكم أكثروا ما طاب من لحم جفرة (وشحم كهدّاب الدمقس المفتل)
وكم جُبْنَ من غبراء لم يسق نبتها (دراكا ولم ينضح بماء فيغسل)
حكى طيبُ ذكراهم ومر كفاحهم (مَدَاك عروس أو صَلَايَة حنظل)
لأمداح خير الخلق قلبىَ قد صبَـا (وليس فؤادى عن هواها بمُنْسَلِ)
فدع مَنْ لأيام صلحن له صبا (ولا سيما يوم بدارة جلجـــل)
وأصبح عن أم الحويرث ماسلاً (وجارتها أم الرباب بمأســـل)
وكن فى مديح المصطفى كمديج (يقلب كفيه بخيط مُوَصَّـــل)
وأمِّلْ به الأخرى ودنياكَ دَعْ فقد (تمتعت من لهو بها غير معجل)
وكن كنبيث للفؤاد منابث (نصيح على تعذاله غير مؤتل)
ينادى إلهى إن ذنبى قد عـدا (على بأنواع الهموم ليبتـــلى)
فكن لى مجيرا من شياطين شهوة (علىَّ حِرَاصٍ لو يسرون مقتلى)
وينشد دنيـاه إذا ما تدللت (أفاطم مهلا بعض هـذا التدلل)

---

(١) الأطم ـــ بضم الهمزة والطاء جميعا ـــ الحصن

(٢) الأمراس : الحبال ، والجندل : الحجر الكبير

فإن تصلى حبلى بجبر وصلته (وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى)
وأحسِنْ بقطع الحبل منك وَبَتِّهِ (فسلى ثيابى من ثيابك تنسل)
أيا سامعى مدح الرسول تنشقوا (نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل)
وروضة حمد للنبي محمد (غذاها نمير الماء غير محلل)
ويامن أبى الإصغاء ما أنت مهتدٍ (وما إن أرى عنك الغواية تنجلى)
فلو مطفلا أنشدتها لفظها ارعوت (فألهيتها عن ذى تمائم محول)
ولو سمعته عُصْمُ طَوْدٍ أمالها (فأنزل منها العصم من كل منزل)

وقد عرّفتُ بحازم هذا فى « أزهار الرياض » وذكرت جملة من نظمه .

ومن بارع ما وقع له قولُه :

أدِرِ المدامة فالنسيم مؤرج والروض مرقوم البرود مدبج
والأرض قد لبست بُرُودَ جمالها فكأنما هى كاعب تتبرج
والنهر مما ارتاح معطفه إلى لُقْيا النسيم عُبابه متموّج[1]
يمسى الأصيلُ بعسجدى شعاعه أبدا يوشّى صفحه ويدبج[2]
وتروم أيدى الريح تسلب ما اكتسى فتزيده حسنا بما هى تنسج
فارتح لشرب كؤس راح نورها بل نارها فى مائها تتوهج
وأسكر بنشوة لحظ من أحببته أو كأس خمر من لَمَاه تُمْزَجُ
واسمع إلى نغمات عود تصطبى قلب الخلى إلى الهوى وتهيج
بَمٌّ وزير يسعدان مثانيا ومثالثا طبقاتها تتدرج
من لم يهيج قلبه هذا فما للقلب منه محرك ومهيج
فأجب فقد نادى بألسن حاله للأنس دهر للهموم مفرج
طربت جماداتٌ وأفصَحَ أعجم فرحًا وأصبح من سرور يهزج

---

(١) العباب — بضم العين — موج البحر أو معظمه

(٢) يوشى : أصله يرقم وينقش ، وصفحه : جانبه أو وجهه

أفيفضلُ الحىَّ الجمادُ مسرةً　　والحى للسراء منه أحوج
ما العيش إلا ما نَعِمْتَ به وما　　عاطاك فيه الكأسَ ظبى أدعج
ممن يروقك منه ردف مردف　　عَبْل وخصر ذو اختصار مُدْمَجُ(١)
فإذا نظرت لطرة ولغرة　　ولصفحة منه بدت تتأجج
أيقنت أن ثلاثهن وما غدا　　من تحتها ينآد أو يتموَّج(٢)
ليل على صبح على بدر على　　غصن تحمَّله كثيب رَجْرَجُ
كأس ومحبوب يظل بلحظه　　قلب الخلى إلى الهوى يستدرج
يا صاح ما قلبي بصاحٍ عن هوى　　شيآن بينهما المنى تستنتج
وبمهجتى الظَّبْىُ الذى فى أضلعى　　قد حل وهو يَشُبُّها و يؤجج(٣)
ناديت حادىَ عِيسِهِ يوم النوى　　والعيس تحدى والمطايا تحدج
قف أيها الحادى أودِّعْ مهجة　　قد حازها دون الجوانح هودج
لما توافقنا وفى أحداجها　　قمر منير بالهلال متوج
ناديتهم قولوا لبدركم الذى　　بضيائه تسرى الركاب وتُدْلج
يحيي العليل بلفظة أو لحظة　　تطفى غليلا فى الحشا يتأجج
قالوا نخاف يزيد قلبك لاعجاً　　فأجبتهم خلوا اللواعج تلعج
و بكيت واستبكيت حتى ظل من　　عبراتنا بحر ببحر يمزج
و بقيتُ أفتح بعدهم باب المنى　　ما بيننا طوراً ، وطورا يُرْتج
وأقول يانفس اصبرى فعسى النوى　　بصباح قرب ليلها يتبلج
فترقب السراء من دهر شَجَا　　والدهر من ضد لضد يخرج
وترجَّ فرجَةَ كل هم طارق　　فلكل هم فى الزمان تفرج

(١) مدمج : أصله بمعنى متداخل بعضه فى بعض ، وأراد أنه نحيل .
(٢) ينآد : يميل . (٣) يشبها : يوقدها ويشعلها .

وتذكرت هنا جيمية ابن قلاقس ، وهى :

عَرَضَتْ لمعترض الصباح الأبلج حَوْرَاء فى طرف الظلام الأدعج

فتمزقت شيم الدجى عن غُرَّتَىْ شمسين فى أفق وكلة هودج

ووراء أستار الحمول لواحظ غازلن معتدل الوشيج الأعوج

من كل مبتسم السِّنان إذا جرى دَمْعُ النجيع من الكمى الأهوج

ولقد صحبت الليل قَلَّص برده لعباب بحر صباحه المتموج

وكأن منتثر النجوم لآلئ نظمت على صرح من الفيروزج(١)

وسهرت أرقب من سهيل خافقاً متفردا ، وكأنه قلب الشجى(٢)

واستعبرت مُقَلُ السحاب فأضحكت منها ثغور مُفَوَّفٍ ومدبج

وَلْنَعُدْ إلى ذكر أبى بكر بن جزى فنقول :

وله تقييد فى الفقه على كتاب والده المسمى بالقوانين الفقهية ، ورجز فى الفرائض ، وإحسانه كثير ، وتقدم قاضياً للجماعة بحضرة غَرْنَاطة ثامن شوال عام ستين وسبعمائة ، ثم صُرف عنها ، ثم لما توفى الأستاذ الخطيب العالم الشهير أبو سعيد فرج بن لب — رحمه الله تعالى ! — وكان خطيب الجامع الأعظم بغرناطة — ولى عوضاً عنه أستاذا وخطيباً عام اثنين وثمانين وسبعمائة ، فبقى فى الخطابة ثلاثة أعوام ، ثم توفى ، وأظن وفاته آخر عام خمسة وثمانين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى ! .

أبو عبد الله محمد بن جزى الكلبى

وأما أخوه أبو عبد الله محمد فهو الكاتب المجيد ، أعجوبة الزمان ، وتوفى بفاس رحمه الله تعالى عام ثمانية وخمسين وسبعمائة ، وقيل — وهو الصواب — : إن وفاته آخر شوال من السنة قبلها حسبما ألفيته بخط بعض أكابر الثقات بداره من البيضاء ، وهى فاس الجديدة ، قرب مغرب يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من

(١) منتثر النجوم : متفرقها هنا وههنا .

(٢) الشجى — بفتح الشين وكسر الجيم وياؤه مخففة — العاشق الحزين . وقالوا « ويل للشجى من الخلى » فشددوا ياء الشجى لصحبتها للخلى المشدد الياء .

لشوال من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، وكان دفنه يوم الأربعاء بعد صلاة العصر وراء الحائط الشرقى الذى بالجامع الأعظم من المدينة البيضاء ، وكان مولده فى شوال من عام واحد وعشرين وسبعمائة ، انتهى .

قال الأمير ابن الأحمر فى « نثير الجمان » : أدركته ورأيته ، وهو من أهل بلدنا غرناطة ، وكان أبوه أبو القاسم محمد أحدُ المفتين بها عالم الأندلس الطائرة فُتْيَاه منها إلى طرابلس ، وقتل شهيدا بطريف بعد أن أبلى بلاء حسنا ، وأبو عبد الله ابنه هذا كتب بالأندلس فى حضرة ابن عم أبينا أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف ، وله فيه أمداح عجيبة ، ولم يزل كاتبا فى الحضرة الأحمدية النصرية إلى أن امتحنه أمير المسلمين أبو الحجاج ، انتهى .

ويعنى ابنُ الأحمر بهذا الامتحان أنه ضربه بالسِّياط ، من غير ذنب اقترفه(١) بل ظلمه ظلما مبينا ، هكذا ألفيته فى بعض المقيدات .

ثم قال ابن الأحمر : فقوض الرحال عن الأندلس ، واستقر بالعُدْوة ، فكتب بالحضرة المرينية لأمير المسلمين أبى عنان ، إلى أن توفى بها رحمه الله تعالى ! وكان رحمه الله تعالى طلع فى سماء العلوم بدرا مشرقا ، وسارت براعته مغربا ومشرقا ، وسما بشعره فوق الفرقدين ، كما أربى بنثره على الشعرى والبطين ، له باع مديد فى التاريخ واللغة والحساب ، والنحو والبيان والآداب ، بصير بالفروع والأصول والحديث ، عارف بالماضى من الشعر والحديث ، إن نظم أنساك أبا(٢) ذؤيب برقته ، ونُصَيْبا بمنصبه ونخوته ، وإن كتب أربى على ابن مُقلة بخطه ، وإن أنشأ رسالة أنساك العماد بحسن مساقها وضبطه ، وهو رب هذا الشان ، وفارس هذا الميدان ، ومع تفننه فى الشعر فهو فى العلوم قد نبغ ، وما بلغ أحد من شعراء عصره منه

(١) تقول « اقترف فلان بالذنب » تريد أنه فعله وأتام وارتكبه

(٢) أبو ذؤيب : شاعر من شعراء هذيل المعدودين ، ونصيب : شاعر أيضا من الغزليين ، وابن مقلة : مضرب المثل فى حسن الخط ، والعماد : أراد به العماد الأصفهانى ، وهو محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبدالله بن على بن محمود بن هبة الله

ما بلغ ، بل سلموا التقدم فيه إليه ، وألقوا زمام الاعتراف بذلك فى يديه ، ودخلوا تحت راية الأدب التى حَمَل ، إذ ظهر ساطع براعته ظهور الشمس فى الحمل ، أنشدنى لنفسه يمدح أمير المسلمين أبا الحجاج يوسف بن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل عم أبينا ابن جدنا الرئيس الأمير أبى سعيد فرج هذه القصيدةَ البارعة ، وحذف منها الراء المهملة :

قَسَماً بوضـاح السنى الوهاج ... من تحت مسدول الذوائب داج[1]

و بأبلج بالمسك خطت نونه ... من فوق وسنان اللواحظ ساجى[2]

و بحسن خد دبجت صفحاته ... فغدت تحاكى مذهب الديباج

و بمبسم كالعقد نظم سلكه ... ولَمًى حكى الصَّهباء دون مزاج

و بمنطق تصبو القلوب لحسنه ... أنسى المسامع نغمة الأهزاج

و بمائس الأعطاف تثنيه الصبا ... فيميس كالخطِّىِّ يوم هياج

ومنعم مثـل الكثيب يُقله ... مستضعف يشكو من الإدماج

و بمَوْعِدٍ للوصـل أنجز فجأة ... من بعد طول تمنع ولجاج

و بأكؤس أطلعن فى جنح الدجى ... شمس السُّلافة فى سماء زجاج

وحدائق سَحَبَ السحابُ ذيولَه ... فيها و بات لهـا النسيم يناجى

وجداول سلت سيوفا عند ما ... فجئت بجيش للصـبا عجاج

و بأقحوان قد تضاحك إذ بكت ... عينُ الغمام بدمع ثَجَّاج

وقدود أغصان يملن كأنها ... تخفى حديثاً بينهـا وتناجى

وحمائم يَهْتِفْنَ شَجْواً بالضحى ... فهَدِيلهُنَّ لذى الصبابة شاجى

أن المعالى والعوالى والندى ... والبأس طوعُ يَدَىْ أبى الحجاج

---

(١) وضاح السنى : أراد به وجه المتغزل فيه ، والذوائب : جمع ذؤابة ، وهى الشعر هنا

(٢) نونه : أراد حاجبه ، وأراد بوسنان اللواحظ : عينيه ، وساجى : ساكن

ملك تتوّج بالمهابة عندما | لم يستجز فى الدين لبس التاج
وأفاض حكم العدل فى أيامه | فالحق أبلج واضح المنهاج
هو منقذ العانى ومُغْنِى المعتفى | ومذلل العاتى وغوث اللاجى(١)
ماضى العزيمة والسيوف كليلة | طلق المحيا والخطوب دواجى
علم الهدى والناسُ فى عمياء قد | ضلوا لوقع الحادث المهتاج
غيث الندى والسحب تبخل بالحيا | والمحل يُبْدِى فاقة المحتاج
ليث الوغى والخيل تزجى بالقنا | والبيض تنهل فى دم الأوداج
يتقشع الإظلام إذ يبدو له | وجه كمثل الكوكب الوهاج
من آل قيلة من ذؤابة سعدها | أعلى بنى قحطان دون خلاج
حيث العُلاَ ممدوة الأطناب لم | تخلق معالِمَهَا يَدُ الإنهاج
والأعْوَجِيَّاتُ السوابق تمتطى | فتظلل الآفاقَ سُحْبُ عجاج
والبيض والأسد العوامل تقتضى | مهج الكماة بأبلغ الإزعاج
مجد ليوسف جُمِّعَتْ أشتاته | أعيا سواه بعد طول علاج
مولاى هاك عقيلة تزهو على | أخواتها كالغادة المغناج
إنشاء عبد خالص لك حبه | ومن العبيد مُدَاهِن ومُدَاجِى
آوى إلى أكناف نعماك التى | ليست إليه صِلاتها بخُدَاج
سباق ميدان البلاغة والوغى | لشعاب كل منهما ولاَّج
جانبت أخت الزاى منها عامداً | فأتت من الإحسان فى أفواج
فافتح لها باب القبول وأولِ مَنْ | أهداكها ما يبتغى من حاج

(١) العانى ــ بالنون ــ الأسير ، والمعتفى : طالب المعروف ، والعاتى ــ بالتاء ــ المتجبر ، ومذلله : أى الذى يجعله منقادا لا يصعب قياده ، واللاجى : أصله اللاجىء ــ بالهمز ــ فسهل همزته بقلبها ياء

ثم قال ابن الأحمر : وأنشدنى أيضاً لنفسه يمدح أمير المؤمنين المتوكل على الله أبا عنان فارس ملك المغرب :

إن قلبى لعُهْدَةِ الصبر نَا كِثْ عن غزَال فى عُقْدَةَ السِّحر نَافِثْ[1]

أضرم النار فى فؤادى وولى قائـلا لاتَخَفْ فإنىَ عابث

ورمانى من مقلتيـــه بسهم ثم قال اصـطبر لثان وثالث

كم عذول أتى يُناظر فيـــه كان تَعْذاله على الحب باعث

ويمين آليتها بالتســــلى فقضى حســـنه بأنى حانث

جبر الله صـــدع قلب عميد صدعت شملَهُ صروف الحوادث

فهو يهفـو إلى البروق ويروى عن نسيم الصَّبا ضعيفَ الأحادث

سلبتـــه الأشجان إلا بقايا من أمان حبالهن رثائث

وبكاء على عهــود مَوَاضٍ ملأت صـدره هموما حدائث

لست وحدى أشكو بليلة وجدى إن داء الغرام ليس بحادث

يا مضيع العهــود والله يعفو عنك أنَّى ارتضَيْتَ خطة نا كث؟[1]

غرّنى منك والجمال غــرور وظُبَا اللحظ فى القلوب عوابث

مُقَل يقتسمن أعشــار قلبى بالرضا منىَ اقتسام الموارث

كيف غيرت بانتزاحك حالى وتغـيرت لى ولَسْتَ بحارث؟

فرط حبى وفرط بخلك آلىٰ أن عينيك بالفتــور نوافث

ونَدَى فارس وحســبك ردا قول من قال سَدَّ بابَ البواعث

ملك البأس والندى ، فهو بالســيف وبالسَّيْبِ عائث أو غائث

محرز المجــد والثناء ، فهذا سائر فى الورى ، وذلك لابث

---

(١) نـكث العهد : لم يف به ، والنفث : التفل بالنفس من غير ريق ، ومن عادة السحرة أن يأخذوا خيطا ثم يتلوا عليه كلاما ، وكلما تلوا شيئا عقدوا عقدة ثم نفثوا عليها ، وفى القرآن الكريم : (ومن شر النفاثات فى العقد)

أوطأ الشهبَ رجلَه وترقَّى صاعدا فى سموّه غير ماكث
فدَرَارٍ تَسْرى وما لحقتـه ونجوم خلف القصور لوابث(١)
وله المقرَبَات لا بل هى العقبان من فوقها الليوث الدلاهث(٢)
مطلعات من كل نعل هلالا فلهذا تجلو دجى كل حادث
إن ترافعن فالجبال الرواسى أو تسابقن فالغيوث الحثائث
والمواضى كأنها قد أعيرت حدَّةَ الذهن منه عند المباحث
هى نار محرّقات الأعادى وهى ماء مطهرات الخبائث
فيرِدْنَ الوغى ذكورا عطاشا ثم يصدرْن ناهلات طوامث
من معانيه قد رأينا عِيَانًا كل فضل يَنُصُّه مَنْ يحادث
خلق كالنسيم مرسحيرا بالأزاهير فى البطاح الدمائث
فى سبيل الإله يقصى ويُدْنِى ويوالى فى ذاته وينا كث
شرف الملك منه سام وحام ففدته سام وحام ويافث
هاكها من بنات فكرىَ بكرا ليس يسمولها من الناس طامث
ذات لفظٍ لا يعتريه اختلال ومعانٍ لا تنتحيها المباحث
زعماء القريض أبقَوْا بقايا كنتُ دون الورى لهن الوارث
من أراد انتقادها فَهىَ هٰذِى عرضة البحث فليكن جدَّ باحث

ورأيت بخط ابن الصباغ العقيلى على هامش قوله « وندى فارس وحسبك ردا ، البيت » ما نصه: ما أبدع تخلصه للمدح وأطبعه! فإنه أشار إلى قول الشاعر رادا عليه بالتبكيت، ومعقبا له بالتعنيت:

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة باب السماحة والملاحة مغلق

---

(١) الدرارى: النجوم، ولوابث: جمع لابثة، وهى المقيمة

(٢) المقربات ـ بفتح الراء ـ الخيل، والدلاهث: جمع دلهث ـ بزنة جعفر ـ وهو الجرىء المقدم

مات الكرام فلا كريم يرتجى منه النوال ولا مليح يعشق(١)

وقيل : إن السلطان أبا عنان أطلَّ من برج يشاهد الحرب بين الثور والأسد على ما جرت به عادة الملوك ، فقال ابن جزى المذكور فى وصف الحال :

لله يومٌ بدار الملك مر به من العجائب ما لم يجر فى خَلَدِى

لاح الخليفة فى برج العلا قمرا يشاهد الحرب بين الثور والأسد

ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى قوله :

أبا حسن إن شَتَّتَ الدهر شملنا فليس لودى فى الفؤاد شتات(٢)

وإن حُلْتَ عن عهد الإخاء فلم يزل لقلبى على حفظ العهود ثَبَاتُ(٣)

وهبنى سَرَتْ منى إليك إساءة ألم تتقدم قبلها حسنات

وقوله وهو بحال مرض :

إن يأخذ السُّقْمُ من جسمى مآخذه وأصبحَ القوم من أمرى على خطر

فإن قلبى بحمد الله مرتبط بالصبر والشكر والتسليم للقدر

فالمرء فى قبضة الأقدار مصرفه للبرء والسقم أو للنفع والضرر

وحكى أن الفقيه الرحال أبا إسحاق إبراهيم بن الحاج النميرى بقى فى خلوته جميع شهر رمضان المعظم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، فلما خرج فى يوم عيد الفطر أنشده صهره أبو عبد الله بن جُزَى المذكور لنفسه :

ما سَرَارُ البدور إلا ثلاث فلماذا أرى سَرَارَكَ شهرا(٤)

أتعجلته سرارا لِعَام ثم تبقى فى سائر العام بدرا

وحكى أنه كتب للرئيس صاحب القلم الأعلى والعَلاَمة بفاس أبى القاسم بن رضوان يطلب منه شراب سكنجبين ، وقصد التصحيف بقوله «أحسن زان بيتك ، نجيب

(١) حفظى فى صدر هذا البيت * خلت الديار ؛ فلا كريم يرتجى * ولعله أحسن مما هنا

(٢) شتت الدهر شملنا : فرق اجتماعنا ، والشتات ــ بفتح الشين ــ التفرق

(٣) حلت : تحولت

(٤) السرار ــ بالفتح ــ اختفاء القمر فى آخر الشهر ليلة أو ليلتين

تسر به مرضى » تصحيفه : أحب شراب سكنجبين شربه مُرْضى ، قال : فجاوبنى ابن رضوان بقوله : إن بركـ نفيس ، تصحيفه مقلوبا : يشفيك ربنا .

ومن نظم ابن جزى المذكور قوله :

رعى الله عهدا بالمرية ما أرى ... به أبدا ماعشت فى الناس بالناسى (١)

وكيف ترى بالله صحبة معشر ... مجاهدُ بعضٌ منهمُ وابن عباس (٢)

وقوله فى الزاوية التى أنشأها السلطان أبو عنان :

هـذا محل الفضل والإيثار ... والرفق بالسكان والزوار

دار على الإحسان شيدت والتقى ... فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار

هى ملجأ للواردين ومورد ... لابن السبيل وكل ركب سارى

آثار مولانا الخليفة فارسٍ ... أكرم بها فى المجد من آثار

لا زال منصـور اللواء مظفرا ... ماضى العزائم سامىَ المقدار

بنيت على يد عبدهم وخديم با ... بِهِمُ العلىِّ محمد بن حـدار

فى عام أربعة وخمسين انقضت ... من بعد سبع مئين فى الأعصار

ومن نظمه قوله مُوَرِّيا :

وما أنسى الأحبـة يوم بانوا ... تخوض مطيهم بحر الدموع

وقالوا : اليوم منزلنا الحنـايا ... فقلت : نعم ولـكن من ضلوعى

وقوله موريا أيضا :

ورب يهـودىٍّ أتى متطببا ... ليأخذ ثارات اليهود من الناس

---

(١) « الناسى » آخر البيت : اسم الفاعل من النسيان

(٢) ورى بابن عباس ترجمان القرآن وابن عم الرسول ، وبمجاهد أحد رواة الحديث المشهورين ، وإنما هو يريد بمجاهد اسم الفاعل من المجاهدة ، وبابن عباس : الذي يقطب وجهه عند رؤيتك كثيرا ، صيغة مبالغة من مصدر « عبس فلان فى وجه فلان »

إذا جَسَّ نبض المرء أودى بنفسه سريعا ، ألم تسمع بفتكة جساس ؟

وقوله :

من أى أشجانى التى جَنَتِ النوى أشكو العـذاب وهن فى تنويع

من وصلىَ الموقوف أو من هجرى الـموصول أو من نومى المقطوع(١)

أو من حـديث تولُّهى وتولعى خبرا صحيحا ليس بالموضوع

يَرْوِيه خدى مسندا عن أدمعى عن مقلتى عن قلبى المفجوع

وأول هذه القصيدة :

ذَهَبَتْ حُشَاشَة قلبىَ المصـدوع بين السلام ووقفة التوديع

وقد ضمن شطرها الفقيه عبيد شارح الحلبة ، إذ قال من قصيدة مطلعها:

أُهمى دموعَكِ ساعة التوديع يا مقلتى ممزوجـــة بنجيع

بقوله :

يوم استقلَّتْ عِيسُهم وترحلوا (ذهبت حشاشة قلبى المصدوع)

وقوله :

بخدى وجسمى والفؤاد وأدمعى شهودٌ بهم دَعْوَى الغرام تُصَحَّحُ

ومن عجب أن رَجَّحَ الناس نَقْلَهُمْ وكلهم ذو جَرْحَة فيـه تقدح

فجسمى ضعيف ، والفؤاد مخلط ودمْعِىَ ، مَطْرُوحٌ وخدى مجرح

وقوله :

يا مُحَيًّا كتب الحسنُ به أحْرُفًا أبدع فيها وبرع

ميم ثغر ، ثم نونٌ حاجب ثم عين هى تتميم البِدَعْ

أنا لا أطمع فى وَصْلك لى وعلى وجهك مكتوب منع

ثم قال ابن الأحمر : ومن إنشائه البارع موريا بالـكتب ، ورفعها لأمير المؤمنين

---

(١) هذا من اصطلاح علماء الحديث : الموصول ، والموقوف ، والمقطوع ، والصحيح ، والموضوع ، والمسند ، كل هذه ألقاب لأنواع من الحديث بحسب إسناده

المتوكل على الله أبى عِنان فارس رحمه الله تعالى يهنيه بإبلال ولده ولى عهده الأمير أبى زيان محمد من مرض :

ماذا عسى أدبُ الكتاب يوضحُ من خصال مجدك وهو الزاهر الزاهى
وما الفصيح بكليات موعبها كاف فيأتى بأنباء وأنباه

أبقى الله تعالى مولانا الخليفة ولسعادته القِدْحُ المُعَلَّى ، ولزاهر كماله التاج المحلى ، تجلى من حلاه نزهة الناظر ، ويسير بعلاه المثل السائر ، ويتسق من سناه العقد المنظم ، ويتضح بهداه القَصْد الأَمَم[1] ، ولازالت مقدمات النصر له مبسوطه ، ومعونة السعد بإشارته مَنُوطه ، وهدايته متكفلة بإحياء علوم الدين ، وإيضاح منهاج العابدين ، وإرشاده يتولى تنبيه الغافلين ، ويأتى من شفاء الصدور بالنور المبين ، وميقات الخدمة ببابه مطمح الأنفس ، وملخص الجود من كفه بغية المتلمس ، قد حكم أدب الدين والدنيا بأنك سراج الملوك ، لما أتت عوارفك بالمشرع السلسل ومعارفك بنظم السلوك ، ووضحت معالم مجدك وضوح أنوار الفجر ، وزهت بعدلك المسالك والممالك زَهْوَخريدة القصر ، فلك فى جمهرة الشرف النسب الوسيط ، ومن جمل المآثر الخلاصة والبسيط ، وسبل الخيرات لها برعايتك تيسير ، ومحاسن الشريعة لها بتحصيلك تحبير ، وأنت حجة العلماء ، الذى تقصر عن تقصى مآثره فِطَنُ الأذكياء ، إن أُنْبِهَمَ التفسير فنى يديك مِلاك التأويل ، أواعتاص تفريع الفقه فعندك فصل البيان له والتحصيل ، وإن تشعب التاريخ فلديك استيعابه ، أو تطاول الأدب فنى إيجاز بيانك اقتضابه ، وإن ذكر الكلام فنى انتقائك من برهانه المحصول ، أو المنطق فنى موجز آمالك لُبَابُه المنخول ، وليس أساس البلاغة إلا ما تأتى به من فصل المقال ، ولا جامع الخير إلا ما حزته من

(١) الأمم — بفتح الهمزة والميم — القريب .

تهذيب الكمال ، ولذلك صارت خدمتك غاية المطلوب ، وحبك قوت القلوب ، ولا غرو إن كنت من العليـاء درتها المكنونة ، فأسلافك الكرام هم جواهرها الثمينـة ، بحماستهم أصيبت مقاتل الفرسان ، و بجود جودهم تسنى رىّ الظمآن ، و بتسهيل عدلهم وضحت شُعَبُ الإيمان ، وأنت المنتقى من سمط جُمانهم ، والواسطة فى قلائد عقيانهم ، عنك تؤثر سيرة الأُكتفاء ، وعن فروعك السعداء تروى أخبار نجباء الأبناء ، فهم لمملكتك العلية بهجة مَجالسها ، وأنس مُجالسها ، وقطب سرورها ، ومطالع نورها ، وولى عهدك درتهم الخطيرة ، وذخيرتهم الأثيرة ، لازال كامل سعادته بطول مقامك محكما ، وحرز أمانيه بالجمع بين الصحيحين حبك ورضاك معلماً ، وقد وجبت التهنئة بما كان فى حيلة برئه من التيسير ، وما تهيأ فى استقامة قانون صحته من نُجْح التدبير ، ولم يكن إلا أن بعدت به عنك المسالك ، وأعوز نور طرفه تقريب المدارك ، وتذكر ما عهده من الإيناس الموطأ جنابه عند أفضل مالك ، فورِىَ من شوقه سقط الزند(١) ، والتهب فى جوانحه قبس الوجد ، فأمددته من دعائك الصالح بحلية الأولياء ، فظفر لما شارف مشارق الأنوار من حضرتك بالشفاء ، وقد حاز إكمال الأجر بذلك العارض الوجيز ، وكان له كتشبيب الإبريز ، وهاهو قادم بالطالع السعيد ، آيب بالمقصد الأسنى من الفتح والتمهيـد ، يطلع بين يديك طلوع الشهاب ، و يبسم عن مُفَصَّل الثناء فى الهنـاء بذلك زهر الآداب ، فأعدَّ له تحفة القادم من إحسانك الـكامل ، وأُخصصه بالتـكملة من إيناسك الشامل ، فهو الـكوكب الدرى المستمد من أنوارك السنية ، وفى تهذيب شمـائله إيضاح للخلق الـكريمة الفارسية ، لازالت تزدان بصحاح مآثرك عيون الأخبار ، وتتعطر بنفحة الزهر من ثنائك روضة الأزهار ، وتتلى من محامدك الآيات البينات ،

---

(١) تقول « ورى الزند يرى » مثل ورث يرث ، ومثل وعد يعد — إذا أخرج النار ، ويقول العرب « وريت بك زنادى » فى معنى قوى بك ساعدى .

وتتوالى عليك الألطاف الإلهيات ، بمنِّ الله سبحانه وفضله ، والسلام الكريم يعتمد المقام العلى ، ورحمة الله تعالى و بركاته ، انتهى .

والمذكور عدة مُقَطعات يورى فيها بأسماء الكتب ، فمنها قوله :

ظبى هو الكامل فى حسنه ... وثغره أبهى من العقد
جمـاله المدهش لكنما ... أخلاقه تحكى صبا نجـد

وقوله أيضاً :

لك الله من خل حَبَانى برقعة ... حَبَتْنِيَ من آياتهـا بالنوادر[1]
رسالة رمز فى الجمال نهـاية ... ذخيرة نظم أتحفت بالجواهر

وقوله سامحه الله تعالى :

قصتى فى الهوى المُـدَوَّنة الكبرى ... وأخبـار عشقى المبسوطه
حجتى فى الغـرام واضحة إذ ... لم تزل مهجتى بوجد مَنُوطَهْ

وتذكرت بالتورية بأسماء الكتب قولَ الأرجانى :

لما تألق بارقٌ من ثغـره ... جادت دموعى بالسحاب الممطر
فكأن عقد الدر حل قلائد الـعقيان منه على صحاح الجوهر

وقول لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى :

وظبى لأوضاع الجمال مدرس ... عليم بأسرار المحـاسن ماهر
أرى جيده نَصَّ المحلَّى ، وقررت ... ثناياه ما ضمت صحاح الجواهر

وقول ابن خاتمة :

ومُعَطر الأنفاس يبسم دائمـا ... عن در ثغـر زانه ترتيب
من لم يشاهد منه عقد جواهر ... لم يدر ما التنقيح والتهـذيب

---

(١) خل — بكسر الخاء — خليل وصديق ، وحبانى : منحنى وأعطانى

وقوله أيضاً :

سَفَّهني عاذلي عليه وقال لي وُدُّهُ عليلُ
فقلت معتل أو صحيح يودعه عينه الخليل

وقوله أيضاً :

حاز الجمال بصورة قمرية تجلو عليك مشارق الأنوار
وحوى الكمال بصورة عُمَرية تتلو عليك مناقب الأبرار

وقول الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي :

من اغتدى مُوَطّئًا أكنافه صح له التمهيد في أحواله
وقابل استذكاره بالمنتقى من رأيه المختار من أعماله
وأضحت المسالك الحسنى له تدني تقصياً قُصَى آماله
وسار من مشارق الأنوار في أدنى المدارك أو إلى إكماله

ولما وقف على هذه القطعة الفاضل أبو علي حسين بن صالح بن أبي دلامة عارضها وزاد ذكر القبس والمعلم :

قل للموطِّئ للورى أكنافه بشراه بالتمهيد في الأحوال
وإذا اكتفى بالمنتقى استذكاره وفى له المختار في الأعمال
ومسالك الحسنى تؤديه إلى أقصى التقصى من قُصَى الآمال
ويلوح من قبس الهداية رشده من معلم التفصيل والإجمال

رجع إلى ابن جُزَي ، ومن نظمه :

يادوحة الأنس من بطحاء واسِجَةٍ هل من سبيل إلى أيامك الأول[1]
إذ نجتلي أوجه الإيناس مسفرة ونجتني ثمر اللذات والغزل

---

(١) الدوحة — بفتح الدال وسكون الواو — في الأصل : الشجرة العظيمة ، وأضافها إلى الأنس لأنها شهدت أنسه بأحبابه .

ومن نظمه رحمه الله تعالى عند خروجه إلى بلاد المغرب ، ووَرَّى بكتابى « تحفة القادم » و« زاد المسافر » فقال :

و إنى لمن قوم يهون عليهمُ ... ورود المنايا فى سبيل المكارم
يطيرون مهما ازورَّ للدهر جانب ... بأجنحة من ماضيات العزائم
وما كل نفس تحمل الذل ، إننى ... رأيت احتمال الذل شأن البهائم
إذا أنا لم أظفر بزاد مسافر ... لديكم فعند الناس تحفة قادم

وزاد المسافر لصفوان ، والتحفة لابن الأبار .

ومن نظمه قوله :

نصبَ الحبائل للورى بالحسن إذ ... رفع اللثام وذيله مجرور[1]
وأماله عنى العواذلُ غيلة ... فهو المال وقلبى المكسور

وقوله أيضا :

تلك الذوائب ذُبْتَ من شوقى لها ... واللّحْظ يحميها بأى سلاح
يا قلب فانْجُ وما إخالك ناجيا ... من فتنة الجعدى والسفاح[2]

وقوله أيضا :

وعاشق صلى ومحرابه ... وجه غزال ظل يهواه
قالوا تعبدت فقلت لهم ... تعبدا يفهم معناه

وقوله رحمه الله تعالى :

لاتعد ضيفك إن ذهبت لصاحب ... تَعْتَدُّه لكن تخير وانتق
أوَمَا ترى الأشجار مهما ركبت ... إن خولفت أصنافها لم تعلق

---

(١) الحبائل : جمع حبالة ، وهى الشرك ونحوه ينصبه الصياد ليقع فيه الطير .

(٢) الجعدى : أراد به هنا الشعر الذى عبر عنه بالذوائب ، والسفاح : أراد به هنا اللحظ ، وورى بالكلمتين .

وقوله رحمه الله تعالى :

أيتها النفس قفى عندما ألزمت ، فِعْلاً كان أو قولا

فمن يكن يرضى بما ساءه أو سره فهو له الأولى

لا يُتْرَكُ العبدُ وما شاءه إلا إذا أهمله المولى

وقوله أيضا سامحه الله تعالى :

لولا ثلاث قد شغفت بحبها ما عِفْتُ فى حوض المنية موردى[1]

وهى الرواية للحديث ، وكَتْبُهُ ، والفقه فيه ، وذاك حسب المهتدى

أبو محمد عبد الله بن جزى الكلبى

وأما أخوهما القاضى أبو محمد عبد الله بن أبى القاسم بن جُزَى فهو الإمام العالم العلامة المعمَّر ، رئيس العلوم اللسانية ، قال فى « الإحاطة » : هذا الفاضل قريعُ بيت نبيه ، وسلف شهير ، وأبوة خير ، وأخوّة بليغة وخؤلة ، أديب حافظ قائم على فن العربية ، مشارك فى فنون لسانية ، ظرف فى الإدراك ، جيد النظم ، مطواع القريحة ، باطنه نبل ، وظاهره غفلة ، قعد للاقراء ببلده غرناطة معيدا ومستقلا ، ثم تقدم للقضاء بجهات نبيهة على زمن الحَدَاثة ، أخذ عن والده الأستاذ الشهير الشهيد أبى القاسم أشياء كثيرة ، وعن القاضى أبى البركات ابن الحاج ، وقاضى الجماعة الشريف السبتى ، والأستاذ البيانى ، والأستاذ الأعرف أبى سعيد بن لب ، والشيخ المقرى أبى عبد الله بن بيبش ، وأجازه رئيس الكتاب أبو الحسن بن الجياب ، وقاضى الجماعة أبو عبد الله أبو بكر ، وأبو محمد بن سلمون ، والقاضى ابن شيرين ، والشيخ أبو حيان ، وقاضى الجماعة أبو عبد الله المقَّرى ، وأبو محمد الحضرمى ، وجماعة آخرون ، وشعره نبيل الأغراض ، حسن المقاصد ، انتهى المقصود منه .

---

(١) عفت : كرهت ، وأصله أن ترد الماء فتراه آجنا فتكره أن تشربه ، والمورد — بزنة المجلس — مكان ورود الماء .

وممن أخذ عنه العباس البقنى شارح البردة ، والقاضى أبو بكر بن عاصم ، و بالإجازة الإمام ابن مرزوق الحفيد ، وغيرهم .

وقد عرّف ابن فرحون فى « الديباج المذهب » بأبيه الشهيد أبى القاسم وأخيه القاضى أبى بكر دونه ، وعرّف ابن الخطيب فى « الإحاطة » بأبيه وأخويه أبى بكر وأبى عبد الله ، وفيما ذكرنا من أمرهم كفاية .

ومما نسبه الوادى آشى لأبى محمد عبد الله بن جزى قولُه :

يا من أتانى بعـده بعدما عاملتـــه بالبر واللطف
إنى تأملت وقد سرنى بجملة من سورة الـكهف

وله أيضا :

لقد قطعت قلبى يا خليلى بهجر طال منك على العليل
ولـكن ماعجيب منك هذا إذ التقطيع من شأن الخليل [1]

رجع إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى .

ومنهم القاضى الأديب جملة الظرف أبو بكر ابن شيرين .

أبو بكر ابن شيرين

وقد استوفى ترجمته فى « الإحاطة » وذكره أيضا فى ترجمة ذى الوزارتين ابن الحـكيم بأن قال بعد حكايته قتلَ ابن الحـكيم ما صورته : وممن رثاه شيخنا أبو بكر بن شيرين رحمه الله تعالى بقوله :

سقى الله اشلاء كَرُمْنَ على البلا وما غض من مقدار هاحادث البلا
ومما شجانى أن أهين مكانها وأهمل قدر ما عهـــدناه مهملا
ألا أصنع بها يا دهر ماأنت صانع فما كنت إلا عبدها المتذللا
سفكت دما كان الرقوء نواله لقد جئتما شنعاء فاضحة الملا

---

(١) التقطيع : أراد منه ههنا تقطيع قلبه بالهجر ، وورى بتقطيع الشعر حسب اصطلاح العروضين ، وهو من وضع الخليل بن أحمد الفراهيدى شيخ النحاة .

بكفى سبت أزرق العين مطرق عدا فغدا فى غيه متوغلا
لنعم قتيل القوم فى يوم عيده قتيل تُبَكِّيه المكارم والعلا
ألا إن يوم ابن الحكيم لمثكل فؤادى، فما ينفك ماعشت مثكلا
فقدناه فى يوم أغر محجل ففى الحشر نلقاه أغر محجلا
سمت نحوه الأيام وهو عميدها فلم تشكر النعمى ولم تحفظ الولا
تعاورت الأسياف منه ممدحا كريما سما فوق السماكين مرجلا
وخانته رجل فى الطواف به سعت فناء بصدر للعلوم تحملا
وجُدِّل لم يحضره فى الحى ناصر فمن مبلغ الأحياء أن مهلهلا[١]
يد الله فى ذاك الأديم ممزقا تُبَارِكُ ما هبت جنوبا وشمألا
ومن حَزَنى أن لست أعرف مَلْحَدا له فأرى للترب منه مقبلا
رويدك يا من قد غدا شامتا به فبالأمس ما كان العماد المؤملا
وكنا نغادى أو نراوح بابه وقد ظل فى أوج العلا مُتَوَقِّلاَ
ذكرناه يوما فاستهلت جفوننا بدمع إذا ما أمحل العام أخضلا
ومازَجَ منه الحزن طول اعتبارنا ولم ندر ما ذا منهما كان أطولا
وهاج لنا شجوا تَذَكُّرُ مجلس له كان يهدى الحى والملأ الألى
به كانت الدنيا تؤخر مدبرا من الناس حتما أو تقدم مقبلا
لتبك عيون الباكيات على فتى كريم إذا ما أسبغ العرف أجزلا
على خادم الآثار تتلى صحائحا على حامل القرآن يتلى مفصلا
على عضد الملك الذى قد تضوعت مكارمُه فى الأرض مسكا ومَنْدَلاَ
على قاسم الأموال فينا على الذى وضعنا لديه كل إصر على عُلاَ

---

(١) أشار إلى ما يروى فى قصة عن مهلهل بن ربيعة :
من مبلغ الحيين أن مهلهلا أضحى قتيلا فى الفلاة مجدلا
لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

وأنى لنا من بعده متعلل ... وما كان فى حاجاتنا متعللا
ألا يا قصير العمر يا كامل العلا ... يمينا لقد غادرت حزنا مؤثلا
يسوء المصلَّى أن هلكت ولم تقم ... عليك صلاة فيه يشهدها الملا
وذاك لأن الأمر فيه شهادة ... وسنتها محفوظة لن تبدلا
فيا أيها الميت الكريم الذى قضى ... سعيداً حميداً فاضلاً ومفضلا
لتهنك من رب السماء شهادة ... تلاقى ببشرى وجهك المتهللا
رثيتك عن حب ثوى فى جوانحى ... فما ودع القلب العميد وما قلا
ويا رُبَّ من أوليته منك نعمة ... وكنت له ذخراً عتيداً وموئلا
تناساك حتى ما تمرُّ بباله ... ولم يَدَّكر ذاك الندى والتفضلا
يرابض فى مثواك كل عشية ... صفيف شواء أو قديراً مُعَجَّلا[1]
لحى الله من ينسى الأذِمة رافضا ... ويُذْهَلُ مهما أصبح الأمر مشكلا
حنانيك يا بدر الهدى فَلَشَدَّ ما ... تركت بدور الأفق بعدك أفَّلا
وكنت لآمالى حياة هنيئة ... فغادرت منى اليوم قلبا مقتلا
فلا وأبيك الخير ما أنا بالذى ... على البعد ينسى من ذمامك ماخلا
فأنت الذى آويتنى متغربا ... وأنت الذى أكرمتنى متطفلا
فآليت لا ينفك قلبى مكمدا ... عليك ولا ينفك دمعىَ مُسْبلا

وكتب ابن لسان على هامش هذه القطعة ماصورته : شكر الله وفاءك يا ابن شيرين ! وقدس لحدك ! وأين مثلك فى الدنيا حسناً ووفاء وعلماً ؟ لا كما صنع ابن زَمْرَك فى ابن الخطيب مخدومه ، قاله على بن الخطيب ، انتهى .

ومن أشياخ لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ الأستاذ العلامة

---

(١) أخذ عجز هذا البيت من قول امرئ القيس بن حجر الكندى فى معلقته :

فظل طهاة اللحم من بين منضج ... صفيف شواء أو قدير معجل

أبو عثمان سعد ابن أحمد بن ليون ، التجيبى

العلم الأوحد الصَّدْر المصنف المحدّث الأفضل الأصلح الأورع الأتقى الأكمل أبو عثمان سعد ابن الشيخ الصالح التقى الفاضل المبرور المرحوم أبى جعفر أحمد ابن ليون ، التجيبى ، رضى الله تعالى عنه ! وهو من أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم فى الزهد والعلم والنصح ، وله تواليف مشهورة ، منها اختصار بهجة المجالس لابن عبد البر ، واختصار المرتبة العليا لابن راشد القفصى ، وكتاب فى الهندسة ، وكتاب فى الفلاحة ، وكتاب « كمال الحافظ ، وجمال اللافظ ، فى الحكم والوصايا والمواعظ » وكان مولعاً باختصار الكتب ، وتواليفه تزيد على المائة فيما يذكر ، وقد وقفت منها بالمغرب على أكثر من عشرين .

ومما حكى عن بعض كبراء المغرب أنه رأى رجلا طُوَالا فقال لمن حضره : لو رآه ابن ليون لاختصره ، إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب .

ومن تواليفه كتاب « نفح السحر ، فى اختصار روح الشحر وروح الشعر » لابن الجلاب الفهرى ، رحمه الله ! ومنها كتاب « أنداء الديم ، فى الوصايا والمواعظ والحكم » وكتاب « الأبيات المهذبة ، فى المعانى المقربة » وكتاب « نصائح الأحباب ، وصحائح الآداب » أورد فيه مائتى قطعة من شعره تتضمن نصائح متنوعة ، ولننفح منها نبذة فنقول : منها فى التحريض على العلم قوله رحمه الله تعالى :

زاحِمْ أولى العلم حتى ... تعتدّ منهم حقيقه
ولا يردك عجز ... عن أخذ أعلى طريقه
فإن من جدَّ يعطى ... فيما يحب لحوقه

وقوله :

شفاء داء العى حسنُ السؤال ... فاسأل تنل علماً وقل لا تبال(١)

---

(١) صدر هذا البيت من مثل ، وهو قولهم « شفاء العى السؤال » وأرادوا بالعى الجهل ؛ لأنه يحبس اللسان عن النطق .

واطلب فالاستحياء والكبر من ... موانع العلم فما إن ينال

وقوله :

(علمت شيئاً وغابت عنك أشياء) ... فانظر وحَقِّقْ فما للعلم إحصاء[1]

للعلم قسمان ما تدرى وقولك لا ... أدرى ومن يدّعى الإحصاء هَذّاء

وقوله :

من لم يكن علمه فى صدره نشبت ... يداه عند السؤالات التى ترد

العلم ما أنت فى الحمام تحضره ... وما سوى ذلك التكليف والكمد

وقوله :

الدرس رأس العلم فاحرص عليه ... فكل ذى علم فقير إليه

من ضَيَّعَ الدرس يرى هاذيا ... عند اعتبار الناس ما فى يديه

فعزة العالم من حفظه ... كعزة المنفق فيما عليه

وقال رحمه الله تعالى فى غير ما سبق :

ثلاث مهلكات لا محاله ... هوى نفس يقود إلى البَطَاله

وشُحٌّ لايزال يُطَاع دأبا ... وعُجْب ظاهر فى كل حاله

وقال :

اللهو منقصة بصاحبه ... فاحذر مذلة مؤثر اللهو

واللغو نَزِّهْ عنه سمعك لا ... تجنح له ، لا خير فى اللغو

وقال :

لا تمالئ على صديقك وادرأ ... عنه ما اسطعت من أذى واهتضام

ما تناسى الذِّمامَ قط كريمٌ ... كيف ينسى الكريم رَعْىَ الذمام

---

(١) صدر هذا البيت من قول أبى نواس الحسن بن هانى :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة ... حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

تطعم الكلب مرة فيحامى عنك، والكلب فى عداد اللئام

وقال :

أُحذر مُؤاخاة الدنىء فإنها عار يشين ويورث التضريرا
فالماء يخبث طعمه لنجاسة إن خالطته ويُسْلَبُ التطهيرا

وقال :

تحفظ من الناس تَسْلَمْ ولا تكن فى تقرُّبهم ترغب
ولا تترك الحزم فى كل ما تريد، ولا تبغ ما يصعب

وقال :

إخوانك اليوم إخوان الضرورة لا تثق بهم يا أخى فى قول أو فعل
لا خير فى الأخ إلا أن يكون إذا عَرَتْكَ نائبة يقيك أو يسلى[1]

وقال :

طلب الإنصاف من قلة إنصاف فساهل
لا تناقش وتَغَافَلْ فاللبيب المتغافل
قلما يحظى أخو الإنصاف فى وقتٍ بطائل

وقال :

من خافه الناسُ عَظَّموه وأظهروا بره وشكره
ومن يكن فاضلا حليما فإنما حظه المضره
فأْمرر وكن صارماً مبيراً يَهَبْكَ من قد تخاف شره

وقال :

إن تَبْغِ عدلا فما ترضى لنفسك من قول وفعل به أُعمل فى الورى تسد

---

(١) عرتك : نزلت بك ، والنائبة : النازلة من نوازل الدهر ، ويقيك : يحفظك ويحول بين النازلة وبينك ، ويسلى : يبعث السلوان والنسيان إلى نفسك .

وكل ما ليس ترضاه لنفسك لا تفعله مَعْ أحدٍ تكن أخا رشد(١)

وقال :

حسبى الله لقد ضَلَّتْ بنا عن سبيل الرشد أهواء النفوس

عجباً أن الهوى هُونٌ وأن نؤثر الهُونَ و إذلال الرؤس

وقال :

من يُخَفْ شره يُوَفَّ الكرامه ويوالى الرعاية المستدامه

وأخو الفضل والعفاف غريب يحمل الذل والجفا والملامه

وقال :

دع من يسىء بك الظنون ولا تحفل به إن كنت ذا همهْ

من لم يحسن ظنه أبداً بك أُطْرِحْهُ تكتفى همه

وقال :

نزه لسانك عن قول تعاب به وارغب بسمعك عن قيل وعن قال

لا تبغ غير الذى يعنيك واطرح الفضول تحيا قرير العين والبال

وقال :

كثرة الأصدقاء كثرة غرم وعتاب يُعْيِي و إدخال هم

فاغْنَ بالبعض قانعاً وتغافل عنهمُ فى قبيح فعل وذم

وقال :

ذل المعاصى ميتة يالها من ميتة لا ينقضى عارها

عز التقى هو الحياة التى ذو العقل والهمة يختارها

وقال :

---

(١) هذا البيت من قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

لا تُسَمِّعْ يوما صديقَكَ قولا فيه غض ممن يحبُّ الصديقُ(١)
إن بر الصديق لا شك منـه لصديق الصديق أيضاً فريق

وقال :

للجار حق فاعتمـــد بره واحمل أذاه مغضيا ساتراً
فالله قد وَصَّى به فاغتفر زَلَلَهُ الباطن والظاهرا

وقال :

سالم الناس ما استطعت وداری أخسر الناس أحمق لا يداری
ضرك الناس ضُرَّ نفسك يَجْنِي لا يقوم الدخان إلا لنـــار

وقال :

النصح عند الناس ذنب فَدَعْ نصح الذى تخاف أن يهجرك
الناس أعـــداء لنُصَّاحهم فاترك هُدِيتَ النصحَ فيمن ترك

وقال :

تجرى الأمور على الذى قد قدرا ما حيلة أبداً ترد مُقَـدَّراً
فارض الذى يجرى القضاء به ولا تضجر فمن عدم الرضا أن تضجرا

وقال :

أخوك الذى يحميك فى الغيب جاهداً ويستر ماتأتى من السوء والقبح
وينشر ما يرضيك فى الناس معلناً ويغضى ولا يألو من البر والنصح

وقال :

لا تصحب الأردى فتردى معه وربما قد تقتفى منزعـــه
فالحبل إن يُجْرَرْ على صخـرة أبدى بها طريقـــة مُشْرَعَهْ

---

(١) يريد لا ينبغى لك أن تقول أمام أحد أصدقائك شيئاً مكروهاً فى حق أحد أصدقاء صديقك ، فإن من علامة صدق الصديق فى صداقته أن يكون لصديق صديقه محباً .

وقال :

ما فات أو كان لا تندم عليه فما ... يفيد بعد انقضاء الحادثِ الندمُ

ارجع إلى الصبر تغنم أجره وعسى ... تسلو به فهو مَسْلاَة ومغتنم

وقال :

السخط عند النائبات زيادة ... فى الكرب تنسى مايكون من الفرج

مَنْ لم يكن يرضى بما يقضى فيا ... لله ما أشقى وأصعب ما انتهج[1]

وقال :

إن تبتغ الإخوان ما إن تجد ... أخا سوى الدينار والدرهم

فلا تهنهما وعَزِّزْهما ... تعش عزيزاً غير مستهضم

وقال :

من يستعن بصديقه ... يعن العدو على أذاته

بر الصديق مهَابة ... للمرء تحمل من عداته

فاحفظ صديقك ولتكن ... تبدى المحاسن من صفاته

وقال :

نعوذ بالله من شر اللسان كما ... نعوذ بالله من شر البريّاتِ

يجنى اللسان على الإنسان ميتته ... كم للسان مِنَ آفات وزلات

وقال :

من لم يكن مقصده مدحة ... فقد أتى بحبوحة العافيه

محبة المدحة رقٌّ بلا ... عتق وذل ياله داهيه

من لا يبالى الناس مدحا ولا ... ذما أصاب العيشة الراضيه

---

(١) انتهج : سلك ، والنهج ــ بفتح فسكون ــ الطريق .

وقال :

شر إخوانك مَن لا تهتدى فيـه سبيلا
يظهـر الود ويُخْفى مَـكْرُهُ دَاءً دخيـلا[١]
يتقى منك اتقـاء وهو يُولِيكَ الجميـلا

وقال :

قِوَامُ العيش بالتدبير فاجعل لعيشك منه فى الأيام قسطا
وخذ بالصبر نفسَكَ فهو عز تلوذ به إذا ما الخطب شطا[٢]

وقال :

العيش ثلث فطنـة والغير منـه تغافل
فتغافل أن كنت امرأ إيثـارَ عيشك تأمل

وقال :

ينفذ المقدور حتما لا يرد فعلامَ الحرص دأْبا والـكَمَدْ
أرح النفس تعش فى غبطة وكِلِ الأمر إلى الله فقد

وقال :

زر من تحب وزره ثم زره ولا تملَّ واجْعَلْهُ دأبا موضع النظر
لولا متابعة الأنفاس ما بقيت روح الحياة ولا دامت مَدَى العمر

وقال :

لا تترك الحزم فى شىء فإن به تمامَ أمرك فى الدنيا وفى الدين
من ضَيَّعَ الحزم تصحبه الندامة فى أيامـه ويرى ذل المهاوين

---

(١) داء دخيلا : خافياً فى دخيلة نفسه كالحقد والحسد ونحوهما ، نعوذ بالله !

(٢) تلوذ به : تلجأ إليه وتعتمد عليه ، والخطب : الحادث العظيم ، وشط : جاوز الحد .

وقال :

كن إذا زرت حاضر القلب واحذر أن تُمِلَّ المزور أو أن تطيلا(١)
لا تثقل على جليس وخفف إن من خَفَّ عُدَّ شخصاً نبيلا

وقال :

من خلا عن حاسد قد مات فى الأحياء ذكره
إنما الحاسد كالنا ر لعود طاب نَشْرُهْ(٢)
لا عدمنا حاسداً فى نعمة ليست تسره

وقال :

حبيبك من يغار إذا زللتا ويُغْلِظُ فى الكلام متى أسأتا
يُسَر إن اتَّصفت بكل فضل ويحزن إن نقصت أو انتقصتا
ومن لا يكترث بك لا يبالى أحِدْتَ عن الصواب أم اعتدلتا

وقال :

لِنْ لمن تخشى أذاه والقه فى باب داره
إنما الدنيا مدارا ة فمن تخشاه دَارِهْ

وقال :

حَسَدُ الحاسد رَحْمَهْ لا يرى إلا لنعمه
إنما الحاسد يشكو حر أكباد وغمه
لا عدمنا حاسداً فى نعمة تُكثر همه

وقال :

تبديل شخص بشخص خسران الاثنين جُمْلَهْ

---

(١) تمل : تبعث إلى نفسه الملل والسآمة ، والمزور : اسم المفعول من الزيارة .

(٢) يشير إلى قول أبى تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

فاشدد يديك على من عرفت ، وارفع محله
فإنْ قطع خليل بعد التواصل زله

وقال :

أنت بخير ما تركت الظهور والقال والقيل وطرق الشرور
من خاض بحراً فهو لابدّ يبتلّ ومن يَجْرِ يُصِبْه العثور
سلامة المرء اشتغال بما يهمه لنفسه من أمور

وقال :

أنت حرما تركت الطمعا وعزيز ما تبعت الورعا
وكفى بالعز مع حرية شرفا يختاره مَنْ قنعا

وقال :

خل بُنَيّاتِ الطرق ووافق الناس تَفُق[1]
من خالف الناس أتى أعظم أبواب الحُمُق[2]
فكن مع الناس فتر ك جملة الناس خرق

وقال :

لا تَضِقْ صدراً بحاسد فهو فى نار يكابد
من يرى أنك خير منه تَعْرُوهُ شدائد
إنما الحاسد يَشْقَى وهو لا يحظى بعائد

وقال :

من يستمع فى صديقٍ قولَ ذى حسد لا شك يُقْصيه فاحذر غِيلة الحسد
يهابك الناس ما تدنى الصديق فإن أقصيته زدت للأعداء فى العدد

---

(١) بنيات الطريق : أصلها الطرق الصغيرة تتشعب من الجادة ، ويراد بها صغائر الأمور .

(٢) الحمق ، والخرق فى البيت الآتى : أصلهما بضم أولهما وسكون ثانيهما ، ولكنه ضم الثانى فى كل منهما إتباعا للأول .

وقال :

كم من أخ صحبته والنفس عنه راغبه
خشيت إن فارقته بالهجر سوء العاقِبَهْ

وقال :

إذا كانت عيوبك عند نقدٍ تعدُّ فأنت أجدر بالكمال(١)
متى سلمت من النقد البرايا وحسبك ما تشاهد فى الهلال

وقال :

إذا انطوت القلوب على فساد فإن الصمت ستر أى ستر
فلا تنطق وقلبك فيه شىء بغير الحق واحذر قول شر

وقال :

إن كنت لا تنصر الصديق فدع سماعك القول فيه واجتنب
سماع عرض الصديق مَنْقَصَةٌ لا يرتضيها الكريم ذو الحسب

وقال :

أنت فى الناس تقاس بالذى اخترت خليلا
فاُصحب الأخيار تعلو وتنل ذكراً جميلا
صحبة الخامل تكسو من يواخيه خمولا

وقال :

اسمح يزنك السماح إن السماح رباح
لا تَلْقَ إلا ببشر فالبشر فيه النجاح
تقطيبك الوجهَ جد أجلُّ منه المزاح

---

(١) أخذ هذا من قول الشاعر ، ومن الناس من ينسبه لبشار :
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال :

من كنت تعرفه كن فيه متئدا يكفيك من خلقه ما أنت تعرفه

لا تبغ من أحد عرفته أبدا غير الذى كنت منه قَبْلُ تألفه

وقال :

حاسب حبيبك كالعدو تَدُمْ له منك المحبةُ فالتناصف روحها

من كان يغمض فى حقوق صديقه نقصت مودته وشِيبَ صَرِيحُها

وقال :

تَغَافَلْ فى الأمور ولا تناقش فيقطعك القريب وذو المودهْ

مناقشة الفتى تجنى عليه وتبدله من الراحات شدهْ

وقال :

إن شئت تعرف نعمة الله التى أولاك فانظر كل من هودونكا

لا تنظر الأعلى فتنسى ما لديك ومن من الضعفاء يستجدونكا

وقال :

عجباً أن ترى قبيح سواكا وتعادى الذى يرى منك ذاكا

لو تناصفت كنت تنكر ما فيك وترضى الوصاة ممن نهاكا

وقال :

جرب الناس ما استطعت تجدهم لا يرى الشخص منهم غير نفسه

فالسعيد السعيد من أخذ العفو ودارى جميع أبناء جنسه

وقال :

فرط حب الشىء يعمى ويُصِم فليكن حبك قصداً لا يَصِمْ[1]

---

(١) يصم فى الشطر الأول من الصمم وهو ضد السمع ، و « يصم » فى الشطر الثانى : مضارع « وصمه وصما » إذا ألصق به العيب ، وأخذ صدر البيت من قولهم فى مثل « حبك الشىء يعمى ويصم »

نقص عقل أن يُغَطِّى حسَّكَ الحــبُّ أو يلهيك عن أمرهم

وقال :

سلم وغُضَّ احتسابا فذا هو اليومَ أسلم
النقد نار تجلِّى فى القلب جمرا تضرم
فاطْوِ اعتراضك واغفل عن عيب غيرك تسلم

وقال :

عِدَةُ الكريم عطية لامطل فى عدة الكريم (١)
المطل تحريض العدا ة ، وذاك من فعل اللئيم
فدع المطال إذا وعدت فإنه عمل ذميم

وقال :

من تناسى ذنوبه قتلته وأبانت عنه الولى الحميا (٢)
ذكرك الذنبَ نفرة عنه تبقى لك إنكار فعله مستديما

وقال :

عجباً لمادح نفسه لا يهتدى لتنقُّصٍ يُبْدِيه فيه مدحُهَا
مَدْحُ الفتى عند التحدث نفسَه ذكرى معايبِهِ فيُدْرَى قبحُهَا

وقال :

من حسنت أخلاقه عاش فى نعمى وفى عز هنىء وود
ومن تَسُؤْ للخلق أخلاقُهُ يعش حقيرا فى هموم وكد

وقال :

من كان يحمى ناسه صار ذا عز وهابته نفوس البشر

---

(١) المطل ـ بالفتح ـ مصدر من مصادر « مطل المدين دائنه » إذا سوف فى أداء دينه ولواه به

(٢) أبانت : أبعدت ، والولى : الموالى لك

ومن يكن يخـذل أحبابه هان ، ومن هان فلا يعتبر

وقال :

قارب وسَدِّدْ إذا ما كنت فى عمل إن الزيادة فى الأعمال نقصان

ماخالف القصد فى كل الأمور هوى نفس ، وكلُّ هوًى شؤم وحرمان

وقال :

بقدر همته يعلو الفتى أبداً لا خير فى خامل الهمات ممتهن

هيهات يعلو فتى خمولُ همته يقودُه لابتذال النفس والمهن

وقال :

اصحب ذوى الحدة وارغب عن الـ ـخبيث فالصحبة ذا داؤها

وانظر إلى قول نبى الهدى «خيار أمتى أحِدَّاؤُهَا»[١]

قال :

ما صديق الإنسان فى كل حال يا أخى غير درهم يقتنيه

لا تُعَوِّلْ على سواه فتغدو خائب القصد دون ما تبتغيه

وقال :

يستفز الهوى للأنسان حتى لا يرى غير محنة أو ضلال

ويرى الرشد غير رشد ، ويغدو يحسب الحق من ضروب المحال

وقال :

لا تبالغ فى الشر مهما استطعتا وتغافل واحلم إذا ما قدَرْتَا

فانقلاب الأمور أسرع شىء وتجازى بضعف ماقد صنعتا

---

(١) الأحداء : جمع حديد ، ويقال « رجل حديد » إذا كان حادا فى السن والفهم والغضب

وقال :

مَثِّـلْ عواقب ما تأتى وما تذر — واحذر فقد ترتجى أن ينفع الحذر[1]
لا تُقْدِمَنَّ على أمر بلا نظـر — فإن ذلك فعل كله خطر
وانظر وفكر لما ترجو توقُّعَـهُ — فعمدة العـاقل التفكير والنظر

وقال :

حافظ على نفسك من كل ما — يشينها من خلل أو زلل
واحرص على تخليصها بالذى — تنجو به من قول أو من عمل

وقال :

سكر الولاية ما له صَحْوُ — وكلامهـا وحراكها زهو[2]
يهـذى الفتى أيام عزتها — فإذا تقضت نابه شَجْوُ[3]
فحذار لا تغررك صولتها — وزمانها فثبوتهـا محو

وقال :

دَعِ الجدال ولا تحفل به أبدا — فإنه سبب للبغض ما وجـدا
سلم تعش سالما من كل متعبة — قريرَ عينٍ إذا لم تعترض أحدا

وقال :

إذا ترى المبتلى اشكر أنْ نجَوْتَ ولا — تَشْمَتْ به ولتَسَلْ من ربك العافيه
وخف من أن تبتلى كما ابتلى فترى — كما تراه وما تقيك من واقيه

وقال :

العمر ساعات تقضى فلا — تقضيه فى السهو والغفله
واعمل لما أنت له صائر — ما دمت من عمرك فى مهله

(١) تذر : تترك ، وليس له ماض مستعمل
(٢) زهو : خيلاء وكبر
(٣) نابه : نزل به واعترافه ، والشجو : الحزن

ولا تكن تأوى لدنيا وقل لا بدّ لا بدّ من النقله

وقال :

كن رفيقا إذا قدرت حليما وتغافل تسلك طريقا قويما
لاتظُنَّ الزمان يبقى على من سره أن ينيل عزاً سليما
إن للدهر صولة وانقلابا ولهذا نعيمه لن يدوما

وقال :

من لم يكن ينفع فى الشده فلا تكن معتمدا وده
لا تعتمد إلا أخا حرمة إن ناب خطب تُلْفِهِ عده (١)
وخل من يهزأ فى وده ولا ترى فى معضل جده

وقال :

أخوك الذى تلفيه فى كل معضل يدافع عنك السوء بالمال والعرض
ويستر ما تأتى من القبح دائماً وينشر مايرضى وإن سؤته يغضى (٢)

وقال :

لا تنه عما أنت فاعله وانظر لما تأتيه من ذنب
وابدأ بنفسك فأنهها فإذا تقفو الصواب فأنت ذولب (٣)

وقال :

ليس الصديق الذى يلقاك مبتسما ولاالذى فى التهانى بالسرور يُرَى
إن الصديق الذى يولى نصيحته وإن عَرَتْ شدة أغنى بما قدرا

وقال :

عجبا لمستوف منافع نفســـــــه ويرى منافع من سواه تصعب

---

(١) تلفه : تجده ، والعدة ــ بالضم ــ ما تعده للنوائب والمعضلات

(٢) يغضى : مضارع «أغضى فلان عن الأمر» أى أغمض عينيه عنه وكأنه لا يراه

(٣) أخذ هذا من قول أبى الأسود الدؤلى :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

ما ذاك إلا عدم إنصاف ومن عدم التناصف كيف يرجو يصحب

وقال .

مَنْ عدم الهمة فى راحة من أمره يكرم أو يهتضم
وإنما يشقى أخو همة فإن الأنكاد بقدر الهمم

وقال :

قلما تنفع المداراة إلا عند أهل الحِفاظ والأحساب[1]
مَنْ يدارى اللئيم فهو كمن يسـ ـتعمل الدر فى نحور الكلاب

وقال :

دنياك هذى عَرَضٌ زائل تفتن ذا الغرة والغفله
فاعمل لأخراك وقدم لها ما دمت من عمرك فى مهله

وقال :

نصيحة الصديق كنز فلا تَرُدَّ ماحييت نصح الصديق
وخذ من الأمور ما ينبغى ودع من الأمور مالا يليق

وقال :

أنت حر ما لم يقيدك حُبٌّ أو تكن فى الورى يُرَى لك ذنب
الهوى كله هَوَانٌ وشغل والمعاصى ذل يُعَانى وكرب

وقال :

هون عليك الأمورا تعش هنيئًا قريرا[2]
واعلم بأن الليالى تبلى جديدا خطيرا
وتستبيح عظيما ولا تجير حقيرا

---

(١) الحفاظ ـ بكسر الحاء ـ المحافظة والذب عن المحارم
(٢) قريرا : رخى البال ناعم العين

وقال :

ألف صديق قليل والود منهم جميل
كما عدوّ كثير إذ ضره لا يزول
فلا تُضَيِّعْ صديقا فالنفع فيه جليل

وقال :

دع الحسود تعاتبه لظى حسده حتى تراه لَقًى يموت من كمده(١)
ماللحسود سوى الإعراض عنه وأن يبقى إلى كربه فى يومه وغده

وقال :

الناس حيث يكون الجاه والمال فخل عنك ولا تحفل بما قالوا
وعَدّ عمن يقول العلم قصدهم أو الصلاح أما تبدوله الحال
انظر لماذا هم يسعون جهدهم يبن لك الحق لا يعروه إشكال

وقال :

توسط فى الأمور ولا تجاوز إلى الغايات فالغايات غَيٌّ
كلا الطرفين مذموم إذا ما نظرت وأخْذُكَ المذمومَ عِيٌّ

وقال :

عامل جميع الناس بالحسنى إن شئت أن تحظى وأن تهنا
ولا تسىء يوما إلى أحد فتجمع الراحة والأمنا

وقال :

لا تفكر فللأمور مدبِّرْ وأرض ما يفعل المهيمن واصبر
أنت عبد وحكم مولاك يجرى بالذى قد قضى عليك وقدر

---

(١) لقى – بفتح اللام مقصورا بزنة فتى – ملقى مهملا لا حافظ له

وقال :

إذا رأيت القبيحا فقل كلاما مليحا
وأغْضِ واسْتُرْ وسلم وكن حليما صفوحا
تعش هَنِيئًا وتلقى برا وشكرا صريحا

وقال :

من ينكر الإحسان لا توله ما عِشْتَ إحسانا فلا خير فيه
البذر فى السباخ ما إن له نفع فـذره فهو فعل السفِيهْ

وقال :

من لم يكن ينفع فى وده دعه ولا تَقُمْ على عهـده
وُدٌّ بلا نفع عناء فلا تعن بشىء حاد عن حده

وقال :

دُرْ مع الدهر كيفما دار إن شئت تصحبه
ودع الحذق جانبا ليس بالحذق تغلبه
وحـذار انقـلابه فكثير تقلبه

وقال :

من ليس يغنى فى مغيب عنك لا تحفل به فوداده مدخول[1]
يثنى عليك وأنت معه حاضر فإذا تَغِيبُ يكون عنك يميل

وقال :

دع نصح من يعجبه رأيه ومن يرى ينجحه سعيه
النصح إرشـاد فلا توله إلا فتى يحزنه غيـه

---

(١) مدخول : فيه دخل ، وهو الفساد

لا يقبل النصح سوى مهتد ... يقوده لرشـــده هديه

وقال :

البخت أفضل ما يُؤْتَى الفتى فإذا ... يفوتهُ البخت لا ينفك يتضع(١)

يكفيك فى البخت تيسير الأمور وأن ... يكون ما ليس ترضى عنك يندفع

وقال :

افعل الخير مااستطعت ففعل الـــخير ذكر لفاعليه وذخر

وتواضع تنل عـلاء وعزا ... فاتضـاع النفوس عز وفخر

وقال :

صديق المرء درهمه ... به مادام يُعْظِمُهُ

فصنه مااستطعت ولا ... تكن فى اللهو تعدمه

ففقـر المرء ميتته ... لذا تغـدو فترحمه

وقال :

لا تقرّب ما اسطعت خل عدوّ ... فخليل العدوّ حِلْفُ عـداوه

وتحفظ منـه وداريه وانظر ... هل ترى من سيماه إلا القساوه(٢)

وقال :

لاتعد ذكر ما مضى فهو أمر ... قد تقضى وقد مضى لسبيله

وتكلم فيما تريد من الآ ... تى ودَبِّرْ للشىء قبل حلوله

وقال :

قساوة المرء من شقائه فإذا ... يلين سَادَ بلا أين ولا نصب

لا يرحم الله إلا الراحمين ، فمن ... يرحم ينل رحمة فى كل منقلب

---

(١) البخت : الحظ ، ويؤتى الفتى : يمنح ويوهب

(٢) « وداريه » هكذا ، ومن حق العربية أن يقول « وداره » بحذف الياء كما تقول : قاضه ، وناجه ، وما أشبه ذلك

وقال :

جىءبالسماح إذاماجئت فى غرض ... ففى العبوس لدى الحاجات تصعيب
سمـاحة المرء تنبى عن فضيلته ... فلايكن منك مهمااسطعت تقطيب (١)

وقال :

لا تسامح يوما دَنيا إذا ما ... قال فى فاضلٍ كلاما رديا
إن قصد الدنى إنزال أهل الفضل حتى يرى عليهم عليا

وقال :

خذ من القول بعضه فَهْوَ أولى ... وتحفظ مما يقول العـــــداة
ربما تأخـــذ الـكلام بجد ... وهو هزل قد نمقتـه عداة
فاحترز من غرور ألَأُقوال واعلم ... أن ألَأُقوال بعضها كذبات

وقال :

نافس الأخيار كيما ... تحرز المجـد الأثيلا
لا تـكن مثـل سَرَابٍ ... رىء لم يَشْفِ غليلا (٢)
إنما أنت حديث ... فلتكن ذكرا جميلا

وقال :

الصمت عز حاضر ... وسلامة من كل شر
فإذا نطقت فلا تُكـَثِّر واجتنب قول الهذر
وحذار مما يُتَّقَى ... وحذار من طرق الغرر

وقال :

سلامة الإنسان فى وحـدته ... وأنسه فيها وفى حرفته

---

(١) تنبي : أصله تنبىء ـ بالهمز ـ فقلب الهمزة ياء لـكسر ماقبلها، ومعناه تخبر

(٢) رىء : أصله « رئى » فقدم الياء التى هى لام الـكلمة على الهمزة التى هى عينها ثم عامله معاملة « قيل » و « بيع » وشبههما

ما بقى اليوم صديق ولا ... من ترتجى النصرة فى صحبته
فقرّ فى بيتك تسلم وَدَعْ ... من ابتلى بالناس فى محنته

وقال :

مطاوعة النساء إلى الندامه ... وتوقع فى المهانة والغرامه
فلا تطع الهوى فيهن واعدل ... ففى العدل الترضِّى والسلامه

وقال :

كانت مشاورة الإخوان فى زمن ... قَوْلُ المشاوِر فيهم غير متهم
وَالآن قد يخدع الذى تشاوره ... أُشماتا أُو حسدا يقليك فى الندم
فاضرع إلى الله فيما أنت تقصده ... يهديك للرشد فى الأفعال والكلم

وقال :

عدّ عمن يراك تصغر عنه ... وتَحَفَّظْ من قربه وأبنه(١)
إن من لا يراك فى الناس خيراً ... منه فالخير فى التحفظ منه

وقال :

رزانة المرء تُعْلِى قدره أبدا ... وطيشه مسقط له وإن شرفا
فار بأ بنفسك من طيش تعاب به ... وإن تكن حزت مَعْهُ العلم والشرفا

وقال :

الصدق عز فلا تعدل عن الصدق ... واحذر من الكذب المذموم فى الخلق
من لازم الصدق هابته الورى وَعَلَا ... فالزمه دأبا تفز بالعز والسبق

وقال :

ليس التفضل يا أخى أن تحسنا ... لأخ يجازى بالجميل من الثَّنَا

---

(١) عد عنه : تجاوزه ولا تركن إليه ، ومثله قول الشاعر :

إذا ما تميمى أتاك مفاخرا ... فقل عد عن ذا ، كيف أكلك للضب

إن التفضل أن تجازى من أسا   لك بالجميل وأنت عنه فى غنى

وقال :

من واصل اللذات لابدّ أن   تعقبه منها الندامات

فخذ من اللذات واترك ولا   تسرف ففى الإسراف آفات

وقال :

دع معجبا بنفسه   فى غيه ولبسه

لا يقبل النصح لها   من نخوة برأسه

فخله نكيده   وعجبه بنفسه

وقال :

عتب الصديق دلالة   منه على صدق المودة[١]

فإذا يقول فقصده التـ   ـنزيه عما قام عنده

فاحلم إذا عتب الصديق   ولا تخيب فيك قصده

وقال :

تُرتجَى فى النوائب الإخوان   هم لدى كل شدة أعوان

فإذا لم يشاركوا فسواء   هم والأعداء كيفما قد كانوا

وقال :

انصر أخاك على علاته أبدا   تهَب وتسلك سبيل العز والظفر

ولا تدعه إلى الإشمات مطرحا   فإن ذلك عين الذل والصغر

وقال :

من عز كانت له الأيام خادمة   تريه آماله فى كل ماحين

(١) أصل هذه الأبيات قول الشاعر :

إذا ذهب العتاب فليس ود   ويبقى الود ما بقى العتاب

ومن يهن أولغت فيه المدى وأرت له النوائب فى أثوابها الجون (١)

وقال :

خل المنجم يَهْذِى فى غوايته واقصد إلى الله رب النجم والفلك
لو كان للنجم حكم لم تجد أحدا يخالف النجم إلا أُنهِدّ فى درك

وقال :

حماية المرء لمن يصحب تدل أن أصله طيب
لا خير فيمن لا يُرَى ناصرا صديقه وهْوَ له ينسب

وقال :

يا عاتبا من لا له هِمَّةٌ ألا اتَّئِدْ إلى متى تعتب
هل يسمع الميت أو يبصر الأعمى ؟ محال كل ما تطلب

وقال :

لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أولو الفضل من أُهل العقل (٢)
هيهات يدرى الفضل مَنْ ليس له فضل ، ولو كان من أُهل النبل

وقال :

لا تطاب المرء بما اعتدت من أخلاقه والمرء فى وهن
تنتقل الأخلاق لا شك مَعْ تنَقّلِ الحالات والسن

وقال :

لا تعامل ما عِشْتَ غيرك إلا بالذى أنت ترتضيه لنفسك
ذاك عينُ الصوابِ فألزمه فيما تبتغيه من كل أبناء جنسك

---

(١) المدى : جمع مدية ـ بضم الميم فيهما ـ وهى السكين ، والجون : السود
(٢) أخذ هذين البيتين من قول الشاعر :

إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه

وقال :

باعِدِ الناس يوالوكا ... واعتزل عنهم يهابوكا
فإذا ما تصطفيهم ... وقعوا فيك وعابوكا

وقال :

إياك لا تخذل الصديقا ... وازع له العهد والحقوقا
نُصْرَته ماقدرْتَ عزٌّ ... تمهده للعلا طريقا
فلا تسامح به عدوا ... وكن له ناصراً حقيقاً

وقال :

حدث جليسك ماأصغى إليك، فإن ... تراه يعرض فاقطع عنه وانصرفِ
خفف فقد يُضْجِرُ الذى تجالسه ... طولُ المقام أوالتحديث فى سَرَفِ

وقال :

جِمَاعُ الخير فى تَرْكِ الظهور ... وإظهار التواضع والبرور[1]
وفى أضدادها من غير شك ... جميع وجوه أنواع الشرور

وقال :

محبة الدرهم طبع البشر ... فاقْنَعْ من المرء بما قد حضر
وقس على نفسك فى بذله ... تقف على تحقيق عين الخبر

وقال :

لا يَلُمْ غيرَ نفسه كلُّ من قد ... عرض النفس أن تُهان فذلاَّ
ينظر العاقلُ الأمورَ فيأبى ... أن يرى منه غير ماهو أولى

---

(١) جماع الخير — بكسر الجيم — الذى يجمعه ويكون هو وحده بمنزلة كل أفراده

وقال :

أعْذَرُ الناس من أتته المضره   من أخ كان يرتجى منه نصره
مثل من غص بالشراب فـــكان الهلك فيما رجاه يدفع ضره(١)

وقال :

سلم تعش سالما ممـــا يقال   من يعترض فى كل حال
نقد الفتى غافلا عن عيبـه   لا يرتضى عند أرباب الـكمال

وقال:

تواضُعُ المرء ترفيع لرتبتـــه   وكبره ضعة من غير ترفيع
فى نخوة الـكبر ذل لا اعتزاز له   وفى التواضع عز غير مدفوع

وقال :

إياك لا تنكر فضيلة كل من   تدرى فضيلته فترمى بالحسـد
إنكارها يجنى عليـك تنقصا   ويزيده شرفا يديم لك الكمد

وقال :

انصر أخاً لك ما استطعت فإنما   تعتز بالإخوان ما عزوا
من يخذل الإخوان يخذل نفسه   ويَهُنْ وما لهوانه عز

وقال :

إذا جزاك بسوء مَنْ أسأت له   فذاك عدل وما فى العدل من زلل
جـزاء سيئة بالنص سيئة   لا حَيْفَ فى ذاك فى قول ولا عمل(٢)

وقال :

نفس وشيطان ودنيا والهوى   يارب سلم من شرور الأربعة

---

(١) أخذ هذا من قول الشاعر :

إلى الماء يسعى من يغص بريقه   فقل أين يسعى من يغص بماء

(٢) يشير إلى قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها)

أنت المخلص مَنْ رجاك و إننى أرجوك فيما أتقى أن تدفعه

وقال :

لا تعظم يا أخى نفسك إن شئت السلامه

من يعظم نفسه يَجْنِ امتهانا وملامه

فتواضع تلق عزا واحتفاء وكرامه

وقال :

دع لذة الدنيا فمن يُبْتَلَى بحبها ذاق عذاب السموم

لذاتها حلم ، وأيامها لمح ، ولكن كم لها من هموم

محبة الدنيا هلاك ، فمن يرومها أهلكه ما يروم

وقال :

كل خل يعدُّ ما أنت تُخْطِى لا تعوّل على صفاء وداده

إنما الخل من تناسى خطايا ك ويبقى له جميل اعتقاده

وقال :

من عامل الناس بالإنصاف شاركهم فى مالهم وأحَبُّوه بلا سبب

إنصافك الناسَ عدل لا تزال به تعلو إلى أن ترى فى أرفع الرتب

وقال :

قل جميلا إن تكلمت ولا تقل الشر فعقبى الشرشر

من يقل خيرا ينل خيرا ، ومن يقل الشر إذا يخشى الضرر

وقال :

إذا التأمت أمورك بعضَ شىء بأرضك فاستقم فيها ولازم(١)

---

(١) التأمت أمورك : أصل هذه العبارة قولهم « التأم الجرح » إذا اندمل وبرىء ، واستعمل فى هذا الموضع مجازا

فما في غربة الإنسان خير وما بالغربة الدنيا تلازم

وقال :

إلى مَتَى تسرح مَرْخِيَّ العنان قل يا أخي حتى متى ذا الحران

ارجع إلى الله وخل الهوى فما الهوى يا صاح إلا هوان

قد أنذر الشيب فهل سامع أنت فمُصْغٍ للذي قد أبان؟

وقال :

من يكفر النعمة لا بدّ أن يُسْلَبَهَا من حيث لا يشعر

ومن يكن يشكرها معلناً دامت له ناميةً تكثر

وقال :

اعذر أخا الفقر في أن يضيق ذَرْعًا بنفسه

الفقر موت ، ولكن من للفقير برَمْسِهْ ؟

إن الفقير لمَيْتٌ ما بين أبناء جنسه

وقال :

كما تدين أنت يا صاحبي تدان فاُعمل عمل الفاضل

أنت كما أنت فخلِّ الذي يُزَيِّنُ النفسَ من الباطل

وأين أنت ثم أنت ادْرِ ذا حَسْبُكَ فاحذر زلل العاقل

وقال :

مالُكَ ما أنفقته قربة لله ، والباقي حساب عليك

فقدمِ المال تَرِدْ آمنا من بعدهِ وهو ثواب لديك

---

(١) أخذ هذا من قول الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

وقال :

دع مدح نفسك إن أردت زكاءها فَبِمَدْحِ نفسك من مقامك تسقط
ما أنت تخفضهـــا يزيد علاؤها والعكس ، فانظر أيُّمَا لك أحوط

وقال :

ذو النقص يَصْحَبُ مِثْلَهْ فالشكل يألف شَكْلَهْ(١)
فاصحب أخا الفضل كيما تقفو بفعلك فعـلَهْ
أما ترى المســك دأبا يكسب طيبا محـلَّهْ

وقال :

من عينى المرء يبدو ما يكتمه حتى يكون الذى يرعاه يفهمه
ما يضمر المرء يبدو من شمائله لناظر فيــه يهديه توسُّمه

وقال :

إنمــا الدنيا خيال وأمانيها خبــال
حبها سكر ، ولكن وصلها ما إن ينال
فتنزه عن هواهـا فَهَوَى الدنيا ضلال

وقال :

قلما يؤذيك من لا يعرفك فتحفَّظْ من صديق يألفك
لا تثق بالود ممن تصطفى كم صديقٍ تصطفيه يتلفك

وقال :

لا تَضْجَرَن فى الأمور وارض بما يقضى به الله فَهْوَ مكتتب
ما قــدّر الله لا مرد له فمـا يفيد العناء والتعب

---

(١) هذا من قول الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقال :

تنزه عن دنيــات الأمور وخذ بالحزم فى الأمر الخطير
فأشراف الأمور لهــا جمال وخطر فى البهاء وفى الظهور
وفى سَفْسَافها لا شك وَهَنٌ وتمهين يشين مدى الدهور

وقال :

من يبتلي من أهـــله بمنغص يصبر ، فمـا أحد بغير منغص
من أزمنت بالوجه منه قرحة يعزم على ضرر يشين مخصص

وقال :

من كان فى عزته دارِهِ وكررِ المشى إلى داره[1]
قبل يَدًا تعجز عن قطعها ولِنْ لمن تخشى من أُضراره

وقال :

لا تبتغ النعمة من جائع لم يَرَهَا قبــلُ لآبائه
لا يرشَحُ الإناء ما لم يكن ملآن قد أفعم من مائه

وقال :

مروءة المرء رأس ماله وصونه أشرف اعتماله
من لم يَصُنْ نفسه تردَّى وزال عن رتبة اكتماله

وقال :

ترك المطامع عزه واليأس أهنى وأنْزَهْ
هيهـات يعتز مُثْرٍ أضحى للأُطماع نُهْزَهْ
نزاهة النفس عز ما ذل من يتـنزهْ

---

(١) « داره » فى نصف البيت الأول : فعل أمر من المداراة اتصل بضمير الغـائب ، و « داره » فى آخـر البيت مضاف ومضاف إليـه : أى الدار التى يقيم فيها

وقال :

تعظيمك الناسَ تعظيم لنفسك فى   قلوب أُلَأُعداء طرا والأوداء
من يُعْظِمِ الناس يَعْظُمْ فى النفوس بلا   مؤنة ويَنَلْ عِزَّ الأعزاء

وقال :

اقْنَعْ من الناس بمقدار ما   يعطون لا تبتغ منهم مزيد
حسبك من كل امرئ قَدْرُ ما   يعطيك فالأطماع ما إن تفيد

وقال :

لِنْ إذا كانت الأمور صعابا   وتواضع لهـا تَجِدْهاَ قرابا
دار من شئت تنتفع منه واترك   صولة الكبر فَهْىَ تجنى عذابا
لا تكن تأخذ الأمور بِعُنْفٍ   من يعانى الأمور بالعنف خابا

وقال :

سامح الناس إن أساؤا إليكا   وتغافل إذا تجنَّوْا عليكا
ما ترى كيف أنت تعصى ومولا   كَ يزيد الإنعام دأبا لديكا

وقال :

اغتنم ساعة أنس   وأُنْسَ ما كان بأمس
ليس للمرء من دنيـاه سوى راحة نفس
من يكن حِلْفَ هموم   باع دنياه ببخس

وقال :

حُبُّكَ الشيء يُغَطِّى قبحه   فتراه حسنا فى كل حال
لا يرى المحبوب إلا حسنا   كان قبح فيه مع ذا أو جمال

---

(١) فى مثل لعامة مصر « مراية الحب عميا » أى مرآة الحب عمياء ، والمعنى أن الحب يغطى على عيوب المحبوب .

حَتَّمَ الحب على ذى الحب أن ... لا يرى المحبوب إلا فى كمال

وقال :

يحسب الناقص أن الناس قد ... غفــلوا عن حاله فى ضَعَتِهْ

لا يرى الناقص إلا أنه ... كامل من نعته فى صفته

غَلَطُ المرء يغطى عقــله ... أن يرى النقص الذى فى جهته

وقال :

أيام عمرك هٰذِى ... ساعاتها رأس مالك

فاحرص على الخير فيها ... قبل أوان ارتحالك

فإنمــا أنت طيف ... تجتاب سُبْلَ المهالك

وقال :

تجد الناس على النقص ولا ... تجد الكامل إلا مَنْ ومَنْ

زمن الباطل وافى أهــلَه ... وكذاك الناسُ أشباه الزمن

وقال :

قل جميلا إذا أردت الكلاما ... تَجْنِ عزا مُهَنَّأً مستداما

إن قول القبيح يورث بغضا ... وصَغَارا عند الورى وملاما[٢]

وقال :

حَسِّنِ الظن تعش فى غبطة ... إن حُسْنَ الظن من أقوى الفطن

من يظن السوء يُجْزَى مثله ... قلمــا يُجْزَى قبيح بحسن

وقال :

إن تبغ إخوان الصفاء فهم ... تحت التراب انتقلوا للقبور[١]

---

(١) الصفاء ــ بفتح الصاد ــ الذلة والهوان .

(٢) تبغ : تطلب .

إخوانك اليوم كأزمانهم مشتبهون فى جميع الأمور

وقال :

ومستقبح من أخ خَلَّةً وفيه معايب تسترذل
كأعمى يخاف على أعور عثارا وعن نفسه يغفل

وقال :

من يبتغ الود من الناس يكن لما قالوه بالناسى (١)
أغْضِ عن الناس تنَلْ ودهم إنك لا تَغْنَى عن الناس

وقال :

أعيت مع الناس الحيل وبار فيهم العمل
فى أى وجه أملوا يخيب منهم الأمل
فآثِرِ العزلة عنهم تنج من كل خلل

وقال :

لا ترج غير الله فى شىء تنل ما تبتغيه وتُكْفَ كل مخوّف
الله أعظم من رَجَوْتَ فثق به فهو الذى أعطى وأنجى من كفى

وقال :

توسل إلى الله فى كل ما تحب بمحبوبه المصطفى
تنَلْ ما تحبُّ كما تبتغى وحسبك جاها به وكفى

انتهى ما لخصت واخترت من الكتاب المذكور .

وهذه نبذة من كتابه «الأبيات المهذبة ، فى المعانى المقربة» فمن ذلك قوله :

اكتم السر واجعل الصدر قَبْرَهْ لا تَبُحْ ما حييت منه بذَرَّهْ

---

(١) زيادة الباء فى خبر « يكن » فى هذا الموضع ليس مما تجيزه العربية ، إنما تزاد الباء في خبر « كان » أو «يكون» إذا تقدمهما نفى أوشبهة كما فى قول الشنفرى :

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن بأعجلهم ، إذ أجشع القوم أعجل

أنت مالم تَبُحْ بسرك حر ... فإذا بحت صرت عَبْداً بمره

من يرد أن يعيش عيشا هنيئا ... يتحفظ مما عسى أن يضره

وقال :

عداوة العاقل مع عسرها ... آمن من صداقة الأحمق[١]

يمكن الأحمق من نفسه ... عمدا ومن أحبابه يتقى

لا يحفظ الأحمق خلاًّ ولا ... يرضاه للصحبة إلاَّ شقى

وقال :

إذا أمعنت فى الدنيا اعتبارا ... رأيت سرورها رهن انتحاب

بعاد عن تدانٍ وافتقارٌ ... عن استغنا وشيبٌ عن شباب

حياة كلها أضغاث حلم ... وعيش ظله مثل السراب

وقال :

من تره يسرف فى ماله ... يتلفه فى لذة وانهماك

فذلك المغبون فى رأيه ... يسلك بالنفس سبيل الهلاك

وقال :

من لا يرى نفسه فى الناس قاصرة ... عن الكمالات لم يكمل له أدب[٢]

ومن يكن راضيا عن نفسه أبدا ... فذاك غر عن الآداب محتجب

آداب الإنسان تحقيقا تواضعه ... وجريه دائما على الذى يجب

وقال :

يحقُّ الحق حتما دون شك ... وإن كره المشكك والمُلِدُّ

صريح الحق قد يخفى ولكن ... بُعَيْدَ خفائه لا شك يبدو

---

(١) هذا من قول العرب « عدو عاقل خير من صديق جاهل » .

(٢) هذا من قولهم « أول الكمال الشعور بالنقص » .

وقال :

كُلُّ ما قد فات لا رَدَّ له ... فلتكن عن ذاك مصروف الطمع
أيعود الحسن من بعد الصبا ... قلما أدبر شىء فرجع [١]

وقال :

اغتنم غفلة الزمان وبادر ... لذة العيش ما بقيتَ سليما
أمر هذى الحياة أيسر من أن ... تقتدى فيه لائما أو مَلُومَا

وقال :

لا تَغُرَّنْكَ صولة الجاه يوما ... أو تظنن أنها تتمادى
صولة الجاه لفح نار ولكن ... كل نار لابد تُلْفَى رمادا

وقال :

تَنَحَّ عن الناس مهما استطعت ... ولاتك فى الناس بالراغب
من اعتمد الناس يَشْقَى ولا ... يرى غير منتقد عائب

وقال :

لا تقل يوما ... فتقاسى محنا
من يعظم نفسه ... يلق هَوَاناً وعَنَا
شر ما يأتى الفتى ... مدحه لو فطنا

وقال :

الناس إخوان ذى الدنيا وإن قبحت ... أفعاله ، وغدا لا يعرف الدينا
يُعَظِّمون أخا الدنيا وإن عثرت ... يوما به أَوْلَغُوا فيه السكاكينا [٢]

---

(١) أدبر : ولى وذهب

(٢) انظر (ص ٨٠ من هذا الجزء)

وقال :

العدل روح به تحيا البلاد كما هلا كها أبدا بالجور ينحتم[١]
الجور شين به التعمير منقطع والعدل زين به التمهيد ينتظم
ياقاتَلَ الله أهل الجور كم خربت بهم بلاد وكم بادت بهم أمم

وقال :

اليأس أسلى وأغنى من نيل ما يتمنى[٢]
يسلو أخو اليأس حتى يهنا ولا يتعنى
لليأس برد فمن لم يذقه لم يتهنا

وقال :

إذا عَظُمَتْ نفس امرئ صار قدره حقيرا وحيث احتلّ فالذل صاحبه
يسود ويعلو ذو التواضع دائما ويحظى كما يرضى وتُقْضَى مآربه

وقال :

وُدُّ من يصطفيك للنفع زورُ والجميل الذى يريك غرور
إنما الود وُدُّ مَنْ ليس يخشى فيك ممن يلوم أو من يضير

وقال :

اشكر لمن والاك معروفاً تكن بفضل النفس معروفا
شكر أخى المنة عدل فكن بالعدل مهما اسطعت موصوفا
من يكفر الإحسان لابدّ أن يلفى عن الإحسان مصروفا

وقال :

حسب اِلأنسان ماله وهو فى الدنيا كماله

---

(١) الجامع لمعنى هذه الأبيات قولهم « العدل أساس الملك »
(٢) الجامع لمعنى هذه الأبيات قولهم « اليأس إحدى الراحتين »

يضجر الفقر أخا الحلـــم وإن طال احتماله
عزة المرء غنـاه وبه تحسن حاله

وقال :

لا تصاحب أبداً من عقله غـــير متين
إنَّ نقص العقل داء يُتَّقَى مثل الجنون
صحبة الأحمق عار لاحق فى كل حين

وقال :

وافقِ الناس إن أردت السلامه إن روح الوفاق روح كرامه
من يوافق يعش هنيئاً قريراً آمنا من أذية ومـــلامه
فتوقَّ الخلاف واحـذر أذاه فركوب الخلاف عمدا ندامه

وقال :

ظلمات الخطوب مهما ادلهَمَّتْ يُجلِّيها كالصباح فَجْرُ انفراج (١)
أرِحِ النفس لاتبت حِلْفَ هم كم هموم فيها السرور يفاجى

وقال :

من لم يكن يقصد أن يحمدا يعش هنيئاً وينل أسعدا
من يبتغى المدحة لا بدّ أن يلحقه الذل وأن يجهدا
عيش الفتى فى ترك تقييده وموته البحث إذا قيدا

وقال :

قل لأهل الحاجات مهما ابتغوها حسـبكم ما أتى من التنبيـه
إن تريدوا الحاجات من غير بطء فاطلبوها عنـد الحسان الوجوه

---

(١) تقول « ادلهم الليل » تريد أنه اشتد ظلامه وكثف ، ويجلها : يكشفها وينير ظلمتها

وقال :

خذ الأمور برفق واتئد أبدا … إياك من عجل يدعو إلى وَصَبِ[1]

الرفق أحسن ما تؤتى الأمور به … يصيب ذو الرفق أو ينجو من العطب[2]

من يصحب الرفق يستكمل مطالبه … كما يشاء بلا أين ولا تعب

وقال :

من يبتغى السودد لابد أن … يرهقه الجهد فلا يضجر

يصعب إدراك المعالى فمن … يرم لحاق بعضها يصبر

لا يحصل السودد هينا ولا … يظفر بالبغية إلاَّ جَرِى

وقال :

عاش فى الناس مَنْ دَرَى قدر نفسه … ثم دارى جميع أبناء جنسه

علم الإنسان قدره نبل عقل … وذكاء يبين عن فضل حَدْسِهِ

وقال :

عَظِّم الناس تَنَلْ تعظيمهم … واجتنب تحقيرهم فهو الرَّدَى

من يرى الناس بتحقير يكن … عندهم مُؤْذًى حقيراً أبدا

لا يغرنك إهمال امرئ … ربما يؤذى الذباب الأسدا

وقال :

حب الرياسة ياله من داء … كم فيه من مِحَنٍ وطول عناء

طلبُ الرياسة فَتَّ أعضاد الورى … وأذاق طعم الذل للكبراء

إن الرياسة دون مرتبة التقى … فإذا اتقيت علوت كل علاء

---

(١) الوصب : التعب ، وقالوا « فى التأنى السلامة ، وفى العجلة الندامة »

(٢) الأين : الهم والتعب والنصب

وقال :

لا تركنن إلى بشر إن شئت تأمن كل شر
ذهب الذين إذا ركنت لهم أمنت من الضرر(١)
لم يبق إلا شامت أو من يضر إذا قدر

وقال :

خَلِّ رأى الجهال ما اسطعت واتبع رأى أهل الحلوم والتجريب
لا تحد عن مشورة فى مهم فهى مما تنمى حياة القلوب
رأى أهل الصلاح نور يجلِّى ظلمة الكرب فى ليالى الخطوب

وقال :

لا يرتضى بالدون إلا امرؤ مقصر ذو همة خامله
الموت خير من حياة الفتى مهتضما ذا رتبة سافله
روح حياة المرء فى عزه من ذل مات الميتة العاجله

وقال :

استغن عمن تشاء فالله يغنيك عنه
من أمَّلَ الناس يشقى وليس يقنع منه
فإن ظفرت بحرٍّ فاحفظ عليه وصنه

وقال :

خذ من صديقك قدر ما يعطيكا لا تبغ أزيد واحذر أن يجفوكا
من يبغ مقدار الذى يحتاجه منَ أُخيه يَبْقَ مخيباً متروكا
شأن الألى رزقوا الحجا أن يقنعوا فابغ القناعة إنها تغنيكا

---

(١) هذا من قول لبيد :
ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

وقال :

هُنْ إذا عز أخوكا واخش أن يقرض فيكا[1]
إن من عاند أقوى منه قد ضل سلوكا[2]
نقص عقل أن تعادى بشرًا لا يتقيكا

وقال :

تنزه ما حييت عن القبيح وخالف من يرى رَدَّ النصيح
وخذ بالحزم مهما اسطعت واحذر من اُن يلقيك حزمك فى فضوح
فلا تعدل عن الحق التفاتاً لغير الحق من بعد الوضوح

وقال :

لا تخف فى الحق لوما صدقه ينجيك حتما
ينجلى الحق ويبدو نوره لا يتعمَّى
شأن ذى الحق اهتداء وأخو الباطل أعمى

وقال :

عامل بجد جميع الناس تحظ به وجنب الهزل إن الهزل يرديكا
الجد أحسن ما تبديه من خلق والجد أشرف ما فى الناس يعليكا
من لازم الجد هابته النفوس ومن يهزل يكن أبدا فى الناس مهتوكا

وقال :

كفاك الله شرَّ من اصطفيتا وضُرَّ من اعتمدت ومن عرفتا
جميع الناس موتى عنك إلاّ معارفك الذين لهم ركنتا
تحَفَّظْ من قريب أو صديق وكن فى الغير دَهْرَكَ كيف شئتا

---

(١) هذا من قولهم فى مثل « إذا عز أخوك فهن »

(٢) وهذا من قولهم « لا تعاند من إذا قال فعل »

وقال :

من كان يرغب عن أحبابه ويرى ... تقريب أعدائه لا شك يُهْتَضَمُ (١)
يدنى العدوّ فلا تدنو مودته ... هيهات كل مُعَادٍ قربُهُ ندمُ
فاحفظ صديقك واحذر أن تعاديه ... إن الصديق إذا عاديته يَصِمُ

وقال :

جامل عدوّك كى يلين حقده ... فيكفَّ بعضَ البعض من إيذائكا
واحفظ صديقك ما استطعت فإنه ... أدرى بطُرْق الضر من أعدائكا

وقال :

إذا ظفرت بمن أخنى عليك فخذ ... بالحلم فيه ودَعْ ما منه قد فرطا
إن المسىء إذا جازيته أبدا ... بفعله زدته فى غيه شططا
العفو أحسن ما يجزى المسىء به ... يهينه أو يريه أنه سَقَطَا

وقال :

قاتل عدوّك بالفضائل إنها ... أعدى عليه من السهام النُّفَّذِ
كسب الفضائل عدّة تعليك فى ... رتب بها سُبُلَ السعادة تحتذِى
فاحرص على نيل الفضائل جاهدا ... إن الفضيلة صعبة فى المأخذ

وقال :

وَعْدُ الكريم وفاء ... تجنيه كيف تشاء
ما حال قطُّ كريمٌ ... ولاثناه التواء
فأنجز الوعد مهما ... وعدت فهو الزكاء

---

(١) تقول « رغب فلان عن فلان » إذا كان لا يميل إليه ، وتقول « رغب فيه » إذا كان يميل إليه ، وهو مما يختلف فيه المعنى باختلاف الحرف الذى يتعلق بالفعل ، و « يهتضم » بالبناء للمجهول — ينتقص حقه .

وقال :

ليس الغنى عن كثرة العرض إن الغنى فى النفس إن تُرَضِ[١]

رأس الغنى ترك المطامع عن زهـد بلا ميل ولا غَرَضِ

فازهد تعش أغنى البرية فى عـز بلا هَمٍّ ولا مَضَضِ[٢]

وقال :

زمن الفضائل قد مضى لسبيله ولوى بطيب العيش وَشْك رحيله

ركدت رياح الجد بعد هبوبها وعلا فريق الهزل بعد خموله

هيهات ما زمن الكرام وما هم ذهبوا وجد الدهر فى تحويله

وقال :

مروءة المرء ثوبه والعرى فى الناس عيبه

بثوبه المرء يعـلو قدراً ويحفظ قربه

من لم يصن ثوبه لم يُصَنْ وإن لاح شيبه

وقال :

لا تصخ ما بقيت حيا لقول ليس يجنى عليك إلا المضره

واطرح ما أتاك منه وجنب من يرى بالفضول واتق ضره

وقال :

ثقيل تراه النفس فى العين كالقذى وكالجبل الراسى على الصدر والقلب

تثير غمومَ المرء رؤيةُ وجهـه وتشكو جفاه الأرض شكوى ذوى الكرب

---

(١) تقول « رضت الدابة ونحوها أروضها » إذا ذللتها وجعلتها سهلة القياد ، و « ترض » هنا مضارع مبنى للمجهول مجزوم ، وكسرت الضاد لأجل الروى .

(٢) تقول « فعلت هذا الأمر على مضض » تريد أنك كاره لفعله متبرم به .

وقال :

أما ترى الأشجار مصفرة … أوراقها كالشمس عند المغيب
ما هى إلاَّ صفرة آذنت … بأنها ترحل عما قريب[1]

وقال :

كُلْ ما تحب وتشتهى … ودع الطبيب وما يرى
حفظ الغـذاء مشقة … ليست تَرُدُّ مقـدرا
كم عدّ من متحفظ … كم صح ممن قصرا
كل التحفظ زائد … لابدّ مما قــدرا

وقال :

من كان يأكل ما اشتهى … ويرى مخالفة الطبيب
سَـيَرَى مضرة ما أتى … بَطَرًا ويندم عن قريب[2]
إن التحفظ فى الأمو … ر لشيمة الفطن اللبيب
من لم يكن متحفظا … يخطى ويبعد أن يصيب[3]

وقال :

وللحَمَّام حاآت إذا ما … ظفرت بها عثرت على النعيم
نخاء وحكاك مجيد … وقل حَجَر يمر على الأديم
وحوض مفعم ماء لذيذا … وحجام على النهج القويم
وللحلق الحديدة حين تنمى … وأطيبها حديث أخ كريم

وقال فى الغزل ، وهى آخر كتابه المذكور :

الله أكبر جلت فتنة البشر … بنور غُرَّتك المُغْنِي عن البصر

---

(١) آذنت : أعلمت .

(٢) البطر : مصدر « بطر فلان النعمة » من باب تعب — إذا لم يقم بواجب شكرها

(٣) يخطى : أصله « يخطىء » بالهمز — فسهل الهمزة بقلبها ياء .

شمس تطلع فى أفق الجمال لها نور تألق فى داج من الشعر[١]

ووردة الخد فى أبراد سَوْسَنِها شقائق زانها التغليف بالدرر

ومسكة الخال فوق الخد شاهدة بأن إبداعها إحكام مقتدر

وهذه نبذة من كتابه « أنداء الدِّيَم ، فى المواعظ والوصايا والحكم » وكل ما فيه كالذى قبله من نظمه رحمه الله تعالى ، فمن ذلك قوله رحمه الله :

العلم نور وهدى فكن بجدّ طالبه

واُحرص عليه واعتمد فيه الأمور الواجبه

مَنْ لازم العلم علا على الأنام قاطبه

وقال :

خالِفِ النفس عند قصد هواها تَبْقَ ما عِشْتَ سالما من أذاها

فاتباعُ الهوى هو أن ولكن هان للنفس كى تنال مناها

وقال :

من يخالف فى شىء الناس يَرْجِعْ هَدَفاً للسِّهام من كل رَاشِقْ

كن مع الناس كيف كانوا ، ووافق إن من لا يوافق الناس مائق

وقال :

أرح النفس تنتفع بحياتك واغنم العيش قبل يوم وفاتك

واطَّرح عيب من سواك ، وسالم جملة الناس يغفلوا عن أذاتك

واعتبر بالذين بادوا ، وبادر ما يدانيك من سبيل نجاتك

وقال :

سالم الناس ما استطعت ، وجامل من يعاديك إن أردت السلامه

---

(١) تألق : أنار ، والداجى : أصله اسم الفاعل من « دجا الليل » إذا أظلم ، لماشبه وجهها بالبدر المضىء استتبع تشبيه شعرها بالليل

وتــنزه عن القبيح وجنب من يرى بالفضول واحذر كلامه

وقال :

صديقى أنت ما أبقى بخير وموتى غــير محتاج إليكا
فإن أحتج إليك فأنت منى برىء لا صـداقة لى عليكا

وقال :

من أنت عنـــه غنىٌّ كن فيـه مثلَ اعتقاده
فإن يكن منه ود فجـــازه بوداده
وإن يكن منـه بعد فخـــله لبعاده

وقال :

عليك بنفسـك لا تشتغـل بشىء سواها وخَلِّ الفُضُولْ(١)
تعش رائح القلب فى غبطة فلا من يضر ولا من يقول

وقال :

أترك الفكر فى الأمور ودعها فكما قدرت تـكون الأمور
كل فـكر وكل رأى وحزم غير مُجْدٍ إذا جرى المقدور(٢)

وقال :

هوّن عليك خطوب الدهر إن لها نهاية والتناهى عنده الفرج
واصبر فإن لحسن الصبر عاقبةً بصبحها ظلمة المكروب تنبلج

وقال :

أحذر البخل إنه شر خلق يتحـــلى به وشر طريقه
من يجد غير مسرف فهو فى النا س مُوَقًّى تُثْنِي عليه الخليقه

---

(١) خل : اترك ودع ، والفضول : جمع فضل ، وأراد به هنا اللغو من الكلام
(٢) غير مجد : أى غير مفيد .

وقال :

الذل فى طلب الإفادة عزة فاحرص على نيل الإفادة تَرْشُدِ
إن التعزز فى الذى تحتاجه كبر ، وكبر المرء أقبح مقصد

وقال :

دع من عرفت ولا تشدد عليه يداً وداره وتحفَّظْ منــه ما بقيا
أما ترى البَلَدَ الذى نشأت به محقراً كلمــا أصبحت معتليا
وغـيره من بلاد الله قاطبة يعايك ، لا سيما إن كنت متقيا

وقل :

ينبغى للذى تحـلَّى بعقل أن يرى كالبازى مدة عمره
بين أيدى الملوك أو فى فلاة خيفةً من شرور أبناء دهره

وقال :

العــزل يُضْحِكُ ذُلُّه من تيه سلطان الولايه[1]
فإذا وليت فسر على نهج الدماثة والرعايه
واقصـد مداراة الورى واحذر كيود ذوى السعايه

وقال :

لا تقبل الحكم على بلدة نشأت فيهـا ؛ إنه يحقد
رياسة المرء على الأهل والـجيران والخلان لا تحمد

وقال :

هى الدنيا إذا فكرت فيها رأيت نعيمها سُمَّـــا نقيعا[2]
فلا تحفل بها واحذر أذاها فإن لسمها قتلا ذريعـــا[3]

---

(١) التيه ـــ بكسر التاء ـــ الكبر والصلف .

(٢) سم ناقع ، ونقيع : أى قاتل .

(٣) لا تحفل بها : لا تكترث لها ولا تبالها

ولا تأسف على ما فات منها وبادر فى حياتك أن تطيعا

وقال :

كن وحيداً ما عشت تحيا بخير سالما من شرور كل البريه

إن من لا يخالط الناس يبقى دهره لا تعروه منهم أذيه

وقال :

لا تبح ما حييت يوما بسر لصديق ولا لغير صديق

إن سرا يجاوز الصدر فاشٍ يَدَّريه العدا ومن فى الطريق[١]

وقال :

لاتصاحب ماعشت إلا الكبارا تَنْم ذكراً وتعتلى مقدارا

إن مَنْ ماشى فى طريق حقيراً يكتسى منه مهنة واحتقارا

فتحفظ من أن تواخى دَنِيًّا فهو يعديك ذلة وصغارا

وقال :

محدثات الأمور أردى الشرور فتحفظ من محدثات الأمور

إنما المحدثات غَىٌّ فدعها واجتهد أن ترى مع الجمهور

كل من يتبع الحوادث يشقى ويرى نفسه بغير نظير[٢]

وقل :

من تفضلت عليه أنت لا شك أميره

ومن احتجت إليه أنت بالرغم أسيره

ومن استغنيت عنه أنت فى الدنيا نظيره[٢]

---

(١) يدريه : أى أراد يعرفه ويعلم به .

(٢) نظير الإنسان : من يساويه ويناظره .

وقال :

لم يبق من يطمع فى وده ... كلا ولا من تُرْتَضَى صحبته
الناس أشباه ذئاب فهل ... يُعْلَمَ ذئب حسنت عشرته
من يبتغى اليوم صديقاً كما ... يرضى فقد زلت به بغيته

وقال :

فاعل الخير مُوَقًّى كل ما ... يتقى من ضر أو من فتنة
ليس يخشى فاعل الخير أذى ... إن فعل الخير أوقى جُنَّةِ

وقال :

تحفظ من صديقك فى أمور ... فرُبَّتَمَا يضر بك الصديق(١)
من اعتمد الصديق ولم يبالى ... يُصِبْهُ الضر وهو به خليق

وقال :

لا تركنن لمخلوق وكن أبداً ... ممن توكل فى الدنيا على الله
ولا تمل لسواه ما حييت فمن ... يرجو سوى الله هاوٍ حَبْلُهُ واهى

وقال :

طلب الغاية اتباع غوايه ... فاعتمد فى الأمور ترك النهايه
من يكن راضياً بما يتسنى ... عاش عيش الملوك دون أذايه

وقال :

لا تعتمد أبداً على مخلوق أن ... تَبْغِ النجاح وتقصد الرشدا
من يرج غير الله يُحْرَمْ رشدَه ... ويذل وهو مخيب قصداً

---

(١) ربتما : هى رب التى للتقليل اتصلت بها تاء التأنيث لتأنيث اللفظ ، وهذا أحد الحروف التى تلحق بها تاء التأنيث ، ونظيره قول الشاعر :

وربت سائل عنى حفى ... أعارت عينه أم لم تعارا

وقول الآخر :

ماوى يا ربتما غارة ... شعواء كاللذعة بالميسم

وقال :

سفر المرء قطعة من عـذابه فيـه تخليق جسمه وثيابه
إنما العيش للفتى بين أهليـه وخِلَّانه وفى أحبـابه
من يرده بخيرٍ الله يَكْفِهْ كرب تجـواله وذل اغترابه

وقال :

سلم ولا تعترض يوما على أحـد إن شئت تسلم من حقد وأضرار
من يعترض يعترض لاشك وهو حَرٍ بذاك فالشر مقدارٌ بمقـدارِ (١)

وقال :

إن الصديق لعون فى كل ما تبتغيه
فلا تسىء لصديق واحذر وقوعك فيه
فالمرء قيـل كثير بنفسـه وأخيه

وقال :

افعل الخير ما استطعت تنل ما تبتغيه من الثناء الجميـل
فاعلُ الخـير آمن ليس يخشى صرف دهر ولا حلولَ جليـل

وقال :

يحق الحق حتما دون شـك وإن كره المشكك والمُلِدُّ
صريح الحق قد يخفى ، ولـكن بُعَيد خفائه لا شك يبـدو

وقال :

إن شئت عزا دائما فاسلك سبيل من اقتنع
إن القنـاعة عزة والذل عاقبة الطمع

---

(١) تقول « فلان حر بكذا » مثل فرح ، و « حرى بكذا » مثل غنى ، ومعناه أنه مستحق له حقيق به ، ومثله قول الشاعر :

من لا يزال شاكرا على المعه فهو حر بعيشة ذات سعه

المرء إن قنع اعتــلى قدرا و إن طمع اتضع[1]

وقال :

استعن فى الأمور بالـكتمان وتحفظ من شر كل لسان
كل مالا يُدْرَى مِنَ أُمرك فضل ليس فيه شىء من الخسران

وقال :

من مال عنك بشبر مِلْ أنت عنه بميل
فالله يغنيك عنه فمنه كل جميل
فليس فى الود خير مَعْ ترك حسن القبول

وقال :

لا تقطعنّ صــديقا و إن يضق بك صدرا
وأحرص عليه وزده إن يَجْفُ برا وشكرا
فإنَّ قطع صديق لا شك يعقب ضرا

وقل :

خل التأنق فى اللباس وسر على نهج الأفاضل فى اختصار الملبس
إن التأنق فى اللباس يكثر الحساد والأعــداء المتلبس
فالبس كمثل الناس لا تخرج عن المعتاد فى شىء فتخطىء أو تُسِي

وقال :

لا تحقرن عــدوّا ولو يكون كذَرَّهْ
واحذره ما اسطعت واجهد أن لا تحــرك شره
إن البعوضة تؤذى الــملوك فوق الأسِرَّةْ

(١) اتضع : صار وضيعا خسيس القدر ، وفى الحكم السائرة « ذل من طمع ، وعز من قنع »

وقال :

ما أهنأ الإنسان فى عيشه ... ما بين أهليه وفى منزله

الذل فى الغربة يا كربها ... وكرب من قوض عن معقله

وفى اقتلوا أو اخرجوا شاهد ... سَوَّى خروج المرء مع مقتله[1]

وقال :

المال يستر عيب المرء فاقتنه ... واحفظه تبقى مُوَقًّى مدة الزمن

من ضيع المال أبدى عيبه وجنى ... تمهينه أبدا من كل ممتهن

وقال :

سريرة المرء تُبْدِيها شمائله ... حتى يرى الناس ما يخفيه إعلانا

فاجمل سريرتك التقوى ترى أملا ... فى كل ما أنت تبغيه وبرهانا

وقال :

ما تَمَّتِ الدنيا لشخص ولا ... أمل ذا فيها سوى مَنْ فُتِنْ

عادتها الفتك بمن رامها ... وكل من أعرض عنها أمن

فلا تغرنك بلذاتها ... فإن من غُرَّبها قد غبِنْ

وقال :

لا يمكن عندك الخديم نديما ... إنَّ قدر الخديم دون النديم

من ينادم خديمه يتأذى ... ويصير الخديم غير خديم

إنما يصلح الخديمَ ابتعادٌ ... واشتغال بشأنه المعلوم

وقال :

تثبت فى الأمور ولا تبادر ... لشىء دون ما نظرٍ وفكر

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم)

قبيح أن تبادر ثم تُخْطِى وترجع للتثبت دون عذر

وقال :

كن فى زمانك كيف يرضى أهله لا تَعْدُ طورهم ولا تتبـــدل(١)
فإذا ترى الحمقى تحامق مَعْهُمُو وإذا ترى العقلاء فلتتعقل(٢)
من لم يكن أبدا كأهــل زمانه يشقى ، ولا يحظى بنيل مؤمل

وقال :

الفاضل اليوم غريب بلا عَوْنٍ على شىء من الحق
إن غاب لم يُحْضَرْ وإن قال لم يسمع ولم يؤبه بما يلقى
ما أضيع الفاضل يا ويحه كأنه ليس من الخلق

وقال وهو آخر « أنداء الديم » :

العز عاقبـــة التقى والذل عاقبة الرياسه
فإذا اتقيت علوت فى أهــل المجادة والنفاسه
وإذا رأست نزلت فى طرق التخلق والسياسه
فلتختر التقوى ولا ترأس فتخطيك الــكياسه

وكان تاريخ فراغه من كتاب «أنداء الديم» نصف شعبان عام واحد وثلاثين وسبعمائة

ولنذكر بعض أناشيده التى كان ينشدها أهل مجالسه ببلد قصبة المرية أعادها الله تعالى ، فمما أنشده رحمه الله تعالى لأبى العباس أحمد بن العريف صاحب « محاسن المجالس » :

من لم يشاور عالما بأصوله فيقينه فى المشكلات ظنون
من أنكر الأشياء دون تيقن وتثبت فمعـــاند مفتون

---

(١) لا تعد طورهم : لا تجاوز حالهم

(٢) أخذ هذا من قول أبى العلاء المعرى :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشيا تجاهلت حتى ظن أنى جاهـــل

الـكل تذكار لمن هو عالم ‏ وصوابها بمحالها معجون
والفـكر غواص عليها مخرج ‏ والحق فيهـا لؤلؤ مكنون

وأنشد رحمه الله تعالى من وجادة :

أعوذ بالله من أناس ‏ تشيخوا قبل أن يشيخوا
احْدَوْدَبُوا وانحَنَوْا رياء ‏ فاحـذرهُمُ إنهم فخوخ (١)

وأنشد لنفسه رحمه الله تعالى :

أقلل العشرة تغبط ‏ إن من أكثر ينحط
وعليك الصدق واحذر ‏ أن ترى فى القول تشتط
والزم الصمت إذا ما ‏ خفت أن تلحى فتغلط
فعـلى الفاضل يُأبَى ‏ كل مفضول مُسَلَّطْ

وأنشد لنفسه أيضاً :

جنـة العالم « لا أد ‏ رى » إذاما احتاج جُنَّهْ (٢)
فإذا ما ترك الجنـ ‏ ـة بانت فيـه جِنَّه (٣)
فالزم الجنـة تسلم ‏ إنما الجنـة جَنَّه (٤)

وأنشد للحلاج رحمه الله تعالى :

يا بدر يا شمس يانهار ‏ أنت لنـا جنة ونار
تجنُّبُ الإثمِ فيك إثم ‏ وخشية العار فيك عار
يخلع فيك العذار قوم ‏ فـكيف مَنْ لا له عذار

وأنشد مما ينسب للحلاج أيضاً :

سقمى فى الحب عافيتى ‏ ووجودى فى الهوى عدمى

---

(١) احدودبوا : تشبهوا بالأحدب فى صورته ، والفخوخ : جمع فخ ، وهو شرك الصائد
(٢) جنة ـ بالضم ـ أى وقاية
(٣) جنة ـ بالكسر ـ أى جنون ‏ (٤) جنة ـ بالفتح ـ أى روضة

وعذاب ترتضون به في فمي أحلى من النعم
ما لضر في محبتكم عندنا والله من ألم

وأنشد لسيدي أبي العباس بن العريف في « محاسن المجالس » وهي أحسن ما قيل في طول الليل :

لست أدري أطال ليلي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلّى
لو تفرغت لاستطالة ليلي ولرعى النجوم كنت مُخِلَّا
إن للعاشقين عن قصر الليـ ـل وعن طوله من الفكر شغلا

وأنشد رحمه الله تعالى مما أنشده بعض الوعاظ الغرباء :

عانقت لامَ صدغها صادُ لَثْمِي فأرتها المرآة في الخد لصًّا[1]
فاسترابت لما رأت ثم قالت أكتابا أرى ولم أر شخصا
قلت بالكشط ينمحي، قالت اكشط بالثنايا وتابع الكشط مصّا[2]
ثم لما ذهبت أكشط قالت كان لصًّا فصار والله فصّا
قلت إن الفصوص تطبع باللثـ ـم على خد كل من كان رَخْصَا

وأنشد لابن خفاجة :

وأغر كاد لطافة وطلاقة ينساب ماء بيننا مسكوبا
قد قام في سطر الندامى فاستوى فحسبته ألفا به مكتوبا
وأكب يشربها وتشرب ذهنه فرأيت منه شاربا مشروبا
مشمولة بيننا تُرَى في كفه ماء ترى في خده ألهوبا

وأنشد لابن عبد ربه صاحب العقد مما نسبه له الفتح في « مطمح الأنفس ومسرح التأنس » :

---

(١) اللام هنا : الشعر المتدلى على الصدغ ، على شكل اللام ، وصاد اللثم هنا : الفم
(٢) الكشط في الأصل : محو الكتابة بالسكين ونحوه

يا لؤلؤا يسبى العقـــول أنيقا ورَشاً بتقطيع القلوب رفيقا[1]
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله درا يعود من الحيــاء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهــه ألفيت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

وأنشد لابن عبد ربه أيضا :

ودعتنى بزورة واعتنـاق ثم قالت : متى يكون التلاقى؟
وتصدت فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم ليتنى مت قبل يوم الفراق

وأنشد له أيضا :

هيج البينُ دواعى سَقَمى وكسا جسمىَ ثوبَ الألم
أيهـا البين أقلنى مرة فإذا عُـدْتُ فقد حل دمى
يا خـلى الذرع نم فى غبطـة إن من فارقتـه لم يَنَمِ
ولقـد هاج لقلبى سَقَمًا حب مَنْ لو شاء داوى سَقَمِى

وأنشد للمُصْحَفى :

صفراء تطرق فى الزجاج، فإن سرت فى الجسم دبت مثل صِلٍّ لادغ
عبث الزمان بجسمها فتسترت عن عينـه برداء نور سابغ
خفت على شرابها فكأنما يجـدون ريا فى إناء فارغ

وأنشد لابن شُهَيْد :

هَبَّ من رقدته منكسرا مسبل للـكم مُرْخٍ للّردا

---

(١) رشا : أصله « رشأ » بالهمزة ــ فسهل الهمز بقلبها ألفا ، والرشأ ــ بفتح الراء والشين جميعا ــ ولد الظبية إذا تحرك ومشى

يمسح النعسة عن عينى رَشًا صائد فى كل يوم أسدا(١)
شربت أعطافُه خمرَ الصبا وسقاه الحسن حتى عربدا
رشأ بل غادة ممكورة عممت صبحًا بليل أسودا(٢)
أحجمت من عضتى فى نهدها ثم عضت حروجهى عمدا
فأنا المجروح من عضتها لا شفانى الله منها أبدا

وأنشد لصفوان بن إدريس :

حَمَى الهوى قلبه وأوقد فهْوَ على أن يموت أوقد
وقال عنه العذول سالٍ قلده الله ما تقلد
وباللوى شادنٌ عليه جيدُ غزالٍ ولحظُ فرقد
علله ريقه بخمر حتى انتشى طرفه فعربد
لا تعجبوا لانهزام طرفى فجيشُ أجفانه مؤيَّدْ
أناله كالذى تمنَّى عبدٌ ، نعَمْ ، عبده وأزيد
إن بسملت عينه لقتلى صلى فؤادى على محمد

وأنشد لأبى على إدريس بن اليمانى :

علقته شادنا صغيراً وكنت لا أعشق الصغارا
يُسْفِرُ عن مستنير وجه صير جنح الدجى نهارا
لم أر من قبل ذاك ماء أضرم فيه الحياء نارا

وأنشد للرَّمَادى ، أو لابن بُرْد القرطبى :

لما بدا فى لازور دى الحرير وقد بهر
كبَّرْتُ من فرط الجما ل وقلت : ما هذا بشر

---

(١) مثل هذا قول ابن الفارض :

هل سمعتم أو رأيتم أسدا صاده لحظ مهاة أو ظبى

(٢) أراد بالصبح وجهها المشرق ، وبالليل شعرها الفاحم (وانظر ص ١٠٠ من هذا الجزء)

فأجابنى لا تنكروا ثوب السماء على القمر

وأنشده من وِجادة :

ياذا الذى عَـــذَّب محبوبه أنحتَ عيس العز مَغْنَى الهوان
لم ينبت الشَّعر على خده بل دب فى أصداغه عقربان
رفقـاً على نفسك لا تفنها فجوهر الأنفس در يُصان

وأنشد من حديقة ابن يربوع :

غزا القلوب غزال حَجَّتْ إليه العيون
خُطَّتْ بخديه نون وآخر الحسن نون

وأنشد من وجادة :

أودع فؤادى حرقا أودع ذاتك تُؤْذَى ، أنت فى أضلعى
وارم سهام اللحظ أو كُفهَا أنت بما ترمى مصابٌ معى [1]
موقعها قلبى ، وأنت الذى مسكنه فى ذلك الموضع

وأنشد من حديقة ابن يربوع :

يخط الشوقُ شخصَك فى ضميرى على بعــد التزاور خطَّ زور
وتدنيك الأمانى من فؤادى دنوّ البرق من لمح البصير
فلا تذهب فإنك نور عينى إذا ما غبت لم تطرف بنور

وأنشد للوزير المُصْحَفى :

لعينيك فى قلبى علىّ عيون وبين ضُلوعى للشجون فنون
لئن كنت صبًّا مخلقا فى يد الهوى فحبك غض فى الفؤاد مصون
نصيبى من الدنيا هواك ، وإنه عذابى، ولـكنى عليـه ضنين

---

(١) كفها : امنعها أن تصيب فؤادى

وأنشد لصالح بن شريف :

أيهـــا العاذل بالله اتئد لك قلب فى ضلوعى أو كبد[١]

هي أجفانى فذَرْهَا تنهمى هي أحشائى فدعهـــا تتقد

لا تظن الحب شيئاً هينـــا ليس فى الحب قياس يطرد

أنت خـلو وأنا صبٌّ شجٍ فإذا حدثت عنى قل وزد

فاترك اليوم مـــلامى إنه يترك الشىء إذا مالم يفـد

أنا أسلو عن حبيبى ساعة يا عذولى قل هو الله أحـد

وأنشد له أيضاً :

وافى وقد زانه جمـال فيـــه لعشاقه اعتذار

ثلاثة مالهـــا شبيه الوجه والخدّ والعِذار

فمن رآه رأى رياضـا الورد والآس والبهَار

وأنشد من حديقة ابن يربوع :

عليك بإكرام وبر لســتة من الناس واحذر شرهم وتَوَقَّه[٢]

طبيب وحجام وشيخ وشاعر وصاحب ديوان ومن يتفقه

وأنشد لبعض الصوفية :

ما ترى عنـد أحمق فى أمـــور توسُّطَا

بل تراه فى أمره مُفْرِطا أو مُفَرّطا[٣]

وأنشد لبعض الأدباء :

الصبر أولى بوقار الفتى من قلق يهتك ستر الوقار

من لازم الصبر على حاله كان على أيامه بالخيار

---

(١) أتئد : ترفق (٢) توقه : احذره واجعل بينك وبينه وقاية

(٣) الإفراط : الإغراق والزيادة ، والتفريط : التهاون وترك بعض ما يجب فعله

ولنقتصر من ترجمة ابن ليون على هذا القدر ، فقد حصلت الإطالة ، بل ونكتفى من مشايخ لسان الدين بمن ذكرنا ، ولنورد ما فى الإحاطة فى ترجمة مشيخته وإن تكرر مع ماتقدم ، ونصه : المشيخة — قرأت كتاب الله عز وجل على المكتب نسيج وحده فى تحمل المُنزَّلِ حق حمله تقوى وصلاحا وخصوصية وإقانا ونغمة[1] وعناية وحفظا وتبحرا فى هذا الفن واطلاعا لغرائبه ، واستيعابا لسقطات الأعلام الأستاذ الصالح أبى عبد الله بن عبد المولى العواد تكتيباً ثم حفظاً ثم تجويدا إلى مقرآت أبى عمرو رحمة الله عليهما ، ثم نقلنى إلى أستاذ الجماعة ومطية الفنون ، ومفيد الطلبة الشيخ الخطيب المتفنن أبى الحسن على الفنحاطى فقرأت عليه القرآن والعربية ، وهو أول من انتفعت به ، وقرأت على الخطيب الحسيب الصدر أبى القاسم ابن جُزَى رحمه الله تعالى ، ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير ، والمعتمد عليه العربية ، على الشيخ الأستاذ الخطيب أبى عبد الله بن الفخار البيرى الإمام المجمع على إمامته فى فن العربية المفتوح عليه من الله حفظا واطلاعا ونقلا وتوجيها بما لامطمع فيه لسواه ، وقرأت على قاضى الجماعة الصدر المتفنن أبى عبدالله ابن بكر رحمه الله ، وتأدبت بالشيخ الرئيس صاحب القلم الأعلى الصالح الفاضل أبى الحسن بن الجياب ، ورويت عن الكثير ممن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية ، كالمحدث أبى عبدالله بن جابر ، وأخيه أبى جعفر ، والقاضى الشهير الشيخ بقية السلف شيخنا أبى البركات ابن الحاج ، والشيخ المحدث الصالح أبى محمد بن سلمون ، وأخيه القاضى أبى القاسم سلمون ، وأبى عمرو ابن الأستاذ أبى جعفر بن الزبير ، وله رواية عالية ، والأستاذ المغوى أبى عبدالله بن بيبش ، والمحدث الكاتب أبى الحسن التلمسانى المسن ، والحاج أبى القاسم بن المهنى المالقى ، والعدل أبى محمد السعدى ، تحمل عن

---

(١) فى ب « ونعمة » بالعين المهملة

الإمام ابن دقيق العيد ، والقائد الكاتب ابن ذى الوزارتين أبى بكر ابن الحكيم والقاضى المحدث الأديب جملة الظرف أبى بكر بن شيرين ، والشيخ أبى عبد الله ابن عبدالملك ، والخطيب أبى جعفر الطنجالى ، والقاضى أبى بكر ابن منظور ، والراوية أبى عبد الله بن حزب الله ، كلهم من مالقة ، والقاضى أبى عبد الله المقرِى التلمسانى ، والشريف أبى على حسن بن يوسف ، والخطيب الرئيس أبى عبد الله ابن مرزوق ، كلهم من تلمسان ، والمحدث الفاضل الحسيب أبى العباس بن يربوع والرئيس أبى محمد الحضرمى السبتيين ، والشيخ المقرى أبى محمد بن أيوب المالقى آخر الرواة عن ابن أبى الأحوص ، وأبى عثمان بن ليون من أهل المرية ، والقاضى أبى الحجاج المنتشافرى من أهل رُنْدَة ، وطائفة كبيرة من المعاصرين تحملا وتدبجا ومن أهل العدوة الغربية والمشرق وأفريقية الكثير بالإجازة ، وأخذت الطب والتعاليم والمنطق ، وصناعة التعديل عن الإمام أبى زكريا بن زُهير ، ولازمته ، هذا على سبيل الإلماع ، ولو تفرغت لذكر أفذاذهم (١) لخرج هذا التأليف عما وضع له . انتهى كلامه فى « الإحاطة » .

وقد ذكرت فى هذا الباب زيادة فى بعض التراجم على ما فى « الإحاطة » على ما اقتضاه الحال ، إذ ذلك لا يخلو من فائدة زائدة ، وحكمة بالخير عائدة .

ولو لم يكن فى هذا الكتاب غير هذا الباب لكان كافيا ؛ لاشتماله على تصوف وحكم وكرامات وآداب ووصايا وإنشادات وغيرها ، مما يغنى عن خبره العيان ، ويشتاق إلى الوقوف عليه ذوو الملكة فى البيان ، ولولم يشتمل إلا على المدائح النبوية التى فيه لتمت محاسنه ، والله سبحانه وتعالى ينفع به ، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه !.

---

(١) الأفذاذ : جمع فذ ، وهو النادر ، أو الذى لا مثال له

البَابُ الرّابع

فى مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية ، وثناء غير واحد من أعلام أهل عصره عليه ، وصرف القاصدين وجوه التأميل إليه ، واجتلائهم أنوار رياسته الجلية ، وكَتْبهم بعض المؤلفات باسمه ، ووقوفهم عند إشارته ورَسْمه ، وما يضاهى ذلك فى حظه وقَسْمه ، وسَعْيهم بين يديه .

اعلم ـ سلك الله بى وبك الطريق الأقوم الأقوى ! وحلى صدور جميعنا بزينة التقوى ! ـ أن لسان الدين ذكر فى كتبه كالإحاطة ونفاضة الجراب وغيرهما جملة مما خاطبه به الملوك وغيرهم ، من تبجيل وتنويه ، ولنذكر بعضَ ذلك من كتبه ومن غيرها تتميما للمقصود ، وتبليغا لنفوس الناظرين فى هذه العجالة ما تؤمله وتنويه .

من السلطان أبى الحسن المرينى إلى لسان الدين

فمن ذلك ما ذكره فى الإحاطة من إكرام السلطان أبى زَيّان المَرينى ابن الأمير أبى عبدالرحمن ابن السلطان أبى الحسن له ، وسرد ما كتب له به من قوله : هذا ظهير ، إلى قوله : أيده الله ونصره ! وسَنَّى له الفتح المبين ويَسّره ! وبعد ما صورته : للشيخ الفقيه الأجل الأسنى ، الأعز الأحظى الأرفع الأمجد الأسمى الأوحد الأنوه الأرقى ، العالم العلم الرئيس ، الأعرف المتفنن الأبرع المصنف المفيد الصدر الأحفل الأفضل الأكمل أبى عبدالله ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل الأسنى الأعز الأرفع الأمجد الوجيه الأنوه الأحفل الأفضل الحسيب الأصيل الأكمل المبرور المرحوم أبى محمد بن الخطيب ، قابله أيده الله بوجه القبول والإقبال ، وأضفى عليه

ملابسَ الإنعام والإفضال ، ورَعَى له خدمة السلف الرفيع الجلال ، وما تقرر من مقاصده الحسنة فى خدمة أمرنا العال ، وأمر فى جملة ما سوّغه[١] من الآلاء الوارفة الظلال ، الفسيحة المَجَال ، بأن يجدد له حكم ما بيده من الأوامر المتقدم تاريخها المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية فى كل شهر عن مرتب له ولولده الذى لنظره من مَجْبَى مدينة سَلاَ حرسها الله فى كل شهر ، ومن حيث جرت العادة أن يتمشى له ، ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه ، وفيما يستفيده خدامه بخارجها وأحْوَازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك ، فلا يطلب فى شىء من ذلك بمغرم ولا وظيف ، ولا يتوجه فيه إليه بتكليف ، يتصل له حكم جميع ما ذكر فى كل عام تجديدا تامّا ، واحتراما عامّا ، أعلن بتجديد الحظوة واتصالها ، وإتمام النعمة وإكمالها ، من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن ، ومن الآن إلى ما يأتى على الدوام ، واتصال الأيام ، وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعى والمحاشاة فى السخر مهما عرضت ، والوظائف إذا افترضت ، حتى يتصل له تالد العناية بالطارف ، وتتضاعف أسباب المِنَن والعوَارف ، بفضل الله ، وتحرر له الأزواج التى يحرثها بتالمغت من كل وجيبة ، وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة ، بالتحرير التام بحول الله وعونه ، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه ، وليُمْضِ ما أمضاه ، إن شاء الله ، وكتب فى العاشر من شهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، وكتب فى التاريخ ، انتهى .

وقوله « وكتب فى التاريخ » هو العلامة السلطانية فى ذلك الزمان ، يكتب بقلم غليظ ، وبعض ملوك المغرب يكتب عنه العلامة « صح فى التاريخ » .

---

(١) سوغه : أجيزله وأمكن منه ، وأصله من إساغة الريق ونحوه ، أى نزوله فى الحلق بغير مشقة ولا جهد

ترجمة السلطان أبى زيان المرينى

وقد عرف لسان الدين فى «الإحاطة» بهذا السلطان بما نصه : محمد بن يعقوب ابن عبد الرحمن بن على أمير المسلمين بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق أمير المسلمين بالمغرب إلى هذا العهد ، يكنى أبا زيان ، وصل الله نصره على عدوّ الدين! وأرشده إلى سنن الخلفاء المهتدين !

حاله – فاضل سكون منقاد ، مشتغل بخاصة نفسه ، قليل الكلام ، حسن الشكل ، دَرِب بركض الخيل ، مفوض للوزراء ، عظيم التأنى لأغراضهم ، ووكل الأمور لمن استكفاه منهم ، استقدم من أرض النصارى بالأندلس وقد فر إليهم خوفا على نفسه ، فسمح به ملك الروم بعد اشتراط واشتطاط ، فكان وصوله إلى مدينة الملك بفاس يوم الاثنين الثانى والعشرين لصفر عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، ودخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان و به السعد الأعظم كوكب المشترى من الكواكب السيارة ، وقد كان الوزير قيم الأمر (١) والمثل فى الكفاية (٢) والاستطلاع بالعظيمة عمر بن عبد الله بن على اليابانى لما ثار بعمه السلطان أبى سالم رحمه الله تعالى وأقام الرسم بأخيه المعتوه المدعو بأبى عمر استدعى هذا المترجم به ، وقد ناز له الأمير عبد الحليم ابن عمهم ، وتوجه عنه رسوله أثناء الحصار لما رأى الأمر لا يستقيم بمن نصبه ، فتلطف فيه إلى طاغية النصارى ، واستعان بالسلطان أبى عبد الله بن نصر ، وقد جمعتهما إيالته ، فتم له اللحاق بالمغرب ، وانصرف الأمير عبد الحليم إلى سجلْماسة ، فتملكها ، وتم الأمر للأمير أبى زيان يقوم به عنه وزيره ومستدعيه المذكور مصنوعا له فى خدمته ، أعانه الله تعالى ! وأصلح حاله وأحوال الخلق على يديه ! ووفدْتُ عليه من محل الانقطاع بسَلاَ وأنشدته قولى :

---

(١) قيم الأمر : القائم به

(٢) كفاية الأمر : حسن القيام عليه حتى لا يحتاج إلى معين ، يريد أنه مثل مضروب فى ذلك .

لمن عَلَمٌ فى هَضْبة الملك خفاق أفاقت به من غَشْية الهَرْج آفاق
تُقِلُّ رياحَ النصر عنه غمامةٌ تمدّ لها أيدٍ وتخضع أعناق
و بيعة شورى أحكم السعد عَقْدَها وأعمل إجماع عليها و إصفاق(١)
قضى عمر فيها بحق محمد فسُجِّل عهد للوفاء وميثاق
أحلما ترى عيناى أم هى فترة أعندكما فى مشكل الأمر مصداق
وفاض لفضل الله فى الأرض تبتغى ومجتمعات لا تريب وأسواق
وسَرْح تهنيه الكلاءة بالكلا وفلحٌ لسقى الغيث قام له ساق
وقد كان طيف الحلم لا يعمل الخطا وللمتنة العمياء فى الأرض إطباق
وللغيث إمساك وفى الأرض رجة وللدين والدنيا وُجُومٌ و إطراق
فكل فريق فيه للبغى راية وكل طريق فيه للغيث طراق
أجل إنه من آل يعقوب وارث يحنّ له البيت العتيق ويشتاق
له من جناح الروح ظل مسجف ومن رفرف العز الإلٰهى رُسْتاقُ(٢)
أطل على الدنيا وقد عاد ضوءها دجى وعلى الأحداق للذعر إحداق
فأشرقت الأرجاء من نور ربها وساح بها لله لطف وإشفاق
فمن ألسُنٍ لله بالشكر أعلنت وكان لها من قبل همس و إطباق
وليس لأمر أبرم الله ناقضٌ وليس لمَسْعَى النجح فى الله إخفاق
محمدُ قد أحييت دين محمد وللخلق أذماء تفيض وأرماق
ولو لم تَذُبْ غطى على شفق الضحى دم لسيوف البغى فى الأرض مُهْراق
فأيْمِنْ بمشحون من الفلك سابح له باختيار الله حط و إيساق
أقلك والدأماء تظهر طاعة إليك وصفح الماء أزرق رقراق

---

(١) الإصفاق على الأمر : الاتفاق عليه ، وأصله ضرب اليد على اليد ، ومن عادة المتعاقدين أن يضع أحدهما فى يد صاحبه . (٢) الرستاق : الناحية .

إلى هدف السعد انبرى منه والدجى ... يضل الحجا سهم من السعد رشّاقُ
فخطت لتقويم القوام جداول ... وَصَحَّتْ من التوفيق واليمن أوفاق
تبارك من أهداك للخلق رحمة ... ومستبعدٌ أن يهمل الخلقَ خلاقُ
هو الله يبلو الناس بالخير فتنة ... وبالشر ، والأيام سم وترياق
سَمَتْ منك أعناق الورى لخليفة ... له فى مجال السعد عَدْو وإعناق
وقالوا بنانٌ ما استقل بكفه ... تفيض على العافين أم هى أرزاق
وأطنب فيك المادحون وأغرقوا ... فلم يجد إطناب ولم يغن إغراق
ألست من القوم الذين أكفهم ... غمام ندى إن أخلف الغيث غيداق
ألست من القوم الذين وجوههم ... بدور لها فى ظلمة الروع إشراق
رياض إذا العافى استظل ظلالها ... ففيها جَنًى ملء الأكف وإيراق
أبوك ولى العهد لو سالم الردى ... وجدّك قد فاق الملوك وإن فاقوا
فمن ذا له جدّ كجدّك أو أب ... لآلئ والمجدُ المؤثل نَسّاقُ
وحَسْبُ العلافى آل يعقوب أنهم ... هم الأصل فى العلياء والناس ألحاق
أسودُ سروحٍ أو بدور أسرة ... فإن حاربوا راعوا وإن سالموا راقوا
يطول لتحصيل الكمال سهادهم ... فهم للمعالى والمكارم عشاق

ومنها :

لئن نسيَتْ إحسانَ جدك فرقةٌ ... تُزَرُّ على أعناقهم منه أطواق(١)
أجازت خروج ابن ابنه عن تراثه ... ولم تدر ما ضمت من الذكر أوراق
ومن دون ما راموه لله قدرة ... ومن دون ما أموه للفتح أغلاق
خذ العفو وابذل فيهم العرف ولْتَسَعْ ... جزيرةَ من أبدى لك الغدر أخلاقُ(٢)

---

(١) الضمير في « منه » راجع إلى « إحسان جدك » يريد أنهم نسوا إحسان جده مع أن آثار هذا الإحسان لا تزال ظاهرة عليهم .

(٢) أخذه من قوله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) .

فربما تنبو مهنـــدةُ الظُّبا   وتهفو حلوم القوم والقوم حذاق[١]

وما الناس إلا مذنب وابن مذنب   ولله أرفاد عليهم وإرفاق

ولا ترج فى كل الأمورسوى الذى   خزائنه ما ضرهـــا قط إنفاق

إذا هو أعطى لم يضر منع مانع   وإن حشدت طَسْمٌ وعاد وعملاق

عرفت الردى واستأثرت بك للعدا   تخوم بمختط الصليب وأعماق

فيسَّرَ لليسرى وأحيا بك الورى   وللروع إرعاد عليـــك وإبراق

فجازِ صنيعَ الله وازدد بشكره   مواهب جود غيثُها الدهر دَفَّاقُ

وأوفِ لمن أوفى وكافِ الذى كفى   فأنت كريم طهرت منك أعراق

وتهنيك يا مولى الملوك خــلافة   شَجَتْها تباريح إليك وأشواق

فقد بلغت أقصى المنى بك نفسُها   وكم فاز بالوصل المهنـــأ مشتاق

فلا راع منها السِّرْبَ للدهر رائع   ولا نال منها جدة السعد إخلاق

أمولاى راعَ الدهر سِرْبِى وغالَنِى   فَطَرْفِىَ مذعور وقلبى خفـــاق

وليس لـكسْرِى غيرك اليوم جابر   ولا ليدى إلا بمجدك أعــلاق

ولى فيك ود واعتداد غرستـه   فراقت به من يانع الحمد أوراق

وقد عيل صبرى فى ارتقابى خليفة   تُحَلُّ به للضر عـــنى أوهاق[٢]

وأنت حســام الله والله ناصر   وأنت أمين الله والله رزاق

وأنت الأمان المستجار من الردى   إذا راع خطب أو توقع إملاق

وأهون ما ترجى لديك شفاعة   إذا لم يكن عزم حثيث وإرهاق

ودونَــكَهَا من ذائع الحمد مخلص   له فيك تقييـــد يروق وإطلاق

إذا قال أما كل سمـــع لقوله   فمُصْغٍ، وأما كل أنف فَنَشَّاقُ

---

(١) تهفو : تخفق ، وأراد تضعف وترق .

(٢) أوهاق : جمع وهق — بفتح الواو والهاء جميعا — وهو الحبل يكون فى طرفيه أنشوطة ترمى فى عنق الدابة والإنسان .

ودُمْ خافق الأعلام بالنصر كلما ذهبت لمسعى لم يكن فيه إخفاق(١)

وُعدتُ منه ببر كثير ، واحترام شهير .

دخوله غرناطة ـ لحق بها مُفلتاً عند القبض على قرابته و بنى عمه وتقريبهم إلى مصارعهم ، فكان وصوله فى رمضان من عام خمسين وسبعمائة ، ثم رابه رائب لحق لأجله بصاحب قَشْتالة ، وأقام فى جملته إلى حين استدعائه المتقرر آنفا ، وهو لهذا العهد أمير المسلمين بالمغرب ، أعانه الله تعالى على الخير ، وأطلق به يده ، وألهمه إلى ما يرضى منه بفضله وكرمه ، انتهت الترجمة .

ورأيت على هامش هذا المحل من « الإحاطة » بخط الخطيب الشهير الإمام أبى عبد الله بن مرزوق التلمسانى رحمه الله ما صورته : توفى — يعنى السلطان أبازيان — مغتالا عام ستة وستين ، على يد مظاهره الخائن عمر بن عبد الله بن على الوزير ، رَدَّاه فى بئر ، وأشاع أنه أفرط فى السكر ، وألقى نفسه فى البئر المعروفة برياض الغزلان ، وبايع لعمه عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن ، فسلطه الله عليه ، وأخذ حقوق الخلائق على يديه ، فقتله غيلة بعد أن كان تغلب عليه ، فأعمل الحيلة فى قتله ، واستمر ملك عبد العزيز ظاهرا ظافراً قد جمع بين المغرب إلى أقصاه و بين ملك تلمسان وقد شَرَّد أهلها كل مُشَرَّد ، فعند ما أقبلت الدنيا عليه ، واستقام ملكه ، وكاد يلحق ملك أبيه أو يزيد مات رحمه الله تعالى ، قيل : مطعوناً ، وقيل غير ذلك ، وذلك فى حدود أربع وسبعين ، وولى ولده ، ثم عزل بابن عمه أبى العباس ابن السلطان أبى سالم ، وحاز ملك المغرب إلى حين كتب هذا سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، انتهى ما ألفيته بخط سيدى أبى عبد الله بن مرزوق .

ورأيت تحته بخط ابن لسان الدين أبى الحسن على ماصورته : رحمة الله عليك

---

(١) الأعلام : جمع علم — بالتحريك — وهو الراية ، وخفقانها : اضطرابها فى الهواء ، وإنما يكون ذلك إذا كانت منصوبة ؛ فهى كناية عن رفعها فى الجو ، يقولون « لا زالت أعلامه خافقة » دعاء له بدوام الملك .

يا عمر بن عبد الله بن على ، فلقد كنت غسلت ملك المغرب من دَرَن كبير[١] ، وقمت على ملك لهو وضعف شهير ، وشَهَرْتَ سيف الحق ، على الزوا كرة الخرق[٢] ، فابتهج منبر الدين ، انتهى .

ومراده بهذا الكلام الرد على ابن مرزوق فى ذمّه للوزير عمر ، وقوله «الزوا كرة» لفظ يستعمله المغاربة ، ومعناه عندهم المتلبس الذى يظهر النسك والعبادة ويبطن الفسق والفساد ، وعند الله تجتمع الخصوم .

ولنرجع إلى ما كنا بسبيله فنقول :

من السلطان أبى سالم المرينى إلى لسان الدين

ومما خوطب به ابن الخطيب رحمه الله تعالى ! من قبل سلطان المغرب المستعين بالله أبى سالم إبراهيم بن السلطان أبى الحسن المرينى ما صورته بعد البسملة والصلاة :

من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ، أبى الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ، أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أيد الله أمره ! وأعز نصره ! إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأحظى الأوجه الأوه الصدر الأحفل المصنف ، البليغ الأعرف ، الأكمل أبى عبد الله ابن الشيخ الأجلّ الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكمل المرحوم المبرور أبى محمد ابن الخطيب ، وصل الله عزته ! ووالى رفعته ! .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أما بعدَ حمدِ الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى ، والرضا على آله وصحبه أعلام الإسلام ، وأئمة الرشد والهدى ، وصلةِ الدعاء لهذا الأمر العلى العزيز المنصور المستعينىّ بالنصر الأعز والفتح الأسنى ، فإنا

---

(١) الدرن — بفتح الدال والراء جميعا — الوسخ

(٢) الخرق : جمع أخرق ، وهو الذى لا يجيد عملا

كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمل ، ونُجْحَ القول والعمل ! - من منزلنا الأسعد بصفة تازى ملوية يمنه الله ، وصُنْعُ الله جميل ، ومَنُّه جزيل ، والحمدلله ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل ، والعناية المتكفلة برَعْى الوسائل (١) ، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالجناب العلى ، المولوى العلوى ، جدد الله تعالى عليه ملابس غُفْرانه ! وسقاهُ غُيُوثَ رحمتـه وحَنَانه ! وما أهديتم إلينا من التقرب لدينا ، بخدمة ثراه الطاهر (٢) ، والاشتمال بمطارف حرمته السامية المظاهر ، وإلى هذا وصل الله حُظْوتكم ووالى رفعتكم ، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده ، المقابَلُ بالإسعاف المستعذب وِرْدُهُ ، فوقفنا على ما نَصَّه ، واستوفينا ما شرحه وقَصَّه ، فآثرنا حُسْنَ تلطفكم فى التوسل بأكبر الوسائل إلينا ، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا ، وفى الحين عَيَّنَّا لكمال مطلبكم ، وتمام مآربكم ، والتوجه بخطابنا فى حقكم ، والاعمال بوفقكم ، خديمَينا أبا البقاء بن ناسكورت وأبا زكريا بن فرقاجة ، أنجدهما الله وتولاهما ! وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى العرض المعلوم ، بعد التأكيد عليهما فيه ، وشرح العمل الذى يوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابْسُطوا له جملة آمالكم ، وإنا لنرجو ثواب الله فى جبر أحوالكم ، وبرء اعتلالكم ، والله سبحانه وتعالى يَصِلُ مبرَّتكم ، ويتولى تكرمتكم ! والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتب فى الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبعمائة .

من لسان الدين إلى السلطان أبى سالم المرينى

فراجعه ابن الخطيب بما نصه : مولاى خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الأرض عن حجة ، ومعدن الشفقة والحرمة ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله تعالى عالى الدرجة فى المنعمين ! وافِرَ الحظ عند جزاء المحسنين ، وأراكم ثمرة برأبيكم فى البنين ،

---

(١) الوسائل : جمع وسيلة ، وهى كل شىء تجعله سببا يوصلك إلى ماتريد ، ورعيها : حفظها

(٢) الثرى : التراب ، وأراد قبر والده

وصنع لكم فى عدوكم الصنع الذى لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الأليم مَنْ أراد فى مثابتكم بإلحاد ، عبدكم الذى ملكتم رقه ، وآويتم غربته ، وسترتم أهله وولده ، وأسنيتم رزقه[1] ، وجبرتم قلبه ، يُقبل موطئ الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة ، المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف النصر ، الفارعة هَضْبَةَ العز[2] ، المعملة الخطو فى مجال السعد ، وميسر الحظ ابن الخطيب ، من شالة التى تأكد بملككم الرضى احترامها ، وتجدد برعيكم عهدها ، واستبشر بملككم دفينها ، وأشرق بحسنانكم نورها ، وقد ورد على العبد الجوابُ المولوى البر الرحيم ، المنعم المحسن بما يليق بالملك الأصيل ، والقدر الرفيع ، والهمة السامية ، والعزة القعساء ، من رَعْى الدخيل ، والنصرة للذِّمام ، والاهتزاز ببر الأب الكريم ، فثاب الرجاء ، وانبعث الأمل ، وقوى العَضُد ، وزار اللطف ، فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدكم الكريمة ، وأعانكم على رعى ذمام الصالحين ، المتوسِّل إليكم أولا بقبورهم ، ومتعبداتهم وتراب أجدائهم ، ثم بقبر مولاى ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذى تسبب فى جودكم ، واختصكم بحبه ، وغمركم بلطفه وحنانه ، وعلمكم آداب الشريعة ، وأورثكم ملك الدنيا ، وهيأتكم دعواته بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول المدَى وانفساح البقاء ، وفى علومكم المقدسة ما تضمنت الحكاياتُ عن العرب من النُّصْرة عن طائر داسَتْ أفراخَه ناقةٌ فى جوار رئيس منهم ، وما انتهى إليه الامتعاضُ لذلك مما أهينت فيه الأنفس وهلكت الأموال ، وقُصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا ، فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولا إلى رُحْماكم بالأهل والولد عن حسنة تبرعتم بها ، وصدقة حملتكم الحرية على بذلها ؟ ثم فيمن حط رحل الاستجارة

---

(١) أسنيتم : رفعتم ، ويقولون « أسنى فلان جائزة فلان » إذا جعلها سنية : أى رفيعة القدر

(٢) فرعها : ساماها فى الطول فطال عليها ، والهضبة : المرتفع

بضريح أكرم الخلق عليكم دامِعَ العين خافقَ القلب واهى الفزعة ، يتغطى بردائه ، ويستجير بعليائه ، كأنني تراميتُ عليهم فى الحياة أمام الذعر الذى يذهل العقل ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقاده ، مامن يوم إلا وأجْهَرُ بعد التلاوة : يا لَيَعْقُوب ، يا لَمَرِين ، نسأل الله تعالى أن لا يقطع عنى معروفكم ، ولا يسلبنى عنايتكم ، و يستعملنى ما بقيت فى خدمتكم ، و يتقبل دعائى فيكم ، ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس ووضعته بإزائه ، وقلت : يا مولاى ، يا كبير الملوك ، وخليفة الله ، وبركة بنى مرين ، صاحبَ الشهرة والذكر فى المشرق والمغرب ، عبدُكَ المنقطع إليك ، المترامى بين يدى قبرك ، المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك ، ابنُ الخطيب ، وصله من مولاه ولدِكَ ما يليق بمقامه من رَعْى وجهك ، والتقرب إلى الله تعالى برعيك ، والاشتهار فى مشرق الدنيا ومغربها ببرك ، وأنتم مَنْ أنتم من إذا صنع صنيعة كمَّلها ، وإذا منّ منةً تممها ، وإذا أبدى يَدًا أبرزها طاهرة بيضاء غير مَعيبة ولا ممنونة ولا منتقضة ، وأنا بعدُ تحت ذَيْل حُرْمتك وظلِّ دخيلك ، حتى يتم أملى ، ويخلص قصدى ، وتحف نعمتك بى ، ويطمئن إلى مأملك قلبى ، ثم قلت للطلبة : أيها السادة ، بينى وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوّة التألف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم ، فأمنوا على دعائى بإخلاص من قلوبكم ، واندفعتُ فى الدعاء والتوسُّل الذى نرجو أن يتقبله الله تعالى ، ولا يضيعه ، وخاطب العبدُ مولاه شاكرًا لنعمته مشيدا بصنيعته ، مسرورا بقبُوله ، وشأنه من التعلق والتطارح شأنه حتى يكمل القصد ويتم الغرض ، معمور الوقت بخدمة يرفعها ، ودعاء يردده ، والله المستعان ، انتهى .

وكان تقدم من لسان الدين كتاب للسلطان المذكور ، وكان ما سبق من كتاب

---

(١) ممنونة : يمن بها ، أو منقطعة ، وبهما فسر قوله : (وإن لك لأجرا غير ممنون)

السلطان جواباً له ، وذلك بعد رجوع لسان الدين من مراكش واستقراره فى مدينة سَلاَ برباط شالة مدفن السلاطين من بنى مرين ، ومنهم السلطان أبو الحسن والد السلطان أبى سالم المذكور ، ونصُّ الكتاب :

من لسان الدين إلى السلطان أبى سالم المرينى

مولاى المرجوّ لإتمام الصنيعة(١) وصِلَةِ النعمة وإحراز الفخر ، أبقاكم الله تعالى تُضْرَبُ بكم الأمثال فى البر والرضا وعلوّ الهمة ورَعْى الوسيلة ، مُقَبِّلُ موطىء قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابنُ الخطيب من الضريح المقدس بشالة ، وقد حط رَحْل الرجاء فى القبة المقدسة ، وتيَمَّمَ(٢) بالتربة الزكية ، وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعَةَ إيابه من الوجهة المباركة وزيارة الربُط المقصودة والترب المعظمة ، وقد عزم أن لا يبرح طوعا من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعىِّ حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم ، والتماس شفاعته فى أمر سَهْل عليكم لا يجر إنفاقَ مال ولا اقتحام خطر ، إنما هو إعمال لسان ، وخط بنان ، وصَرْف عزم ، وإحراز فخر وأجر ، وإطابة ذكر ، وذلك أن العبد عرّفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال مايحضر ممايفتح الله تعالى فيه ، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال مايتلقى عنه من الجواب وقال لى صدرُ دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدى الخطيب — يعنى ابن مرزوق — سَنَّى الله تعالى أملَه من سعادة مقامكم وطول عمركم : أنت يا فلان والحمد لله ممن لاينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين ، وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر ، جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين ! وقد تقدم تعريفُ مولاى بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أداه مَنْ حَضَر ذلك المشهد من خدامكم ، والعبدُ الآن يعرض عليكم الجواب ، وهو أنى لما فرغت

(١) الصنيعة : اليد والنعمة

(٢) تيمم : قصد

من مخاطبته بمرأى من الملأ الكبير ، والجمِّ الغفير ، أكببت على اللَّحْد الكريم داعياً ومخاطباً ، وأصغيت بأذنى نحو قبره ، وجعل فؤادى يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله ، فكأنى به يقول لى : قل لمولاك : ياولدى ، وقرة عينى ، المخصوص برضاى وبرِّى وسترحريمى ورد ملكى و [الذى] صان أهلى وأكرم صنائعى ووصل عملى ، أسلم عليك ، وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويُقْبِلَ عليك ، الدنيا دار غرور ، والآخرة خير لمن اتقى .

* وما الناس إلا هالك وابن هالك *[1]

ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة ، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ، ومِثْلُك من ذكرفتذكر ، وعرف فما أنكر ، وهذا ابنُ الخطيب قد وقف على قبرى ، وتَهَمَّمَ بى[2] ، وسبق الناس إلى رثائى ، وأنشدنى ومجدنى وبكانى ، ودعالى وهنأنى بمصير أمرى إليك ، وعَفَّروجهه فى تربى ، وأملنى لما انقطعت منى آمال الناس ، فلو كنتُ يا ولدى حيًّا لما وَسِعَنى أن أعمل معه إلا ما يليق بى ، وأن أستقل فيه الكثير ، وأحتقر العظيم ، لكن لما عجزت عن جزائه وَكَلْته إليك ، وأحلته يا حبيبَ قلبى عليك ، وقد أخبرنى أنه سَليبُ المال ، كثير العيال ، ضعيف الجسم ، قد ظهر فى عدم نشاطه أثر السن ، وأمل أن ينقطع بجوارى ، ويستتر بدخيلى وخدمتى ، ويرد عليه حقه بخدمتى ، ووجهى ووجوه من ضاجعنى من سَلفى ، ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتى ، وقد كنت تشوَّقت إلى استخدامه فى الحياة حسبما يعلمه حبيبُنا الخالص المحبة ، وخطيبُنا العظيم المزية القديمُ القربة ، أبو عبد الله بن مرزوق ، فاسأله يذكرك ، واستخبره يخبرك ، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمى بعد الممات ، إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله تعالى ورحمته

---

(١) هذا صدر بيت لأبى نواس ، وعجزه * وذو نسب فى الهالكين عريق *

(٢) تهمم بى : طلبنى وتحسس مكانى ، وأراد استغاث بى ولجأ إلى واستصرخنى

التى وسعت كل شىء ، وله يا ولدى ولد نجيب يخدم ببابك ، و ينوب عنه فى ملازمة بيت كتابك ، وقد استقر ببابك قَراره ، وتعين بأمرك مرتبه ودثاره ، فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب ، هذه رغبتى منك ، وحاجتى إليك ، واعلم أن هذا الحديث لابد له أن يذكر و يتحدث به فى الدنيا و بين أيدى الملوك والكبار ، فاعمل ما يبقى لك فخره ، و يتخلد ذكره ، وقد أقام مجاورا ضريحى ، تالياً كتاب الله تعالى على ، منتظرا ما يصله منك و يقرؤه على ، من السعى فى خلاص ماله ، والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جَبْره ، و إجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة ، فالله الله يا إبراهيم ، اعمل ما يسمع عنى وعنك فيه ، ولسانُ الحال أبلغ من لسان المقال ، انتهى . والعبد يا مولاى مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه ، منتظر منكم قضاء حاجته ، ولتعلموا وتتحققوا أنى لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ، وسفكت الدماء ، وأخذت حسائن الملوك الأعزة ممن وراء النهر من الططر وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم الله تعالى منى من غير عهد بعد أن بلغهم تذممى [1] بهذا الدخيل ، ومقامى بين هذه القبور الكريمة ، ما وسع أحداً منهم من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات و إيجاب الحقوق التى لا يُغفِلها الكبار للكبار إلا الجودُ الذى لا يتعقبه البخل ، والعفو الذى لا تفسده المؤاخذة ، فضلا عن سلطان الأندلس أسعده الله تعالى بموالاتكم ؛ فهو فاضل ، وابن ملوك أفاضل ، وحوله أكياسٌ ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم ، لاسيما مولاى والدكم الذى أتوسل به إليكم و إليهم ، فقد كان يَتَبَنَّى مولاى أبا الحجاج ، ويشمله بنظره ، وصارخه بنفسه [2] ، وأمدّه بأمواله ، ثم صيرالله تعالى ملكه إليكم ، وأنتم من أنتم ذاتا وقبيلا ، فقد قرَّتْ يا مولاى عينُ العبد بما رأت فى هذا الوطن

---

(١) تذمم بى : جعل ذمته وعهده منوطين بى

(٢) صارخه : أجاب نداءه وصريخه

المراكشى من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم وعددكم ، زادكم الله تعالى من فضله ! ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلَّتْ عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوّه ، وقد علم تطارحى بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان ، وتعلقى بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاى والدكم ، وشهرة حرمة شالة معروفة ، حاش لله أن يضيعها أهلُ الأندلس ، وما توسل إليهم قط بها إلا الآن ، وما يجهلون إلا اغتنام هذه الفضيلة الغريبة ، وأملى منكم أن يتعين من بين يديكم خديم ، بكتاب كريم ، يتضمن الشفاعة فى رد ما أخذ لى ، ويخبر بمَثْوَاى متراميًا على قبر والدكم ، ويقرر ما ألزمكم بسبب هذا الترامى من الضرورة المهمة ، والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا ، وتطلبون منه عادة المكارمة بحلِّ هذه العقدة ، ومن المعلوم أنى لوطلبت بهذه الوسائل من صلب [أموالهم (١)] ماوسعهم بالنظر العقلى إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن، فالحياء والحشمة يأبيَانِ العذر عن هذا فى كل ملة ونحلة ، وإذا تمَّ هذا الغرضُ - ولا شك فى إتمامه بالله تعالى - تقع صدقتكم على القبر الكريم بى وتعينونى لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقده ، ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المولد فى جواره و بين يديه ، وهو غريب مناسب لبركم به ، إلى أن أحج بيتَ الله بعناية مقامكم ، وأعود داعيًا مُثْنيًا مستدعيًا للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب وأتعوّض من ذمتى بالأندلس ذمة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتى ، وقد ساومت فى شىء من ذلك منتظرًا ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم فى مثل هذا أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته ، لكنهم أسرى وأفضل ، وانقطاعى أيضًا لوالدكم مما لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه ، وها أنا أرتقب جوابكم بمالى عندكم من القبول ، ويَسَعُنى مجدكم فى الطلب

---

(١) هذه الكلمة لا توجد فى الأصول ، والمعنى يستدعيها أو مايدل على معناها

وخروج الرسول ، لاقتضاء هذا الغرض ، والله سبحانه يطلع من مولاى على ما يليق به ، والسلام . وكتب فى الحادى عشر من رجب عام أحد وستين وسبعمائة .

وفى مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة :

مولاى ها أنا فى جوار أبيكا فابذل من البر المقدر فيكا
أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى والله يسمعك الذى يرضيكا
واجعل رضاه إذا نَهَدْتَ كتيبة تهدى إليك النصر أو تهديكا
واجبر بجبرى قَلْبَه تنلِ المنى وتطالع الفتح المبين وشيكا
فهو الذى سن البرور بأمه وأبيه فاشرع شَرْعَه لبنيكا
وابعث رسولك منذراً ومحذراً وبما تؤمل نيله يأتيكا
قد هزَّ عَزْمُكَ كل قطر نازح وأخاف مملوكا به ومليكا
فإذا سموت إلى مَرَام شاسع فغُصُونه ثَمرَ المنى تجنيكا
ضمنت رجال الله منك مطالبى لما جعلتك فى الثواب شريكا
فلئن كفيتَ وجوهها فى مقصدى ورعيتها بركاتها تكفيكا
وإذا قضيت حوائجى وأريتنى أملاً فربُّكَ ما أردْت يريكا
واشدد على قولى يداً فهو الذى برهانه لا يقبل التشكيكا
مولاى ما استأثرت عنك بمهجتى إنى ومهجتىَ التى تفديكا
لكن رأيت جناب شالة مغنما يضفى على العز فى ناديكا
وفروض حقك لا تفوت فوقُهْا باقٍ إذا استجزيته يجزيكا
ووعدتنى وتكرر الوعد الذى أبتِ المكارم أن يكون أفيكا
أضفى عليك الله ستر عناية من كل محذور الطريق يقيكا[1]

---

(١) أفيك : فعيل من الإفك ، وهو الكذب ، تقول : أفك يأفك ـ من باب ضرب ـ ومن باب علم ـ إذا كذب

ببقائك الدنيا تحاط وأهلها فالله جل جلاله يبقيكا

فلما وصل الكتاب إلى السلطان أجابه بما مر آنفا .

ورأيت بخط الفقيه الأديب المؤرخ أبى عبد الله محمد بن الحداد الوادى آشى نزيل تلمسان على هامش قول ابن الخطيب فى هذه الرسالة « ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم – إلخ » ماصورته : كذلك وقع آخر الأمر ، وكان الاستيلاء على مدينة غرْناطة آخر ما بقى من بلاد الأندلس للإسلام فى محرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، فرحم الله تعالى ابن الخطيب ، العاقل اللبيب ، وغفر له برحمته ، انتهى .

ومما خاطب به لسان الدين السلطان أبا سالم فى الغرض المتقدم قوله :

عن باب والدك الرضا لا أبْرَحُ يأسُو الزمانُ لأجل ذا أو يَجْرَحُ

ضُرِبَتْ خيامى فى حماه فصبيتى تجنى الجَميمَ به وبَهْمِى تسرح [1]

حتى يراعَى وجهُه فى وجهتى بعناية تشفى الصدور وتشرح

أيسوغ عن مثواه سيرى خائبا ومنابر الدنيا بذكرك تَصْدَحُ

أنا فى حماه وأنت أبْصَرُ بالذى يرضيه منك فوزن عقلك أرجح

فى مثلها سيف الحمية ينتضى فى مثلها زَنْدُ الحفيظة يقْدَحُ

وعسى الذى بدأ الجميل يعيده وعسى الذى سَدَّ المذاهب يفتح

السلطان أبو سالم المرينى ومقتله

وقد عرّف فى الإحاطة بالسلطان أبى سالم فقال بعد كلام : أملاك المسلمين ، وحماة الدين ، وأمراء المغرب الأقصى من بنى مَرِين ، غيوث المواهب وليوث العَرين ، ومعتمد الصريخ وسهام الكافرين ، حفظ الله تعالى على الإسلام والمسلمين ظلهم ، وزين ببدور الدنيا والدين هالَتَهم ، وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم أو من أقاربهم ، فما عسى أن يُطْنِبَ اللسانُ فى مدحهم ؟ وأين تقع العبارة؟

---

(١) الجميم – بفتح الجيم – ماغطى وجه الأرض من النبات ، أو هو النبت الكثير ، أو الناهض المنتشر ، والبهم – بفتح الباء ، وسكون الهاء – الماشية

وماذا يحصر الوصف ؟ إلى أن قال : وفاته ـ وفي ليلة العشرين من ذى القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة ثار عليه بدار الملك و بلد الإمارة المعروف بالبلد الجديد من مدينة فاس الخائنُ الغادرُ مخلفه عليها عمر بن عبد الله بن على نسمة السوء ، وجملة الشؤم ، والمثل البعيد فى الجراءة على الله تعالى ، وقد اهتبل (١) غِرَّةَ انتقاله إلى القصر السلطانى بالبلد القديم متحولا إليه حذرا من قطع فلكى كان يحذر منه ، استعجله بضعف نفسه ، وأعانه على فرض صحة الحكم به ، وسد الباب فى وجهه ، ودعا الناسَ إلى بيعة أخيه المعتوه ، وأصبح حائرا بنفسه ، يروم ارتجاع أمر ذهب من يده ، ويطوف بالبلد يلتمس وَجْهاً إلى نجاح حيلة ، فأعياه ذلك ، ورشقت مَنْ معه السهام ، وفرت عنه الأجناد والوجوه ، وأسلمه الدهر ، وتبرأ منه الجد ، وعندما جَنَّ عليه الليل فر لوجهه ، وقد التفَّ عليه الوزراء ، فسفهت حلومهم ، وذالت آراؤهم ، ولو قصدوا به بعضَ الجبال المنيعة لولوا أوجههم شطر مظنة الخلاص ، واتصفوا بإبلاغ الأعذار ، ولكنهم نكلوا عنه ، ورجعوا أدراجهم وتسللوا راجعين إلى يد غادر الجملة ، وقد سلبهم الله سبحانه لباسَ الحياء والرجولية وتأذن الله تعالى لهم بعدُ بسوء العاقبة ، وقصد بعض بيوت البادية وقد فضحه نهارُ الغد ، واقتفى المتبعة أثره حتى وقعوا عليه ، فسيق إلى مَصْرَعه ، وقُتِل بظاهر البلد ثانى اليوم الذى غدر به فيه ، جعلها الله تعالى له شهادةً ونفعه ! فلقد كان بقية البيت وآخر القوم دَمَاثةً (٢) وحياء ، و بعدا عن الشرور ، وركونا للعاقبة ، وأُنشدت على قبره الذى ووريت به جثته بالقلعة من ظاهر المدينة قصيدةً أديتُ فيها بعض حقه :

---

(١) الغرة ـ بكسر الغين ـ الغفلة ، واهتبلها : اقتنصها وافترصها

(٢) الدماثة : سهولة الخلق ولين الطباع ، وقد دمث ، من باب كرم

بنى الدنيا بنى لمع السراب   لدوا للموت وابنوا للخراب

انتهى المقصود من الترجمة .

وكان يصف لسان الدين بمقربى وجليسى ، كما سبقت الإشارة إليه من كلام لسان الدين فيما خاطب به ابن أبى رمانة ، والله يسبل على الجميع رداء عفوه سبحانه وقد تقدم أنه شفع لابن الخطيب عند أهل الأندلس ، ولذلك قال يخاطبهم :

سَمِىَّ خليل الله أحييت مهجتى   وعاجَلَنى منك الصريخُ على بعد

فإن عشتُ أُبْلِغْ فيك نفسىَ عذرها   و إن لم أعش فالله يجزيك من بعدى

ترجمة ابن الخطيب عن ابن الأحمر

وقال الرئيس الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر فى حق ابن الخطيب ما صورته .

هو شاعر الدنيا ، وعلم المفرد والثُّنْيا ، وكاتب الأرض ، إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه فى الكتب ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وسيف مِقْوله ليس بالكهام إذ هو الماضى ، وإلا فانظر كلام الكتاب الأول من العصبة ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبة ، للبراعة ، باليراعة ، و به أسكت صائلهم ، وماحمدت بُكَرُهم وأصائلهم ، للجزالة المشربة بالحلاوة ، الممكنه من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية ، لكن صِلّ لسانه فى الهجاء ألْسع[1] ، ونجاد نطاقه فى ذلك أنسع[2] ، حتى صدمنى ، وعلى القول فيه أقدمنى ، بسبب هجوه لابن عمى ملك الصقع الأندلسى ، سلطان ذلك الوطن فى النفر الجنسى ، المعظم فى الملوك بالقول الجنى والإنسى ، ثم صفحت عنه صفحة القادر ، الوارد من مياه الظفر غير القاذر ، لأن مثلى لا يليق به إظهار العورات ، ولا يجمل له تتبع العثرات ، اتباعا للشرع فى

---

(١) الصل — بكسر الصاد — الثعبان ، وإضافة « صل لسانه » من إضافة المشبه به إلى المشبه

(٢) أنسع : كثير الأذاية .

تحريم الغيبة ، وضربا عن الكريهة وإثباتا لحظوظ النقيبة[1] الرغيبة ، فما ضره لو اشتغل بذُنُوبه ، وتأسف على ما شربه من ماء اللهو بذَنُوبه ، وقد قال بعض الناس : من تعرض للأعراض ، صار عرضهُ هدفا لسهام الأغراض ، انتهى

رد اعتراض أورده ابن الأحمر على لسان الدين

ومثل هذا فى لسان الدين لا يقدح ، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح ، وعلى تقدير صدور ما يخدش وجه جنابه الرفيع ، فالأولى أن ينشد :

وإذا الحبيبُ أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وممن أثنى على لسان الدين بن الخطيب ــ رحمه الله تعالى ! ــ بعضُ أكابر علماء تلمسان ، ولم يحضرنى الآن اسمه ، فى تأليف عرف فيه بالشيخ العلامة سيدى أبى عبد الله الشريف التلمسانى وابنيه العالمين أبى يحيى وسيدى عبد الله ، فقال بعد كلام فى حق الشريف ما نصه : وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره ، وأكثرهم تعظيما له ، حتى إن العالم الشهير لسان الدين بن الخطيب صاحب الأنباء العجيبة ، والتآليف البديعة ، كلما ألف تأليفاً بعثه إليه ، وعرضه عليه ، وطلب أن يكتب عليه بخطه ، وكان الشيخ الإمام الصدر المفتى أبو سعيد بن لب شيخ علماء الأندلس وآخرهم كلما أشكلت عليه مسألة كاتبه بها ، وطلب منه بيان ما أشكل عليه ، مقراً له بالفضل ، انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور .

رجـــع :

وكتب لسان الدين بن الخطيب متمثلا بشيخه الأوحد قاضى الجماعة أبى البركات بن الحاج البلفيقى رحمهما الله تعالى :

أيتها النفس إليـــه اذهبى فَحُبُّه المشهور من مذهبى
أيأسنى التوبة من حبـــه طلوعه شمساً من المغـــرب

---

(١) النقيبة : النفس ، والطبيعة ، ويقال « فلان ميمون النقيبة » إذا كان محمود المختبر .

ويغلب على ظنى أنه خاطبه بذلك عند قدومه ، أعنى لسان الدين ، من المغرب إلى الأندلس ، والله تعالى أعلم .

ثناء الباعونى على لسان الدين

وكان قاضى القضاة برهان الدين الباعونى الشامى ، كثير الثناء على لسان الدين رحمه الله تعالى ، لأنه تلقى أخباره من قاضى القضاة ابن خلدون حسبما ذكرناه فى غير هذا الموضع ، ولقد رأيت بخطه على هامش بعض تآليف لسان الدين فى الإنشاء ما نصه : هذا بليغ إلى الغاية ، انتهى .

اتهام لسان الدين بالإطناب

وكتب أثره بعض أكابر علماء المشرق ما نصه : هذا خط العلامة قاضى القضاة برهان الدين الباعونى ، وهو شديد الاعتناء والمدح للمصنف ابن الخطيب الأندلسى ، معظم له ولإنشائه ، وهو خليق بالتعظيم ، جدير بمزيد التمجيد والتكريم وكيف لا وهو شاعر مُفْلِقٌ ، وخطيب مِصْقَع ، وكاتب مترسل بليغ ، لولا ما فى إنشائه من الإكثار ، الذى لا يكاد يخلو من عثار ، والإطناب ، الذى يُفضى إلى الاجتناب ، والإسهاب ، الذى يَقُدُّ الإهاب ، ويورث الالتهاب ، انتهى

الرد على هذا الاتهام

قلت : وهذ الانتقاد غير مُسَلم ، فإن لسان الدين وإن أطنب وأسهب ، فقد سلك من البلاغة أحْسَنَ مذهب ، ويرحم الله تعالى العلامة البرهان الباعونى المذكور أعلاه ؛ إذ كتب بخطه فى آخر بعض تآليف لسان الدين فى الإنشاء ماصورته : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعونى لطف الله تعالى به : الحمد لله على ما ألهم من البيان وعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم ، وقَفْتُ على هذا الكتاب من أوّله إلى آخره ، وعُمْتُ من بَحْر بلاغته فى زاخره [1] ، وعددته من مناقب مؤلفه ومفاخره ، فإنه برّز فيه غاية التبريز ، وأتى بما هو أحسن من الذهب الإبريز ، لا بل بما هو أبهى من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، وعجبت من تلك

---

(١) العوم : السباحة ، والبحر الزاخر : الكثير الماء المتلاطم الأمواج ، والكلام على المجاز .

الألفاظ ، المشبهة لسحر الألحاظ ، ورقة المعانى ، المحكمة المبانى ، انتهى .

فانظر – أيدك الله تعالى ! – بعين الإنصاف إلى كلام هذا الفاضل ، المنصف الكامل ، وقِسْه مع كلام ذلك المنتقد المتعصب الناقص الخامل ، مَعَ أن الكلام الذى تعرض له ذاك بالقدح ، هو الذى تصدى له الباعونى بالمدح ، وكل إناء بالذى فيه ينضح ، و إنما يعرف الفضلَ لأهلِ الفضلِ أهلُ الفضل ، والأمر أجلى من أن يقام عليه دليل وأوضح .

رجع إلى ما كنا بصدده :

بين لسان الدين والسلطان الغنى بالله

وقال الوزير ابن عاصم عندما أجرى ذكر سلطان ابن الخطيب أمير المسلمين الغنى بالله بعد كلام كثير ما صورة محل الحاجة منه : وكان هذا السلطان من نيل الأغراض على أكمل ما يكون عليه مِثلُه ممن نزع[1] غرقا فى قَوْسِ الخلافة ، وحكى لى شيخنا القاضى أبو العباس الحسنى أن كبير ولده الأمير أبا الحجاج طلب من الشيخ ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب أن يطلب من أبيه الغنى بالله أن يبادر بإعذاره ، إذ كان قد جاوز سن الإثغار ، دون إعذار ، لمكان ما لحق والده من التمحيص وغير ذلك من الحوادث المهمة ، فأسعده الشيخ بذلك ، وقال للغنى بالله : يامولانا إن سيدى يوسف وَكَّلَنى على طلب إعذاره من مولانا نصره الله على ما يليق بك وبه ، فقال له الغنى بالله : حسبى الله ! وسكت سكتة لطيفة تشعر بفصل الكلام بعضه من بعض ، ثم قال : ونعم الوكيل ! فعدَّها الأكياس من مدارك نبله ، ومحاسن قوله وفعله ، انتهى .

قلت : هذا من السلطان فى حق لسان الدين غاية التبجيل ، أعنى قوله «ونعم الوكيل» فأين هذا من سماع كلام أعدائه فيه بعد ، حتى آل أمره إلى النحس

(١) نزع فلان فى القوس : مدها ، أى جذب وترها ، ونزع فلان عن القوس : رمى عنها ، والغرق : اسم مصدر بمعنى الإغراق .

بعد ذلك السعد ؟ وسقاه دهره بعد الحلاوة مامر ، ولم يكن قتله إلا بتسبب السلطان المذكور كما مر .

ثلاثة ليس لها أمان   البحر والسلطان والزمان

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ولما قضى الله عز وجل بالإدالة ، ورجعنا إلى أوطاننا من العُدْوَة ، واشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة ، والتيه على السلطان والدولة ، والتكبر على أعلى رتب الخدمة ، وتطارحت على السلطان فى استنجاز وعد الرحلة ، ورغبت فى تبرئة الذمة ، ونَفَرْتُ عن الأندلس بالجملة ، خاطبنى — يعنى أبا جعفر بن خاتمة — بعد صدرٍ بَلَغَ من حسن الإشارة وبراعة الاستهلال الغاية بقوله : وإلى هذا يا سيدى ومحل تعظيمى وإجلالى ، أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم ! وضاعف فى العز درجات ارتقائكم ! فإنه من الأمر الذى لم يغب عن رأى العقول ، ولا اختلف فيه أرباب المعقول ، أنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سِلْكها ، وطِراز مُلْكها ، وقِلادة نحرها ، وفريدة درها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على العموم والخصوص ، ثم أنتم مَدَار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ، ولديه يحل المشكل ، وإليه يلجأ فى الأمر المعضل ، فلا غرو أن تتقيد بكم الأسماع والأبصار ، وتحدّق نحوكم الأذهانُ الأفكار ، ويُزْجَر عنكم السانح والبارح[1] ، ويستنبأ ما تطرف عنه العين وتختلج الجوارح ، استقراء[2] لمرامكم ، واستطلاعا لطالع اعتزامكم ، واستكشافا عن مَرَامى سهامكم ، لا سيما مع إقامتكم على جَنَاح خفوق ، وظهوركم فى ملتمع بروق ، واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق ، حتى تستقر بكم الديار ، ويلقى

من أبى جعفر ابن خاتمة إلى لسان الدين

(١) السانح : الطائر يمر من مسايرك إلى ميامنك ، والبارح : الطائر يمر من ميامنك إلى مياسرك ، وبعض العرب يتيامن بالأول ويتشاءم بالثانى ، وبعضهم على عكس ذلك.

(٢) استقراء لمرامكم : تتبعا لمواضع رغبتكم .

عصاه التسيار[١]، وله العذر فى ذلك إذ صَدْعُها بفراقكم لم يندمل، وسرورها بلقائكم لم يكتمل، ولم يبرأ بعد جناحُها المَهِيض، ولا جَمَّ ماؤها المغيض، ولا تميزت من داجيها لياليها البيض، ولا استوى نهارها، ولا تألفت أنهارها، ولا اشتملت نعماؤها، ولا نسيت غَمّاؤها، بل هى كالناقِهِ، والحديث العهد بالمكاره، يستشعر نفس العافية، ويتمسح منكم باليد الشافية، فبحَنَاكم عليها، وعظيم حرمتكم على من لديها، لا تشوبوا لها عَذْبَ المُجَاج بالأجاج، وتفطموها عما عوّدت من طيب المزاج، فما لدائها وحياة قربكم غير طبكم من علاج، وإنى ليخطر بخاطرى محبةً فيكم، وعناية بما يعنيكم، ما نال جانبكم صانه الله تعالى بهذا الوطن من الجفاء، ثم أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء، وأن الوطن إحدى المواطن الأظآر التى يحقُّ لهنّ جميلُ الاحتفاء، وما يتعلق بكم من حرمة أولياء القرابة وأوداء الصفاء، فيغلب على ظنى أنكم لحسن العهد أجنح، وبحق نفسكم عن حق أوليائكم أسمح، ولِلَّتِى هى أعظم قيمةً من فضائلكم أوهَبُ وأسْجَحُ، وهب أن الدر لا يحتاج فى الإثبات، إلى شهادة النحور واللبّات، والياقوت غنى المكان، عن مظاهرة القلائد والتيجان، أليس أنه أعلى للعيان، وأبعد عن مكابرة البرهان، تألقُهَا فى تاج الملك أنوشروان؟ فالشمس وإن كانت أم الأنوار، وجلاء الأبصار، مهما أغمى مكانها من الأفق قيل: أليلٌ هو أم نهار، وكما فى علمكم ما فارق ذوو الأرحام، وأولو الأحلام، مواطن استقرارهم، وأماكن قرارهم، إلا برغمهم واضطرارهم، واستبدال دار خير من دارهم، ومتى توازن الأندلس بالمغرب، أو يعوّض عنها إلا بمكة أو يثرب؟ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعُبَّاد، وما فوقه مرابط جِهَاد، ومعاقد ألوية فى سبيل الله ومضارب أوتاد، ثم يبوّأ ولده مبوّأ

---

(١) أخذ هذه العبارة من قول الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ، أعيذ أنظاركم المسددة من رأىٍ فائل ، وسعى طويل لم يحْلَ منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعَوْد الحميد .

وهى طويلة .

جواب لسان الدين على ابن خاتمة

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : فأجبته بقولى :

لُمْ فى الهوى العذرى أو لا تلم فالعذل لا يدخل أسماعى

شأنك تعنيفى وشأنى الهوى كل امرىء فى شأنه ساعى

أهلا بتحفة القدم ، ورَيْحانة المنادم ، وذكر الهوى المتقادم ، لا يصغر الله مسراك ! فما أسْرَاكَ ، لقد جبت إلى من همومى ليلا ، وجست رَجْلاَ وخيلا ، ووفيت من صاع الوفاء كيلا ، وظننت بى الأسف على مافات ، فأعملت الالتفات ، لكيلا[1] ، فأقسم لوأن الأمر اليوم بيدى ، أو كانت اللمة السوداء من عُدَدى ، ما أفلت أشراكى المنصوبة لأمثالك ، حول المياه و بين المسالك ، ولا علمت ما هنالك ، لكنك طرقت حِمًى كسَعَتْه الغارة الشعواء ، وغيرت رَبْعَه الأنواء ، فخمد بعد ارتجاجه ، وسكت أذينُ دجاجه ، وتلاعبت الرياحُ الهُوجُ فوق فِجَاجه ، وطال عهدُه بالزمن الأوّل ، وهل عند رسم دارس من مُعوّل[2] ، وحيا الله نَدْباً إلى زيارتى نَدَبك ، و بآدابه الحكمية أدَّبك

فكان وقد أفاد بك الأمانى كمن أهدى الشفاء إلى العليل

وهى شيمة بوركت من شِيمةٍ ، وهبة الله تعالى قبله من لدن المشيمة ، ومن مثله فى صلة رعى ، وفضل سعى ، وقول وعى :

قسما بالكواكب الزهر والزهر عاتمه

إنما الفضل ملة ختمت بابن خاتمة

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)

(٢) هذا عجز بيت من معلقة امرىء القيس وهو بتمامه :

وإن شفائى عبرة مهراقة وهل عند رسم دارس من معول

كسانى حلة فضله ، وقد ذهب زمان التجمل ، وحملنى شكره وكتدى واه عن التحمل ، ونظرنى بالعين الكليلة عن العيب[١] ، فهلا أجاد التأمل ، واستطلع طلع نَثّى ، ووالى فى مبرك المعجزة حثى ؟ إنما أشكو بثى[٢] :

* ولو ترك القطا ليلا لناما *[٣]

وما حال شمل وتده مفروق ، وقاعدته فروق ، وصُوَاع بنى أبيه مسروق ، وقلب قَرْحِهِ من عَضّة الدهر دامٍ ، وجمرة حسرته ذات احتدام ، هذا وقد صارت الصغرى ، التى كانت الكبرى ، لمشيب لم يرع أن هجم لما نجم ، ثم تهلل عارضه وانسجم :

لا تجمعى هَجْراً عَلَىَّ وغربةً فالهجر فى تلف الغريب سريع

نظرت فإذا النفس فريسة ظُفُر وناب ، والمال أكيلة انتهاب ، والعمر رهن ذهاب ، واليد صفر من كل اكتساب ، وسوق المعاد مترامية ، والله سريع الحساب .

ولو نُعْطَى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الزمان

وهب أن العمر جديد ، وظل الأمن مديد ، ورأى الاغتباط بالوطن سديد ، فما الحجة لنفسى إذا مرت بمطَارح جَفوتها ، وملاعب هَفْوتها ، ومثاقف قنَاتها ، ومظاهر عُزّاها ومَنَاتها ، والزمان وَلُود ، وزناد الكون غير صَلُود .

وإذا امرؤ لدغته أفعى مرةً تركته حين يُجَرُّ حبل يَفْرَقُ

ثم إن المرغب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وهب ، والعارض قد اشتهب ، وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضة ، وأسماؤه على الجوار مخفوضة ، والنية

---

(١) يشير إلى قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

(٢) إشارة إلى قوله تعالى على لسان يعقوب (إنما أشكو بثي وحزنى إلى الله)

(٣) هـذا عجز بيت ، وصدره قوله * ألا ياقومنا ارتحلوا وسيروا * ويضرب مثلا لمن حمل على مكروه من غير إرادته

مع الله على الزهد فيما بأيدى الناس معقودة ، والتوبة بفضل الله عز وجل منقودة ، والمعاملة سامرية ، ودروع الصبر سابرية ، والاقتصاد قد قرت العين بصحبته ، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته ، فإذا راجعها مثلى من بعد الفراق ، وقد رَقَى لدغتها ألفُ راق ، وجمعتنى بها الحجره ، ما الذى تكون الأجرة ؟ جل شانى ، وإن رضى الوامق وسخط الشانى ، إنى إلى الله تعالى مهاجر ، وللعرض الأدنى هاجر ، ولأظعان السرى زاجر ، لنجد إن شاء الله تعالى وحاجر ، لكن دعانى للهوى ، إلى هذا المولى المنعم هوى ، خلعت نعلى الوجود وما خلعته ، وشوقى أمرنى فأطعته ، وغالبٌ واللهِ صبرى فما استطعته ، والحال أغلب ، وعسى أن لا يخيب المطلب ، فإن يسر رضاه فأمر كمل ، وراحل احتمل ، وحادٍ أشجى الناقة والجمل ، وإن كان خلاف ذلك فالزمان جم العلائق ، والتسليم بمقامى لائق :

ما بين غَمْضَة عين وانتباهتها يُصَرَّفُ الأمرُ من حال إلى حال

وأما تفضيله هذا الوطن ليُمْن طَيْره ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ، وعمران رُباه ووِهاده ، بأشلاء عُبَّاده وزُهَّاده ، حتى لا يفضله إلا أحد الحرمين ، فحَقٌّ برىء من المَيْن ، لكننى للحرمين جنحت ، وفى جوّ الشوق إليهما سنحت ، فقد أفضت إلى طريق قَصْدى محجته ، ونصرتنى والمنة لله تعالى حُجَّته ، وقصد سيدى أسنى قصد توخَّاه الحمد والشكر ، ومعروف عرف به النكر ، والآمال من فضل الله بعدُ تُمْتَار ، والله تعالى يخلق مايشاء ويختار ، ودعاؤه بظهر الغيب مدد ، وعدة وعدد ، وبره حالى الظعن والإقامة معتمل ومعتمد ، ومجال المعرفة بفضله لا يحصره أمد ، والسلام ، انتهى .

ومن خط ابن الصباغ ما صورته : يكفى ابنَ خاتمة الغايةُ التى سلمها له إمام الطريقة ، وواحدها الفذ على الحقيقة ، حيث قال :

إنما الفضل ملة ختمت بابن خاتمه

ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة وطلب منه أن يعود فأبى وأنشد :

تقضى فى الكتابة لى زمان كشأن العبد ينتظر الكتابه
فمنّ الله من عِتقِي بما لا يطيق الشكر أن يملا كتابه
وقالوا هل تعود فقلت كلا وهل حر يعود إلى الكتابه

فانظر حُسْنَ هذه التورية العجيبة(١) ، انتهى .

من ابن خاتمة إلى ابن جزى

ولابن خاتمة يخاطب ابن جُزَى : يا أخى الذى سماوُدُّه أن يجَازى ، وسيدى الذى علا مجده عن أن يوُازى ، وصل الله تعالى لك أسباب الاعتلاء والاعتزاز ! وكافأ مالك من الاختصاص بالفضائل والامتياز ! أما إنه لو وسع التخلف عن جواب أخ أعز ، ولم يجب التكلف بإجابة مَنْ أبان فأعجز ، لغطيت عجزى عن عين تعجيزك ، ولما تعاطيت المثول بين يدى مناهزك أو مجيزك ، لكنه فى حكم الود المكنون المكنوز ، مما لا يحل ولا يجوز ، فلكم الفضل فى الإغضاء عن عاجز ، دعاه حكم التكلف إلى القيام قيام مُناجز ، و إن لم يكن ذلك عند الإنصاف ، وحميد الأوصاف ، من السائغ الجائز ، فعن جهد ما بلغ وليك إلى هذه الأحواز ، ولم يحصل الحقيقة إلا على المجاز ، وأما ما ذهبتم إليه من تخميس القصيدة التى أعجزت ، و بلغت من البلاغة الغاية التى عزت مُنَاهَضَتُها وأعوزت ، فلم أكن لأستهدف ثانياً لمضاضة الإعجاز ، وأسجل على نفسى بالإفلاس والإعواز ، انتهى .

وكتب قبلها قصيدة زائية أجابه بها عن قصيدة رائية ، التزم فيها ابنُ جزى ترك الراء ، لأنه كان أَلْثَغ يبدلها غينا ، رحم الله تعالى الجميع ! .

ترجمة ابن خاتمة عن لسان الدين

وقال لسان الدين فى ترجمة ابن خاتمة المذكور : إنه الصدر المتفنن المشارك ، القوى الإدراك ، السديد النظر ، الثاقب الذهن ، الكثير الاجتهاد ، الموفور

---

(١) الكتابة : عقد يعقده السيد مع عبده على أن يؤدى له العبد قدرا من المال يصير بعد أدائه حرا ، ولا يعود إلى العبودية بعد ذلك ، والتورية فى هذه الأبيات بهذا

الأدوات ، المعين الطبع ، الجيد القريحة ، الذى هو حسنة من حسنات الأندلس ، أحمد بن على بن خاتمة ، من أهل المرية ، إلى أن قال : ومما خاطبنى به بعد إلمام الركاب السلطانى ببلده وأنا صحبته ، ولقائه إياى بما يلقى به مثله من تأنيس وبر ، وتودد ، وتردد :

يامن حصلت على الكمال بما رأت	عيناى منه من الجمال الرائع
قمر يروق وفى عطافى برده	ما شئت من كرم ومجد بارع
أشكو إليك من الزمان تحاملا	فى فضِّ شَمْلٍ لى بقربك جامع
هَجَمَ البعاد عليه ضنا باللقا	حتى تقلص مثل برق لامع
فلو أُننى ذو مذهبٍ لشفاعة	ناديته يا مالكى يا شافعى

شكواى إلى سيدى ومُعَظَّمى ـ أقر الله تعالى بسنائه أعين المجد ! وأدرَّ بثنائه ألسن الحمد ! ـ شكوى ظمآن صُدَّ عن القَرَاح العَذْب لأوّل وروده ، والهيمان رد عن استرواح القرب لمعضل صدوده ، من زمان هجم على بإبعاده ، على حين إسعاده ، ودهمنى بفراقه ، غبَّ إنارة أفقى به وإشراقه ، ثم لم يكفه ما اجترم فى ترويع خياله الزاهر ، حتى حرم عن تشييع كماله الباهر ، فقطع عن توفية حقه ، ومنع من تأديةمستحقه ، لاجرم أنه أنف لشعاع ذُكائه [1] ، من هذه المطالع النائية عن شريف الإنارة ، وبخل بالإمتاع بذَكائه ، عن هذه المسامع النائية عن لطيف العبارة ، فراجع أنظاره ، واسترجع مُعَاره ، وإلا فعهدى بغروب الشمس إلى الطلوع ، وأن البدر يتصرف بين الإقامة والرجوع ، فما بال هذا النير الأسعد ، غَرَبَ ثم لم يطلع من الغد ، ماذاك إلا لعدوى الأيام وعُدْوَانها ، وشأنها فى تغطية إساءتها وجه إحسانها ، وكما قيل : عادت هيف إلى أديانها ، أستغفر الله أن لا يعد ذلك من المغتفر ،

---

(١) ذكاء — بضم الذال — اسم من أسماء الشمس ، ويقال للقمر « ابن ذكاء »

فى جانب ما أولت من الأُثَر(١)، التى أزرى العيان فيها بالأثر ، وأربى الخبر على الخبر ،
فقد سرت متشوّفات الخواطر ، وأقرّت مستشرفات النواظر ، بما حوت من
ذلكم الكمال الباهر ، والجمال الناضر ، الذى قيد خطا الأبصار ، عن التشوّف
والاستبصار، وأخذ بأزِمّة القلوب، عن سبيل كل مأمول ومرغوب، وأنّى للعين، بالتحوّل
عن كمال الزَّيْن ؟ أو الطرف ، بالتّنقل عن خلال الظرف ؟ أو للسمع من مراد ،
بعد ذلكم الإصدار الأدبى والإيراد ، أو للقلب من مراد ، غير تلكم الشيم الرافلة
من ملابس الكرم فى حُلل وأبراد ، وهل هو إلا الحسن جمع فى نظام ، والبدر
طالع لتمام ، وأنواع الفضل ضمها جنس اتفاق والتئام ، فما ترعى العين منه فى غير
مرعًى خصيب ، ولا تستهدف الأذن بغير سهم فى حدق البلاغة مصيب ،
ولا تستطلع النفس سوى مطلع له فى الحسن والإحسان أوفر نصيب ، لقد أزرى
بناظم حلاه فيما يتعاطاه التقصير ، وانفسح مدى علاه بكل باع قصير ، وسفه حلم
القائل إن الإنسان عالمَ صغير ، شكرا للدهر على يد أسداها بقرب مزارهِ ، وتحفة
أهداها بمطلع أنواره ، على تغاليه فى أُدخاره ، نفائسه وتحليه بنفائس ادّخاره ، لا غرو
أن يضيق عنا نطاق الذكر ، ولا يتسع لنا سوار الشكر ، فقد عمت هذه الأقطار
بما شاءت من تحف وكرامة ، واجتنت أهلها ثمرة الرحلة فى ظل الإقامة ،
وجرى لهم الأمر فى ذلك مجرى الكرامة ، ألا وإن مفاتحتى لسيدى ومعظمى
ـ حَرَسَ الله تعالى مجده ، وضاعف سعده ! ـ مفاتحة من ظفر من الدهر بمطلوبه ،
وجرى له القدر على وفق مرغوبه ، فشرع له إلى أهله بابا ، ورفع له من خجله
جلبابا ، فهو يكلف بالاقتحام ، ويأنف من الإحجام ، غير أن الحصر عن درج
قصده يقيده ، والبصر يبهرج نقده فيقعده ، فهو يُقدّم رجلا ويؤخر أخرى ،
ويجدد عزما ثم لا يتحرّى ، فإن أبطأ خطابى فلواضح الأعذار ، ومثلكم مَنْ قبل

(١) الأثر : جمع أثرة ـ بضم الهمزة وسكون ثاء المفرد وفتحها فى الجمع ـ وهى المكرمة المتوارثة .

جليات الأقدار ، والله سبحانه يصل لكم عوائد الإسعاد والإسعاف ، ويحفظ بكم ما للمجد من جوانب وأكناف ، إن شاء الله تعالى . وكتب فى عاشر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ، انتهى .

ومن خاتمة رسالة من إنشاء ابن خاتمة المذكور : فلنصرف عنان البطالة عن الإطالة ، ونسلم على السيادة الطاهرة الأصالة ، بأطيب تسليم ، ختامه مسك ومزاجه من تسنيم .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور :

هو الدهر لا يبقى على عائذ به ... فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه(١)

فمن لم يصب فى نفسه فمصابه ... بفَوْتِ أمانيه وفقد حبائبه

ومنه قوله :

ملاكُ الأمر تقوى الله ، فاجعل ... تُقَاه عُدَّة لصلاح أمرك

وبادر نحو طاعته بعزم ... فما تدرى متى يقضى بعمرك

من ابن خاتمة إلى لسان الدين

وقال لسان الدين : وكتب إلى — يعنى ابن خاتمة المذكور — عقبَ انصرافِهِ من غَرْنَاطة فى بعض قدماته عليها ما نصه : مما قلته بديهة عند الإشراف على جنابكم السعيد ودخوله مع النفر الذين أتحفتهم سيادتكم بالإشراف عليه ، والدخول إليه ، وتنعيم الأبصار فى المحاسن المجموعة لديه ، وإن كان يوماً قد غابت شمسه ، ولم يَتَّفِقْ أن كمل أنسه ، وأنشدته حينئذ بعض من حضر ولعله لم يبلغكم ، وإن كان قد بلغكم ففضلكم يحملنى فى إعادة الحديث :

أقول وعين الدمع نصب عيوننا ... ولاح لبستان الوزارة جانب

أهذى سماء أم بناء سمائه ... كواكب غضت عن سناها الكواكب

---

(٢) عائذ به : لائذ إليه مستجير به .

تناظرت الأشكال منـه تقابلا على السعد وسُطّى عقده والحبائبُ
وقد جرت الأمواه فيـه مجرة مذانبها شهبٌ لهن ذوائبُ
وأشرف من علياه بَهْو تحفه شماسى زجاج وَشْيُهَا متناسب[1]
يطل على ماء به الآس دائراً كما افتر ثغر أو كما اخضر شارب
هنا لك ما شاء العلا من جلالة بهـا يزدهى بستانها والمراتب

ولما أحضر الطعام هنالك دعى شيخنا القاضى أبو البركات فاعتذر أنه صائم قد بَيَّتَه من الليل ، فحضرنى أن قلت :

دعونا الخطيب أبا البركات لأكل طعام الوزير الأجل
وقد ضمنا فى نداه جنان به احتفل الحسن حتى كمل
فأعرض عنا لعذر الصيام وما كل عـذر له مستقل
فإن الجنان محـل الجزاء وليس الجنان محـل العمل[2]

وعند ما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات شيخنا أبا البركات ، فقال لى : لو أنشدتنيها وأنتم بعد لم تفرغوا منه لأكلت معكم ، برا بهذه الأبيات ، والحوالة فى ذلك على الله تعالى ، انتهى .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور فى فران :

رب فران جـلا صفحتَهُ لهبُ الفرنِ جلاء العسجد
يضرم النار بأحشاء الورى مثل ما يضرم فى المستوقد
فـكأن الوجه منه خُبْزة فوقها الشعر كقدر أسـود

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ولما قدمت مالقة آيباً من السفارة إلى ملك المغرب محفوفاً بفضل الله تعالى وجميل صُنْعه ، مُوَفَّى المآرب ، مصحباً بالإعانة ،

---

(١) البهو — بفتح الباء وسكون الهاء — البيت المقدم أمام البيوت ، ويجمع على أبهاء . (٢) الجنان : جمع جنة ، وأراد بها الدار الآخرة التى وعد بها المتقون ، وهى دار جزاء ، وليست دار تـكليف ، وإنما دار التكليف هى الدنيا .

لقينى على عادته مهنياً ، يعنى أحمد بن صفوان أحد أعلام مالقة و بقية أدبائها وصدور كتابها ، وأنشدنى معيداً فى الود ومبدياً ، وضمن غرضاً له تعجل قضاءه والحمد لله تعالى :

من نظم أحمد ابن صفوان

قدمت بماسرَّ النفوس اجتلاؤه ... فهنيت ما عم الجميع هنـاؤه

قدوماً بخـير وافر وعنـاية ... وعز مَشيدٍ بالمعـالى بناؤه

ورفعة قدر لا يدانى محلهـا ... رفيع و إن ضاهى السماك اعتلاؤه

عنيت بأمر المسلمين فـكلهم ... بمـا يرتجيه قد توالى دعاؤه

بلغت الذى أملته من صلاحهم ... فأدركت مأمولا عظيما جزاؤه

فيا واحـدا أغنت عن الجمع ذاته ... وقام بأعباء الأمور غنـاؤه

تشوّقك الملك الذى بك فخره ... وأنت حقيقا حسـنهُ و بهاؤه

فلا زال مُزْدَانًا بحليك جوده ... ولا زال موفوراً عليك اصطفاؤه

وخُصِّصْتَ من رب العباد بنعمة ... ينيلـكها تخصيصه واحتفـاؤه

وعشت عزيزاً فى النفوس محببا ... يُلَبىَّ بتبجيـل و بر نداؤه

وقد جاءنى داعى السرور مؤديا ... لحق هنـاء فَرْضُ عينٍ أداؤه

ولى بعد هـذا مأرب متوقف ... على فضلك الرحب الجناب قضاؤه

هززت له عطف البطرنى راجياً ... له النجح فاستعصى وخاب رجاؤه

ولم يدر إنى من علاك لمنتضٍ ... حُسَاما كفيلا بالنجاح انتضاؤه(١)

يصمم إن هزته كفى لمعضل ... فيـكفى العنـا تصميمه ومضاؤه

فحِّقْق له دامت سعودك حرمتى ... لديك يرحنى مطـله والتواؤه

وشارك محباً خالصاً لك حبـه ... قديماً كريما عهـده ووفاؤه

---

(١) انتضي السيف : شهره ليضرب به ، ومثله نضاه ينضوه .

وصِلْ بجزيل الرعى حبل زمامه يصلك جزيلا شكره وثناؤه
بقيت وصنعُ الله يدنى لك المنى ويوليك من مصنوعه ما تشاؤه
بحرمة مَنْ حقت سيادته على بنى آدم والخير منه ابتداؤه

إجازة من ابن صفوان للسان الدين وولده عبد الله

وجمعت ديوان شعره أيام مقامى بمالقة عند توجهى صحبة الركاب السلطانى إلى إصراخ الخضراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وقدمت صدره خطبة ، وسميت الجزء « بالدرر الفاخرة ، واللجج الزاخرة » وطلبت منه أن يجيزنى وولدى عبدالله رواية ذلك عنه ، فكتب بخطه الرائق ، بظهر المجموع مانصه : الحمد لله مستحق الحمد ، أجبت سؤال الفقيه الأجل الأفضل السرى الماجد الأوحد الأحفل الأديب البارع الطالع فى أفق المعرفة والنباهة ، والرفعة المكينة والوجاهة ، بأبهى المطالع ، المصنف الحافظ العلامة الحائز فى فنى النظم والنثر ، وأسلوبى الكتابة والشعر ، رتبة الرياسة والإمامة ، محلِّ جِيدِ العصر بتآليفه الباهرة الرُّوَاء[(١)] ، ومجلِّى محاسن بنيه الرائقة على منصة[(٢)] الإشارة والأنباء أبى عبدالله بن الخطيب ، وصل الله تعالى سعادته ، وحرس مجادته ، وسنَّى من الخير الأوفر ، والصنع الأبهر ، مقصده وإرادته ، وبلغه فى نجله الأسعد ، وابنه الراقى بمحتِدِه الفاضل ومَنْشَئِهِ الأطهر محلَّ الفرقد ، أفضلَ مايؤمل نحلته إياه من المكرمات وإفادته ، وأجزت له ولابنه عبدالله المذكور أبقاهما الله تعالى فى عزة سنية الخلال ، وعافية ممتدّة الأفياء وارفة الظلال ، روايةَ جميعِ ماتقيد فى الأوراق المكتتب على ظهر أوّل ورقة منها من نظمى ونثرى ، وما توليت إنشاءه ، واعتمدت بالارتجال والرواية اختياره وانتقاءه ، أيام عمرى ، وجميعَ مالى من تصنيف وتقييد ، ومقطوعة وقَصيد ، وجميع ما أحمله عن أشياخى رضى الله تعالى عنهم من العلوم ، وفنون المنثور والمنظوم ، بأى وجه تأدَّى ذلك إلىَّ ، وصح حملى له وثبت إسناده لدى ،

---

(١) الجيد — بكسر الجيم — العنق ، والرواء — بضم الراء بزنة الغراب — المنظر
(٢) مجلى : مظهر ، وأصله تجلية العروس عند زفافها ، والمنصة — بكسر الميم وفتح النون وتشديد الصاد — الكرسى الذى ترفع عليه العروس لترى من بين النساء .

إجازة تامة ، فى ذلك كله عامة ، على سَنَن الإجازات الشرعى ، وشرطها المأثور عند أهل الحديث المرعىِّ ، والله ينفعنى وإياهما بالعلم وحمله ، وينظمنا جميعاً فى سلك حزبه المفلح وأهله ، ويفيض علينا من أنوار بركته وفضله ، قال ذلك وكتبه بخط يده الفانية العبدُ الفقير إلى الله الغنى به أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان ، ختم الله تعالى له بخير ! حامدا الله تعالى ، ومصليا ومسلماً عن نبيه المصطفى الكريم ، وعلى آله الطاهرين ذوى المنصب العظيم ، وصحابته البررة أولى الأثرة والتقديم ، فى سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، انتهى .

من أبى جعفر العذرى إلى لسان الدين

وكتب الفقيه أبو جعفر بن عبد الملك العذرى من أهل بَلَنْسية إلى لسان الدين رحمه الله تعالى فى بعض الأغراض :

إنى بمجدك لم أزل مُسْتَيْقِنًا ... أن لا يهدم بالتغير ما بنى

إذ أنت أعظم ماجد يعزى له ... صفح وأكرم من عفا عمن جنى

وكتب أيضاً :

إن كان دهرى قد أساء وجارا ... فذمام مجدك لا يضيع جارا

فلأنت أعظم ملجأ يُنْجِى إذا ... ما الدهر أنجد موعداً وأغارا

من لسان الدين إلى ابن نفيس

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : خاطبتُ الشيخَ الشريف الفاضل أبا عبد الله بن نفيس صحبة ثمن مسكن اشتريته منه ، وكان قد أهدانى فرسا عتيقا :

جزيت يا ابن رسول الله أفضل ما ... جزى الإلهُ شريف البيت يوم جزى

إن أعجز الشكر منِّى منة ضعفت ... عن بعض حقك شُكْرُ الله ما عجزا[١]

سيدى ، أبقى الله شرَفَكَ تشهد به الطباع ، إذا بعدت المعاهد المقدسة والرِّباع !

---

(١) المنة : القوة ، يريد إن كان شكرك فوق ما أستطيعه فإنى أكل شكرك إلى الله يجزيك أحسن الجزاء عما قدمت لى ، وهو من حديث عن النبي معناه «من أسدى إليه معروف فليشكر مسديه ، فإن لم يستطع فليدع له » أو كما قال .

وتعترف به الأبصار والأسماع ، وإن جحدت عارضَها الإجماع ، بأى لسان أثنى ؟ أم أىّ الأفنان أهصر[1] وأجنى ؟ أم أى المقاصد الكريمة أعنى ؟ أمطيت جوادك المبارك ، وأسكنت دارك ، وأوسعت مطلبى اصطبارك ، وهضمت حقك وبوّأت جوارك ، ووصلت للغرباء إيثارك ، أشهد بأنك الكريم ابن الكريم ، لا أقف فى تعدادها عند حد ، إلى خير جد ، فإن أعان الدهر على مجازاه ، وإن ترفع كرمك عن مُوَازاه ، فحاجةَ نفسٍ قضيت ، وأحكامَ آمال أمضيت ، وإن اتصَلَ العجز فعين على القذى أغضيت ، ومَنَاصل عزم ما انتضيت ، وعلى كل حال فالثناء ذائع والحمد شائع ، واللسان والحمد لله طائع ، والله مشترٍ ما أنت بائع ، وقد وجهت من يحاول لسيدى ثمن ما اكتسبه مجده ، وسَفَر عنه حمده ، والعقيدة بعد التراضى ، وكمال التقاضى ، وحميد الصبر وسعة التغاضى ، وكونه الخصم والقاضى ، أنه هبة سوَّغها إنعامه ، وأكلة هناها مِطْعَامه ، نسأل الله تعالى أن يعلى ذكره ، ويتولى شكره ، ويُنْمِىَ ماله ، ويرفع قدره ، والولد جاره الغريب الذى برز إلى مقارعة الأيام عن خبرة قاصرة ، وتجربة غير منجدة على الدهر وناصرة ، قد جعلته وديعة فى كرم جواره ، ووضعته فى حِجْرِ إيثاره ، فإن زاغ فيَدُه العليا فى تبصيره ، ومؤاخذته بتقصيره ، ومَنْ نبَّه مثله نام[2] ، ومن استنام إليه بمهمه أكرم بمن إليه استنام ، وإن تشوف سيدى لحال محبه فمطلق للدنيا من عقال ، ورافض أثقال ، ومؤمل اعتياض بخدمة الله تعالى وانتقال ، انتهى .

من لسان الدين إلى أبى القاسم ابن رضوان

وقال رحمه الله تعالى : مما خاطبت به صدرَ الفضلاء الفقيه المعظم أبا القاسم ابن رضوان بما يظهر داعيته من فحواه :

مرضت فأيامى لديك مريضة ... وبرؤك مقرون ببرء اعتلالها

---

(١) هصر الغصن يهصره — من باب ضرب — جذبه إليه وأماله ليأخذ ما فيه من ثمرة .

(٢) أخذ هذا من قول الشاعر بشار بن برد :

إذا أيقظتك حروب العدا ... فنبه لها عمرا ثم نم

فلا راع تلك الذات للضر رائع ولا وسمت بالسقم غر خلالها

وردت على من فئتى التى إليها فى مَعْرك الدهر أتحيز ، و بفضل فضلها فى الأقدار المشتركة أتميز ، سَحَاءة(١) سرت وساءت ، و بلغت من القصدين ماشاءت ، أطلع بها سيدى صنيعة وده من شكواه على كل عابث فى السويداء ، مُوجِب اقتحام البَيْدَاء ، مُضرم نار الشفقة فى فؤاد لم يبق من صبره إلا القليل ، ولا من إفصاح لسانه إلا الأنين والأليل ، ونوى مدت لغير ضرورة يرضاها الخليل ، فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع متقبل أعماله ، أو آمل ضويق فى فذلكة آماله ، لكننى رجحت دليلَ المفهوم على دليل المنطوق ، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطَّ يبهر والحمد لله تعالى و يروق ، واللفظ الحسن تومضُ فى حبره للمعنى الأصيل بُروق ، فقلت : ارتفع الوصَب ، ورد من الصحة المغتصب ، وآلة الحس والحركة هى العصب ، و إذا أشرق سراجُ الإدراك دل على سلامة سَليطه(٢) ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى ذلك فلا يقنع بليد احتياطى إلا الشرح ، ففيه يسكن الظمأ البرح ، وعذرا عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزَنْدُ القلق فى مثلها أوْرَى ، والشفيقُ بسوء الظن مُغْرَى(٣) ، وسيدى هو العمدة التى سلمت لى الأيام فيها ، وقالت : حسب آمالك و يكفيها ، فكيف لا أشفق ، ومن أنفق من عينه فأنا من عينى لا أنفق ، والله لا يحبط سعيى فى سؤال عصمتها ولا يخفق ، و يرشد إلى شكره على ماوهب منها و يوفق ، والسلام الكريم على سيدى البر الوصول ، الذى زكت منه الفروع لما طابت الأصول ، وخلص من وده لابن الخطيب المحصول ، ورحمة الله تعالى و بركاته .

---

(١) أراد بالسحاءة الرقعة التى يكتب فيها

(٢) السليط : الزيت ، وكانت توقد به القناديل

(٣) هذا مثل ، ومغرى ــ بزنة اسم المفعول ــ مولع

من ابن رضوان إلى لسان الدين

قال : فراجعني حفظ الله سيادته بما نصه :

متى شئت ألفى من علائك كل ما ينيل من الآمال خير منالها
كبرء اعتلال من دعائك زارنى وعادات برلم تَرِمْ عن وصالها(١)

أبقى الله ذلك الجلال الأعلى متطولاً بتأكيد البر ، متفضلا بموجبات الحمد والشكر ، وَرَدَتْنى سَحاءته المشتملة على معهود تشريفه ، وفضله الغنى عن تعريفه ، متحفيا فى السؤال ، عن شرح الحال ، ومُعْلنا بما تحلى به من كرم الخلال ، والشرف العال ، والمعظم على ما يسر ذلك الجلال الوزارى الرياسى أجراه الله تعالى على أفضل ما عوّده ، كما أعلى فى كل مكرمة يده ، ذلك ببركة دعائه الصالح ، وحبه المخيم بين الجوانح ، والله سبحانه المحمود على نعمه ، ومواهب لطفه وكرمه ، وهو سبحانه المسؤل أن يهيىء لسيدى قَرار الخاطر ، على ما يسرّه فى الباطن والظاهر ، بمن الله تعالى وفضله ، والسلام الكريم على جلاله الأعلى ورحمة الله وبركاته ، كتبه المعظم الشاكر الداعى الذاكر المحب ابن رضوان ، وفقه الله تعالى ! فى ذى الحجة ختام عام واحد وستين وسبعمائة ، انتهى .

من لسان الدين إلى الشيخ الجنان

وقال رحمه الله تعالى : وفاتحته ـ يعنى الشيخ الجنان ـ محرّكا قريحته ومستثيرا ما عنده ، بقولى :

إن كانت الآداب أضحت جنة فلقد غدا جنانها الجنان
أقلامه القُضُبُ اللّدان بدَوْحها والزهر ما رقَمته منه بنان

من الشيخ الجنان إلى لسان الدين

وذكر بعد البيتين سَجْعاً بليغا ، ثم قال : فراجعنى الجنان بما نصه :

يا خاطب الآداب مهلا فقد ردك عن خطبتها ابن الخطيب
هل غيره فى الأرض كفء لها وشرطها الكفاة قول مصيب

(١) لم ترم : لم تبرح ولم تفارق ، رام يريم ريما - بوزن باع يبيع بيعا - إذا أقام فى مكانه وثبت ، ولم يفارقه ولم يزايله

أصبح للشرط بها معرسـا فاستفت فى الفسخ فهل من مجيب

أيها السيد الذى يُتنَافس فى لقائه ويُتغَالى ، ويصادم بولائه صرف الزمان ويتعالى وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه ، وتُقْتَنَص شوارد العلوم بروايات كلامه فكيف بمداناة عِيانه ، جلوت علىَّ من بنات فكرك عقائل نواهد ، وأقمت بها على معارفك الجمة دلائل وشواهد ، واقتنصت بشَرَك بديهتك من المعانى أوابدَ شوَارد ، وفجَّرْتَ من بلاغتك و براعتك حياضا عذبة الموارد ، ثم كلفتنى من إجراء ظالعى فى ميـدان ضليعها (١) ، مقابلة الشمس المنيرة بسراج عند طلوعها ، فأخلدت إخلاد مَهِيض الجناح ، وفررت فرار الأعزل عن شاكى السلاح ، وعلمت أننى إن أخذت نفسى بالمقابلة ، وأدليت دلو قريحتى للمُسَاجله ، كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها ، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها ، وإن رضيت من القريحة بسجيتها ، وأظهرت القدْرَ الذى كنت امْتَحتُ من رَكِيتها ، أصبحت مسخرة للراوين والسامعين ، ونبت عن أسْمى دواوينهم كما تنبو عن الأشيب عيون العين ، ثم إن أمرك ياسيدى لا يَحُـلُّ وثيق مبرمه ، ولا يَحِلُّ نسخ محكمه ، فامتثلته امتثال من لم يجد فى نفسه حرجا من قضائك (٢) ، ورجوت حسن تجاوزك وإغضائك ، أبقاك الله تعالى قطبا الفلك المـكارم والمآثر ، وفصا لخاتم المحامد والمفاخر ، والسلام ، انتهى .

ترجمة الشيخ أحمد بن محمد الجنان الأوسى

والجنان المذكور مغربى من مكناسة الزيتون ، وهو الشيخ الفقيـه العدل الأديب الأخبارى المشارك ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسى ، الجنان ، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة ، كاتب عاقل ناظم ناثر مشارك فى فنون من العلم ، له تصنيف حسن فى ثلاث مجلدات سماه « المنهل المورود » فى شرح المقصد

---

(١) الظالع : الذى أصابه الظلع ، وهو شبه العرج ، والضليع : القوى على فعل ما يريد ، وفى خطبة الحريرى عنه وعن بديع الزمان « وأنى يدرك الظالع شأو الضليع ؟ » (٢) أخذ هذا من قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت)

المحمود » شَرَح فيه وثائق أبى القاسم الجزيرى المالكى ، فأربى على غيره بيانا وإفادة ، قال فى « نفاضة الجراب » : وناولنى إياه ، وأذن لى فى حملى عنه ، وأنشدنى كثيراً من شعره ، فمن ذلك ما صدّر به رسالة يهنىء بها ناقهاً من مَرَض :

أُلبس الصحة بُرداً قشيبا وارشف النعمة ثغراً شنيبا[1]

واقطف الآمال زهراً نضيرا واعطف الإقبال غصنا رطيبا

إن يكن ساءك وَعْكٌ تقضى تجد الأجر عظيما رحيبا

فانتعش فى دهرنا ذا سرور يصبح الحاسد منه كئيبا

وقال أيضاً لسانُ الدين فى النفاضة : قرأت بالدور الحنشبى فى الدار التى نزلت بها بمكناسة الزيتون أبياتا منقشة استحسنتها لسهولتها فأخبرنى أنها من نظمه ، وهى :

انظر إلى منزل مَتَى نظرت عيناك يعجبك كل ما فيه

ينبىء عن رفعة لمالكه وعن ذكاء الحجا لبانيه

يناسبُ الوشى فى أسافله ما يرقم النقش فى أعاليه

كأنه روضة مُدَبجة جاد لها وابل بما فيه

فأظهرت للعيون زخرفها ووافقتْها على تجليه

فهو على بهجة تلوح به ورونق للجمال يبديه

يشهد للساكنين أن لهم من جنة الخلد ما يحاكيه

قلت : قد تذكرت هنا ، والشىء بالشىء يذكر ، ما رأيته مكتوباً على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التى بناها أميرُ المسلمين ابن تاشفين الزيانى ، وهى من بدائع الدنيا ، وهو :

انظر بعينك بهجتى وسنائى وبديع إتقانى وحسن بنائى

---

(١) برد قشيب : جديد ، وثغر شنيب : طيب الرائحة ، وقال الراجز :

وا ، بأبى أنت وفوك الأشنب ! كأنما ذر عليه الزرنب

وبديع شكلى واعتبر فيما ترى … من نشأتى بل من تدفق مائى
جسيم لطيف ذائب سيلانه … صاف كذَوْبِ الفضة البيضاء
قد حف بى أزهار وَشْى نمقت … فغدت كمثل الروض غِبَّ سماء

وما أنشده بعضُ أهل العصر فى المغرب بقصد أن يرسم فى الأستار المذهبة المحكمة الصنعة التى جعلها السلطان المنصور أبو العباس الشريف الحسنى رحمه الله تعالى لكى يستر بها النواحى الأربع من القبة الكبيرة بالبديع ، وتسمى هذه الستور عند أهل المغرب بالحائطى ، ففى الجهة الأولى :

متع جفونك من بديع لباسى … وأدِرْ على حُسْنى حُمَيَّا الكاس
هذى الربا والروض من جَرْعائها … ما أغتذى بالعارض البجَّاس
أنى لروض أن يروق بهاؤه … مثلى وأن يجرى على مقياس ؟
فالروض تغشاه السوام ، وإنما … تأوى إلى كنفى ظباء كناس

وعلى الجهة الثانية :

من كل حَسْناَ كالقضيب إذا انثنى … تُزْرِى بغصن البانة المياس
ولقد نشرت على السماك ذوائبى … ونظرت من شَزْرٍ إلى الكناس
وجررت ذيلى بالمجرَّة عابثاً … فخراً بمخترعى أبى العباس
مانيط مثلى فى القباب ولاازدهت … بفتىً سواه مراتبٌ وكراسى

وعلى الجهة الثالثة :

ملك تقاصرت الملوك لعزه … ورماهم بالذل والإتعاس
غَيْثُ المواهِبِ بحر كل فضيلة … ليث الحروب مسعر الأوطاس[1]
فرد المحاسن والمفاخر كلها … قطب الجمال أخو الندى والباس

---

(١) الأوطاس : جمع وطس ـ بضم الواو والطاء جميعا ـ الذى هو جمع وطيس ، وأصل الوطيس التنور ، وقيل : حفيرة يختبز فيها ويشتوى . وقالوا «حمى الوطيس» يريدون اشتدت الحرب وغلا مرجلها ، ويقال : أول من قال ذلك النبى صلى الله عليه وسلم

ملك إذا وافى البلاد تأرجت منـه الوهاد بعاطر الأنفاس

وعلى الجهة الرابعة :

وإذا تطلَّعَ بدره من هـالة يغشى سناه نواظر الجلاس
أيامـه غرر تجلَّتْ كلهـا أبهى من الأعياد والأعراس
لا زال للمجد السنى يشيده ويقيـم مبناه على الآساس
ما مال بالغصن النسيم وحببت درر الندى فى جيده المياس

وما أنشدنيهِ بعضُ العصريين من المغاربة لصاحبنا المرحوم الفقيه الكاتب المحقق أبى محمد الحسن بن أحمد المسفيومى المراكشى أحد مشاهير الكتاب بباب أمير المؤمنين المنصور بالله أبى العباس الشريف الحسنى ملك المغرب ، صَبَّ الله تعالى على الجميع أمطار الرضوان مما كتب فى بعض مبانى صاحبنا الوزير العلامة الأجل سيدى عبد العزيز القَشْتَالى رحمه الله تعالى ! وهو :

أجِلِ المعلَّى من قداحِ سُرُورِى وأدِرْ كئوسَ الأُنْسِ دونَ شرور (١)
خلعت على عطف البهاء محاسنى فكست به الآفاق ثوب حبور
وتناسق الوَشْىُ المفوّف حلتى نسقَ الشذور على نحور الحور
شأو القصور قصورها عن رتبة لى بالسنا الممدود فى المقصور
فى المبتنى المُراكشى وأفقه أزرى على الزوراء والخابور
أعلى مقامى البارع الأسمى الذى قـد حاز سبق النظم والمنثور
فإذا أقـل بنانُه أقـلامَهُ نفثت عقود السحر بين سطور
عبد العزيز أخو الجلالة كاتب سر الخليفة أحمـد المنصور
لا زال فى يمن وأمن ما شَدَتْ وُرْقٌ بروض بالنَّـدَى ممطور

---

(١) المعلى : أوفر قداح الميسر نصيبا ، وإجالته : تحريكه فى الخريطة ، والقداح : جمع قدح ، بكسر القاف وسكون الدال .

وبعضه كتبته بالمعنى من حفظى لطول العهد ، والغاية فى هذا الباب ما أنشدنيه لنفسه الوزير أبو فارس عبد العزيز القشتالى المذكور ، وهى جملة من قصائد كتبت فى المبانى الملوكية المنصورية بالحضرة المراكشية حاطها الله تعالى ! فمنها ما كتب خارج القبة الخمسينية أى التى فيها خمسون ذراعاً بالعمل ، وذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان القبة :

سموتُ فخرّ البدر دونىَ وانحطا ... وأصبح قرص الشمس فى أذُنِى قُرْطَا
وصُغْتُ من الإكليل تاجا لمفرقى ... ونيطت بى الجوزاء فى عنقى سمطا
ولاحت بأطواقى الثريا كأنها ... نثيرُ جُمانٍ قد تتبعته لَقْطَا(١)
وعديت عن زهر النجوم لأننى ... جعلت على كيوان رحلىَ منحطا
وأجريت من فيض السماحة والندى ... خليجا على نهر المجرة قد غطّى
عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت ... إليهِ وفودُ البحر تغرق ما أنطى
فنضض ما بين الغروس كأنه ... وقد رقرقت حصباؤه حية رقطا
حواليه من دَوْحِ الرياض خرائد ... وغيد تجر من خمائلها مِرْطَا
إذا أرسلت لدن الفروع وفتحت ... جنى الزهر لاح فى ذوائبها وخطا
يرنحها مر النسيم إذا سرى ... كما مال نشوان تشرب إسفنطا
يشق رياضا جادَهَا الجود والندى ... سواء لديها الغيث أسكب أم أخطا
وسالت بسلسال اللُّجَيْنِ حياضه ... بحارا غدا عرض البسيط لها شطا
تطلع منها وسط وسطاه دمية ... هى الشمس لاتخشى كسوفا ولاغمطا

---

(١) الثريا : سبعة كواكب فى عنق الثور ، والنثير : ما ينثر على العروس فى حفل زفافها ، وكان السراة ينثرون عليها حبات من الفضة ومن الذهب ومن المسك والعنبر ونحو ذلك ، ونثر الحسن بن سهل على بوران ابنته عند زفافها إلى المأمون بنادق فى كل بندقة ورقة ، كتب فيها صك بضيعة أو بمبلغ كبير من المال ، وأعطى كل من لقط بندقة ما كتب فى الرقعة التى بداخلها .

حكت وحباب الماء فى جنباتها ... سنى البدر حل من نجوم السما وسطا
إذا غازلتها الشمس ألقى شعاعها ... على جسمها الفضى نهرا بها لطا
توسمت فيها من صفاء أديمها ... نقوشا كأن المسك ينقطها نقطا
إذا اتَّسقت بيض القباب قلادة ... فإنى لها فى الحسن دُرَّتُها الوسطى
تكنفنى بيض الدمى فكأنها ... عَذَارَى نضت عنها القلائد والريطا
قُدُودٌ ولكن زانها الحسن عريها ... وأجمل فى تنعيمها النحت والخرطا
نمت صُعُدًا تيجانها فتكسرت ... قوارير أفلاك السماح بها ضغطا
فيالك شأوا بالسعادة آهلا ... بأكنافه رحل العلا والهدى حطا
وكعبة مجد شادها العز فانبرت ... تطوف بمغناها أمانى الورى شوطا
ومسرح غزلان الصَّريم كِناسُها ... حنايا قباب لا الكثيبَ ولا السَّقْطَا
فلكن به ما طاب لا الأثل والخمْطَا ... ووسدن فيه الوشى لا السِّدْر والأرْطَى
تراه من المسك الفتيت مدبرا ... إذا ما زجته السحب عاد بها خلطا
وإن باكرته نسمة لسَرَى بها ... إلى كل أنف عَرْفُ عنبره قسطاً
أقرت له الزهراء والخلد وانتقت ... أواوين كسرى الفرس تغبطه غبطا
جنابٌ رواقُ المجدِ فيه مطنب ... على خير من يعزى لخير الورى سِبطا
إمام يسير الدهر تحت لوائه ... وترسى سفان للعلا حيثما وطا
وفتاح أقطار البلاد بفيلق ... يفلِّقُ هامات العدا بالظُّبَا خَبْطَا
تطلع من خرصانه الشهب فانثنت ... ذوائب أرض الزنج من ضوئها شَمْطَا
كتائب نصر إن جرت لملمة ... جرت قبلها الأقدار تسبقها فرطا
إذا ما عقدن راية عَلَوِية ... جعلن ضمان الفتح فى عقدها شرطا
فما للسماتلك الأهلة إنما ... سنابكها أبقت مثالا بها خطا
يطاوع أيدى المعلوات عنانها ... فيعتاد من فيض الزمان بها بسطا

يد لأمير المؤمنين بكفها زمام يقود الفرس والروم والقبطا
أدار جداراً للعلا وسرادقا يحوط جهات الأرض من رعيه حوطا

وقوله مما كتب ببَهْوِها برمر أسود فى أبيض :

لله بهوٌ عزَّ منه نظير لما زها كالروض وهو نضير[1]
رصفت نقوش حلاه رَصْفَ قلائد قد نضدتها فى النحور الحور[2]
فكأنها والتبرسال خلالها وشى وفضة تربها كافور
وكأن أرض قراره ديباجة قد زان حسن طرازها تشجير
وإذا تصعدنده نَوْءًا ففى أنماطه نَوْرٌ به ممطور
شأوُ القصور قصورها عن وصفه سيان فيه خورنق وسدير
فإذا أجلت اللحظ فى جنباته يرتد وهو بحسنه محسور
وكأن موج البركتين أمامه حركات سجف صافحته دبور
صفت بصفتها تمائل فضة ملك النفوسَ بحسنها تصوير
فتدير من صفو الزلال معتقا يسرى إلى الأرواح منه سرور
ما بين آساد يهيج زئيرها وأساود يسلى لهن صفير
ودحت من الأنهار أرض زجاجة وأظلها فلك يضىء منير
راقت فمن حصبائها وفواقع تطفو عليها اللؤلؤ المنثور
يا حسنه من مصنع فبهاؤه باهى نجومَ الأفق وهى تنور
وكأنما زهر الرياض بجنبه حيث التفتَّ كواكب و بدور
ولدسته الأسمى تخير رصفه فخر الورى و إمامها المنصور
ملك أناف على الفراقد رتبة وأقله فوق السماك سرير

(١) عز منه نظير : يريد أنه لا نظير له .

(٢) الحور : جمع حوراء ، وهى الشديدة بياض العين مع شدة سوادها

قطب الخلافة تاج مفرق دولة رميت بجحفلها اللُّهام الكورُ(١)
وجرى إلى أقصى العراق لرعبها جيش على جسر الفرات عبور
نجل النبي ابن الوصى سليل من حقن الدماء وعَفّ وهو قدير
بحر الندى لكنه متموّج سيف العلا لكنه مطرور
طود يخف لحلمه ووقاره ولجيشه يوم النزال ثبير
دامت معاليه ودام ومجده طوق على جيد العلا مزرور
وتعاهدته عن الفتوح بشائر يغدو عليه بها المسا و بكور
ما دام منزل سعده يرتاده نصر يرف لواؤه المنشور
ومشت به مرحا جياد مسرة وأدار كاس الأنس فيه سمير

وقوله مما كتب بداخل القُبّة المذكورة :

جمال بدائعى سحَر العيانا ورونق منظرى بهر الجفونا
وقد حسنت نقوشى واستطارت سَنًى يُعْشِى عيون الناظرينا
وأطلع سمكىَ الأعلى نجوما ثواقب لا تغور الدهر حينا
وجوّى من دخان الند ألقى على أرضى الغياهبَ والدجونا
علوت دوائر الأفلاك سبعا لذاك الدهر ما ألفت سكونا
فصغت من الأهلة والحنايا أساور والخلاخل والبُرِينا
تكنفنى حياض مائحات أمامى والشمال أو اليمينا
يقيد حسنُها الطرفَ انفساحا ويجرى الفلك فيها والسفينا
تدافع نهرها نحوى فلما تلاقى البحر فى جرى دفينا
ترى شهب السماء بهن غرقى فتحسبها بها الدر المصونا

(١) الجحفل : الجيش ، واللهام : الكثير العدد ، والكور : جمع كورة ، وهى المدينة أو الصقع من الأرض ، وأصل الجمع بفتح الواو ، ولكنه حذف الفتحة حين اضطر لإقامة الوزن .

وقد نشر الحباب على سماها   لآلئ تزدرى العقد الثمينا[١]
فخرت وحُقّ لى لما اجتبانى   لمجلســه أمير المؤمنينا
هو المنصور حائز خَصْل سَبْق   وبانى المجــد بنياناً مكينا
وليث وغًى إذا زأر امتعاضا   يروع زئيره هنــدا وصينا
إذا أمت كتائبه الأعادى   بعثن برعيــه جيشا كمينا
يدير عليهمُ من كل حرب   تدقُّهم رحى أو منجنونا
إمام بالمغارب لاح شمسا   بها الشرق اكتسى نورا مبينا
بقيت بذى القصور الغر بدرا   تلوح بأفقهن مدى السنينا
تحف بكم عواكف عند بابى   ملائـكة كرام كاتبونا
لك البشرى أمير المؤمنين اُدْ   خلوها مع ســلامٍ آمنينا[٢]

وقوله فى بعض المبانى المنصورية :

معانى الحسن تظهر فى المغانى   ظهورَ السحر فى حدق الحسان
مَشابَه فى صفات الحسن أضحت   تمتُّ بهــا المغانى للغوانى
بكل عمود صبح من لجين   تكوّن فى استقامة خوط بان
مفصلة القــدود مثلثات   مواصلة العناق من التدانى
تردّت سابرىَّ الحسن يزرى   بحسن السابرى الخسروانى
وتعطو الخيزرانة من دُمَاهَا   بسالفــة القطيع البرهمانى
لمجــدك تنتمى لـكن نماها   إلى صنعاء ما صنع اليدان
يدين لك ابن ذى يَزَنٍ ويعنو   لهــا غُمْدان فى أرض اليمانى
غدت حَرَماً ولـكن حل فيها   لوفدكم الأمان مع الأمانى

---

(١) سماها : أراد سماءها ، فقصر الممدود حين اضطر ، وتزدرى : تراها أقل قيمة منها .   (٢) يشير إلى قوله تعالى : (ادخلوها بسلام آمنين) وهو خطاب المؤمنين ، والمعنى دخول الجنة ، شبه القبة بالجنة .

مبان بالخلافة آهلات بها يتلو الهدى السبع المثانى
هى الدنيا وساكنها إمام لأهل الأرض من قاص ودانى
قصور ما لها فى الأرض شبه وما فى المجد للمنصور ثانى

وقوله رحمه الله تعالى مما كتب فى المصرية المطلة على الرياض المرتفعة على القبة الخضراء من بديع المنصور ، وكان أنشأها فى جمادى الأولى من عام خمسة وتسعين وسبعمائة :

باكر لدىَّ من السرور كؤسا وارض النديم أهلة وشموسا
واعرج على غُرَفى المنيف سماؤها تلق الفراقد فى حماى جلوسا
وإذا طلعت بأوْجِهاَ قمر العلا لا ترتضى غير النجوم جليسا
شَرِقَ القصورُ بريقها لما اجتلت منى على بُسُطِ الرياض عَرُوساَ
واعتضت بالمنصور أحمد ضيغما وَرْداً تحيز من بديعى خِيسَا
ملك أرى كل الملوك ممالكا لعلاه والدنيا عليه حبيسا
دامت وفود السعد وهى عواكف تَصِلُ المقيلَ لديه والتعريسا
وهَنَاكَ يا شرف الخلافة دولة تلقى برايتها طلائع عيسى[1]

وقوله من جملة قصيدة من نمط ما تقدم لم أستحضر أولها :

سلبت تماثُلُهاَ الحِجاَ لما اغتدت تزهو بحسن طرازها تذهيبا
ولقد تشامخ فى العلو سماكها فجرى على الفلك المنير جنيبا
وسما إلى الشهب الزواهر فاغتدى الإكليل منها تاجها المعصوبا
هذا البديع يعز شبه بدائع أبدعتهن به فجاء غريبا
أضنى الغزالَةَ حسنُه حسدا لذا أبدى عليها للأصيل شحوبا[2]

---

(١) يريد الدعاء لدولته بالدوام إلى قيام الساعة ؛ لأن عيسى عليه السلام إنما ينزل بين يدى الساعة .
(٢) أراد بالغزالة الشمس .

وانقضت الزهر المنيرة إذ رأت زهر الرياض به ينور عجيبا
شيدتهن مصانعا وصنائعا أنجزن وعدك للعلا المرقوبا
وجريت فى كل الفخار لغاية أدركتهنَّ وما مسست لغوبا
فانعم بملكك فيه دام مؤبدا تجنى به فنن النعيم رطيبا
وإليكها عذراء فكر أهديت وجعلت مدحك مَهْرَها الموهوبا
ونظمت من درر البلاغة عقدها فغدا يروق بجيدها ترتيبا
ورفعتها لمقامكم تمشى على استحيا فيزعجها الولا ترغيبا
فأتت على شرف لكم فتوقفت لما رأت ذاك الجلال مهيبا
شفعت إليك بحبِّ جدك أحمد لتنيلها منك الرضا المرغوبا
دامت بك الدنيا يروق جمالُهَا وإلى القيامة أمركم مرهوبا
وكَلاَكُمُ الله العظيم كلاءة يرعى بها خلفا لكم وعقيبا[1]

من عبد العزيز القشتالى إلى مؤلف هذا الكتاب

ومحاسن صاحبنا المذكور فى النظم والنثر يضيق عنها هذا التأليف ، وكنت أثبتُّ منها جملة فى غير هذا الموضع ، ولما أحس بعزمى على الرحلة إلى الحجاز ، واقتضائى من سلطان المغرب فى وَعْده لى بها النَّجاز ، كتب إلى من حضرة مراكش وأنا حينئذ بفاس ، ما صورته بعد سطر الافتتاح :

يانسمة عَطَسَتْ بها أنف الصبا فتضمخت بعبيرها فنن الربا
هبى على ساحات أحمد واشرحى شوقى إلى لقياه شرحا مُطْنَبَا
وصفى له بالمنحنى من أضلعى قلبا على جمر الغضى متقلبا
بان الأحبة عنه ، حى قد توَى منهم ، وآخر قد نأى وتغيبا[2]
فعساك تُسْعِدُ يا زمان بقربهم فأقول أهلا باللقاء ومرحبا

---

(١) كلا لم : أصله كلأ كم ، فقلب الهمزة ألفا ، ومعناه حفظكم ورعاكم .
(٢) بان الأحبة عنه : بعدوا ، وتوى : هلك

السيادة التى سَوّاها الله من طينة الشرف والحسب ، وغَرَسَ دَوْحَتَها الطيبة بمعدن العلم الزاكى المحتد والنسب، سيادة العالم الذى تمشى تحت علم فُتْيَاه العلماء الأعلام ، وتخضع لفصاحته و بلاغته صَيَارفة النثر والنظام، وحمله الأقلام، كلما خط أو كَتَبَ ، و إذا استطار بفكره الوقاد سواجع السجع انثالث عليه من كل أوكارها ونسلت من كل حَدَب ، وحكت بانسجامها السيل والقطر فى صَبَب ، الفقيه العالم العلَم ، والمحصل الذى ساجلت العلماء لتدرك فى مجال الإدراك شأوه فلم (١)، سيدنا الفقيه الحافظ حامل لواء الفُتْيَا ، ومالك المملكة فى المنقول والمعقول من غير شرط ولا ثُنْيَا ، أبو العباس سيدى أحمد بن محمد المقَّرى أبقاه الله تعالى للعلم يَفْتَضُّ أبكاره ، ويَجْنِى من روضه اليانع ثماره ، سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى و بركاته كتبه المحبُّ الشاكر عن وُدٍّ راسخ العِماد ، ثابت الأوتاد مَزْهُوَّ الأغوار والأنجاد ، ولا جديد إلا الشوق الذى تحنّ إلى لقياكم ركائبُه وترتاح ، وتَحُومُ على مورد الأنس بكم حَوْمَ ذات الجناح على العذب القراح ، جمع الله تعالى الأرواح المؤتلفة على بساط السرور وأسِرَّة الهنا ، وأتاح للنفوس من حسن محاضرتكم قَطْفَ المشتهى وهو غَضُّ الجَنَى ، وقد اتصل بالمحب الودود الرقيم الذى راقت من سواد النقش و بياض الطرس شِياته ، وأرانا معجز أحمد فبهرت آياته ، وخَبَا سقطُ الزند لما أشرقت من سماء فكركم آياته ، فأطربنا بتغريد طيور همزاته على أغصان ألفاته ، وعوّذنا بالسبع المثانى بناناً أجادت نثر زهراته على صفحاته، ثم مررنا بتضاعيفه بسوق الرقيق ، فرُمْنَا السلوك على مَنْحَاها فعُمِّى علينا الطريق ، وقلنا : واهاً على سوق ابن نباتة وكساد رقيقها ، واستلاب البهجة عن نفيس دررها وأنيقها ، لا كسوق نفق فيها سوق الغزل ، وعلا كعب الرامح والأعزل ، وتظافر على

(١) حذف مجزوم لم ، وأصل الكلام : فلم تدرك شأوه ، ولذلك نظائر فى شعر العرب ، ومنه قول إبراهيم بن هرمة القرشى :

احفظ وديعتك التى استودعتها ... يوم الأعازب إن وصلت وإن لم

سحر النفوس والألباب هاروت الجد وماروت الهزل ، وقد ألقينا السلاح وجنحنا للسلم ، وتهيأنا للسباحة فوقفنا بساحل اليم ، وسلمنا لمن استوت به سفينة البلاغة على الجودِىِّ ، فأبنا والحمد لله على السلامة بالفهاهة والعى ، وقلنا : مالنا وللإنشاء ، فهو فضل الله يؤتيه من يشاء ، وعُذراً أيها الشيخ عن البيت الذى عطست به أنفُ الصَّبا فقذفت به البديهة من الفم ، وشرقت به صَدْرُ قناة القلم ، كما شرقت صدر القناة من الدم(١) ، وأمّا ما تحمل الرسول من كلام ، فى صورة ملام ، لا بل مدام ، أترع به من سلاف المحبة كأسٌ وَجَام ، فلا وربك ما هى إلا نفحة نفحت ، لا سموم لفحت ، هززنا بها جِذْعَ أدبكم كى يتساقط علينا رطباً جَنِيًّا ، ويَهْمِى وَدْقُه على الربع المحيل من أفكارنا وَسْمِيًّا ووَلِيًّا ، فجاد وأرْوَى ، وأجاد فيما روّى ، وأحيا من القرائح ميتاً كان حديثاً يُرْوَى ، وطرسا بين أنامل الأيام ينشر ويطوى ، أحيا الله تعالى قلوبنا بمعرفته ونواسم رحمته ، وعَرَجَ بأرواحنا عند الممات إلى المحل الأخص بالمؤمن من حضرته ، وأهدى السلام ، المُزْرِى بمسك الختام ، إلى الفقيهين الأمجدين ، الصدرين الأنجدين ، الفذين التوأمين ، الفاضلين المجيدين ، فارسى البراعة واليراعة ، ورئيسى الجماعة فى هذه الصناعة ، رضيعى لبان الأدب وواسطتى عقده ، ومُجِيلَىْ قِدْحِه المعلّى ومُورِيَىْ زَنْدِه ، الممتعين بشميم عَرَاره ورَنْدِه ، الكارعين بالبحر الفياض من هزله وجده ، الآتيين بالجنس والفصل من رسمه وحده ، الكاتب البارع أبى الحسن سيدى على بن أحمد الشامى ، والكاتب البليغ أبى عبد الله سيدى محمد بن على الوجدى ، وأقرّ لهما الود المستحكم المعاقد ، الصافى المناهل العذب الموارد ، وإنى قائم بورد الثناء عليكم وعليهما لدى المقام العلى ، الإمامىّ الناصرى ، دام سلطانه ! وتمهدت أوطاره وأوطانه ! ونُنْهِى إليكم أن الفقيه المحبَّ الأستاذ سيدى محمد بن

---

(١) هذا عجز بيت للأعشى ميمون بن قيس ، وصده قوله :

* وتشرق بالقول الذى قد أذعته *

يوسف طَلْقُ اللسان بالشكر، صادحٌ[1] على أيك الثناء عن تلكم السيادة بما أوليتموه به من جزيل الإحسان ، وقابلتموه به عند الورود والصدر من البشر والكرامة وجميل الامتنان ، والسلام التام مُعَاد عليكم ، ورحمة الله تعالى و بركاته ، و به وجب الكتب إليكم ، والله سبحانه يرعاكم ، في يوم الخميس موفى عشرين من محرم الحرام فاتح سبعة وعشرين وألف ، المحب الودود الشاكر عبد العزيز بن محمد القشتالى لطف الله تعالى به ، وخار له بمنه وكرمه ، انتهى .

ومن أراد شيئاً من أخباره فعليه بكتابى الموسوم « بروضة الآس ، العاطر الأنفاس ، فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » وقد بلغتنى وفاته رحمه الله تعالى وأنا فى مصر بعد عام ثلاثين وألف ، رحمه الله تعالى ! فلقد كان أوحد عصره ، حتى إن سلطان المغرب كان يقول : إن القشتالى نفتخر به على ملوك الأرض ، ونبارى به لسان الدين بن الخطيب ، رحم الله تعالى الجميع !.

والشامى الذى أشار إليه هو من أعيان أهل فاس وذوى البيوت بها ، وجده قدم من الشام على حضرة فاس ، فشهر بنوه بالنسبة إلى الشام ، وقد بلغتنى وفاته أيضاً بعد الثلاثين بعد الألف ، وقد أجاب عن الأبيات البائية التى خاطبنى بها الوزير سيدى عبد العزيز القَشْتَالى المذكور رحم الله تعالى الجميع بقوله :

نَمَّتْ نوافح عَرْف أنفاس الصبا ... فنما بها روض الوداد وأخصبا[2]

نثرت جواهر سلكها فتتوّج الـ ... ـغصن النضير بدرها وتعصبا

ورمت محاجر منحَنَى ذاك الحمى ... فغدا بها خيف القلوب محصبا

وروت أحاديث الغرام صحيحة ... فشفت فؤاداً من بعادك موصبا

لاغرو أن طارت حشاشة لبه ... طربا فما خلو الغرام كمن صبَا

(١) صادح : اسم الفاعل من « صدح يصدح » من باب فتح - أى غنى

(٢) نمت : أراد وشت وأخبرت ، والنوافح : جمع نافحة ، وهى الفواحة بطيب الرائحة ، والعرف - بالفتح - الرائحة الذكية ، ونما : زاد وأينع .

لا زلتم والزهر ينشق عَرْفَـكم والزهر تحسد من كمالك منصبا

ولنُمْسِكْ عِنان البنان ، ونرجع إلى ما كنا بصدده من شأن لسان الدين بن الخطيب المريع منه بمزن البلاغة والفصاحة جنان الجنان ، فنقول والله سبحانه ولى التوفيق والإمداد ، وليس إلا عليه الاعتماد :

وقال ابن الصباغ العقيلى : كان أبو الحسن بن الجياب رئيس كتاب الأندلس وهم رؤساء غيرهم ، واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب اختصاصا تامّا ، وأورثه رتبة من بعده ، وعهد بها إليه ، مشيراً بذلك على من استشاره من أعلام الحجاب عند حضور عمره ، وتدرب بذكائه حتى استحق أزمته فأنسى بحسن سياسته شيخه المذكور ، ونال التى لا فوقها من الحُظْوَة وبعد الصيت وسعادة البخت ، اتفق له يوماً بعد ما عزم النصرانى على ورود البلد وضاقت به الصدور ، فأنشد ابن الجياب بديها بمحضر الكتاب :

إجازة بين ابن الجياب ولسان الدين

هذا العدو قد طغى وقد تعدى وبغى

وقال لابن الخطيب : أجز أبا عبد الله ، فأنشده بديها :

وأظهر السلم وقد أسَرَّ حَسْوًا فى ارْتِغَا[1]

فبلغ الرحمن سيف النصر فيه ما ابتغى

ورده رد ثمود والفصيلُ قد رَغَا[2]

حتى يرى وليمة لكل مرهوب الثغا

فقال الجياب : هكذا وإلا فلا ، وعجب الحاضرون من هذه البديهة ، انتهى :

من أبى يحيى البلوى إلى لسان الدين

ومما خوطب به لسان الدين قول الفقيه أبى يحيى البلوى المرى رحم الله الجميع :

عللونى ولو بوعد محال وصلونى ولو بطيف خيال

---

(١) يشير إلى قولهم فى مثل « أسرحسوا فى ارتغاء » يضرب لمن يظهر شيئا وهو يضمر شيئا آخر

(٢) الفصيل : ولد الناقة ، ورغا : صوت

واعلموا أننى أسير هواكم ... لست أنفك دائما عن عقال
فدموعى من بينكم فى انسكاب ... وفؤادى من هجركم فى اشتعال[١]
يا أهيل الحمى كفانى غرامى ... لا تزيدوا حسبى بما قد جرى لى
مَنْ مجيرى من لحظ ريم ظلوم ... حلل الهجر بعد طيب الوصال
ناعس الطرف أسْهرَ الجفن منى ... طال منه الجفا بطول الليالى
بابلى اللحاظ أصمى فؤادى ... ورماهُ من غنجه بنبال
وكسا الجسم من هواه نحولا ... قصده فى النوى بذاك انتحالى
ما ابتدى فى الوصال يوما بعطف ... مذ روى فى الغرام باب اشتغالى
ليس لى منه فى الهوى من مجير ... غير تاج العلا وقطب الكمال
علم الدين عزه وسناه ... ذروة المجد بدر أفق الجلال
هو غيث الندى و بحر العطايا ... هو شمس الهدى فريد المعالى
إن وَشَى فى الرقاع بالنقش قلنا ... صفحة الطرس حليت باللآلى
أو دجا الخطبُ فهو فيه شهاب ... زانه الصبح فى ظلام الضلال
أو نبا الأمر فهو فى الأمر عَضْبٌ ... صادق العزم عند ضيق المَجَال
لست تلقى مثاله فى زمان ... جَلّ فى الدهر يا أخى عن مثال
قد نأى بى حبى له عن ديارى ... لا لجدوى ولا لنَيْلِ نوال[٢]
لكن اشتقت أن أرى منه وجها ... نوره فاضح لنور الهلال
وكما هِمْتُ فيه ألثم كفا ... جاد لى بالنوال قبل السؤال
ها كهاابن الخطيب عذراء جاءت ... تلثم الأرض قبل شِسْعِ النعال
وتوفِّى حق الوزارة عمن ... هو ملك لها على كل حال

---

(١) اشتعال ــ بالعين المهملة ــ التهاب واتقاد من حرقة الحب
(٢) الجدوى ــ بفتح الجيم ــ العطاء

ومن نظمه قوله يخاطبه مهنئا فى إعذاره أولادَهُ بعد نثر نصه : يعتذر عن خدمة الإعذار ، ويصل المدح والثناء على بعد الدار ، بتاريخ الوسط من شهر شعبان عام تسعة وأربعين وسبعمائة :

من أبى يحيى إلى لسان الدين

لا عذر لى عن خدمة الإعذار ولئن نأى وَطَنى وَشطَّ مَزارى[1]
أو عاقنى عنه الزمان وصرفه تقضى الأمانى عادة الإعصار
قد كنت أرغب أن أفوز بخدمتى وأحط رحلى عند باب الدار
بادى المسرة بالصنيع وأهله متشمرا فيه بفضل إزارى
من شاء أن يلقى الزمان وأهله ويرى جلالا شاع فى الأقطار
فليأت حَىَّ ابن الخطيب ملبياً فيفوز بالإعظام والإكبار
كم ضم من صِيدٍ كرام قدرهم يسمو ويعلو فى ذوى الأقدار
إن جئت ناديه فنُبْ عنى وقل نلت المنى بتلطف ووقار
يامن له الشرفُ القديم ومن له الـحسب الصميم العى يوم فخار
يهنيك ما قد نلت من أمل به فى الفرقدين النيرين لسارى
نجلاك قطبا كل مجد باذخ أملان مَرْجُوَّانِ فى الإعسار
عبد الإله وصنوه قمر العلا فرعان من أصل زَكَا ونجار[2]
ناهيك من قمرين فى أفق العلا ينميهما نور من الأنوار
زاكى الأرومة معرق فى مجده جم الفضائل طيب الأخبار
رقت طبائعه وراق جماله فكأنما خلقا من الأزهار
وحلت شمائل حسنه فكأنما خلعت عليه رقة الأسحار
فإذا تكلم قلت طَلّ ساقط أو وَقْعُ در من نحور جوارى

(١) شط : بعد ، ومزارى : المكان الذى أزوره منه
(٢) النجار ـ بكسر النون ـ الأصل

أوفتْ حبر المسك فى قرطاسه فالروض غِبَّ الواكف المدرار (١)
تتبسم الأقلام بين بنانه فتريك نظم الدر فى الأمطار
فتخال من تلك البنان كأنما ظلت تفتح ناضر النوار
تلقاه فياض الندى متهللا يلقاك بالبشرى والاستبشار
بحر البلاغة قُسُّها و إيادها سحبانها حبر من الأحبار
إن نَاظرَ العلماء فَهْوَ إمامهم شرف المعارف واحد النُّظَّارِ
أربى على العلماء بالصيت الذى قد طار فى الآفاق كل مَطارِ
ما ضره أن لم يجىء متقدما بالسبق يعرف آخر المضمار
إن كان أخَّره الزمان لحكمة ظهرت وما خفيت كضوء نهار
الشمس تحجب وهى أعظم نير وترى من الآفاق إثر درارى
يا ابن الخطيب خطبتها لعلا كم بكراً تزف لكم من الأفكار
جاءتك من خجل على قدم الحيا قد طيبت بثنائك المعطار
وأتت تؤدى بعض حق واجب عن نازح الأوطان والأوطار
مَدَّتْ يد التطفيل نحو علا كم فتوشحت من حَلْيكم بنُضَار
فابذل لها فى النقد صفحك إنها تشكو من التقصير فى الأشعار
لا زلت فى دَعَةٍ وعز دائم ومسرة تَتْرَى مع الأعمار

قال لسان الدين فى حق المذكور فى « الإحاطة » : هو محمد بن محمد بن عبد الواحد ابن محمد البلوى ، من أبناء النعم وذوى البيوتات ، كثير السكون والحياء ، آل به ذلك أخيراً إلى لُوثَة (٢) ، لم يستفق منها لطف الله به ، حسن الخط ، مطبوع الأدب ، سيال الطبع معينه ، وناب عن بعض القضاة ، وهو الآن رهين ما ذكر يتمنى أهله موته ، والله ولى المعافاة .

---

(١) الواكف : أراد المطر الذى يكف : أى يسيل
(٢) اللوثة : شبه الجنون

وجرى ذكره فى « الإكليل » بما نصه : من أولى الاتصال ، بأولى الخلال البارعة والخصال ، خطا رائقا ، ونظما بمثله لائقا ، ودعابة يسترها تجَهُّم ، وسكونا فى طيه إدراك وتفهم ، عنى بالدراية والتقييد ، ومال فى النظم إلى بعض التوليد ، وله أصالة نبتت فى السر وعروقها ، وتألقت فى سماء المَجَادة بروقها ، وتصرف بين النيابة فى الأحكام الشرعية ، و بين الشهادات العلمية المرعية ، انتهى .

ورأيت بخط أبى الحسن على بن لسان الدين على هامش هذا المحل من « الإحاطة » ما صورته : رحمة الله عليه ! ما أعـذب حلاوته ، وأعظم مروءته ، وأ كرم أصالته ، و بنو البَلَوى ذوو حسب ، وأهل نعيم ، وتربية ملوكية ، حياهم الله و بيّاهم ! قال ذلك حبيبُهم وأخوهم على بن الخطيب ، انتهى .

من أبى عبدالله ابن مرزوق إلى لسان الدين

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى عند ذكر الخطيب الرئيس أبى عبد الله محمد ابن مرزوق التلمسانى ماصورته : ولما قدمت على مدينـة فاس فى غرض الرسالة خاطبنى بمنزل الشاطبى على مرحلة منها بما نصه :

يا قادما وافى بكل نجاح ... أبشر بما تلقـاه من أفراح
هـذى ذُرَا ملك الملوك فلذبها ... تنل المنى وتفز بكل سمـاح
مغنى الإمام أبى عنان يمِّمَنْ ... تظفر ببحر فى العـلا طفاح
من قاس جود أبى عنان فى الندى ... بسواه قاس البحر بالضَّحضاح (١)
ملك يفيض على العفـاة نواله ... قبل السؤال وقبل بسطة راح
فلجود كعب وابن سُعْدَى فى الندى ... ذكرٌ محاه عن نداه ماحى (٢)
ما إن سمعت ولا رأيت بمثله ... من أريحىّ للنـدى مرتاح
بسط الأمان على الأنام فأصبحوا ... قد ألحفوا منـه بظل جناح

(١) الضحضاح : الماء القليل . (٢) كعب : هو كعب بن مامة الإيادى ، يضرب به المثل فى الجود والإيثار وكرم الجوار ، وابن سعدى : هو أوس بن حارثة ابن لأم الطائى ، وقد جمعهما جرير فى قوله لعمر بن عبد العزيز :

فما كعب بن مامة وابن سعدى ... بأجود منك يا عمـر الجوادا

وهَمَى على العافين سَيْبُ نواله حتى حكى سح الغمام الساحى
فنــوالـه وجــلاله وفعاله فاقت وأعيت ألسن المداح
وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت كل المنى تنقاد بعد جماح
من كان ذا ترح فرؤية وجهه متلافة الأحزان والأتراح
فانهض أبا عبد الإله تفز بما تبغيه من أمل ونيل نجاح
لازلت ترتشف الأمانى راحة من راحة المولى بكل صباح

فالحمدُ لله ياسيدى وأخى على نعمه التى لا تُحْصَى ، حَمْداً يؤم به جميعنا المقصد الأسنى فيبلغ الأمد الأقصى ، فطالما كان معظم سيدى للأسى فى خَبال ، وللأسف بين اشتغال بال ، واشتعال بَلْبال ، ولقُدُومكم على هذا المحل المولوى فى ارتقاب ، ولمواعيدكم بذلك فى تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب ، فها أنت تجتلى من هذا المقام العلى بتشيعك وجوه المسرة صباحا ، وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مُسْنَدة صحاحا ، بحول الله تعالى ، ولسيدى الفضل فى قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه ولجامه ، فهو من بعض مالدى المعظم من إحسان مولاه وإنعامه ، ولعمرى لقد كان وافداً على سيدى فى مستقره مع غيره فالحمد لله الذى يسر فى إيصاله ، على أفضل أحواله ، فراجعته بما نَصُّه :

من لسان الدين إلى ابن مرزوق

راحت تذكرنى كؤوس الراح والقرب يخفض للجنوح جناحى
وسرت تدلُّ على القبول كأنما دل النسيم على انبلاج صباح
حسناء قد غنِيَتْ بحسن صفاتها عن دملج وقلادة ووشاح
أمست تحض على اللياذ بمن جرت بسعوده الأقلام فى الألواح
بخليفة الله المؤيد فارس شمس المعالى الأزهر الوضاح

---

(١) همى : أصله قولهم « همى المطر يهمى » أى انصب ، والعافين : طلاب معروفه ، والسيب — بفتح السين وسكون الياء — العطاء ، وسح الغمام : أراد به انهمال المطر .

ماشئت من شيم ومن همم غدت ... كالزُّهْرِ أو كالزَّهْرِ فى الأدواح
فضل الملوك فليس يدرك شاوه ... أنَّى يقاس الغمر بالضحضاح
أسنى بنى عبَّاسهم بلوائه المنصـــور ، أو بحسامه السفاح
وغـدت مغانى الملك لما حلها ... تزرى ببدر هدى وبحر سماح
وحياة من أهداك تحفة قادم ... فى العرف منها راحة الأرواح
ما زلت أجعل ذكره وثنــاءه ... روحى وريحانى الأريج وراحى
ولقد تمازج حُبُّـه بجوارحى ... كتمازج الأجسام بالأرواح
ولَوَ أنّنى أبصرت يوما فى يدى ... أمرى لطرت إليه دون جناح
فالآن ساعدنى الزمان وأيقنت ... من قربه نفسى بفوز قداحى
إيهٍ أبا عبـد الإله ، وإنه ... لنـداء ودفى علاك صُرَاحِ
أما إذا استنجدتنى من بعدما ... ركدت لما خبتِ الخطوبُ رياحى
فإليكها مهـزولة وأنا امرؤ ... قررت عجزى واطرحت سلاحى

سيدى أبقاك الله لعهد تحفظه ، وولاء بعين الوفاء تَلْحَظه ، وصلتنى رقعتك التى أبدعَتْ ، وبالحق من مولى الخليقة صدعت ، وألفتنى وقد سَطَتْ بى الأوجال[١] ، حتى كادت تتلف الرحال ، والحاجة إلى الغذاء قد شمرت كشح البَطين ، وثانية العجماوين[٢] قد توقع فوات وقتها وإن كانت صَلاتَها صلاةَ الطين ، والفكر قد غاض مَعِينُه ، وضعف وعلى الله جزاء المولى الذى يُعِينه ، فغزتنى بكتيبة بيانٍ أسَدُها هَصُور ، وعَلَمها مَنْصُور ، وألفاظها ليس فيها قُصُور ، ومعانيها عليها الحسن مقصور ، واعتراف مثلى بالعجز فى المضايق حَوْلٌ ومنَّه ، وقول «لا أدرى» للعالم فكيف لغيره جُنَّه ، لكنها بشرتنى بما يَقِلُّ لمؤديه بَذْلُ النفوسِ وإن جَلَّتْ ، وأطلعتى من

(١) ألفتنى : وجدتنى ، وسطت : هجمت على ، والأوجال : المخاوف .

(٢) ثانية العجماوين : أراد صلاة العصر ، وأولاهما صلاة الظهر ؛ لأنهما لا يجهر فيهما بالقراءة .

السراء على وجه تحسده الشمس إذا تجلَّتْ ، بما أعلمتنى به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله فى عبده ، وصدق المَخِيلة فى كرم مجده ، وهذا هو الجود المَحْض [1] ، والفضلُ الذى شكره هو الفرض ، وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات مَنْ يبدأ بالنوال ، من قبل الضَّرَاعة والسؤال ، من غير اعتبار للأسباب ، ولا مجازاة للأعمال ، نسأل الله تعالى أن يبقى منها على الإسلام أوْفَى الظلال ، ويبلغها من فضله أقصى الآمال ، ووَصَل ما بعثه سيدى صحبتها من الهدية ، والتحفة الودِّية ، وقبلتها امتثالا ، واستجليت منها عِتقاً وجَمالاً ، وسيدى فى الوقت أنسب لا تخاذ ذلك الجنس ، وأقدر على الاستكثار من إناث البَهْم والإنس ، وأنا ضعيف القدرة ، غير مستطيع على ذلك إلا فى الندرة ، فلو رأى سيدى ورأيه سَدَاد ، وقَصْده فضل ووداد ، أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة ، مع وجود الحقوق المترتبة ، لبَسَطَ خاطرى وجَمَعَه ، وعمل فى رفع المؤنة على شاكلة حالى معه ، وقد استصحبت مركوبا يشق على هجره ، ويناسب مقامى شكله ونَجْره ، وسيدى فى الإسعاف على الله أجره ، وهذا أمر عرض ، وفرض فرض ، وعلى نظره المعوّل ، واعتماد إغضائه هو المعقول الأوّل ، والسلام على سيدى من معظم قدره ، وملتزم بره ، ابن الخطيب ، فى ليلة الأحد السابع والعشرين لذى قعدة خمس وخمسين وسبعمائة ، والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الأجفان ، وظُن أنه طوفان ، واللحاق فى غدها بالباب المولوى مؤمل بحول الله ، انتهى .

من أبى القاسم البرجى إلى لسان الدين

وكتب القاضى أبو القاسم البَرْجِى للسان الدين فى غرض الشفاعة لبعض قرابته قوله :

أيا سابقا فى مجـــال البراعه وفارِسَ مَيْدَان أهل اليراعــه

---

(١) الجود المحض : الكرم الخالص من شائبة المن أو انتظار سؤال السائل .

ومَنْ بَدْرُهُ فى سماء المعالى ... يزين بوصف الكمال ارتفاعه
بمالك فى الفضـــل من حُجَّة ... ومن إمرة فى ذويه مطاعـــه
قضاؤك فى معسرٍ حلَّ دين ... عليـــه فإرجاؤه قد أضاعه
وقد كان يبغى لديكم شفيعا ... توسَّطَ عنـــدكم فى شفاعه
على أنه فى اقتضاء الوداد ... يوفِّى موازينه أو صُوَاعـــه
وما هو فى سوق تقريظكم ... ونَشْر حلاكم بمُزْجَى البضاعة

كتبت ياسيدى ــ أدام الله تعالى علاكم ، وحرس مجدكم الطاهر وسناكم ! ــ وأنا بين خَجَل مفحم ، وعجل مقحم ، أتذكر تسويفى بلقائكم ، حين سمح الدهر باقترابكم ، فأحجم وأفكر فى أن إحجامى عند ذلك بإرجائى[1] ، عسى أن يكون وفق رجائى ، أفاتنى المقصود فأرى الحزم فى أن أقْدِم ، وموقفها بين يديكم ، فلان يطالبنى مطالبة الغريم[2] ، وأروم مِطَاله فلا يبرح ولا يَرِيم ، والانقياد فى زمام طاعته مما توجبه المروّة بعد ما أوجبه الشارع إذ جعل له حظا فى الأبوة ، وقد أعلقته من ذمام علائكم بالحبل المتين ، وأنزلته من حماكم برِبَوة ذات قرار ومعين ، فإن أعرتموه من لحظكم الجميل طَرْفَ اهتبال ، وأقبلتموه من اعتنائكم الجزيل وَجْه إقبال ، فقد عاد دهره بعد النفار مُوَاتيا ، ونزل على أهل المهلَّب شاتيا ، ومجدكم كفيل بتبليغ أمله ، وتوسيع جذله ، وذلكم يد على معظمكم شكرها ، وعلى الله أجرها ، انتهى

ترجمة أبى القاسم محمد بن يحيى البرجى

والبرجى المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن على بن إبراهيم ، الغسانى البرجى ، يكنى أبا القاسم ، من أهل غَرْنَاطة ، قال فى « الإحاطة » : هو فاضل مجمع على فضله ، صالح الأبوّة ، طاهر النشأة ، بادى الصيانة والعفة ، طرف فى الخير والحشمة ، صدر فى الأدب ، جم المشاركة ، ثاقب الفهم ، جميل العشرة ، ممتع

(١) أحجم : أتأخر ، والإرجاء : التأخير

(٢) الغريم : الدائن ، ولا يريم : لا يبرح ولا يفارق مكانه

المجالسة ، حسن الشِّعر والخط والكتابة ، فذ فى الانطباع ، صَنَاع اليدين[١] ، محكم العمل الكثير من الآلات العلمية ، ويجيد تفسير الكتب ، رَحَلَ إلى العُدْوة ولقى جلة ، وتوسَّل إلى ملكها مجدِّدِ الرسم ، ومقام أولى الشهرة ، وعامر دست الشعر والكتابة ، أمير المسلمين أبى عنان ، فاشتمل عليه ، ونوّه به ، وملأ بالخير يده ، فاقتنى جِدَة وحُظْوة ، وذكرا وشهرة ، وانقبض مع استرسال الملك لفضل عقله ، حتى تشكى إلى سلطانه بثَّ ذلك عند قدومى عليه ، وآثر الراحة ، وجهد فى التماس الرحلة الحجازية ، ونبذ الكل ، وقصر الخطوة ، وسلا الحظوة ، فأسعفه سلطانه بغَرَضه ، وجعل حَبْلَ همِّه على غاربه[٢] ، وأصحبه إلى النبى الكريم صلوات الله عليه رسالةً من إنشائه وقصيدةً من نظمه ، وكلاهما يعلن فى الخلفاء ببعد شأوه ، ورسوخ قدمِ علمِه ، وعراقة البلاغة فى نسب خصله ، ولما هلك وولى ابنه ملكه وضاعف له التنويه ، فأجرى الخطة على سبيل من السداد والنزاهة ، ثم لما ولى السلطان أبو سالم عمه أجراه على الرسم المذكور ، واستجلى المشكلات بصدقه ، وهو الآن بحاله الموصوفة مفخر من مفاخر ذلك الباب السلطانى على تعدد مفاخره .

شعره - ثبت فى كتاب « نفاضة الجراب » من تأليفنا عند ذكر المدعى الكبير بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر مَنْ أنشد ليلتئذ من الشعراء ما نصه : وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضى حملة السذاجة وكرم الخلق وطيب النفس وخدن العافية وابن الصلاح والعبادة ونشأة القرآن المتحيز إلى حزب السلامة المنقبض عن الغمار العَزُوف عن فضول القول والعمل جامع المحاسن من عقل رصين وطلب ممتع وأدب نقاوة و يد صَنَاع أبو القاسم ابن أبى زكريا البَرْجى فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة :

---

(١) صناع اليدين : يريد أنه مجيد ماهر ، وجعل عمله بكلتا يديه كناية عن ذلك

(٢) تقول « ألقيت حبله على غاربه » تريد بذلك أنك تركته وشأنه ، وأصله السائمة تخلى فى المربع ويجعل زمامها (حبلها الذى تربط به) على ظهرها لترتاد ماشاءت

أصْغَى إلى الوجد لمـا جَدَّ عاتبه ... صَبٌّ له شُغُلٌ عمن يعاتبه(١)
لم يعط للصبر من بعد الفراق يدا ... فضل من ظـل إرشادا يخاطبه
لولا النَّوَى لم يبت حران مكتئبا ... يغالب الوجد كتما وهو غالبه
يستودع الليل أسرار الغرام وما ... تمليـه أشجانه فالدمع كاتبه
لله عصر بشرقىِّ الحمى سمحت ... بالوصـل أوقاته لو عاد ذاهبه
يا جيرةً أودعوا إذ ودعوا حُرَقاً ... يَصْلَى بها من صميم القلب ذائبه
يا هل ترى تجمع الأيام فرقتنا ... كعهدنا أو يرد القلب ساكبه
ويا أهيل ودادى والنوى قُذُفٌ ... والقرب قد أبهمت دونى مذاهبه
هل ناقض العهد بعد البعد حافظه ... وصادع الشمل يوم الشعب شاعبه
ويا ربوعَ الحمى لا زلت ناعمة ... يبكى عهودك مُضْنَى الجسم شاحبه
يا من لقلب مع الأهواء منعطف ... فى كل أوْبٍ له شوق يجاذبه
يسمو إلى طلب الباقى بهمته ... والنفس بالميل للفانى تطالبه
وفتنـة المرء بالمألوف معضلة ... والأنس بالإلف نحو الإلف جاذبه
أبكى لعهد الصبا والشيب يضحك بى ... يا للرجال سَبَتْ جدى ملاعبه
ولَنْ ترى كالهوى أشجاه سالفه ... ولا كوعد المنى أحلاه كاذبه
وهمة المرء تغليـه وترخصه ... مَنْ عَزَّ نفسا لقد عزت مطالبه
ما هان كسب المعالى أو تناولها ... بل هان فى ذاك ما يلقاه طالبه
لولا سُرَى الفَلَكِ السامى لما ظهرت ... آثاره ولما لاحت كواكبه
فى ذمة الله ركْبٌ للعلا ركبوا ... ظَهْرَ السرى فأجابتهم نجائبه
يرمون عرض الفلا بالسير عن عُرُض ... طى السجل إذا ما جـد كاتبه

---

(١) أصغى : مال ، والوجد : شدة العشق ، وجد فى الشىء : اهتم به وبذل فيه وسعه ، يقول : كان اهتمام العذال بتركى هواه داعيا إياى إلى الوجد به ، وهو مأخوذ من قول أبى نواس :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الداء

كأنهم فى فؤاد الليل سِرُّ هَوًى لولا الضِّرام لما خفت جوانبه
شَدُّوا على لهب الرمضاء وطأتهم فغاص فى لجة الظلماء راسبه
وكَلَّفُوا الليل من طول السرى شططا فخلفوه وقد شابت ذوائبه(١)
حتى إذا أبصروا الأعلام مائلة بجانب الحرم المحمىِّ جانبه
بحيث يأمن من مولاه خائفه من ذنبه وينال القصدَ راغبه
فيها وفى طيبة الغراء لى أمل يصاحبُ القلبَ منه ما يصاحبه
لم أنس لا أنس أياما بظلهما سقى ثراه عميم الغيث ساكبه
شوقى إليها وإن شَطَّ المزار بها شوق المقيم وقد سارت حبائبه
إن ردها الدهر يوماً بعد ما عبثت فى الشمل منا يداه لا نعاتبه
معاهد شَرُفَتْ بالمصطفى فلها من فضله شرفٌ تعلو مراتبه
محمد المجتبى الهادى الشفيع إلى رب العباد أمين الوحى عاقبه(٢)
أوْفى الورى ذمما ، أسماهم هما أعلاهم كرماً ، جلت مناقبه
هو المكمل فى خلق وفى خلق زكت حُلاَه كما طابت مَنَاسبه
عناية قبل بدء الخلق سابقة من أجلها كان آتيه وذاهبه
جاءت تبشرنا الرُّسْلُ الكرام به كالصبح تبدو تباشيرا كواكبه
أخباره سر علم الأولين وسَلْ بدير تَيْماء ما أبداه راهبه
تطابقَ الكون فى البشرى بمولده وطبق الأرض أعلاما تجاوبه
فالجن تهتف إعلانا هواتفه والجن تقذف إحراقا ثواقبه
ولم تزل عصمة التأييد تكنفه حتى انجلى الحق وانزاحت شوائبه
سرى وجنح ظلام الليل منسدل والنجم لا يهتدى فى الأفق سار به

(١) كلفوه : حملوه فعل مافى فعله كلفة وجهد ومشقة ، والسرى - بضم أوله بزنة الهدى - السير ليلا ، والذوائب : جمع ذؤابة ، وهى الشعر فى مقدم الرأس

(٢) يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنا العاقب » وفسروه بأنه الذى يحشر الناس على عقبه ، أو بأنه الذى ليس بعده نبي

يسمو لكل سماء منه منفرد عن الأنام وجبرائيلُ صاحبه(١)
لمنتهى وَقَفَ الروحُ الأمين به وامتاز قربا فلا خَلْقٌ يقاربه
لقاب قوسين أو أدنى فما علمت نفس بمقدار ما أولاه واهبه
أراه أسرار ما قد كان أودعه فى الخلق والأمر باديه وغائبه
وآب والبدر فى بحر الدجى غرق والصبح لمّا يؤب للشرق آيبه(٢)
فأشرقت بسَنَاه الأرض واتبعت سُبْلَ النجاة بما أبدت مذاهبه
وأقبل الرشد والتاحت زواهره وأدبر الغى فانجابت غياهبه(٣)
وجاء بالذكر آيات مفصلة يهدى بها من صراط الله لاحِبُه
نور من الحكم لا تخبو سواطعه بحر من العلم لا تفنى عجائبه
له مقامُ الرِّضا المحمود شاهده فى موقف الحشر إذ نابت نوائبه
والرسل تحت لواء الحمد يقدمها محمد أحمد السامى مراتبه
له الشفاعات مقبولا وسائلها إذا دهى الأمر واشتدت مصاعبه
والحوض يروى الصدى من عذب مورده، لا يشتكى غلة الظمآن شاربه
محامد المصطفى لا ينتهى أبدا تعدادها ، هل يعد القَطْرَ حاسبه ؟
فضل تكفل بالدارين يوسعها نعمى ورحمى فلا فضل يناسبه
حسبى التوسُّلُ منها بالذى سمحت به القوافى وجَلَّتْها غرائبه
حيَّاه من صلوات الله صَوْبُ حَيًا تُحْدَى إلى قبره الزاكى نجائبه
وخلد الله ملك المستعين به مؤيد الأمر منصوراً كتائبه
إمام عدل بتَقْوَى الله مشتمل فى الأمر والنهى يرضيه يراقبه
مسدد الحكم ميمون نقيبته مظفر العزم صدق الرأى صائبه

---

(١) جبرائيل : لغة فى جبريل ، وهو اسم ملك الوحى
(٢) آب يؤوب : رجع يرجع
(٣) انجابت : انجلت وانكشفت ، والغياهب : الظلمات

مُشَمِّر للتقى أذيالَ مجتهدٍ جَرّارُ أذيالِ سحب الجود ساحبه
قد أوسعت أمَلَ الراجى مكارمُه وأحسبت رغبةَ العافى رغائبُه(١)
وفاز بالأمن مجبورا مُسَالمه وباء بالخزى مقهوراً محاربه
كم وافد آملٍ معهودَ نائله أثنى وأثنت بما أولى حقائبه(٢)
ومستجير بعز من مَثابته عزت مراميه وانقادت مآربه
وجاءه الدهر يسترضيه معتذراً مستغفراً من وقوع الذنب تائبه
لولا الخليفة إبراهيم لانبهمت طُرْقُ المعالى ونال الملك غاصبه
سَمَتْ لنيل تراث المجد همته والملك ميراث مجد وهو غاصبه
ينميه للعز والعليا أبو حسن سمح الخلائق محمود ضرائبه
من آل يعقوب حسب الملك مفتخراً بباب عزهم السامى تعاقبه
أطواد حلم رَسَا بالأرض محتده وزاحمت منكبَ الجوزا مناكبه
تحفها من مَرِينٍ أبحرٌ زخرت أمواجها وغمام ثار صائبه
بكل نجم لدى الهيجاء ملتهب ينقضُّ وسط سماء النَّقْع ثاقبه
أكفهم فى دياجيها مطالعه وفى نحور أعاديهم مغاربه
يا خير من خلصت لله نيته فى الملك أو خَطَبَ العلياءَ خاطبه
جردت والفتنة الشعواء ملبسة سيفاً من العزم لا تَنْبُو مضاربه
وخضتها غير هيَّاب ولا وَكِلٍ وقلما أدرك المطلوب هائبه
صبرت نفسا لعقبى الصبر حامدة والصبر مذ كان محمودٌ عواقبه
فليهن دين الهدى إذ كنت ناصره أمْنٌ يواليه أو خوف يجانبه
لا زال ملكك والتأييد يخدمه تقضى بخفض مُناويه قَوَاضبه

(١) أحسبت . أكثرت وأجزلت ، تقول « أعطى فلان فلانا فأحسبه » تريد أنه أعطاه العطاء الكثير الجزيل حتى اكتفى به

(٢) أخذ هذا من قول نصيب فى عبد العزيز بن مروان :

* ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب *

ودمت فى نعم تضفو ملابسها ... فى ظل عز عُلاً تصفو مشاربه
ثم الصلاة على خير البرية ما ... سارت إليه بمشتاق ركائبه

ومن شعره ما قيده لى بخطه صاحبُ قلم الإنشاء بالحضرة المَرِينية الفقيه الرئيس الصدر المتفنن أبو زيد بن خلدون :

صحا القلبُ عما تعلمين فأقلعا ... وعَطَّلَ من تلك المعاهد أرْبُعَا[1]
وأصبح لا يُلْوِى على حدِّ منزل ... ولا يَتْبَعُ الطرفَ الخلىَّ المودِّعَا
وأضحى من السلوان فى حرز مَعْقِلٍ ... بعيد عن الأيام أن يتضعضعا[2]
يرد الجفان النجل عن شُرُفَاته ... وإن لحظت عن كل أجْيَدَ أتْلَعَا[3]
عزيز على داعى الغرام انقياده ... وكان إذ ناداه للوجد أهطعا
أهاب به للشيب أنصح واعظ ... أصاخ له قلبا منيبا ومسمعا
وسافر فى أفْقِ التفكر والحجا ... زواهره لا تبرحُ الدهر طُلَّعَا
لعمرى لقد أنضيت عزمى تطلبا ... وقضيت عمرى رِقْبَةً وتطلعا
وخضت عُباب البحر أخضر مُزْبِدًا ... ودست أديم الأرض أغبر أسفعا

وقال حسبما قيده المذكور :

نهاه النهى بعد طول التجارب ... ولاح له منهج الرشد لاحب
وخاطبه دهره ناصحا ... بألسنة الوعظ من كل جانب
فأضحى إلى نصحه واعيا ... وألغى حديث الأمانى الكواذب
وأصبح لا تستبيه الغوانى ... ولا تزدريه حظوظ المناصب

ثم قال فى « الإحاطة » : وإحسانه كثير فى النثر والنظم والقصار والمطوّلات ، واستعمل فى السِّفارة إلى ملك مصر وملك قَشْتَالة ، وهو الآن قاضى حضرة الملك

---

(١) صحا القلب : ترك ما كان فيه من الصبابة والعشق ، وأقلع : كف وترك
(٢) يتضعضع : ينكسر ويذل ويخضع ويضعف
(٣) الأجيد : الطويل الجيد (العنق) والأتلع : مثله

نسيجُ وَحْدِهِ فى السلامة والتخصص واجتناب فضول القول والعمل ، كان الله له ! انتهى .

وكتب ابن المصنف بهامش ترجمة المذكور من « الإحاطة » ما صورته : سيدى وشيخى عَلاَّمة المغرب اليوم ، وحائز رتبه العلية من خطابة وقضاء وعَلاَمة وهو أحق بها ؛ لخلاله الحميدة ، أبقاه الله تعالى ! قاله محبه على ابن الخطيب ، انتهى

وكتب على القصيدة الميلادية المتقدمة ما نصه : رويتها عنه ، وسمعتها من لفظه ، وأجازني إياها بتلمسان ، انتهى .

وكتب على حاشية قصيدته « صحا القلب - إلى آخره » ما صورته : سمعتها من لفظ سيدى وشقيق روحى الإمام العلامة الرئيس أبى زيد بن خلدون بالأندلس أمتع الله به تعالى ! قال ذلك أخوه على بن الخطيب ، انتهى .

من الوزير ابن زمرك إلى لسان الدين

وقال فى « الإحاطة » فى ترجمة ابن زَمْرَك ما صورته : وشعره مترامٍ إلى هَدَف الإجادة ، خفاجى النزعة ، كلف بالمعانى البديعة والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة ، فمن ذلك ما خاطبنى به وهى من أول ما نظمه قصيدة مطلعها :

* أما وانصداع النور من مطلع الفجر *

يقول فيها بعد أبيات :

لك الله من فذِّ الجلالة أوحـد ... تطاوعه الآمال فى النهى والأمر

لك القلم الأعلى الذى طال فخره ... على المُرْهَفَاتِ البيض والأَسَلِ السمر (١)

يقلد أجيـاد الطروس تمائما ... بِصِنْفَيْ لآلٍ من نظام ومن نثر

تَهَيَّبَكَ القرطاس فاحمرَّ إذ غدا ... يقل بحورا من أناملك العشر

كأن رياض الطِّرْسِ خدٌّ مورد ... يطرزه وشى العـذار من الحبر (٢)

---

(١) المرهفات : السيوف المحددة ، والبيض : جمع أبيض ، والأسل السمر : أراد بها الرماح (٢) الطرس - بالكسر - الورق الذى يكتب فيه ، شبهه بخد جميل مورد ، وشبه الكتابة فيه بالعذار ، وهو شعر الوجه

فشارة هذا الملك رائقـــة الحُلَى بألويه حُمْـرٍ وبالصحف الحمر
وما روضة غناء عاهَدَها الحَيَـا تحُوكُ بها وَشْىَ الربيع يدُ القطر (١)
تُغَنِّى قيانُ الطير فى جنباتها فيرقص غصنُ البان فى حلل خضر
تمدّ لأكواس العــرَار أناملا من السوسن الغض المختم بالتبر
ويحرس خدَّ الورد صارمُ نهرها ويمنع ثغر النور بالذابل النضر
يفاخر مرْآها السماء محاســنا وتزرى نجوم الزَّهْرِ منها على الزُّهْرِ
إذا مسحت كف الصبا جفن نورها تنفس ثغر الزهر عن عنبر الشحر
بأعْطرَ من ريَّا ثنائك فى السرى وأبهر حسنا من شمائلك الغــر
عجبتُ له يحكى خلال خميــلة وتفرق منه الأسد فى موقف الذعر
إذا أضرمت من بأسها الحربُ جاحما تأجج منه العضب فى لجة البحر
وإن كلح الأبطال فى حومة الوغى ترقرق ماء البشر فى صفحة البدر
لك الحسب الوضاح والسؤدد الذى يضيق نطاق الوصف فيه عن الحصر
تشرَّفَ أفق أنت بدر كماله فغرناطة تختال تيها على مصر
تكلل تاج الملك منك محاسـنا وفاخرتِ الأملاكَ منك بنو نصر
بعزمة مضمون السعادة أوحـد وغرة وضاح المكارم والنَّجْرِ
طوى الحيف منشور اللواء مؤيدا فعزَّ حِمى الإسلام بالطى والنشر
ومد ظلال الأمن إذ قصر العدا فيتلى سناء الملك بالمد والقصر
إذا احتفل الإيوان يومَ مَشُورة وتضطرب الآراء من كل ذى حِجْرِ
صدعت بفصل القول غير منازع وأطلعت آراء قبسْنَ من الفجر
فإن تظفر الخيلُ المغيرة بالضحى فعن رأيك الميمون تظفر بالنصر

---

(١) عاهدها : تعاهدها ولم يغب عنها ، والحيا : المطر ، وتحوك : تنسج ، وفى نسخة تحرى : وأصله تتحرى فحذف إحدى التاءين ، ووشى الربيع : صنوف النبات التى يهيجها المطر فى زمن الربيع ، شبهها بالوشى ، وهو النقش فى الثوب ونحوه ، والقطر ــ بالفتح ــ المطر

فلا زلت للعلياء تحمى ذمارها وتسحب أذيال الفخار على النسر
وللعلم فخر الدين والفتك بالعدا بأوْتَ به يا ابن الخطيب على الفخر(١)
فيهنيك عيد الفطر من أنت عيده ويثنى بما أوليت من نعم غُرِّ
جبرت مَهيضا من جناحِي ورِشْتَه وسهلت لى من جانب الزمن الوعر(٢)
و بوأتنى من ذروة العز معتلى وشرفتنى من حيث أدرى ولا أدرى
وسوغتنى الآمال عذبا مسلسلا وأسميت من ذكرى ورفَّعْتَ من قدرى
فدهرىَ عيد بالسرور وبالمنى وكل ليالى العمر لى ليلة القدر
فأصبحت مغبوطا على خير نعمة يقل لأدناها الكثيرُ من الشكر

وهى طويلة ، انتهى .

قلت : هذا الرئيس ابن زَمْرَك صرح هنا بأنه بجاه لسان الدين بن الخطيب أدرك من العز ما أدرك ، ثم أنقلب عليه مع الدهر وكفر نعمته وبها أشرك ، وحرك من دواعى قتله ما حرك ، وكم من صديق لك ضرك ، وعَقَّكَ بعد ما برك ، وساءك إثر ما سرك ، ولذا رأيت بخط ابنِ لسان الدين على هامش قوله فى هذه القصيدة « ومد ظلال الأمن - إلخ » ما صورته : هذا مدحه لحاه الله ، وعلى قوله « و بوّأتنى من ذروة العز - إلخ » ما مثاله : هكذا شهادتك لحقه ، ثم تحوّلك عنه ، وكفر نعمته ، أغرب أخزاك الله ! انتهى .

وكتب بهامش أول ترجمته من « الإحاطة » ما نصه : أتبعه الله خزيا ، وعامله بما يستحقه ! فبهذا ترجمه والدى مولاه الذى رفع من قدره فيه ، ولم يقتله أحد غيره ، وكفانا الله تعالى شر مَنْ أحسنا إليه .

وكتب أيضاً تحت هذا مامثاله : هذا الوغد ابن زَمْرَك من شياطين الكتاب

---

(١) بأوت : فخرت (٢) أصل الجبر خاص بإصلاح ما انكسر من العظم ، ورشت جناحى : أصلة ألصقت به الريش ، وهذه العبارة كناية عن أن به قوته ومنه استمداده وعليه اعتماده ، والوعر - بالفتح - الصعب المرتقى ، وصف من الوعورة

ابن حداد بالبيازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضربا فمات من ذلك ، وهو أخَسُّ عباد الله تربيـة ، وأحقرهم صورة ، وأخملهم شكلا ، استعمله أبى فى الـكتابة السلطانية ، فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر ، وهو كان السبب فى قتل أبى مصنف هذا الـكتاب الذى رَبَّاه وأدبه واستخدمه ، حسبما هو معروف ، وكفانا الله شر من أحسنا إليه وأساء إلينا ، انتهى .

وقد ألممنا بترجمته فى هــذا الـكتاب فى باب تلامذة لسان الدين فلتراجع هنالك .

ومما كتب به ابن زَمْرَكَ المذكور إلى لسـان الدين ابن الخطيب جوابا عن رسالة قوله :

من ابن زمرك إلى لسان الدين

حيت صباحا فأحيت ساكنى القصبه ... واسترجعت أنْفُسًا بالشوق مغتصبه

قضى البيان لهـا أن لا نظير لها ... فأحرزت من معانى خَصْله قَصَبَهْ[1]

ناجت طليحَ سُرًى لا يستفيق لها ... هدت جوارحه واستوهنت عصبه

فحركته على فتك الـكلال به ... وأذهبت بسرور الملتقى نَصَبَهْ[2]

وأذكرت عهد مُهْديها على شحَط ... فعاود القلب من تذكاره وَصَبَهْ[2]

ما كنت أسمح من دهرى بجوهره ... لو كان يسمح لى بالقلب مَنْ غَصَبَه

سل أدمع الصب من أعدى السحاب بها ... وقلبه بجمار الشوق مَنْ حَصَبه

فالله يحفظ مهديها ويشــكره ... فوجهها بعصاب الحسن قد عصبه

من كان وارث آداب يشعشعها ... بالفرض إنىَ فى إرثى لها عَصَبَهْ

هو الملاذ ملاذ النـاس قاطبــة ... سبحان مَنْ لغياث الخلق قد نَصَبَه

---

(١) يقال « أحرز فلان قصب السبق » وأصله أن المتسابقين كانوا يجعلون عند آخر الشوط قصبة فمن سبق أخذها ، ويكنى بهذا عن كونه سباقا إلى إدراك خصال المسجد

(٢) النصب ـ بفتح النون والصاد جميعا ـ التعب ، والوصب مثله

وخاطبه كذلك بقوله :

يكلفنى مولاى رَجْعَ جوابه — وما لتعاطى المعجزات وما ليا
أجيبك للفضل الذى أنت أهله — وأكتب مما قد أفدت الأماليا
فأنت الذى طوقتنى كل منة — وأحسبت آمالى وأكسبتَ ماليا(١)
وأنت الذى أعدى الزمان كماله — وصيرت أحرار الزمان مَوَالِيا(٢)
فلا زلت للفعل الجميل مواصلا — ولا زلت للشكر الجزيل مُوَاليا(٣)

وخاطبه كذلك بقوله :

طالعتها دون الصباح صَبَاحَا — لما جلت غرر البيان صِبَاحَا
ولقد رأيت وما رأيت كحسنها — وجها أغر ومبسما وضاحا
عذراء أرضعها البيانُ لِبَانَهُ — وأطال مَغْدًى عندها ومَرَاحَا
فأتت كما شاءت وشاء نجيبها — تذكى الحجا وتنعم الأرواحا
لا بل كمثل الروض باكَرَهُ الحيا — وسقى به زهر الكمام ففاحا
وطوت بساط الشوق منى بعدما — نشرت علىَّ من القبول جناحا

وخاطبه كذلك بقوله :

ذرونى فإنى بالعلاء خبير — أسير فإن النيرات تسير
وكم بت أطوى الليل فى طلب العلا — كأنى إلى نجم السماء سفير
بعزم إذا ما الليل مَدَّ رِواقه — يكر على ظلمائه فينير
أخو كَلَفٍ بالمجد لا يستفزه — مِهَادٌ إذا جن الظلام وثير
إذا ما طوى يوماً على السر كَشْحَه — فليس له حتى المماتِ نشورُ
وإنى وإن كنت الممنع جاره — لتسبى فؤادى أعين وثغور

---

(١) أحسبت آمالى : أكثرت وأعظمت وأجزلت ، وانظر ص ١٨٢ من هذا الجزء

(٢) الموالى : جمع مولى ، وهو هنا العبد ، ويطلق أيضا على السيد وعلى ابن العم

(٣) الموالى ، هنا : اسم الفاعل من « والى فلان نعمه » أى تابعها وألحق بعضها ببعض

وماتعتريني فترة في مدى العلا ... إلى أن أرى لحظا عليه فتور
وفى السِّرْبِ من نجد تعلقتُ ظبيةً ... تصول على ألبابنا وتغير
وتمنع ميسور الكلام أخا الهدى ... وتبخل حتى بالخيال يزور
أسكانَ نجدٍ جادها واكفُ الحيا ... هواكم بقلبى مُنْجِدٌ ومغير(١)
ويا سكنى بالأجْرَعِ الفَرْدِ من منى ... وأيسر حظ من رضاك كثير
ذكرتك فوق البحر والبعد بيننا ... فمدَّتهُ من فيض الدموع بحور
وأومض خفاق الذؤابة بارق ... فطارت بقلبى أنة وزفير
ويهفو فؤادى كلماهبت الصبا ... أما لفؤادى فى هواك نصير
ووالله ما أدرى أذكرك هزنى ... أم الكأس مابين الخيام تدور
فمن مُبْلغ عنى النوى مايسوءها ... وللبين حكم يعتدى ويجور
بأنا غدًا أو بعده سوف نلتقى ... ونمسى ومنَّا زائر ومزور
إلى كم أرى أكنى ووجدى مصرح ... وأخفى أسْم من أهواه وهو شهير
أمنجدَ آمالى ومغلىَ كاسدى ... ومصدر جاهى والحديث كثير
أأنسى ولاأنسى مجالسك التى ... بها تلتقينى نَضْرة وسرور
نزورك فى جنح الظلام وننثنى ... وبين يدينا من حديثك نور
على أننى إن غبت عنك فلم تغب ... لطائف لم يحجب لهن سفور
نروح ونغدو كلَّ يومٍ وعندها ... رواح علينا دائم وبكور
فظلك فوقى حيثما كنت وارف ... ومورد آمالى لديك نمير
وعذراً فإنى إن أطلت فإنما ... قصاراى من بعد البيان قصور

(١) أصل المنجد : الذى أتى النجد ، وهو المرتفع من الأرض ، والمغير : الذى أتى الغور ، وهو المنخفض من الأرض ، ويقال « أنجد هذا الأمر وأغار » والمراد منه أنه جاء كل مكان وذكر بكل لسان ، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس :

نبى يرى مالا ترون ، وذكره ... أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

وكتب إليه خاتمة رسالة كذلك :

وحقك ماسَتطعمت بعدك غمضة ... من النوم حتى آذن النجم بالغروب
وعارضتُ مَسْرَى الريح قلت لعلها ... تنم بريا منك عاطرة الهبوب
إلى أن بدا وَجْهُ الصباح كأنه ... محياك إذ يجلو بغرته الخطوب
فقلت لقلبى استشعر الأنس وابتهج ... فإن تبعد الأجسام لم تبعد القلوب
وسِرْ فى ضمان الله حيث توجهت ... ركابك لا تخشى الحوادث أن تنوب

قلت : هذه غاية فى معناها ، لولا خُروجها عن القواعد فى ترتيب قافيتها ومبناها ، فانظر إلى تحوّله عن لسان الدين بعد هذه المدائح ، ونسبته بعده القبائح ، والإنسان خوّان ، إلا النادر من الإخوان ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

من ابن سلبطور إلى لسان الدين

قال فى « الإحاطة » فى ترجمة ابن سلبطور مانصه : ومما خاطبنى به :

تالله ما أورى زناد القلق ... سوى بريق لاح لى بالأبرق(١)
أيقنت ماكحيْن فلولا نفحة ... نجدية منكم تلافت رَمَقِى(٢)
لكنت أقضى بتلظى زفرة ... وحسرة بين الضلوع تلتقى
فآه من هَوْل النوى وما جنَى ... على القلوب موقفُ التفرق
يا حاكى الغصن انثنى متوّجا ... بالبدر تحت لمة من غَسَقِ
الله فى نفس مُعَنًّى أقصدت ... من لاعج الشوق بما لم تطق
أتى على أكثرها بَرْحُ الأسى ... دع ما مضى منها وأدرك ما بقى
ولو بإلمام خيال فى الكرى ... إن ساعَدَ الجفن رقيب الأرق
فربَّ زور من خيال زائر ... أقرّ عينى وإن لم يصدق
شقيت من برح الأسى لو أن مَنْ ... أصبح رِقِّى فى يديه مُعْتِقِى

(١) أورى الزناد : قدحه فأخرج منه النار ، والقلق : الاضطراب ، والبريق : الضوء ، والأبرق : اسم مكان

(١) الرمق – بالتحريك – بقية النفس فى الجسم ، وتلافته : تداركته

فنى معاناة الليالى عائق عن التصابى وفنون القلق
وفى ضمان ما يُعانى المرء من نوائب الدهر مشيبُ المفرقِ
هـذا لعمرى مع أنى لم أبت منهـــا بشكوى روعة أو فرَقِ[١]
فقد أخذت من خطوب غدرها بابن الخطيب الأمن مما أتقى
فخر الوزارة الذى ما مثـله بدر علا فى مغرب أو مشرق
ومذ أرانيـــه زمانى لم أبَلْ من صرفه بمُرْعِدٍ أو مُبْرِقِ[٢]
لا سيما منذ حططت فى حمى مقامِــه الأمنعِ رحْلَ أينُقِى
أيقنت أنى فى رجائى لم أخب وأن مسعى بغيتى لم يُخْفِقِ
ندب له فى كل حسن آية تناسبت فى الخلق أو فى الخلق
فى وجهه مسحة بشر إن بدت تبهرجت أنوار شمس الأفق
تعتبر الأبصار فى اللألاء ما عليـه من نور السماح المشرق
كالدهر فى استينائه و بطشه كالسيف فى حد الظُّبَا والرونق
إن بخل الغيثُ استهلَّتْ يده بوابل من غيث جود غَدِقِ
و إن وشت صفحة طرس انجلى ليـل دجاها عن سنى مؤتلق
بمثلها من حبرات أخجلت حواشىَ الروض خدود المُهْرَقِ
ما راق فى الآذان أشناف سوى ملتقطات لفظـــه المفترق
تودُّ أجياد الغوانى أن يرى حليها من در ذاك المنطق
فسَلْ به هل آده الأمر الذى حُمِّلَ فى شرخ الشباب المونق
إذا رأى الرأى فلا يخطئه يُمْنُ اختيار للطريق الأوفق
إيه أبا عبد الإله هاكها عذراء تحثو فى وجوه السبق

---

(١) الفرق ــ بفتح الفاء والراء جميعا ــ الخوف والوجل

(٢) لم أبل : أصله لم أبال ، وقد حذفوا الألف وجعلوا علامة الجزم على حرف اللام فى هذه الكلمة لكثرة الاستعمال ، ومعناه : لم أكترث ولم أهتم ولم أعره صاغية

خذها إليك بكرَ فكرٍ يزدرى لديك بالأعشى لدى المحلق(١)

لا زلت مرهوب الجناب مرتجَّى موصول عز فى سعود ترتقى

مبلــغ الآمال فيما تبتغى مؤمن الأغراض ممــا تتقى

ترجمة ابن سلبطور

وابن سلبطور هو : محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور ، الهاشمى .

قال فى « الإحاطة » : من أهل المرية ، يكنى أبا عبد الله ، من وجوه بلده وأعيانه ، نشأ نبيهَ البيت ساحبا بنفسه وبماله ذيلَ الحظوة ، متحليا بخصل من خط وأدب ، وزيرا ، متجندا ، ظريفا ، دربا على ركوب البحر وقادة الأساطيل ، ثم انحطَّ فى هواه انحطاطا أضاع مروءته ، واستهلك عقاره ، وهَدَّ بيته ، وألجأه أخيراً إلى اللحاق بالعُدْوة فهلك بها .

وجرى ذكره فى « الإكليل » بما نصه : مجموع شعر وخط ، وذكاء عن درجة الظرفاء غير منحط ، إلى مجادة أثيلة البيت ، شهيرة الحى والميت ، نشأ فى حجر التَّرَف والنعمة ، محفوفا بالمالية الجمة ، فلما عقل عن ذاته ، وترعرع بين لِدَاته ، أجرى خيول لذاته ، فلم يَدَعْ منها رَبعاً إلا أقفره ، ولا عقارا إلا عقره ، حتى حط بساحلها ، واستولى بسفر الإنفاق على جميع مراحلها ، إلا أنه خلص بنفس طَيِّبة ، وسَرَاوة سماؤها صَيِّبَة ، وتمتع ما شاء من زير وبم ، وتأنس لم يُعْطِ القيادَ لهم ، وفى عفو الله سَعَه ، وليس مع التوكل عليه ضَعَه .

شعره ـ من شعره قوله يمدح السلطان ، وأنشدها إياه بالمضارب من وادى الغيران ، عند قدومه المرية :

أثغرك أم سِمطٌ من الدر ينظم وريقك أم مسك به الراح تختم

ووجهك أم بادٍ من الصبح نَيِّرٌ وفرعك أم داج من الليل مظلم

---

(١) بكر فكر : يريد لم يسبق صاحبها إليها ، ويزدرى : يمتهن وينتقص ، والأعشى : هو أعشى قيس ، واسمه ميمون ، والمحلق : رجل من الدهماء استضاف الأعشى ونحر له وسقاه خمرا ، ثم شكا له أن له بنات لم يتزوجن ، فلما قدم الأعشى عكاظ أنشد فيها قصيدة يقول فيها :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فلم يحل الحول حتى كانت كل بنت من بناته فى بيت عظيم من عظماء العرب

أعلل منك الوجد والليل ملتقى وهل ينفع التعليل والخطب مؤلم
وأقنع من طيف الخيال بزَوْرة لوَ اُن جفونى بالمنام تنعم

ثم سرد لسان الدين القصيدةَ ، وهى طويلة .

ثم قال : ومن شعره مذيلا على البيت الأخير حسبما نُسِب إليه ببلده :

نامت جفونك يا سؤلى ولم أنَم ما ذاك إلا لفرط الوجد والسَّقَم
أشكو إلى الله ما بى من محبتكم فهو العليم بما ألقى من الألم
إن كان سفك دمى أقصى مرادكم فما غلت نظرة منكم بسفك دمى

ومما ينسب إليه كذلك :

قف بى وناد بين تلك الطلول أين الألى كانوا عليها نزول
أين ليالينا بهم والمُنَى نجنيه غضًّا بالرضا والقبول
لا حُمِّلوا بعض الذى حَمَّلُوا يوم تولت بالقِباب الحُمُول
إن غبتمُ يا أهل نجد ففى قلبىَ أنتم وضلوعى حُلول

ثم قال : ناب فى القيادة البحرية عن خاله القائد أبى على الرنداحى ، وولى أسطول للركب برهة ، وتوفى بمراكش عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

من ابن راجح إلى لسان الدين

وقال لسان الدين : كتب إلى : أبو عبد الله بن راجح التونسى بما يظهر من أبياته ، وهى :

أما والذى لى فى حُلاكَ من الحمد ومالك ملا كى لدىَّ من الرفد
لقد أشعرتْنِي النفسُ أنك معرض عن المسرف الآتى لفضلك يستجدى (١)

---

(١) أشعرتنى : أعلمتنى ، وأستجدى : أطلب الجدى ، وهو العطاء

فإن زلة منى بدت لك جهرة فصفحا فما والله أذنبت عن قصد

فراجعته بقولى :

أجلُّكَ عن عتب يغض من الود وأ كرم وجه العذر منك عن الرد[(١)]

ولـكننى أهدى إليك نصيحتى وإن كنت قدأهديتها ثم لم تُجْدِى[(٢)]

إذا مِقْوَلُ الإنسان جاوز حده تحولتِ الأغراض منه إلى الضد

فأصبح منـه الجد هزلا مذمما وأصبح منه الهزل فى معرض الجدّ

فما اسطعت قبضاً للعنان فإنه أحق السجايا بالعلاء و بالمجـد

ترجمة أبى عبدالله ابن راجح

وقال فى « الإحاطة » فى حق ابن راجح المذكور ما محصـله : محمد بن على بن الحسن بن راجح ، الشريف الحسنى باعترافه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، تونسى ، أبو عبد الله ، يعرف بابن راجح ، صاحب رُوَاء وأبهة ، نظيف البزة ، فاره المركب ، مطفف مكيال الإطراء ، جَمُوحٌ فى إيجاب الحقوق ، مترامٍ إلى أقصى آماد التوغل ، سخى اللسان بالثناء ثرثاره ، مرسل لعنانهِ فى كل المحافل ، متواضع متودد فـكه مطبوع حسن الخلق عذب الفكاهة ، مخصوص حيث حل من الملوك والأمراء بالأثَرَة ، وممن دونهم بالمداخلة والصحبة ، ينظم الشعر ، ويحاضر بالأبيات ، ويقوم على تاريخ بلده ، ويثابر على لقاء أهل المعرفة ، والأخذ عن أولى الرواية ، قدم الأندلس عام خمسين وسبعمائة مفلتاً من الوقيعة بالسلطان أبى الحسن ، فمهد له سلطانها كَنَفَ برّه ، وآواه إلى سَعَة رعيه ، وتأكدت بينى و بينه صحبة ، كَتبتُ إليه أولَ قدومه بما نصه أحذو حذو أبيات ذكر أن شيخنا أبا محمد الحضرمى خاطبه بها :

من لسان الدين إلى ابن راجح

أمِنْ جانب الغَرْبىِّ نَفْحَةُ بارح سَرَتْ منه أرواح الجَوَى فى الجوارح؟

---

(١) يغض من الود : ينزل من درجته وينقص منزلته

(٢) لم تجدى : لم تنفع ولم تفد لأنك لم تعمل بها

قدحت بها زند الغرام وإنما تجافيت فى دين السلو لقادح
وما هى إلا نَسْمة حاجرية رمى الشوقى منها كل قلب بفادح
رَجَحْنا لها من غير شك كأنها شمائل أخلاق الشريف ابن راجح
فتى هاشمٍ سبقاً إلى كل غاية وصبراً ، مغار الفَتْكِ فى كل فادح (١)
أصيل العلا جَمٌّ السيادة ، ذكره طراز نُضَار فى برود المدائح
وفرقان مجد يصدع الشك نوره حبا الله منه كل صدر بشارح
وفارس ميدان البيان إذا انتضى صحائفه أنست مضاء الصفائح (٢)
رقيق كما راقتك نغمة ساجع وجَزْل كما راعتك صولة جارح
إذا ما احتبى مستحضراً فى بلاغة وخوض خِضَمِّ القول منه بسابح
وقد شرعت فى مجمع الحفل نحوه أسنةُ حربٍ للعيون اللوامح
فما ضعضعت منه لصولة صادع ولا ذهبت منه بحكمة ناصح
تذكرت قسا قائما فى عكاظه وقد غصّ بالشُّم الأنوف الجحاجح
ليهنك شمسَ الدين ما حزت من علا خواتمه موصولة بالفواتح
رعى الله ركبا أطلع الصبح مسفرا لمرآك من فوق الربا والبطائح
ولله ما أهدته كَوْمَاء أوضعت برحلك فى قفر عن الأنس نازح
أقول لقومى عندما حط كورها وساعدها السعدان وسط الأباطح
ذروها وأرض الله لا تعرضوا لها بمعرض سوء فهى ناقة صالح
إذا ما أردنا القول فيه فَمَنْ لنا بطوع القوافى وانبعاث القرائح
بقيتَ مُنَى نفسٍ وتحفة قادم ومورد ظمآن وكعبة مادح
ولا زلت تلقى البر والرحب حيثما أرحت السُّرَى من كُلِّ غاد ورائح

---

(١) أصل المغار الحبل الذى أحكم فتله ، والفادح : الخطب يثقل حمله

(٢) الصحائف : جمع صحيفة وهى ما يكتب فيه ، والصفائح : السيوف ، وحدها صفيحة

من ابن راجح إلى لسان الدين

فأجابني بما نصه :

أمن مطلع الأنوار لمحة لامح ... تعاد لمفؤد عن الحى نازح (١)

وهل بالمنى من مَوْرد الوصل يرتوى ... غليلُ عليلٍ للتواصل جانح (٢)

فيافيض عين الدمع مالك والحمى ... ورند الحمى والشيح شيح الأشايح

مرابع آرامى ومورد ناقتى ... فسقياً لها سقياً لناقة صالح

سقى الله ذاك الحى وَدْقاً فإنه ... حمى لَمَحَاتِ العين عن لمح لامح

وأبدى لنا حور الخيام تزف فى ... حلى الحسن والحسنا وحلى الملامح

ترى حَىَّ تلك الحور للحور مهيع ... يدل وهل جسم لداء التبارح

و يادوحة الريحان هل لىَ عودة ... لعفو عفار الأنس بين الأباطح

وهل أنت إلا حلة حاتمية ... تغص نواديها بغاد ورائح

أقام بها الفخر الخطيب منابراً ... لترتيل آيات الندى والمنائح

وشَفَّع بالإنجيل حمد مديحه ... وأوتر بالتوراة شفع المدائح

وفرّق بالفرقان كل فريقة ... نأت عن رشاد فيه محض النصائح

وهل هو إلا للبرية مرشد ... لكل هدى هاد لأرجح راجح

فبشرى لسانَ الدين ساد بك الورى ... وأورى الهدى للرشد أوضح واضح

متى قلت لم تترك مقالا لقائل ... وإن لم تقل لم يغن مدح لمادح

فمن حام بالحى الذى أنت ربه ... وعام ببحر من عطاياك طافح

يحق له أن يشفع الحمدَ بالثنا ... ويغدو بذاك البحر أسبح سابح

ويا فَوْزَ ملك دمت صدر صدوره ... وبشرى له قد راح أربح رابح

بآرائك اللاتى تدل على الهدى ... وتبدى لمن خصصت سبل المناجح

---

(١) نازح : بعيد

(٢) جانح : مائل

ملكت خصال السبق فى كل غاية ... وملكت ماملكت ياابن الجحاجح
مطامح آمال لأشرف همة ... أقلُّ مراميها أجلُّ المطامح
فدونكها يا مهدى المدح مدحة ... أجبت بها عن مدح أشرف مادح
تُهَنِّيك بالعام الذى عم مدحه ... مواهب هاتيك البحار الطوافح
فخُذْهَا سمى الفخر ياخير مسبل ... على الخلق إغضاء ستور التسامح
ودُمْ خاطبَ العليا بها خير خاطب ... وأتوقَ تواقٍ وأطمحَ طامح(١)

ثم قال لسان الدين : توفى يوم الخميس ثالث شعبان سنة خمسة وستين وسبعمائة ، وقد ناهز السبعين ، ودفناه بروضتنا بباب البيرة ، وأعفى شارب الشعر من ثانى مِقَصَّه ، عفا الله تعالى عنا وعنه ! انتهى .

قلت : رأيت بخط البدر البشتكى فى اختصاره لإحاطة لسان الدين وسماه « بمركز الإحاطة » فى هذا المحل مانصه : قال كاتبه : لووفق الله تعالى هذا الرجل لم يجب عن مثل تلك الحائية بهذا الهُذَاء ، ولعل مافى كتاب أبى البركات الذى اسمه « شعر مَنْ لاشعر له » أنزل من هذه الطبقة ، انتهى .

وقد أشار لسان الدين لهذا بقوله السابق: وأعفى شارب الشعر من ثانى مقصه ، فلله دره من لوذعى زان خاتم البراعة بفَصِّه ، فلكم له من عبارة وجيزة يقضى بها مالم يستطع غيره أن يعبر عنه بإطنابه ، فعلى كل مَنْ يروم التعبير ، عمافى الضمير ، أن يتمسك بأطنابه .

وقال ابن خاتمة : حدثنى الشريف الأديب أبو عبد الله بن راجح التونسى مَقْدَمَه علينا بالمرية قال : سجن القاضى أبو عبدالله بن عبد السلام شابا وسيما الحقِّ تعين عليه ، فأنشدته مداعبا :

---

(١) تواق : صيغة مبالغة لتائق ، وتقول : تاق إلى الشىء يتوق فهو تائق وتئق ، تريد أنه اشتاق إليه ، والطامح : المتطلع إلى الشىء الطامع فيه

أقاضى المسلمين حكمت حكما غدا وجه الزمان له عَبُوسَا
سجنت على الدراهم ذا جمال ولم تسجنه إذ غصب النفوسا

فأجابنى بأن قال : إنما شكاه لى أربابُ الدراهم ، دون أرباب النفوس ، انتهى .

رجع إلى ما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى :

من أبى عبد الله العتاب إلى لسان الدين

ومما خاطبه به أبو عبد الله العتاب التونسى فى بعض الأعياد قوله :

بيمن أبى عبد الإله محمد تيمن هذا القُطْر وانسجم القَطْرْ (١)
أفاض علينا من جزيل عطائه بحورا تديم المَدَّ ليس له جَزْرُ
وآنسنا لما عدمنا مغانيا إذا ذكرت فى القلب ليس لها ذعر
هنيئا بعيد الفطر يا خير ماجد كريم به تسمو السيادة والفخر
ودمت مدى الأيام فى ظل نعمة تطيع لك الدنيا ويَعْنُو لك الدهر

من ابن عبد الملك المراكشى إلى لسان الدين

وقال لسان الدين فى ترجمة ابن عبد الملك المراكشى ما صورته : وخاطبنى بقوله :

وليت ولاية أحسنت فيها ليعلم أنها شَرُفَتْ بقدرك
وكم والٍ أساء فقيل فيه دنى القدر ليس لها بمدرك

وقال أيضا يخاطبنى فى المعنى :

وليت فقيل أحسن خير وال ففاق مَدَى مدار كها بفضله
وكم والٍ أساء فقيل فيه دنا فمحا محاسنها بفعله

ترجمة محمد بن محمد ابن عبد الملك الأوسى

وفى « الإحاطة » ما محصله أن المذكور محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأنصارى الأوسى ، كان شديد الانقباض ، محجوب المحاسن ، تنبو العين عنه جَهَامة ووَحْشة ظاهرة وغرابة شكل ، وفى طى ذلك أدب غض ، ونفس حرة ، وحديث ممتع ، وأبوّة كريمة ، أحد الصابرين على الجَهْد ، المستمسكين بأسباب

---

(١) اليمن : البركة وسعد الطالع ، وتيمن : عده فألا حسنا ، والقطر — بالضم — الناحية والصقع ، والقطر — بالفتح — المطر ، وبينهما نوع من الجناس

الحشمة ، الراضين بالخصاصة ، وأبوه قاضى القضاة نسيجُ وَحْدِه الإمام العالم التاريخى المتبحّر فى الآداب ، تقلبت به أيدى الليالى بعد وفاته لتبعة سلطت على نَشَبه ، فاستقر بمالقة مقدورا عليه ، لا يهتدى لمكان فضله إلا من عثر عليه ، ومن شعره قوله :

من لم يصن فى أمل وجهه   عنك فَصُنْ وجهك عن رده
واعرف له الفضل وعرّف له   حيث أحل النفس من قصده

ثم قال : توفى فى ذى القعدة عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ، انتهى .

من أبى عبد الله محمد المكودى إلى لسان الدين

ومما مُدِح به لسان الدين قولُ أبى عبد الله محمد المَكُودى الفاسى رحمه الله تعالى :

رحماك بى فلقد خَلَّدْتَ فى خلدى   هوى أكابد منه حرقة الكبد
حللت عقد سُلُوِّى عن فؤادىَ إذ   حللت منه محل الروح من جسدى
مرآك بدرى وذكراك التذاذ فمى   ودين حبك إضمارى ومعتقدى
ومن جمالك نورٌ لاح فى بصرى   ومن ودادك روح حل فى خَلَدِى
لا تحسبن فؤادى عنك مصطبرا   فقبل حُبِّكَ كان الصبر طوع يدى
وهاك جسمىَ قد أودى النحول به   فلو طلبت وجودا منه لم تجد[1]
بما بطرفك من غنج ومن حور   وما بثغرك من در ومن بَرَدِ
كن بين طرفى وقلبى منصفا فلقد   حابيت بعضهما فاعدل ولا تحد
فقال لى قد جعلت القلبَ لى وطنا   وقد قضيت على الأجفان بالسُّهُدِ
وكيف تطلب عدلا والهوى حكم   وحكمه قط لم يعدل على أحد
من لى بأغيد لا يرثى لذى شجن   وليس يعرف ما يلقاه ذو كمد

---

(١) أودى به : أهلكه وذهب به ، والنحول : الهزال ، وقد أخذ هذا من قول المتنبي

كفى بجسمى نحولا أننى رجل   لولا مخاطبتى إياك لم ترنى
روح تردد فى مثل الخلال ، فلو   أطارت الريح عنه الثوب لم يبن

ما كنت من قبلِ إذعانى اسطوته أخال أن الرشا يسطو على الأسد
إن جاء بالوعد لم تصدق مواعده فإن قنعت بزور الوعد لم يعد
شكوته عِلَّتِى منه فقال : ألا سر للطبيب فما برء الضنى بيدى
فقلت : إن شئت برئى أو شفا ألمى فبارتشاف لماك الكوثرى جُدِ
وإن بخلت فلى مولى يجود على ضعفى ويبرىء ما أضنيت من جسدى

وخرج بعد هذا إلى مدح لسان الدين فأطال وأطاب ، وكيف لا وقد ملأ من إحسانه الوطاب ؟ رحم الله تعالى الجميع !.

من أبى عبد الله اليتيم إلى لسان الدين

وقال لسان الدين : كتبت إلى أبى عبد الله اليتيم أسأل منه ما أثبت فى كتاب « التاج » من شعره ، فكتب إلى بهذه الأبيات :

أما الغرام فلم أخلل بمذهبه فلِمْ حرمْتَ فؤادى نيل مطلبه
يا معرضا عن فؤاد لم يزل كَلِفًا بحبه ذا حذار من تجنبه
قطعتَ عنه الذى عوّدته فغدا وحظه من رضاه برق خُلَّبِهِ[1]
أيام وصلُكَ مبذول ، وبرك بى مجدد ، قد صفالى عذبُ مشربِهِ
وسمع ودك عن إفك العواذل فى شغل وبدر الدجى ناسٍ لمغربه
لا أنت تمنعنى نيل الرضا كرما ولا فؤادى بوانٍ فى تطلُّبِهِ
لله عَرْفُكَ ما أذكى تنسمه لو كنت تمنحنى استنشاق طيبه
أنت الحبيب الذى لم أتخذ بدلا منه وحاشى لقلبى من تقلبه
يا ابن الخطيب الذى قد فُقْتَ كل سنى أزال عن ناظرى إظلام غيهبه
محمد الحسن فى خلق وفى خلق أكملت باسمك معنى الحسن فازْهَ بِهِ
حضرت أو غبت مالى عن هواك غنى لا ينقص البدر حسنا فى تغيبه

(١) البرق الخلب — بزنة السكر — الذى يطمع فى المطر وليس وراءه مطر ، ويضرب مثلا فى الشىء الذى لا منفعة وراءه

سيان حال التدانى والبعاد ، وهل لمبصر البــدر نيل فى ترقبه ؟

يا من أحسن ظنى فى رضاه وما ينفك يهدى قبيحا من تغضبه

إن كان ذنبى الهوى فالقلب منى لا يصغى لسمع ملام من مؤنبه

من لسان الدين إلى أبى عبد الله اليقيم

فأجبته بهذه الرسالة ، وهى ظريفة فى معناها : يا سيدى الذى إذا رفعت راية ثنائه تلقيتها باليدَيْن(١) ، و إذا قسمت سِهامُ وداده على ذوى اعتقاده كنت صاحبَ الفريضة والدين ، دام بقاؤك لطُرْفة تُبْديها(٢) ، وغريبة تردفها بأخرى تليها ، وعَقيلة بيانٍ تجليها ، ونفس أخذ الحزن بكَظْمِهَا ، وكلف الدهر بشت نظمها ، تؤنسها وتسليها ، لم أزل أشدُّ على بدائعك يَدَ الضنين(٣) ، وأقتنى درر كلامِكَ ، ونفثاتِ أقلامك ، اقتناءَ الدر الثمين ، والأيام بلقائك تَعِدُ ولا تُسْعِد ، وفى هــذه الأيام انثالت على سماؤك بعد قَحْط ، وتواترت لدى آلاؤك على شَحْط ، وزارتنى من عقائل بيانك كلٌّ فاتنة الطرف ، عاطرة العَرْف ، رافلة فى حلل البيان والظرف ، لو ضربت بيوتها بالحجاز ، لأقرت لها العربُ العاربة بالإعجاز ، ما شئت من رصف المبنى ، ومطاوعة اللفظ لغرض المعنى ، وطيب الأسلوب ، والتشبث بالقلوب ، غير أن سيدى أفرط فى التنزل ، وخلط المخاطبة بالتغزل ، وراجع الالتفات ، ورام استدراك ما فات ، ويرحم الله تعالى شاعر المعرة فلقد أجاد فى قوله ، وأنكر مناجاة الشوق بعد انصرام حَوْله :

أبعد حَوْلٍ تناجى الشوق ناجية هلا ونحن على عشر من العشر

ولقد تجاوزت فى الأمد ، وأنسيت أخبار صاحبك عبد الصمد ، فأقسم بألِفَاتِ القدود ، وهَمَزات الجفون السود ، وحامل الأرواح مع الألواح ، بالغدوّ والرّواح ، لولا بُعْدُ مَزَارك ، ما أمنت غائلة ما تحت إزارك ، ثم إنى حققت الغرض ، و بحثت

---

(١) أخذ هذا من قول الشماخ بن ضرار فى عرابة الأوسى :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

(٢) الطرفة — بالضم — الأمر تعده طريفا بديعا ، وتبديها : تظهرها

(٣) الضنين : البخيل ، والعبارة كناية عن تحفظه بها وأنه لا يفرط فيها

عن المشكل الذى عَرضَ ، فقلت : للخواطر انتقال ، ولـكل مقام مقال ، وتختلف الحوائج باختلاف الأوقات ، ثم رفع اللبس خبرُ الثقات :

ومنها ـ وتعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم ، والحنين إلى العهد القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ، وإن لاحظ اللاحظ ، ما قال الجاحظ ، فاعتراض لا يرد ، وقياس لا يطرد ، حبذا والله عيشُ التأديب ، فلا بالضَّنْك ولا بالجَدِيب[1] ، معاهدة الإحسان ، ومشاهدة الصور الحسان ، يمينا إن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وإنى لأنظر منهم كلما خطرت على المكاتب ، أمرَاء فوق المراتب ، من كل مسيطر الدره ، متقطب الأسره ، متنمر للوارد تنمر الهره ، يغدو إلى مكتبه ، كالأمير فى موكبه ، حتى إذا استقل فى فرشه ، واستوى على عَرْشِهِ ، وترنم بتلاوة قالونه ووَرْشِهِ[2] ، أظهر للخلق احتقارا ، وأزرى بالجبال وَقارا ، ورفعت إليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم ، فتقول : كسرى فى إيوانه ، والرشيد فى أوَانِه ، أو الحجاج بين أعوانه ، فإذا استولى على البدر السِّرَار ، وتبين للشهر الغرار ، تحركَ إلى الخَرْج ، تحركَ العُود إلى الفرج ، أستغفر الله مما يشق على سيدى سماعُه ، وتشمئز من ذكره طباعه ، شيم اللسان ، خلط الإساءة بالإحسان ، والغفلة من صفات الإنسان ، فأى عيش كهذا العيش ؟ وكيف حال أمير هـذا الجيش ؟ طاعة معروفه ، ووجوه إليه مَصْرُوفه ، فإن أشار بالإنصات ، لتحقق القصَّات ، فكأنما طمس على الأفواه ، ولأم بين الشِّفاه ، وإن أمر بالإفصاح ، وتلاوة الألواح ، علا الضجيج والعجيج ، وحف به كما حف بالبيت الحجيج ، وكم بين ذلك من رشوة تدس ، وغمزة لا تحس ، ووعد يستنجز ، وحاجة تستعجل وتحفز ، هنأ الله سيدى ما خوّله ، وأنساه بطيب أخراه أوّله ، وقد

---

(١) الضنك ـــ بالفتح ـــ أراد المنزور المقتر فيه ، والجديب : أصله المكان المقفر الذى لا نبات فيه

(٢) قالون وورش : مقرئان تحمل عنهم قراءة القرآن الكريم

بعثت بدُعَابتى هذه مع إجلال قدره ، والثقة بسعة صَدْره ، فليتلقها بيمينه ، ويفسح لها فى المرتبة بينه وبين خَدينه ، ويفرغ لمراجعتها وقتا من أوقاته عملا بمقتضى دينه ، وفضل يقينه ، والسلام .

بين أبى عبد السلام وأبى عبد الله اليتيم

ثم قال : ومن المداعبة التى وقعت إليها الإشارة ما كتب به صديقه إليه أبو عبد السلام :

أبا عبد الإله نداءَ خِلٍّ ... وفىّ جاء يمنحك النصيحه
إلى كم تألف الشبان غيا ... وخذلانا أما تخشى الفضيحه

فأجابه بقوله :

فديتك صاحب السِّمَة المليحه ... ومن طابت أرومته الصريحه[1]
ومَنْ قَلْبى وضعت له محلا ... فما عنـــه يحل بأن أزيحه
نأيت فدمع عينى فى انسكاب ... وأكبادى لفرقتكم قريحه[2]
وطرفى لا يُتَاح له رقاد ... وهـــل نوم لأجفان جريحه
وزاد تشوّقى أبيات شعر ... أتت منكم بألفاظ فصيحه
ولم تقصد بها جدا ، ولـكن ... قصدت بها مداعبة وقيحه
فقلت : أتألف الشبان غيًّا ... وخذلانا أما تخشى الفضيحه
ففيهم حرفتى وقوام عيشى ... وأحوالى بخلطتهـــم نجيحه
وأمرى فيهـــم أمر مطاع ... وأوجههم مصابيح صبيحه
وتعـــلم أننى رجل حَصُور ... وتعرف ذاك معرفة صحيحه[3]

ثم قال لسان الدين — بعد إيراده مامر — ما صورته : ولما اشتهر المشيب بعارضه ولمته ، وخفر الدهر بعهود صِباه وأذِمته ، أقلع واسترجع ، وتألم لما فرط وتوجع ،

---

(١) الأرومة : الأصل

(٢) قريحة : مجروحة

(٣) الحصور — بفتح الحاء — الذى انقطع عن النساء وتفرغ للعبادة

وهو الآن من جلة الخطباء طاهر العِرْض والثوب ، خالص من الشَّوْب ، بادٍ عليه قبولِ قابل التوب ، وتوفى فى أخريات صفر سنة خمسين وسبعمائة فى الطاعون ، رحمه الله تعالى وغفر له ! انتهى .

ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي العبدري (اليتيم)

واليتيم المذكور هو أبو عبد الله محمد بن على العبدرى المالقى ، وفى حقه يقول لسان الدين فى « التاج » ما مثاله : هو مجموع أدوات حسان ، من خط ونغمة لسان ، أخلاقه رَوْض تتضوّع(١) نسماته ، وبشره صبح تتألق قَسَماته(٢) ، ولا تخفى سِماته ، يُقَرْطِس أغراض الدعابة ويُصْمِيها ، ويفوّق سهام الفكاهة إلى مَرَاميها ، فكلما صَدَرَتْ فى عصره قصيدة هازله ، أو أبيات منحطة عن الإجادة نازله ، خَمَّس أبياتها وذيلها ، وصرف معانيها وسيلها ، وتركها سَمَر الندمان ، وأضحوكة الأزمان ، وهو الآن خطيبُ المسجد الأعلى بمالَقَة ، متحلٍّ بوقار وسكينه ، حالٍّ من أهلها بمكانة مَكِينة ، لسهولة جانبه ، واتضاح مقاصده فى الخير ومَذَاهبه ، واشتغل لأوّل أمره بالتكتيب ، وبلغ الغاية فى التعليم والترتيب ، والشباب لم ينصل(٣) خضابُه ، ولا سلت المشيب عِضابه ، ونفسه بالمحاسن كَلِفة صَبَّه ، وشأنه كله هوى ومَحَبه ، ولذلك ما خاطبه بعضُ أودائه ، وكلاهما رمى أخاه بدائه ، حسبما يأتى خلال هذا القول وفى أثنائه ، انتهى .

وذكر نحو ما تقدم ذكره ، سامح الله الجميع بفضله !

من أبي عبد الله الكرسوطي إلى لسان الدين

وقال لسان الدين فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطى الفاسى نزيل مالقة ماصورته : وأنشدنى وأنا بمالقة أحاول لَوْثَ العمامة ، وأستعين بالغير على الإحكام لها :

أمعما قمراً تكامل حسنه / أربى على الشمس المنيرة فى الْبَهَا

---

(١) تتضوع : يفوح منها ريح طيبة (٢) تتألق : تضىء ، والقسمات : معالم وجهه
(٣) الخضاب : صبغ الشعر الأبيض ، وينصل : أصله أن يذهب لون الخضاب فيظهر الشعر أبيض كما كان

لا تلتمس ممن لديك زيادة　　فالبدر لا يمتار من نور السُّهَا

قال لسان الدين: وهو فقيه محدث متكلم ، ألف كتبا منها «الغرر ، فى تكميل الطرر» طرر أبى إبراهيم الأعرج ، ثم كتاب « الدرر ، فى اختصار الطرر » المذكور ، وتقييدان على الرسالة كبير وصغير ، ولخص « التهـذيب » لابن بشير ، وحذف أسانيد المصنفات الثلاثة ، والتزم إسقاط التكرار ، واستدرك الصحاح الواقعة فى الترمذى على البخارى ومسلم ، وقيد على مختصر الطليطلى ، وشرع فى تقييدٍ على قواعد الإمام أبى الفضل عياض بن موسى برسم ولدى ، ويصدر منـه الشعر مصدراً لا تكيفه منـه العناية ، وكانت له اليد الطولى فى عبارة الرؤيا ، ومولده بفاس عام تسعين وستمائة ، انتهى ملخصا .

ترجمة أبى عبد الله الكرسوطى

وقال فى ترجمة أبى عمرو بن الزبير ماصورته ، ومماخاطبنى به عنـد إيابى من العُدْوَة فى غرض الرسالة قوله :

من أبى عمرو ابن الزبير إلى لسان الدين

نوالى الشكر للرحمن فرضـاً　　على نعم كَسَتْ طولا وعرضاً
وكم لله من لطف خفى　　لنا منه الذى قد شا وأمضى[1]
بمقدمك السعيد أتت سعود　　ننال بهـا نعيمَ الدهر محضا[2]
فيا بشرى لأندلس بمـا قد　　به والاك بارينـا وأرضى[3]
ويا لله من سفر سـعيد　　قدَ اقرضك المهيمن فيه قرضا
ورحت بنيَّةٍ أخلصت فيهـا　　فأبت بكل ما يبغى ويرضى[4]
وثبت لنصرة الإسلام لمـا　　إليك علمت أن الأمر أفضى
لقد أحييت بالتقوى رُسُومًا　　كما أرضيت بالتمهيـد أرضا
وقمت بسنة المختـــار فينا　　تمهد سـنَّة وتقيم فرضا

---

(١) شا : أراد شاء ، فحذف الهمزة ، وأمضى : أنفذ
(٢) محضا : خالصا لا يشو به تنغيص ولاهم
(٣) بارينا : خالقنا　　(٤) أبت : رجعت

ورضت من العلوم الصَّعْبَ حتى جنيت ثمارها رَطْبًا وغَضًّا[1]

فرأيك راجح فيما تراه وعزمك من مواضى الهند أمضى[2]

تدبر أمر مولانا فيلقى المسىء لديك إشفاقا وإغْضَا[3]

فأعقبنا شفاء وانبساطا وقد كانت قلوب الناس مرضى

ومن أضحى على ظمإ وأمسى يرد إن شاء من نعماك خوضا

أبا عبد الإلهِ إليك أشكو زمانى حين زاد الفقر عضا

ومن نُعْماك أستجدى لباسا تفيض به على الجاه فيضا

بقيت مؤمَّلاً ترجى وتخشى ومثلك من إذا ما جاد أرضى

ترجمة أبى عمرو محمد بن أحمد ابن الزبير

وأبو عمرو المذكور هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير، أبوه الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير أستاذ الزمان شيخ أبى حيان وغيره ، وقال فى « الإحاطة » فى حقه : إنه فكه ، حسن الحديث ، ركَضَ طرْفَ الشبيبة فى ميدان الراحة منكبا على سنن أبيه وقومه ، مع شفوف إدراك ، وجودة حفظ ، كانا يطمعان والده فى نجابته ، فلم يعدم قادحا فى شرف ، فنال حظوة ، وجرت عليه خطوب ، ثم عاد إلى الأندلس ، فتطور بها ، وهو الآن قد نال منه الكبر يزجى لوقته بمالقة متعللا برَمَق من بعض الخدم المخزونية ، استجاز له والده الطم والرم من أهل المغرب والمشرق ، وبضاعته فى الشعر مُزْجاة ، ثم قال : مات تاسع المحرم عام خمسة وستين وسبعمائة ، انتهى .

من ترجمة أبى يحيى محمد بن أحمد بن الأكحل

وقال فى ترجمة أبى يحيى محمد بن أحمد بن محمد بن الأكحل ما صورته : شيخ هدورى الذقن ، خدوع الظاهر ، خلوب اللفظ ، شديد الهوى إلى الصوفية ، والكلف بإطراء أهل الخير ، من بيت صَوْن وحشمة ، متقدم فى معرفة الأمور

---

(١) رضت : ذللت وسهلت ومهدت ، وأصله رياضة الدابة الجموح حتى يلين قيادها

(٢) مواضى الهند: أراد السيوف ، واحدها ماض، وكانوا يجلبون السيوف من الهند

(٣) إغضا: أصله إغضاء ، فخذف الهمزة ، والإغضاء عن الذنب: إغماض العين عنه

العلمية ، خائض فى غمار التصوّف ، وانتحال كيمياء السعادة ، راكب متن دعوى عريضة فى مقام التوحيد ، تكذبها أحواله الراهنة ، لمعاصاة خلقه على الرياضة ، واستيلاء الشرَه ، وغلبة سلطان الشهوة ، والمشاحة أيام الولاية ، والسباب الشاهد بالشدة ، والحلف المتصل بياضَ اليوم فى ثمن الخردلة باليمين التى فيها فساد الأنكحة والغضب الذى يقلب العين ، خاطبنى بين يدى نكبته ولم أكن أظن الشعر مما تلوكه حَجْفَلته ، ولكنه من أهل الكفاية :

رجوتك بعد الله يا خير منجد ... وأكرم مأمول وأعظم مرفد(١)

وأفضل مَنْ أملت للحادث الذى ... فقدت به صبرى وماملَكت يدى

وحاشا وكلا أن يخيب مؤمِّلِي ... وقد علقت بابن الخطيب محمد

وما أنا إلا عبد نعمته التى ... عهدت بها يُمْنِي وإنجاح مقصدى

وأشرف من حَضَّ الملوكَ على التقى ... وأبدى لهم رشدا نصيحة مرشد

وساس الرعايا الآن خير سياسة ... مباركة فى كل غيب ومشهد(٢)

وأعرض عن دنياه زهدًا وإنها ... لمظهرة طوعا له عن تودد

وما هو إلا الليث والغيث إن أتى ... له خائف أو جاء مغناه مجتدى(٣)

وبحرُ علومٍ درُّه كلماته ... إذا رددت فى الحفل أى تردد

صقيل مرائى الفكر ربُّ لطائف ... محاسنها تجلى بحسن تعبد

بديع عروج النفس للملأ الذى ... تجلت له الأسرار فى كل مصعد

شفيق رفيق دائم الحلم راحم ... ورأى جميل للجميل معوّد

صفوح عن الجانى على حين قدرة ... مواصِلُ تقوى الله فى اليوم والغد

أيا سيدى ياعمدتى عند شدتى ... ويا مشربى مهماظمئت وموردى

---

(١) المنجد : المعين ، والمرفد : المعطى

(٢) المشهد : الحضور (٣) المجتدى : طالب النوال والعطاء ، وقوله « إن أتى خائف » يعود إلى الليث ، يريد أنه يدافع عنه ، وقوله « أوجاء مجتدى » راجع إلى الغيث ، يريد أنه يعطيه ما أمل

حنانيك والطُفْ بى وكن لى راحما ورفقا على شيخ ضعيف منكد
رجاكَ رجاء للذى أنت أهلُه ووافاكَ يهـدى للثناء المجدد
وأمَّكَ مضطرا لرحماكَ شاكيا بحال كحر الشمس حال توقد
وعندى افتقار لا يزال مواصلاً لأكرم مولى حاز أجرا وسيد
ترفق بأولادٍ صـغار بكاؤهم يزيد لوقع الحادث المتزيد
وليس لهم إلا إليـك تَطَلع إذا مسهم ضر أليم التعهـد
أنلهم أيا مولاى نظرة مشفق وجد بالرضا وانظر لشمل مبدد
وعامِلْ أخاالـكرب الشديد برحمة وأسعف بغفران الذنوب وأسعد
ولا تنظرن إلا لفضلك ، لا إلى جريمة شيخ عن محلك مبعد
و إن كنت قد أذنبت إنى تائب فعوّد لى الفعل الجميل وجدد
بقيتَ بخـيرٍ لا يزال وعزة وعيش هنىء كيف شئت وأسعد
وسَخَّرك الرحمن للعبـد ؛ إنه لمثن وداع للمحل المجـدد

ثم قال : وهو الآن من مسطرى الأعمال على تهوّر واقتحام كبره،من خط لانهاية وراءه فى الركاكة ، كما قال المعرى :

تمشت فوقه حمر المنـايا ولـكن بعد مامُسِخَتْ نمالا

من أبى عبدالله محمد بن على بن عياش إلى لسان الدين

وقال فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن على بن عياش بن مشرف الأمى : إنه من أهل الأصالة والحسب ، ظهرت منه على حداثة السن أبيات ، ونسب إليه شعر توسل به ، وتصرف فى الإشراف ، فحمدت سيرته ، وكتب إلى بقوله :

سفرت شموس اليمن والإقبال و بدت بدور السعد ذات كمال[1]
لقدوم سـيدنا الوزير محمد أعزز به من سـيد مفضال

---

(١) أصل معنى «سفرت» أزاحت عن وجهها النقاب الذى يغطيه ، وسفور الشمس: ظهورها واضحة لا يحجبها غيم ، وإضافة الشموس إلى اليمن والإقبال من إضافة المشبه به إلى المشبه ، وهذا خير من أن يجعل الـكلام استعارة بالـكناية وتـكون الإضافة تخييلا

قمر تجلى بين زُهْرٍ تجتلى ... يهدى لفعل الخير لا الإضلال

سر آمنا لا تكترث ، فلأنت فى ... حفظ الإله الواحد المتعالى

براً وبحراً لا تخاف مُلمــة ... وعدوّ ذاتك خلف ظهرك صالى

لا يستقر له قرار بعدكم ... مما يحل به من الأوجال

والآن ترجع سـالما ومبشرا ... ببلوغ كل مسرة ومنـال

وهى طويلة ، نَمَطُها متخاف عن الإجادة ، وهى من مثله مما يستظرف ، انتهى

من محمد بن محمد الوادى آشى إلى لسان الدين

وقال فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد العراقى الوادى آشى : فاضل الأبوة ، بادى الاستقامة ، حسن الأخلاق ، تولى أعمالا ، كتب إلى وقد أبى عملا عرض عليه بقوله :

أأصمت ألفـا ثم أنطق بالخلف ... وأفقــد إلفا ثم آنس بالجلف[1]

وأمسك دهرى ثم أفطر عَلْقما ... ويمحق بدرى ثم ألحق بالخسف

وعزكم لا كنت بالذل عامـلا ... ولو أن ضعفى ينتهى بى إلى الحتف

فإن تعمـلونى فى تصرف عزة ... وعدل و إلا فاحسموا علة الصرف

بقيت وسُحْبُ العفو منكم تُظِلنى ... وحظ ثنائى دائما ثانى العطف

من أبى محمد الأزدى إلى لسان الدين

وقال فى ترجمة أبى محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدى ما صورته : وخاطبنى لما وليت خطة الإنشاء وغيرها فى أواخر عام تسعة وأربعين وسبعمائة بمـا نصه :

حُشَاشة نفس أعلنت لمذيبهـا ... بتـذكار أيام الوصال وطيبها

ونادته رحمى أختها نفس مدنف ... تموت إذا لم تحيها بوجيبهـا

فداو بقربٍ منك لاعِجَ وجدها ... وفيضَ أماقيها وطول نحيبهـا

وقد بلغت حَدًّا به صح فى الهوى ... وأحكامه ثوب الضنى فى نصيبها

---

(١) أخذ معنى هـذا البيت من قولهم فى مثل « سكت ألفا ونطق خلفا » وفى معناه « سكت دهرا ونطق كفرا » والإلف — بكسر الهمزة — الأليف الحبيب إلى القلب ، والجلف — بالكسر أيضا — الجافى الغليظ .

وهل يتداوى داء نفس تعيسة ... إذا كان يوما داؤها من طبيبها

لعل أوار المجد تخمد ناره ... فيبرد عنها ما بها من لهيبها(١)

إليك حَدَاها الشوق يابدرها الذى ... يعز عليها منه طولُ مغيبها

سلكت بها سبل الهوى فهى تبتغى ... لقاك وتبغى غفلة من رقيبها

أجبها بإبقاء عليها فإنها ... ستفنى إذا مالم تكن بمجيبها

ومِلْ نحوها بالود فهى قَدَ أُذعنت ... كما تذعن الأقلام لابن خطيبها

وحيد الزمان الماهر الباهر الحلى ... وجهبذ آداب العلا وأديبها

إمام معاليها ، وبحر علومها ... وبدر دياجيها ، وصدر شعوبها

مُصرِّفُها كيف انثنت ومعيدها ... ومبدئها حيث انتهت ومصيبها

ورافع أعلام البلاغة والذى ... أتى ناثراً أو ناظما بعجيبها

وحامل رايات الرياسة رفعةً ... قضى المجد تخصيصاً له بوجوبها

من الغر ممن أوجبت لشبابها ... معاليهم الفضلَ العظيم وشيبِها

مِنَ أُبناء أرباب الزمان الألى بها ... سما فخرهم بين الورى بركوبها

خلال ابن عبد الله طود الحجا أبى ... محمد باد حسنها من ضروبها

أجاد وأجدى فاسْلُ عن ذكر طىء ... وحاتمها زَهْوًا به وحبيبها(٢)

ففى كل ما يبدى محمد عبرة ... محاسنها تنبى بسر غُيوبها

تجيب القوافى إن دعا ببعيدها ... وتنقاد طوعا إن دعا بقريبها

تخير أخلاق الكرام فلم يكن ... بِهَا ولَهَا يَرْضَى بغير رحيبها

تقـدّم فى دار الخلافة حاجبا ... لينجدها فى سلمها وحروبها

---

(١) أوار الحب — بضم الهمزة — لهيبه وحرارته ، وتخمد ناره : أراد به أنها همدت وسكنت وبردت .

(٢) حاتم : مضرب المثل فى الجود ، وحبيب : هو أبو تمام حبيب بن أوس ، وكلاهما من طيء .

وقام لها فى ساحة العز كاتبا ... يحضرها أسرارها ومغيبها
فأبدى مِنَ أنواع الفضائل أوْجُهًا ... تقر لها بالحسن عين لبيبها
هنيئًا به يمناً بأسعد ماثل ... لغرناطة قاض بصرف خطوبها
فللسعد تأثير يجىء إذا جرى ... به قَدَر كالريح عند هبوبها
أموقد نار الفكر يقدح زندها ... فيسبى به الألباب سحر نسيبها
حَدَانى إليك الحب قِدْما ومال بى ... حديث لآمال خلت عن غريبها
فقدمتها نظما قوافى قصرت ... لديك بذاوِى فكرتى ورطيبها
وكنت كمن وافى لدى الدار بالحصى ... يرفع منها ساهيا عن عيوبها
فصلها وخذ بالعفو فيها فلم أصِل ... لأبلغ منها فاغتفر من ذنوبها

وصاحب هذا النظم من أهل بلش ، وله اقتدار على النظم والنثر ، قال فى «الإحاطة» ما محصله : ومما وقع له أثناء مقامات وأغراض تشهد باقتداره مهملا :

من شعر أبى محمد الأزدى

رعى الله عهداً حوى ما حوى ... لأهل الوداد وأهل الهوى
أراهم أموراً حَلاَ وِرْدُهَا ... وأعطاهُمُ السؤل كلا سوى (١)
ولما حلا الوصل صالوا له ... وراموه مأوى وماء رِوَى
وأوردهم سر أسرارهم ... ورد إلى كل داء دوا
وما أمل طال إلا وهى ... وما أمل صال إلا هوى

وقال معجمة :

بث بينى يبثنى فيض جفنى ... شغفى شفنى فشبت بيبنى
فتنتنى بغنج ظبى تجنى ... تبتغى نقض نيتى بتجنى
بزة زينت قضيب تثنى ... قضيت بغيتى ففزت بفن
خفت تشتيت بنيتى فجفتنى ... ثقة تنثنى فخيب ظنِّى

(١) وردها — بكسر الواو وسكون الراء — ورودها ، وأصله الورود على الماء للشرب .

وقال كلمة وكلمة :

الهوى شفنى وأهمل جفنى ... أدمعا تنثنى دمًا بتثنى
أحور شَبَّ حَرَّ بثىَ لما ... نقض العهد بين طول تجنى
حاكم يتقى ولا ذنب إلا ... شغف لم يَخِبْ لمسعاه ظنى
ماله ينقض العهود فيشجى ... ولها ينثنى مُسهَّد جفن
لم يجز وصله فبت محالا ... يقتضى حل بغيتى كل فن

وقال يرثى ديكا فقدَه ، و يصف الوجد الذى وَجدَه ، ويبكى عدم أذانه ، إلى غير ذلك من مستظرف شانه :

أودى به الحتف لما جاءه الأجل ... ديكا فلا عِوَضٌ منه ولا بَدَلُ
قد كان لى أمل فى أن يعيش فلم ... يثبت مع الحتف فى بُقْياه لى أمل
فقدته فلعمرى إنها عظة ... وبالمواعظ تذرى دمعها المُقَلُ[(١)]
ما كان أبدع مرآه ومنظره ... وَصْفًا به كل حين يضرب المثل
كأن مُطْرَفَ وشى فوق ملبسه ... عليه من كل حسن باهر حُلَل
كأن إكليل كسرى فوق مفرقه ... وتاجه فهو عالى الشكل محتفل
مُوَقِّت لم يكن يعزى له خطأ ... فيما يرتب من ورد ولا خَلَلُ
كأن زرقال فيما مر عَلَّمه ... علم المواقيت مما رَتَّب الأول
يرحِّلُ الليل يحيى بالصراخ فما ... يصده كلل عنـه ولا مَلَل
رأيته قد وَهَتْ منه القُوَى فهوى ... للأرض فعلا يريه الشارب الثَّمِل
لو يفتدى بديوك الأرض قلَّ له ... ذاك الفداء ولكن فاجأ الأجل
قالوا الدواء فلم يغن الدواء ولم ... ينفعه من ذاك ما قالوا وما فعلوا

---

(١) تذرى دمعها : أراد تسكبه بغزارة ، وأصل معنى « تذرى » ترخص ه والمقل : جمع مقلة ، وهى العين .

أَمَّلْتُ فيـه ثوابا أجر محتسب إن نلت ذلك صح القول والعمل

وأمره السلطان أبو عبد الله سادس الملوك النَّصْرِيين ، وقد نظر إلى شلير وقد تردى بالثلج وتعمم ، وكمل ما أراد من بزته وتم ، أن ينظم فى وصفه ، فقال بديها :

وشيخ جَليل القدر قد طال عمره وما عنده علم بطول ولا قصر
عليه لباسٌ أبيض باهر السنى وليس بثوب أحكمته يد البشر
فطورا تراه كله كاسيا به وكسوته فيها لأهل النهى عِبَرْ
وطورا تراه عاريا ليس يكتسى بحر ولا برد من الشمس والقمر
وكم مرتِ الأيام وهو كما ترى على حاله لم يشك ضعفا ولا كبر
وذاك شليرشيخ غرناطة التى لبهجتها فى الأرض ذكر قد اشتهر
بها ملك سامى المراقى أطاعه كبار ملوك الأرض فى حالة الصغر
تولاه رب العرش منه بعصمة تقيه مَدَى الأيام من كل ما ضرر

وتوفى المذكور فى بلده بلش فى طاعون عام خمسين وسبعمائة ، انتهى .

من لسان الدين إلى أبى القاسم ابن رضوان

وقال فى « الإحاطة » فى ترجمة صاحب القلم الأعلى بالمغرب أبى القاسم ابن رضوان النجارى ما صورته : ولما ولى الإنشاء بباب ملك المغرب ظهر لسلطاننا بعض قصور فى المراجعات ، فكتبت إليه :

أبا قاسم لا زلت للفضل قاسما بميزان عدل ينصر الحق من نصر
مدادك وهو المسك طيبا ومنظرا و إلا سواد القلب والفَوْد والبصر
عهدناه فى كل المعارف مطنبا فما باله فى حُرْمة الود مختصر[1]
أظنك من ليل الوصال انتخبته إلينا ، وذاك الليل يوصف بالقصر
أردنا بك العذر الذى أنت أهله ومثلك لا يُرْمَى بعى ولا حَصَر[2]

---

(١) مطنب : اسم الفاعل من الإطناب ، وأراد به هنا الإطالة فى العبارة مع الجودة

(٢) العى : العجز ، والحصر : مثله

فراجعنى ، ولا أدرى أهى من نظمه أم نظم غيره :

من ابن رضوان إلى لسان الدين

حقيق أبا عبد الإله بك الذى لمذهبه فى البر يتضح الأثر
وإن الذى نبهت منى لم يكن نؤما وحاشى الود أن أغمط الأثر
ورُبَّ اختصار لم يَشِنْ نظم ناظم ورب اقتصار لم يعب نثر من نثر
وعذرك عنى من محاسنك التى نظام حلاها فى الممادح ما انتثر
ومن عرف الوصف المناسب منصفا تأتَّى له نهج من العذر ما دثر

ترجمة ابن رضوان

وهو عبد الله بن يوسف بن رضوان النجارى ، من أهل مالقة ، صاحب العلامة العلمية ، والقلم الأعلى بالمغرب ، قرأ على جماعة منهم بتونس قاضى الجماعة ابن عبد السلام ، قال فى « التاج » فيه أيامَ لم يفهق حوضه ، ولا أزهر روضه ما نصه : أديب أحسن ما شاء ، ومنح قليبه فملأ الدلو وبَلَّ الرشاء ، وعانى على حَدَاثته الشعر والإنشاء ، وله ببلده بيت معمور بفضل وأمانة ، ومجد وديانة ، ونشأ هذا الفاضل على أتم العفاف والصَّوْن ، فما مال إلى فساد بعد الكون ، وله خط بارع ، وفهم إلى الغوامض مسارع ، وقد أثبتُّ من كلامه ، ونَفَثَات أقلامه كلَّ محكم العقود ، زارٍ بابنة العُنقود ، فمن ذلك قوله :

لعلكما أن ترعيا لى مسائلا فبالله عوجا بالركاب وسائلا

ومنها :

لقد خان دهرى إذ نأى بمطالبى وظلْ بما أبغى من القرب ماطلا[1]
عتبت عليه فاغتدى لى عاتبا وقال : أصخ لى لا تكن قطُّ عاذِلا
أتعتبنى أن قد أفدتك موقفا لدى أعظم الأملاك حلما ونائلا
مليك حَباه الله بالخلق والرضا وأعلى له فى المكرمات المنازلا[2]

---

(١) فى ب « لقد خار دهرى » وأحسبه محرفا عما أثبته

(٢) حباه الله : منحه وأعطاه

وهى طويلة .

ومن نظم ابن رضوان المذكور :

تبرَّأْتُ من حَوْلى إليك وأيقنت برحماك آمالى أصحَّ يقينِ[١]
فلا أرهب الأيام إذ كنت ملجأ وحسبى يقينى باليقين يقينى[٢]

وكلفه أبو عنان وصف صيد من غدير فقال من أبيات :

ولرب يوم فى حماك شهدته والسَّرْح ناشرة عليك ظلالَهَا
حيث الغدير يريك من صفحاته درعا تجيد به الرياح صِقَالَهَا
والمنشآت به تدير حبائلا للصيد فى حيل تدير حبالها
وتريك إذ يلقى بها اليم الذى أخفت جوانحه وغاب خلالها
فحسبتها زَرَداً وأن عواليا تركَتْ به عند الطعان نصالها

وقال فيه أيضاً :

أبصرت فى يوم الغدير عجائبا جاءت بآيات العجائب مبصرهْ
سمكا لدى شبك فقل ليل بدت فيه الزواهر للنواظر نيره
فكأن ذا زَرَدٌ تضاعف نسجه وكأن تلك أسِنَّة متكسره

ومما نظمه عن أمر الخلافة المستعينية ليكتب فى طُرَّة قبة رياض الغزلان من حضرته :

هذا محل المنى بالأمن مغمور مَنْ حله فهو بالآمال مجبور
مأوى النعيم به ماشئت من تَرَفٍ تَهْوَى محاسنه الولدانُ والحور
ويطلع الروض منه مصنعا عجبا يضاحك النورَ من لألائه النور
ويسطع الزهر من أرجائه أرجًا ينافح الند نشر منه منشور

---

(١) الحول : القوة ، أو الحيلة

(٢) يقينى فى آخر البيت فعل مضارع من الوقاية

مَغْنَى السرور سقاه الله ما حملت غر الغمام وحَلَّتْــــه الأزاهير
انظر إلى الروض تنظر كل معجبة مما ارتضاه لرأى العين تحبير
مر النسيم به يبغى القِرَى فقرى دراهم النــور تبديد وتنثير
وهامت الشمس فى حسن الظلال به ففرّقت فوقها منــه دنانير(١)
والدوح ناعمة تهتز من طرب همسا وصوت غناء الطير مجهور
كأنما الطير فى أفنانها صَدَحَتْ بشكر مالـكها والفضل مشكور
والنهر شق بساط الروض تحسبه سيفا ولـكنه فى السلم مشهور
ينساب للجــة الخضراء أزرقُهُ كالأيم جدَّ انسياب وهو مذعور
هذى مصانع مولانا التى جمعت شمل السرور وأمر السعد مأمور
وهذه القبة الغــراء ما نظرت لشكلها العين إلا عــز تنظير
ولا يصوّرها فى الفهم ذو فكر إلا ومنه لـكل الحسن تصوير
ولا يرام بحَصْرٍ وصفُ ما جمعت من المحاسن إلا صد تقصــير
فيها المقاصــير تحميها مهابته لله ما جمعت تلك المقاصــير
كأنها الأفق تبدو النيرات به ويستقيم بها فى السعد تسيير
وينشأ المزن فى أرجائه وله من عنبر الشحر إنشاء وتسخير
وينهمى القَطْر منه وهو منسكب ماء من الورد يذكو منه تقطير
وتخفق الريح منه وهى ناسمــة مما أهبَّ به مسك وكافور
ويشرق الصبح منه وهو من غرر غر تلألأ منهن الأسارير
وتطلع الشمس فيه من سَنَى ملك تبسم الدهر منه وهو مسرور
لله منه إمام عادل بهــرت أوصافُه فهى للأمداح تحبير

---

(١) أراد بالدنانير قطع الشمس الصغيرة المدورة التى تظهر من بين فرج الأشجار وهو من قول أبى الطيب :

وألقى الشرق منها فى ثيابى دنانير تفر من البنان

غيث السماح وليث البأس فالْقَ به ... محيي الهدى وهو للعادين تدْبير[(1)]
قل للمبارى وإن لم تلقه أبدا ... ورب فرض محال وهو تقدير
فخر الأنام أحـــلَّ الفخر منزله ... فكل مدح على علياه مقصور
إذا أبو سالم مولى الملوك بَدَا ... بدرا تضىء بمـــرآه الدياجير
فأى خطب يخاف الدهْرَ آملُه ... وأى سؤل له فى النيل تعذير
بشراك بشراك يانجل الخلافة ما ... خوّلت من نيلها والضدّ مقهور
لك الخلودُ بعـــز الملك فى نعم ... لا يعترى صَفْوَهَا فى الدهر تكدير
فانعم هنيئا بلذّات مواصـــلة ... لا تأتليهن إلمام وتكرير
لا زلت تلقى المنى فى غبطة أبدا ... ما دام لله تهليل وتكبير

وقال وكتب به على قلم فضة :

إذا شهدت بالنصر خَطِّية الْقَنَا ... فملكت أمر الفتح من غير ما شَرْطِ[(2)]
كفى شاهدا منى بفضلك ناطقا ... لسانىَ مهما أفصحت ألسن الخطِّى

وقال وكتب به على سكين :

أروح بأمر المستعين وأغتدى ... لإذهاب طغيان اليراع الرواقم
ويفعل فى الأقلام حَدِّىَ مصلحا ... كفعل ظُبَا أسيافهِ فى الأقالم

قال : ومما كتب به على قصيدة عيدية :

لما رأيت هدايا العيـــد أعظمُها ... هدية الطيب فى حسن وتعجيب
ولم أجد فى ضروب العاطرات شذى ... يحكى ثناءك فى نَشْرٍ وفى طيب
أهديت نحوك منه كل ذى أرج ... أنفاسه بين تشريق وتغريب
وفى القبول منال السعد فالْقَ به ... تلق الأمانى بتأهيل وترحيب

---

(١) تتبير : إهلاك

(٢) الخطية : الرماح ، منسوبة إلى الخط ، وهو اسم مكان

وقال فى رجل يلقب بالبعير :

وذى لقب عَنَّتْ له عند صحبه مآرب لم يُسْعِدْ عليهن مسعد

دَعَوْهُ بعيرا فاستشاط فقال مه أبا أحمد وارتدّ عنهم يهدهد

فقلت له عُدْ نحوهم لتعود من مرامك بالمطلوب توفى وتحمد

فقال وقد غص الفضاء بصوته وقد هَدَرَتْ منه الشقاشق تزبد

لئن عدت نادونى بعيرا كمثلها فقلت له لا تمش والعود أحمد

وقال :

وبخيل لما دعوه لسُكْنَى منزل بالجنان ضَنَّ بذلك

قال لى مخزن بدارى فيه كل مالى فلست للدار تارك

قلت وُفِّقْتَ للصواب فحاذر قول خل مرغِّب فى انتقالك

لا تعرج على الجنان بسكنى ولتكن ساكنا بمخزن مالك (١)

وقال رحمه الله تعالى فى مركب :

يا رب منشأة عجبت لشأنها وقد احتوت فى البحر أعجب شان

سكنت بجنبيها عصابة شدة حلت محل الروح فى الجثمان

فتحركت بإرادة مع أنها فى جنسها ليست من الحيوان

وَجَرَتْ كما قد شاءه سكانها فعلمت أن السر فى السكان (٢)

وقال رحمه الله تعالى :

وذى خدع دَعَوْهُ لاشتغال وما عرفوه غثا من سمين

فأظهر زهده وغنى بمال وجيش الحرص منه فى كمين

وأقسم لا فعلت يمين خب فيا عجبا لحلاف مهين

---

(١) تورية بجهنم لأن اسم خازنها من الملائكة مالك

(٢) السكان — بضم السين وتشديد الكاف مفتوحة — خشبه تدار بها السفينة ، وأهل مصر يسمونها (الدفة) وفى البيت تورية بديعة

يغر بيسره ويمين حنث ليأكل باليسار وباليمين

وهو الآن بحاله الموصوفة ، انتهى .

بين أبى بكر ابن عبد الملك ولسان الدين

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : خاطبنى أبو بكر عبدُ الرحمن بن عبد الملك مستدعياً إلى إعذار ولده بقوله :

أريد من سيدى الأعلى تَكَلُّفه إلى الوصول إلى دارى صباح غد

يزيدنى شرفاً منه ويبصر لى صناعة القاطع الحجام فى ولدى

فأجبته :

يا سيدى الأوحد الأسمى ومعتمدى وذا الوسيلة من أهلى ومن بلدى

دعوت فى يوم الاثنين الصحاب ضحى وفيه ما ليس فى سبت ولا أحد

بوم السلام على المولى وخدمته فاصفح وإن عَثَرَتْ رجلى فخذ بيدى

والعذر أوضح من نار على علم فَعدِّ إن غبتُ عن لوم وعن فَنَدِ[1]

بقيت فى ظل عيش لا نفاد له مصاحبا غير محصور إلى أمد

وأبو بكر المذكور أصله من باغة ، ونشأ بلوشة ، وهو محسوب من الغَرْناطيين .

ترجمة أبى بكر ابن عبد الملك

وفى «التاج» فى حقه ما صورته : مادح هاجى ، مُداهن مداجى ، أخبث من نظر من طرف خفى ، وأعذر من تلبس بشعار وفى ، إلى مكيدة مبثوثة الحبائل ، وإغراء يقطع بين الشعوب والقبائل ، من شيوخ طريقة العمل ، المتقلبين من أحوالها بين الصَّحْو والثمل ، المتعللين برسومها حين اختلط المرعىُّ بالهَمَل[2] ، وهو ناظمُ أرجاز ، ومستعمل حقيقة ومجاز ، نظم مختصر السيرة ، فى الألفاظ اليسيرة ، ونظم رجزاً فى الزجر والفال ، نبه به تلك الطريقة بعد الإغفال ، انتهى .

قال : ومن شعره :

---

(١) الفند : الكذب

(٢) الهمل — بفتح الهاء والميم جميعا — الذى ترك مهملا لا راعى له ولا حافظ

إن الولاية رفعـــة لـكنها ... أبدا إذا حققتها تتنقـــل
فانظر فضائل من مضى من أهلها ... تجد الفضائل كلها لا تعـــزل

توفى بالطاعون بغَرْنَاطة عام خمسين وسبعمائة ، انتهى .

من ابن يشت إلى لسان الدين

وقال فى ترجمة أبى سلطان عبد العزيز بن على الغرناطى بن يشت ماصورته : ومما خاطبنى به قوله :

أطلت عتب زمان قل من أملى ... وسُمْته الذم فى حـل ومرتحل
عاتبته ليلين العتبُ جانبـــه ... فمـا تراجع عن مَطْل ولا بَخَل
فعدت أمنحه العتبى ليشفق لى ... فقال لى إن سمعى عنك فى شُغُلِ
فالعتب عندىَ كالعتبى فلست أرى ... أصغى لمدحك إذ لم أصغ للعَذَلِ
فقلت للنفس كفى عن معاتبـة ... لاتنقضى وجواب صيغ من وجل(١)
من يعتلق فى الدُّنَا بابن الخطيب فقد ... سما عن الذل واستولى على الجذل(٢)
قالت فمن لى بتقريبى لخدمتـه ... فقد أجاب قريباً من جوابك لى
فقال للناس كُفُّوا عن محادثتى ... فليس ينفعكم حولى ولا حيـلى
قد اشتغلْتُ عن الدنيا بآخرتى ... وكان ما كان من أيامىَ الأول
وقد رعيت وما أهملت من منح ... فـكيف يختلط المرعىُّ بالهَمَل
ولست أرجع للدنيـا وزخرفها ... من بعد شَيْب غدا فى الرأس مشتعل
ألست تبصر أطمارى و بعدىَ عن ... نيل الحظوظ و إغذاذى إلى أجلى(٣)
فقلت ذلك قول صح مجمـلُهُ ... لـكن من شأنه التفصيل للجمل
ما أنت جالب أمر تستعين به ... على المظالم فى حال ومقتبـــل
ولا تحل حراماً أو تحـرم ما ... أحل ربك فى قول ولا عمـل

(١) الوجل : الخوف (٢) الجذل : السرور
(٣) إغذاذى : إسراعى ، مصدر «أغذ السير» أسرع فيه

ولا تبع آجل الدنيا بعاجلها　　كما الولاة تبيع اليم بالوَشَلِ[1]
وأين عنك الرشا إن ظَلْتَ تطلبها　　هذا لعمرىَ أمر غير منفعل
هل أنت تطلب إلا أن تعود إلى　　كتب المقام الرفيع القدر فى الدول
فما لأوحد هذا الكون قاطبة　　وأسمح الخلق من حاف ومنتعل
لم يلتفت نحو ما تبغيه من وطر　　ولم يَسُدَّ الذى قد بان من خلل
إن لم تقع نظرة منه عليك فما　　يصفو لديك الذى أملت من أمل
فدونك السيد الأَعْلَى فمطلبكم　　قد نيط منه بفضل غير منفصل
فقد خَبَرْتُ بنى الدنيا بأجمعهم　　من عالم وحكيم عارف وولى
فما رأيت له فى الناس من شَبَهٍ　　قَلَّ النظير له عندى فلا تَسَلِ
وقد قصدتك يا أسمى الورى هِمما　　وليس لى عن حمى علياك من حِوَلِ[2]
فما سواك لما أملت من أمل　　وليس لى عنك من زَيْغ ولا مَيَلِ
فانظر لحالى فقد رق الحسود لها　　واحسم زَمَانة ما قد ساء من علل
ودم لنا ولدين الله ترفعه　　ما أعقبت بُكَر الإصباح بالأُصُلِ[3]
لا زلت معتلياً عن كل حادثة　　كما علت ملة الإسلام فى الملل

ترجمة ابن يشت

والمذكور هو عبد العزيز بن على بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز ابن يشت ، من غَرْنَاطة ، يكنى أبا سلطان ، قال فى « الإحاطة » فى حقه : فاضل حى حسن الصورة ، بادى الحشمة ، فاضل البيت سريُّهُ ، كتب فى ديوان الأعمال فأتقن ، وترقى إلى الكتابة السلطانية ، وسَفَر فى بعض الأغراض الغربية ، ولازم الشيخ أبا بكر عتيق بن مقدم من مشيخة الصوفية بالحضرة فظهرت عليه آثار ذلك فى نظمه ومقاصده ، فمن نظمه ما أنشده ليلة الميلاد المعظم :

---

(١) الوشل — بالتحريك — القليل من الماء .

(٢) حول — بزنة عنب — أى تحول وانتقال

(٣) البكر : جمع بكرة — بالضم — وهى أول النهار ، والأصل ـ بضمتين ـ جمع أصيل ، وهو الوقت قبيل غروب الشمس

القلب يعشق والمـدامع تَنْطِقُ برح الخفاء فـكل عضو منطق
إن كنت أكتم ما أكن من الجوى فشحوب لونى فى الغرام مصدق
وتذللى عنـد اللقا وتملقى إن المحب إذا دنا يتملق
فلـكم سترت عن الوجود محبتى والدمع يفضـح ما يُسِرُّ المنطق(١)
ولـكم أموه بالطلول و بالـكنى وأخوض بحر الـكَتْم وهو الأليق
ظهر الحبيب فلست أبصر غيره فبكل مرئىٍّ أرى متحقـق
مافى الوجـود تكثر لمكثر إن المـكثر بالأباطل يعلق
فمتى نظرتُ فأنت موضع نظرتى ومتى نطقتُ فمـا بغيرك أنطق
يا سائلى عن بعض كنه صفاته كَلَّ اللسانُ وكَلَّ عنه المنطق
فاسلك مقامات الرجال محققاً إن المحقق شاوه لا يلحق
مَزِّقْ حجاب الوهم لا تحفل به فالوهم يسـتر ما العقول تحقق
واخلص إذا شئت الوصولَ ولا نسل فالعجز عن طلب المعارف موبق
إن التحلى فى التخلى فاقتصد ذاك الجناب ، فبـابه لا يغلق
ولتقتبس نار الـكليم ولا تخف والغ السوى إن كنت منها تَفْرَقُ
ومتى تجلى فيك سر جمـاله وصعقت خوفاً فالمـكلم يصعق
دع رتبة التقليد عنك ولا تته تلق الذى قيدت وهو المطلق
واقطع حبال علائق وعوائق إن العوائق بالمـكاره تطرق
جَرِّدْ حسام النفس عن جفن الهوى إن العوائد بالتجرد تخرق
فإذا فهمتَ السر منك فلا تَبُحْ فالسيف من بث الحقائق أصدق
بالذوق لا بالعـلم يدرك علمنا سر بمكنون الـكتاب مصدق

---

(١) هذا من قول العباس بن الأحنف :

لا جزى الله دمع عينى خيرا وجزى الله كل خير لسانى
كنت مثل الـكتاب أخفاه طى فاسـتدلوا عليه بالعنوان

و بما أتى عن خير من وطىء الثرى ... سر الوجود وغيثـــه المتدفق
خير الورى وابن الذبيحين الذى ... أنواره فى هـــديها تتألق(١)
مَنْ أخبر الأنباء قبل ببعثه ... ولنصه سر الكتاب يصدق
رفعت له الحجب التى لم ترتفع ... إلا إليه فكل ســتر يخرق
ورَقَى مقاما قصرت عن كنهه ... رُتَبُ الوجود وكعَّ عنه السُّبَّقُ
وطئ البساط تدللا وجرى إلى ... أمـــد تناهى ما إليه مَسْبَقُ
إنسان عين الكون مبلغ سره ... قطب الجمـــال وغيثه المتدفق
سر الوجود ونكتة الدهر الذى ... كل الوجود بجوده يتعلق
من جاء بالآيات يسطع نورها ... والذكر فهو عن الهوى لا ينطق
يا سيدالأرسال غــيرَ مدافعٍ ... وأجلّهم سبقا وإن هم أعنقوا
بالفقر جئتك موئلى لا بالغنى ... فالذل والإذعان عندك ينفق
فاجبر كســير جرائر وجرائم ... فالقلب من عظم الخطايا يَقْلَقُ
أرجوك يا غوث الأنام فلا تدع ... باب الرضا دونى يسد ويغلق
حاشاك تطرد مَنْ أتاك مؤملا ... فلأنت لى منى أحنُّ وأرفق
ومحبتى تقضى بأنك مُنْقِذِى ... مما أخاف فمـــا بغيرك أعلق
يا هل تساعدنى الأمانى والمنى ... وأحل حيث سَنَى الرسالة يشرق
إن كان ثبَّطنى القضا بمقيد ... فعِنانُ عزمى نحو مجدك مطلق

---

(١) ابن الذبيحين : هو النبى صلى الله عليه وسلم ، والذبيحان أولهما أبوه عبدالله ابن عبد المطب ، كان أبوه عبد المطلب قد نذر إن ولد له عشرة ذكور أن ينحر أحدهم فلما اكتملوا عشرة اقترع عليهم فخرجت القرعة على عبدالله ، ثم فداه بمائة من الإبل ، فى قصة مشهورة ، وثانى الذبيحين هو إسماعيل نبى الله بن إبراهيم خليل الرحمن ، ونسب النبى يرتفع إليه صلوات الله عليهم ، وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنا ابن الذبيحين »

ولئن ثوى شخص بأقصى مغرب فتشوّقى مـنى إليك يشرق
فعليك يا أسنى الوجود تحيةٌ من طيب نَفْحتها البسيطة تَعْبَقُ
وعلى صحابتك الذين تأنقوا رتب الكمال ومثلهم يتأنق
وعلى الألى آووك فى أوطانهم نالوا بذلك رتبة لا تلحق
أعظم بأنصار النبى وحزبه وبمن أتى بعبـاءة يتعلق
من مثل سَعْد أو كقيس نجله عَرْفُ السيادة من حماهُمْ ينشق
أكرم بهم وبمن أتى من سرهم عز النظير فمجدهم لا يلحق
من مثل نَصْر أو بنيه ملوكنا كل الأنام لعزهم يتملق
بمحمد نجل الخليفة يوسف عز الهدى فحماه ما إن يطرق
مولى الملوك وتاجُ مفرق عزهم وأجل من تُحْدَى إليه الأَيْنق
ملك يرى أن التقدم مغنم مهما تعرض موكب أو فيلق
تروى أحاديث الوغى عن بأسه فالسيف يُسْنِدُ والعوالى تطلق
ملك البسالة والمكارم والنهى فعداته منه به تَغَصُّ وتَشْرَقُ
ملئت قلوب عداه منه مهابة فمغرّب من خوفه ومشرق
مولاى يا أسمى الملوك ومَنْ غدت عين الزمان إلى سناه تحدّق
لا تقطعوا عنى الذى عوّدتم فالعبد مِنْ قَطْع العوائد يُشْفق
لا تحرمونى مطلبى فمحبتى تقضى لسعيى أنه لا يخفق
فانعم بردِّى فى بساطك كاتباً وأعِدْ لما قد كنت فهو الأليق
فاسلم أمير المسلمين لأمة أفواههم ما إن بغيرك تنطق
واهنأ بها من ليلة نبوية جاءت بأكرم من به يتعلق
صَلَّى عليه الله ما هَبَّتْ صَبًا واهتزَّ غصن فى الحديقة مورق

ثم قال : وهو الآن بحالته الموصوفة ، انتهى .

ومما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ما حكاه فى « الإحاطة » فى

من أبي الحسن النباهى إلى لسان الدين

ترجمة القاضى أبى الحسن النباهى ، إذ قال ما نصه : وخاطبنى بسبتة وأنا يومئذ بسَلاَ بقوله: يا أيتها الآية البالغة وقد طُمِست الأعلام ، والغرة الواضحة وقد تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة وقد ذهب الكرام ، أبقاكم الله تعالى البقاء الجميل ، وأبلغكم غاية المراد ومُنْتَهى التأميل ، أبى الله أن يتمكن المقام بالأندلس بعدكم ، وأن يكون سكون النفس إلا عندكم ، سر من السكون غريب ، ومَعْنىً فى التشاكل عجيب ، أختصر لكم الكلام ، فأقول بعد التحية والسلام : تفاقمت الحوادث ، وتعاظمت الخطوب الكوارث ، واستأسدت الذئاب الأخابث ، ونكث الأكثر من ولد سام وحام ويافث ، فلم يبق إلا كاشح باحث ، أو مكافح عابث ، ويا ليت شعرى مَنِ الثالث ؟ فحينئذ وجهت وجهى للفاطر الباعث ، ونجوت بنفسى لكِنْ مَنْجَى الحارث [1] ، وقد عبرت البحر كَسيرَ الجناح ، دامى الجراح ، وإنى لأرجو الله سبحانه بحسن نيتكم أن يكون الفرج قريباً ، والصنع عجيباً ، فعِمَادى أعان الله على القيام بواجبه ، هو الركن الذى ما زلت أميل على جوَانبه ، ولا تزيدنى الأيام إلا بصيرة فى الإقرار بفضله والاعتداد به ، وقد وصلنى خطابُ سيدى الذى جَلَّى الشكوك بنور يقينه ، ونصح النصح اللائق بعلمه ودينه ، وكأنه نظر إلى الغيب من وراء حجاب ، فأشار بما أشار به على سارية عمر بن الخطاب [2] ، ومن العجب أنى عملت بمقتضى إشارته ، قبل بلوغ إضْبَارته ، فلله ما تضمنه مكتوبكم الكريم من الدر ، وحرره من الكلام الحر ، وأيم الله لو تجسم لكان مَلَكا ، ولو تنسم لكان مسكا ، ولو قبس لكان شهاباً ، ولو لبس لكان شبابا ، فحل منى علم الله تعالى محل البرء من المريض ، وأعاد الأنس بما تضمنه من التعريض ، والكلم المُزْرية

(١) يشير بهذا إلى قول حسان بن ثابت :

إن كنت صادقة الذى حدثتنى ... فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

(٢) يشير إلى ما روى أن عمر وهو بالمدينة نادى سارية وهو يقاتل بمصر قائلا « ياسارية ، الجبل الجبل » .

بقِطَع الروض الأريض ، فقبلته عن راحتكم ، وتخيلت أنه مُقِيم بساحتكم ، ثم وردتْ مَعِينه الأصفى ، وكانت من بركات مواعظه بالمكيال الأوفى ، وليست بأول أياديكم ، و إحالتكم على الله فهو الذى يجازيكم ، و بالجملة فالأمور بيد الأقدار ، لا إلى المراد والاختيار .

وما كل ما ترجو النفوسُ بنافع ولا كل ما تخشى النفوسُ بضرَّار

قلت : أين هذا الكتاب من الذى قدمناه عنه فى الباب الثانى ، حين أظلم بينه و بين لسان الدين الجو وعِطْفه إلى مُهَاجاته ثانى ، وسَفَرَ[1] فى أمره إلى العُدْوة ، واجتهد فى ضرره بعد أن كان له به القدوة ، وقد قابله لسان الدين بما أذهب عن جفنه الوَسَن[2] ، وألف فيه كما سبق «خَلْع الرسن» على أنه عرّف به فى «الإحاطة» أحسن تعريف ، وشرفه بحلاه أجمل تشريف ، إذ قال ما ملخصه : على بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن الحسن ، الجذامى ، المالقى ، أبو الحسن ، ويعرف بالنباهى ، هذا الفاضل قريعُ بيت مَجَادة وجلالة ، و بقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، ظاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، خاطب للشيخوخة ، مستعجل للشيبة ، ظاهر الحياء ، متحرك مع السكون ، بعيد الغَوْر ، مرهف الجوانب مع الانكماش ، مقتصد فى الملبس والآلة ، متظاهر بالسذاجة ، برىء من النوك والغفلة ، يقظ المعاريض ، مهتدٍ إلى الملاحن ، طرف فى الجود ، حافظ مقيد طلعة أخبارى ، قائم على تاريخ بلده ، شرع فى تكميل ما صنف فيه ، ملازم للتقييد والتطريف ، متفر عن الإجادات والفوائد ، استفدت منه فى هذا الغرض وغيره كثيرا ، حسن الخط ، ناظم ناثر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر للكثير ، استظهر محفوظات منها «النوادر» للقالى ، وناهيك به محفوظا مهجورا ، ومسلكا غفلا ، فما ظنك بسواه ، نشأ ببلده حر الطعمة ، فاضل الأبوة ، وقرأ به ، ثم ولى

ترجمة القاضى أبى الحسن النباهى

---

(١) سفر سفارة — على مثال ولى ولاية — كان سفيرا بين القوم .

(٢) الوسن : النوم .

القضاء بملتماس ثم ببلش وعملها ، فسيح الخطة ، مطلق الجراية ، بعيد المدى فى باب النزاهة ، ماضيا غير هيوب ، حتى أربى فى الزمن القريب على المحتنكين ، وغَبَّر فى وجوه أهل الدربة ، وجرت أحكامه مستندة إلى الفتيا ، جارية على المسائل المشهورة ، ثم نقل منها إلى النظر فى أمور الحل والعقد بمالقة مضافة إليه الخطط النبيهة ، وصدر له منشور من إملائى ، إلى أن قال فى ترجمة نظمه : قال نظمت سمح الله تعالى لى قطعتين مُوَطئا فيهما على البيتين المشهورين : إحداهما :

بنفسىَ من غزلان حُزْوَى غزالة ... جمال محياها عن النسك زاجر[1]

تصيد بلحظ الطرف مَنْ رام صيدها ... ولو أنه النسر الذى هو طائر

مُعَطرة الأنفاس رائقة الحلى ... هواها بقلبى فى المهامه سائر

إذا رمت عنها سلوة قال شافع ... من الحب : ميعاد السلو المقابر

والأخرى :

وقائلة لما رأت شيب لمتى ... لئن مِلْتَ عن سلمى فعذرك ظاهر

زمان التصابى قد مضى لسبيله ... وهل لك بعد الشيب فى الحب عاذر

فقلت لها : كلا وإن تلف الفتى ... فما لهواها عند مثلى آخر

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشى ... سريرة وُدٍّ يوم تُبْلَى السرائر

وكتب على مثال النعل الكريم ، وأهداه لمزمع سفر :

فديتك لا يهدى إليك أجل من ... حديث نبىِّ الله خاتم رُسْله

ومن ذلك الباب المثالُ الذى أتى ... به الأثر المأثور فى شأن نعله

ومن فضله مهما يكن عند حامل ... له نال ما يهواه ساعة حمله

ولا سيما إن كان ذا سفر به ... فقد ظفرت يمناه بالأمن كله

---

(١) الغزلان : جمع غزالة ، ويراد بها الحسناء من النساء ، وتشبيههن بالغزلان فى كلام العرب مما لا يحتاج إلى الإشارة إليه ، وجمال محياها : أراد صباحة وجهها ، يريد أن جمالها لا يترك الزاهد العابد يتمكن من عبادته ، بل يدعوه إلى تركها .

فدونك منه أيها العلم الرضا ... مثالا كريما لا نظير لمثله

وقال مراجعا عن أبيات يظهر منها غرضها :

إذا كنت بالقصد الصحيح لنا تهوى ... فسلم لنا فى حكمنا ودع الشكوى
ولا تَتَبَّع أهواء نفسك والتفت ... لنا حيث كنا فى الرخاء وفى اللّاوا(١)
وكم من محب فى رضانا وحبنا ... محا كل ما يبدو سوانا له مَحْوا
رآنا عيانا عينَ معنى وجوده ... فعاج عن الشكوى وفوّضَ فى البلوى
وقال تحكم كيف شئت بما ترى ... رضيت بما تقضى وهمت بما تهوى
فحل لدينا بالخلوص وبالرضا ... محل اختصاص نال منه المنى صَفْوا
فإن كنت ترجو فى الصبابة والهوى ... لحاقاً بهم فاسلك طريقهم الأضوا(٢)
ومُتْ فى سبيل الحب إن كنت مخلصا ... لنا فى الهوى تحيا حياة أولى التقوى
هنالك تُؤْتَى ما تريد وتقتضى ... ديونك منادون مَطْل ولا دعوى
وتشرب من عين اليقين وتغتذى ... بخمر الصفا الصرف الزلال لكى تروى

وقال :

لا تلجأنَّ لمخلوق من الناس ... من يافث كان أصلا أو من الياس(٣)
وثق بربك لا تيأس تجد عجبا ... فلا أضر على عبد من الياس

وقال :

فديتك لا تصحب لئيما ، ولا تكن ... معينا له إن اللئيم خؤون
فلا عهد يرعى ، لا ، ولا نعمة يرى ... ولا سر خل عن عداه يصون

وقال يخاطب أبا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان :

لك الله قلبى فى هواك رهين ... وروحىَ عنى إن رحلت ظعين

---

(١) اللاوا : أصله اللأواء ، فحذف الهمزة حين اضطر ، واللأواء : الشدة .
(٢) الأضوا : أصله الأضوأ فسهل الهمزة بقلبها ألفا ، ومعناه الأكثر ضوءا .
(٣) الياس : هو ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

ملكت بحكم الفضل كلى خالصا ... وملكك للحر الصريح يزين
فهب لىَ من نطقى بمقدار ما به ... يترجم سر فى الفؤاد دفين
فقد شملتنا من رضاك ملابس ... وسَحَّ لدينا من نَدَاك مَعينُ(١)
أعَنْتَ على الدهر الغشوم ولم تزل ... بدنياك فى الأمر المهم تعين
وقصر من لم تعلم النفسُ أنه ... خذول إذا خان الزمان يخون
وإنى بحمد الله عنه لفى غنى ... وحسبىَ صبر عن سواك يصون
أبى لى مجد عن كرام ورثته ... وقوفا بباب للكريم يهين
ونفسٌ سمت فوق السما كين همة ... وما كل نفس بالهوان تدين(٢)
ولما رأت عينى مُحيَّاك أقسمت ... بأنك للفعل الجميل ضمين
وعاد لها الأنس الذى كان قد مضى ... برَيَّةَ إذ شَرْخُ الشباب خَدِينُ(٣)
بحيث نشأنا لا بسين حلى التقى ... وكلٌّ بكل عند ذاك ضنين
أما وسنى تلك الليالى وطيبها ... ووجد غرامى والحديثُ شجون
وفتيان صدق كالشموس وكالحيا ... حديثهمُ ما شئت عنه يكون
لئن نزحت تلك الديار فوجدنا ... عليها له بين الضلوع أنين
إذا مر حين زاده الشوق جِدَّةً ... وليس بعاب للربوع حنين
وأنى بسلاها وللبين لذعة ... أقل أذاها للسليم جنون
لقد عبثت أيدى الزمان بجمعنا ... وحان افتراق لم نَخَلْهُ يحين
وبعد التقينا فى محل تغرب ... وكل الذى دون الفراق يهون
فقابلتَ بالفضل الذى أنت أهله ... ومالَكَ فى حسن الصنيع قرين
وغبت وما غابت مكارمك التى ... على شكرها الرب العظيم يعين

---

(١) سح : انسكب وسال ، والندى : أراد به ههنا الجود ، وأصل المعين الماء الصافى العذب ، شبه جوده بالمطر

(٢) تدين : تخضع (٣) خدين : صديق وخليل وحبيب

يميناً لقد أوليتنـــا منك نعمة تلذ بها عنــد العيان عيون
ويقصر عنها الوصف إذ هي كلها لها وجـه حر بالحياء مصون
ولما قدمت الآن زاد سرورنا ومقدمك الأسنى بذاك قمين
لأنك أنت الروح منـــا وكلنا جسوم ، فعند البعد كيف نكون
ولو كان قدر الحب فيك لقاؤنا إليـك لكننا باللزوم ندين
ولكن قَصَدْنَا راحة المجد جهدنا فراحته شَمْـــلَ الجميع تصون
هنيئاً هنيئاً أيها العـــلَم الرضا بما لك فى طى القلوب كمين
لك الحسن والإحسان والعلم والتقى فحبك دنيـــا المحبِّ ودين
وكم لك فى باب الخلافة من يد أقرت لها بالصدق منك مَرِينُ
وقامت عليهـــا للملوك أدلة فأنت لديهـــا ما حييت مَكِينُ
فلا وجه إلا وهو بالبشر مشرق ولا نطق إلا عن علاك مبين
بقيت لربع الفضل تحمى ذماره صحيحا كما قد صح منـك يقين
ودونك يا قطب المعالى بنيــة من الفكر عن حال المحب تبين
أتتك ابنَ رضوان تمتُّ بودها وما لسوى الإغضاء منك ركون
فخلِّ انتقاد البحثِ عن هفواتها ومهد لها بالسمح حيث تكون
وخذها على علاتها فحديثها حديث غريب قد عراه سكون

وهو بحاله الموصوفة ، انتهى باختصار .

بين لسان الدين وأبى الحسن الجياب

ولما كتب لسان الدين إلى شيخه الرئيس الكاتب أبى الحسن الجياب قصيدة أولها :

أمستخرجا كَنْزَ العقيق بآماقى أناشدك الرحمنَ فى الرَّمَقِ الباقى (١)

---

(١) أراد بكنز العقيق دموع عينيه ، والآماق : جمع مؤق ، وهو طرف العين مما يلى الأنف ، وهو مجرى الدمع ، والرمق — بالتحريك — بقية الروح فى البدن

فقد ضعفت عن حمل صبرىَ طاقتى عليك وضاقت عن زفيرىَ أطواقى

وهى طويلة ، أجابه عنها بقوله :

سقانى فأهلا بالمدامة والساقى سُلاَفاً بها قام السرور على ساق[١]
ولا نَقْلَ إلا من بدائع حكمة ولا كأس إلا من سطور وأوراق
فقد أنشأتْ لى نشوةً بعد نشوة تمد بروحانيــــة ذات أذواق
فمن خطها الفانى متاع لناظرى وسمعى وحظ الروح من خطها الباقى
أعادت شبابى بعد سبعين حجةً فأثوابه قد جُدِّدت بعد إخلاق[٢]
وما كنت يوما للمدامة صاحبا ولا قبلتْهَا قط نشأة أخلاقى
ولاخالطت لحمى ولامازَجَتْ دمى كفى شرها مولاى فالفضل للواقى
وهذا على عهد الشباب فكيف لى بها بعــــد ماء للشبيبة مُهْرَاق ؟
تبصر فحكما القهوتين تخالفَا فكم بين إثبات لعقل و إزهاق
وشتان ما بين المــــدامة فاعتبر فكم بين إنجاح لسعى و إخفاق
فتلك تَهَادَى بين ظلم وظلمة وهذى تهادى بين عدل و إشراق
أيا عَلَمَ الإحسان غير منازع شهادة إجماع عليها و إصفاق[٣]
فضائلك الحسنى علىَّ تواترت بمنهمر من سُحْب فكرك غَيْدَاق[٤]
خزائن آداب بعثت بدُرِّها إلىَّ ولم تمنن بخشيه إنفــــاق
ولا مثل بكر حرة عربية زكية أخلاق كريمة أعراق
فأقسم ما البيضُ الحسانُ تبرجت تناجيك سرا بين وَحْى و إطراق
بدور بدت من أفق أطواقها على رياض شَدَتْ فى قطبها ذاتُ أطواق[٥]
فناظر منها الأقحوان ثغورها وقابل منها نرجس سحر أحداق

---

(١) السلاف — بضم السين — الخمر ، و « قام على ساق » كناية عن التشمير فى الأمر والعناية به
(٢) أخلق الثوب : بلى ورث
(٣) الإصفاق : الإجماع
(٤) غيداق : كثير الانهمال
(٥) ذات أطواق : هى الحمامة

وناسب منها الورد خداً موردا سقاه الشباب النَّضْر بُورِكَ من ساق
وألبسن من صنعاء وَشْيًا منمنما وخُلِّين من در نفائسَ أعلاق
بأحلى لأفواه وأبهى لأعين وأحيي لألباب وأشهى لعشاق
رأيت بها شهب السماء تنزلت إلىّ تحييني تحية مشتاق
ألا إن هذا السحر لا سحر بابل فقد سحرت قلبى المعنَّى فمَنْ رَاقِ
لقد أعجزت شكرى فضائلُ ماجدٍ أبر بأحباب وأوفى بميثاق
تقاضى ديون الشعر منى منبها رويدك لا تعجل على بإرهاق
فلو نشر الصادان من مَلْحَدَيْهما لإنصاف هذا الدَّيْنِ لاذا بإملاق(1)
فخذ بزمام الرفق شيخا تقاصرت خطاه وعاهده بمعهود إشفاق
فلا زلت تحيي للمكارم رسمها وقدرك فى أهل العلا والنهى راق

قال : وكتبت إليه فى غرض العتاب قصيدة. أولها :

أدَرْنَا وضوء الأفق قد صدع الفضا مدامة عتب بيننا نَقْلُها الرضا
فلله عينا مَنْ رآنا وللحيا جنى بآفاق البشاشة أومضا
نفر إلى عدل الزمان الذى أتى ونبرأ من جور الزمان الذى مضى
ونأسو كلوم اللغط باللفظ عاجلا كذا قَدَحُ الصهباء داوى وأمرضا(2)

فراجعنى عنها بهذه القصيدة :

ألا حبذا ذاك العتاب الذى مضى وإن جره واشٍ بزُورٍ تمضمضا
أغارت له خيل فما ذَعَرَتْ حمى ولكنها كانت طلائع للرضا
تألق منه بارق صابَ مُزْنُهُ على معهد الحب الصميم فروّضا
تلألأ نورا للصداقة حافظا وإن ظن سيفا للقطيعة مُنْتَضَى

---

(1) لعله يريد بالصادين الصابى والصاحب ، وهما من مشاهير الكتاب فى العصر العباسى (2) نأسو : نعالج ونداوى

فإن سوّد الشيطان منه صحيفة … أتى مَلَكُ الرُّحْمَى عليها فبيضا

وما كان حب أحكم الصدق عهده … ليرمى بوَسْواس الوشاة فيرفضا

أعيذ ودادا زاكى القصد وافيا … تخلص من أدرانه فتمحضا(١)

ونية صدق فى رضا الله أخلصت … سناها بآفاق البسيطة قد أضا(٢)

من الآفك الساعى ليخفىَ نورها … أيخفى شعاع الشمس قد ملأ الفضا ؟

وكيف يحل المبطلون بإفكهم … معاقد حب أحكمتها يد القضا

تعرض يبغى هدمها فكأنه … لتشييد مبناها الوثيق تعرّضا

وحرض فى تنفيره فكأنما … على البر والتسكين والحبِّ حرّضا

وأوقد نارا فهو يَصْلَى جحيمها … يقلب منها القلب فى موقد الْغَضَى(٣)

أيا واحدى المعدود بالألف وحده … ويا ولدى البر الزكى إنِ ارتضى

بعثت من الدر النفيس قلائدا … على ما ارتضى حكم المحبة واقتضى

نتيجة آداب وطبع مهذب … أطال مَدَاه فى البيان وأعرضا

ولا مثل بكر باكرتنىَ آنفا … كزورة خِلٍّ بعد ما كان أعرضا

هى الروضة الغناء أينع زهرها … تناظر حسنا مذهبا ومفضضا

أو الغادة الحسناء راقت فينقضى … مدى العمر فى وَصْفى لها وهو ما انقضى

تطابق منها شَعْرها وجبينها … فذا الليل مسودا وذا الصبحُ أبيضا

أو الشهب منها زينة وهداية … ورَجْم لشيطان إذا هو قُيِّضَا(٤)

أتت ببديع الشعر طورا مصرحا … بآياتك الحسنى ، وطورا معرضا

ومَهَّدَتِ الأعذار دون جناية … ولو أنك الجانى لكنت المغمضا

لك الله من بروفىّ وصاحب … محضت له صدق الضمير فأمحضا

---

(١) تمحض الشيء : تخلص من كل شائبة

(٢) أضا : أراد أضاء ، أى أنار

(٣) الغضى . شجر شديد الاشتعال

(٤) قيض : تهيأ

لسانك فى شكرى مفيض تفضلا فيا حُسْنَ ما أهدى وأسدى وأقرضا
وقلبك فاضت فيه أنوار خلتى فألقى يَدَىْ تسليمه لى مفوّضا
وقصدك مشكور وعهدك ثابت وفضلك منشور وفعلك مُرْتَضَى
فهل مع هـذا ريبة فى مودة بحال ؟ وإن رابت فما أنا معرضا
فثِقْ بولائى إننى لك مخلص هوى ثابتا يبقى فليس له انْقِضَا
عليك سلام الله ما هبت الصبا وما بارق جنح الدجنة أومضا

وقال لسان الدين : من غريب ما خاطبنى به قوله :

أقسم بالقيسين والنابغتين وشاعرى طيء المولدين[1]
وبابن حجر وزهير وابنـه والأعشيين بعدُ ثم الأعميين[2]
ثم بعشاق الثريا والرقيـات وعزة ومَيٍّ وبثين[3]
وبأبى الشيص ودعبل ومن كشاعرى خُزَامة المخضرمين
وولد المعتز والرضىّ والسرى ثم حسن وابن الحسين
واختم بقس وبسحبان وإن أوجب حق أن يكونا أوّلين
وحَلْبَتَىْ نثرهم ونظمهم فى مشرقى أقطارهم والمغربين
إن الخطيب ابن الخطيب سابق بنثره ونظمه للحلبتين
راقتنى الصحيفة الحسنا التى شاهدت فيها المكرمات رأى عين
تجمع من براعة المعنى إلى براعة الألفاظ كلتا الحسنيين
أشهد أنك الذى سبقْتَ فى طريقَىِ الآداب أقصى الأمدين
شـعر حوى جزالة ورقة تصاغ منه حلة للشعريين
رسائل أزهارها منثورة سرور قلب ومتاع ناظرين

(١) النابغتين : النابغة الذبيانى ، والنابغة الجعدى ، وشاعرى طيء : أبو تمام والبحترى (٢) ابن حجر : امرؤ القيس

(٣) عاشق الثريات : عمر بن أبى ربيعة ، وعاشق الرقيات : قيس الرقيات بن شريح بن مالك ، وعاشق عزة كثير بن عبد الرحمن ، وعاشق مية : ذو الرمة غيلان بن عقبة ، وعاشق بثينة : جميل بن معمر العذرى

يا أحوذيًّا يانسيجَ وَحْدِهِ ... شهادة تنزهت عن قول مين[1]

بقيت فى مواهب الله التى ... تقر عينيك وتملأ اليدين

من سعيد بن محمد الغرناطى إلى لسان الدين

وحكى لسان الدين أن سعيد بن محمد الغرناطى الغسانى استعار منه كتابا ، فأرسله إليه ، وعلى ظهره هذه الأبيات :

هذا كتاب كله معجم ... أفحمنى معناه إفحاما

أعجمه منشئه أوّلا ... وزاده الناسخ إعجاما

أسقط من إجماله جملةً ... وزادَ فى التفصيل أقساما

وغير الألفاظ عن وضعها ... وصير الإيجاد إعداما

فليس فى إصلاحه حيلة ... ترجى ، ولوقو بل أعواما

ولم أقف على جواب لسان الدين له عنها ، والله تعالى أعلم .

وولد سعيد المذكور سنة ٦٩٩ .

بين أبى الحسن على بن البناء ولسان الدين

ومما خوطب به لسان الدين لما تقلد الكتابة العليا قولُ أبى الحسن على ابن محمد بن على بن البناء الوادى آشى رحمه الله تعالى :

هو العلاء جرى باليمن طائره ... فكان منك على الآمال ناصره

ولو جرى بك ممتدًّا إلى أمد ... لأعجز الشمس ما آبت عساكره

لقد حباه منيعَ العز خالقُه ... بفاضلٍ منك لا تحصى مآثره

فليزه فخرا فما خلق يعارضه ... ولا علاء مدى الدنيا يفاخره

لله أوصافك الحسنى لقد عجزت ... من كل ذى لَسَن عنها خواطره

هيهات ليس عجيبا عجز ذى لسن ... عن وصف بحر رمى بالدر زاخره

هل أنت إلا الخطيب بن الخطيب ومن ... زانت حِلَى الدين والدنيا مفاخره

---

(١) الأحوذى : الخفيف الحركة السريع إلى الحاجات ، ونسيج وحده : أى الذى لا نظير له ، والمين — بالفتح — الكذب

فإن يقصر عن الأوصاف ذو أدب فما بدا منك فى التقصير عاذره
يا ابن الكرام الألى ماشب طفلهمُ إلا والمجد قد شدت مآزره
مهلا عليك فما العلياءُ قافية ولا العلاء بسجع أنت ناثره
ولا المكارم طرسا أنت راقمه ولا المناقب طبا أنت ماهره
ماذا على سابق يَسْرى إلى سَنَن إن كان من رفقهِ خلٌّ يسايره
سِرْ حيث شئت من العلياء متئداً فما أمامك سباق تحاذره
أنت الإمام لأهل الفخر إن فخروا أنت الجواد الذى عزت أوافره
ما بعد ما حُزْتَه من عزة وعُلاً شأو يطارد فيه المجد كابره
نادت بك الدولة النصرى محتدها نداء مستفنجد أزرا يوازره
حَلَّيتها برداء البر مرتديا وصبح يمنك فجر السعد سافره
فالملك يرفل فى أبراده مَرَحًا قد عمت الأرض إشراقا بشائره
فاهنأ بها نعمة ما إن يقوم لها من اللسان ببعض الحق شاكره
وليهنها أنها ألقت مقالدها إلى زكى زكت منه عناصره
فإنه بدر تم فى مطالعها قد طَبَّقَ الأرضَ بالأنوار نائره

وقال لسان الدين : وأهدى إلى قباقب خشب جوز وكتب معها :

هاكها ضمرا مطايا حسانا نشأت فى الرياض قُضْبا لِدَانا[1]
وثوت بين روضة وغدير مرضعات من النمير لبانا
لابسات من الظلال بروداً دونها القُضْبُ رقة وليانا
ثم لما أراد إكرامها الله وسَنَّى لها المنى والأمانا
قصدت بابك العلىَّ ابتداراً ورَجَتْ فى قبولك الإحسانا

---

(١) الضمر : جمع ضامر ، أصله الفرس إذا كان طاوي البطن ، جعل القباقب جيادا ، والقضب : جمع قضيب ، وهو الغصن ، وأصل القضب بضم القاف والضاد جميعا فسكن الضاد هنا للتخفيف ، واللدان : جمع لدن ، وهو الغض الطرى

قال : فأجبته :

قد قبلنا جيادك الدهم لما أن بلونا منها العتاق الحسانا
أقبلت خلف كل حجر تبيع خَلَعَتْ وصفها عليه عيانا
فعنينـا برعيها وفسحنا في ربوع العلا لها ميدانا
وأردنا امتطاءها فاتخذنا من شراك الأديم فيها عنانا
قدمت قبلها كتيبة سحر من كتاب سَبَتْ به الأذهانا
مثل ماتجنبُ الجيوشُ المذاكى عُدَّةً للقاء مهما كانا[1]
لم يرق مقلتى ولا راق قلبى كعلاها براعة وبيـانا
من يكن مُهْديا فمثلك يهدى لم أجد للثنا عليك لسانا

وقال لسان الدين : ومن أبدع ما هز به إلى إقامة سوقه ، ورعى حقوقه ، قوله :

يامعدن الفضل موروثا ومكتسبا وكل مجد إلى عليائه انتسبا
بباب مجدكم الأسمى أخو أدب مستصرخ بكم يستنجد الأدبا
ذل الزمان له طورا فبلغه من بعض آماله فوق الذى طلبا
والآن أركبه من كل نائبة صَعْبَ الأعنة لا يألو به نصبا
فحملته دواعى حبكم وكفى بذاك شافع صدق يبلغ الأربا
فهل سرى نسمة من جاهكم فبها خليفة الله فينا يمطر الذهبا

ترجمة أبى الحسن ابن البناء

وقال لسان الدين فى « الإكليـل » فى حق المذكور ما صورته : فاضل يروقك وقاره ، وصقر بَعُدَ مطاره ، قدم من بلده يروم اللحاق بكتاب الإنشاء وتوسل بنظم أنيق ، ونسيب فى نسب الإجادة عريق ، تُعْرب براعته عن لسان ذليق ، وطبع طليق ، وذكاء بالأثرة خليق ، وبينما هو يُلحم فى ذلك الغرض ويُسْدِى ، ويعيد

---

(١) تجنب : تجعلها إلى جانب دوابها التى تركبها لتستريح إليها إذا أعيت دوابها والمذاكى : الخيل الجياد ، واحدها مذك ، وقالوا : « جرى المذكيات غلاب »

ويبدى ، وقد كادت وسائله أن تنجح ، وليل رجائه أن يصبح ، اغتاله الحمام ، وخانته الأيام ، والبقاء لله تعالى والدوام ، توفى بالطاعون فى عام واحد وخمسين وسبعمائة وسنة دون الثلاثين ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

من لسان الدين إلى سلطان تونس

ولما خوطب لسان الدين من سلطان تونس بما لم يحضرنى الآن أجاب عنه بما نصه : المقام الإمامى الإبراهيمى المولوى المستنصرى الحفصى ، الذى كَرُمَ فرعا وأصلا ، وشرف جنسا وفصلا ، وتملّى فى رعاية المجد ، من لَدُن المَهْد ، كرما وخصلا ، وصَرَفت متجردة الأقلام ، إلى مَثَابة خلافته المنصورة الأعلام ، وُجُوهَ عبارة الكلام ، فاتخذ من مقام إبراهيم مُصَلَّى ، مقامُ مولانا أمير المؤمنين الخليفة الإمام أبى إسحاق ابن مولانا أبى يحيى أبى بكر ابن الخلفاء الراشدين ، أبقاه الله تعالى تهوى إليه الأفئدة كلما انتشت بذكره ! وتتنافس الألسنة فى إحراز غاية حمده وشكره ! وتتكفل الأقدار بإنفاذ نهيه وأمره ! وتغرى عواملَ عواملِه[1] بحذف زيد عدوّه وعَمْرِه ! ويتبرع أسمر الليل وأبيض النهار بإعمال بِيضِهِ وسُمْره ! ولا زال حُسَامه الماضى يغنى يومُه فى النصر عن شهره ، والروض يحييه بمباسم زهره ، ويرفع رُقَع إليه الحمد بيننان قضبه الناشئة من مِعْصَم نهره ، وولى الدنيا والآخرة يمتعنا بهما بعد الإعانة على مَهْرِه ، يُقَبِّلُ بساطه المعوَّدَ الاستلام بصفحات الخدود ، الرافع عماده ظلُّ العدل الممدود ، عبدُ مقامه المحمود ، ووارِدُ غَمْر إنعامه غير المنزور ولا المثمود ، المثنى على نعمه العميمة ، ومنحه الجسيمة ، ثناء الروض المَجُود ، على العُهُود ، ابنُ الخطيب ، من باب المولى الموجب حقه ، المتأكد الفروض ، الثابت العهود ، المعتدّ منه بالود الجامع الرسوم والحدود ، والفضل المتوارث عن الآباء والجدود ، يسلم على مَثَابتها سلامَ متلو على مثلها إن وجد المثل فى الثانى ،

---

(١) عوامل الأولى : جمع عامل بمعنى صاحب العمل ، وكأنه مال به إلى معنى العامل عند النحاة ، وعوامل الثانية : جمع عامل بمعنى صدر الرمح .

ويعوّذ كمالها بالسبع المثانى ، ويدعو الله تعالى لسلطانها بتشييد المبانى ، وتيسير الأمانى ، ويُنْهِى إلى علوم تلك الخلافة الفاروقية المقدّسة بما يناسب التوحيد ، المستولية من مدارك الآمال على الأمد البعيد ، أن مخاطبتها المولوية تاهت على الملوك فارعة العلا ، مزعْفَرة الحلل والحلى ، ذهبية المجلى ، تفيد العز المكين ، والدنيا والدين ، وترعى فى الآباء والبنين ، على مر السنين ، صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قد حملت من مدحها الكريم ما أخفى للملوك من قرة عَيْن ، ودرة زين ، جبين الشرف الوضاح ، ومستوجب الحق على مثله من الخلق بالنسب الصُّرَاح ، والغرَر والأوضاح ، والأرَجِ الفوَّاح ، فاقتنى دره النفيس ، ووجد المروع فى جانب الخلافة التنفيس ، وقراه لما قراه التعظيم والتقديس ، وقال يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم وإن لم يكن بلقيس[1] ، أعلى الله تعالى تلك اليد مُطوّقة الأيادى ، ومخجلة الغمائم والغوَادى ، وأبقاها عامرة النوادى ، غالبة الأعادى ، وجعل سيفها السفاح ورأيها الرشيد وعَلَمها الهادى ، ووصل ما ألطف به رعيها من أشتات بر بلغت ، وموارد فضل سوّغت ، أمدتها سعادة المولى بمدد لم يضر معه البحر الهائل ، ولا العدوّ الغائل ، وأقام أوَدَهَا عند الشدائد الفلك المائل ، لا بل الملك الذى له إلى الله الوسائل ، وحسب الجفن رسالتكم الكريمة لحظا فصان وأكرم ، وعُوذَةً فتعوّذبها وتحـــرم ، وتولى المملوك تنفيق عروضها بانشراح صدره ، وعلى قدره ، فوقعت الموقع الذى لم يقعه سواها ، فأما الخيل فأكرم مثواها ، وجعلت جنان الصون مأواها ، ولو كسيت الربيع المزهر حللا ، وأوردت فى نهر المجرة عَلاًّ ونَهَلا ، وقلدت النجوم العواتم صحلا ، ومسحت أعطافها بمنديل

(١) بلقيس : ملكة سبأ فى عهد سليمان بن داود ، عليهما السلام ! وكان سليمان قد أرسل إليها خطابا يأمرها فيه بالإذعان والتسليم ، فلماوقع لها هذا الكتاب جمعت أهل المشورة من قومها وقالت لهم : (إنى ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) وقد قص الله تعالى شأنها فى القرآن الكريم فى سورة النمل .

النسيم ، وألحفت بأردية الصباح الوسيم ، وافترشت لمرابطها الحشايا ، وانضمت حبات القلوب بالعشايا ، لـكان بعض ما يجب ، لحقها الذى لا يجحد ولا يحتجب ، وما عداها من الرقيق والقيان ، رُعَاة ذلك الفريق تكفله الاستحسان ، وأطنب الاعتقاد وإن قصر اللسان ، تولى الله تعالى تلك الخلافة بالشكر الذى يُحْسِبُ العطاء ، والحفظ الذى يُسْبل الغِطاء ، والصنع الذى ييسر من مطا الأمل الامتطاء ، وأما ما يختص بالمملوك فقد خصه بقبوله تبركا بتلك المقاصد التى سددها الدين ، وعددها الفضل المبين ، وأنشد الخلافة التى راق من مجدها الجبين :

قلدتَنِي بفرائد أخرجتهـــا ... من بحر جودك وهو ملتطم الثَّبَجْ
ورعيت نسبتها فإن سبيكة ... ممـــا يلائم لونها قطع السبج

والمملوك بهذا الباب النصرى أعزه الله تعالى على قدم خدمة ، وقائم بشكر منة لكم ونعمة ، وحاضر فى جملة الأولياء بدعائه وحُبِّه ، ومتوسل فى دوام بقاء أيامكم ونصر أعلامكم إلى ربه ، وإن بَعُدَ بجسمه فلم يبعد بقلبه ، والسلام الـكريم ، الطيب البر العميم ، يخصها دائما متصلا ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

من ابن البرزى إلى لسان الدين

ومما خوطب به لسان الدين قول أبى الحسن على بن يحيى الفزارى المالقى المعروف بابن البرزى ، وكان ممن يمدح الملوك والـكبراء :

لِبَابِك أمَّ الآملون ويمموا ... وفى ساحتى رحماك حطوا وخيموا
ومن راحتَىْ كفيك جدواك تنهمى ... فتروى عطاش من نداك وتنعم
وأنت لما راموه كعبة حجهم ... إذا شاهدوا مرآك لَبَّوْا وأحرموا
يطوفون سبعا حول بابك عندما ... يلوح لهم ذاك المقام المعظم
فيُمْنَاكَ يمن للرعايا ومنـــة ... ويسراك يسر للعفـــاة ومغنم (١)
ولقياك بشر للنفوس وجنـــة ... ترنُّ بهـــا وُرْقُ المنى وتَرَنَّم (٢)

(١) العفاة ، جمع عاف ، وهو طالب المعروف .
(٢) ترن : أراد تغنى ، والورق : جمع ورقاء ، وأراد بها الحمامة .

فياواحد الأزمان علما ومنصبا ... ويا من به الدنيا تروق وتبسم
ومَنْ وجهه كالبدر يشرق نوره ... ومن جوده كالغيث بل هو أكرم
ومن ذكره كالمسك فُضَّ ختامه ... وكالشمس نوراً بشرُه المتوسَّمُ
لقد حُزْتَ فضل السبق غير منازع ... فأنت على أهل السباق مقدم
حويت من العلياء كل كريمة ... بها الروض يَنْدَى والربا تتبسم
وباهَيْتَ أقلام الفئام براعة ... فـلا قلم إلا يراعَكَ يخدم
إذا فاخر الأمجاد يوما فإنما ... لمجدك فى حفل الفخار يسلم
وإن سكتوا كنت البليغ لديهمُ ... تعبر عن سر العلا وتترجم

ومنها :

فيا صاحبى نجواى عُوجَا برامة ... على ربعه حيث الندى والتكرم(١)
وقولا له عبدٌ ببابك يرتجى ... قضاء لُبانات لديك تتمم(٢)
فليس له إلا عُلاكَ وسيلة ... ولا شىء أسمى من علاك وأعظم
فجد بالذى يرجوه منك فما له ... كعقد ثمين من ثنائك ينظم
بقيت ونجمُ السعد عندك طالع ... يضىء له بدر وتشرق أنجم

توفى المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة ، انتهى .

من قاسم بن محمد الحرالى ، إلى لسان الدين

ومما خوطب به قولُ أبى القاسم قاسم بن محمد الحرالى المالقى القاضى بانتقيرة قبل وفاته :

عليك قصرت المدح يا خير ماجد ... وأفْضَلَ موصوف بكل المحامد
ويا كهف ملهوف وملجأ خائف ... ومورد جود قد كفى كل وارد(٣)
لقد شُهِرت بالمجد منك شمائل ... محاسنها أزكى وأعدل شاهد

(١) عوجا : ميلا (٢) اللبانات : الحاجات ، وهى بضم اللام

(٢) كهف ملهوف : أراد أنه يلجأ إليه ويعوذ بجنابه .

وكل الذى يبدو من الفضل بعض ما حُبيت به ، أَعْظِمْ بها من مشاهد[1]
إذا أملت منك المكارم ألفيتْ تنادى هلموا فزتُم بالمساعد
عطاؤكم جزْل فمن أمَّلَ الغنى فمثلكم يبغى فيا سعد قاصد[2]
وراثة مجد كابرا بعد كابر وأصل زكى الفرع عذب الموارد

ترجمة أبى القاسم الحرالى

وتوفى المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة ، وفى حقه يقول فى « الإكليل » : مشمر فى الطلب عن ساق ، مُثابر على اللحاق ، بدرجات الحذاق ، منتحل للعربية ، جاد فى إحصاء خلافها ، ومُعاطاة سُلافها ، وربما شرست فى المذاكرة أخلاقه ، إذا بُهرِجت أعلاقه ، ونوزع تمسكه بالحجة واعتلاقه .

وقال لسان الدين فى ترجمة شعر المذكور : إنه ضعيف مهزول ، انتهى .

من أبى الحجاج الجذامى

ومما خوطب به قول أبى الحجاج يوسف بن موسى الجذامى المنتشافرى من أهل رُنْدَة ، ونصه :

حَبَاكَ فؤادى نيل بشرى وأحياكا وحيدٌ بآدابٍ نفائسَ حيا كا
بدائع أبداها بديعُ زمانه فطاب بها ياعاطر الروض ريَّا كا
أُهديها أودعت قلبى علاقة وإن لم يزل مُغرًى قديما بعليا كا
إذا ما أشار العصر نحو فريده فإياك يعنى بالإشارة إيا كا
لأتحفنى لقياك أسنى مؤملى وهل تُحْفَة فى الدهر إلا بلقيا كا
وأعقبت إتحافى فرائدك التى وجوب ثناها يالسانىَ أعيا كا

ووصل هذا النظم بنثر صورته : خصصتنى أيها المخصوص بمآثرَ أعيا عَدُّها وحَصْرُها ، ومكارم طَيِّبَ أرواحَ الأزاهرِ عِطْرُها ، وسارت الركبان بثنائها ، وشملت الخواطر محبة علائها ، بفرائدك الأنيقة ، وفوائدك المزرية جمالا على أزهار الحديقة ،

---

(١) يبدو : يظهر ، وحبيت — بالبناء للمجهول — منحت

(٢) جزل : كثير عظيم ، ويبغى : يقصد

ومعارفك التى زكت حقا وحقيقة ، وهَدَت الضالَّ عن سبيل الأدب مَهْيَعه وطريقه ، وسبق تحفتك أعلى التحف عندى وهو مأمول لقائك ، والتمتع بالتماح سَناك الباهر وسنائك ، على حين امتدت لذلكم اللقاء أشواقى ، وعظم من فوت استنارتى بنور محياك إشفاقى ، وتردد لَهَجى بما يبلغنى من معاليك ومعانيك ، وما شاده فكرك الوقاد من مبانيك ، وما أهلت به بلاغتك من دارسه ، وما أضفيت على الزمان من رائق ملابسه ، وما جمعت من أشتاته ، وأحييت من أمواته ، وأيقظت من سِناته ، وما جاد به الزمان من حَسَنَاته ، فلترداد هذه المحاسن من أنبائك ، وتصرف الألسنة بثنائك ، علقت النفسُ من هواها بأشد عَلاقة ، وجنحت إلى لقائك جنوحَ والهة مشتاقة ، والحوادث الجارية تَصْرِفُها ، والعوائق الحادثة كلما عطفت أملها إليه لا تتحفها به ولا تَعْطِفها ، إلى أن ساعد الوقت ، وأسعد البخت ، بلقائكم فى هذه السفرة الجهادية ، وجاد إسعاف الإسعاد من أمنيتى بأسنى هدية ، فلقيتكم لُقْيَا خَجَل ، ولمحت أنواركم لمحة على وَجَل ، ومحبتى فى محاسنكم الرائقة ، ومعاليكم الفائقة ، على ما يعلمه ربنا عز وجل ، وتذكرت عند لقائكم المأمول ، إنشاء قائل يقول[1] :

كانت مساءلَة الركبان تخبر عن محمد بن خطيب أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

قسم لعمرى أقوله وأعتقده ، وأعتده وأعتمده ، فلقد بهرت منك المحاسن ، وفُقْتَ من يُحَاسن ، وقَصَّر عن شأوك[2] كل بلغ لَسِن ، وسبقَتْ فطنتك النارية النورية بلاغة كل فَطِن ، وشهد لك الزمان أنك وَحيدُه ، ورئيس عصبته الأدبية وفريده ، فبورك لك فيما أنلت من الفضائل ، وأوتيت من آيات المعارف التى بها نور الغزالة

---

(١) البيتان لابن هانى فى جعفر بن فلاح ، وقد غير فى عجز ثانيهما

(٢) الشأو : الغاية والأمد ، يريد أنه لا يلحقه ولا يباريه أحد .

ضائل ، ولا زلت ترقى فى مراتب المعالى ، مُوَقًّى صروف الأيام والليالى ، انتهى

من لسان الدين إلى أبى الحجاج المنتشاقرى

وهذا الخطاب جواب من المذكور لكلام خاطبه به لسان الدين نصه :

حمدت على فرط المشقة رحلة ... أتاحت لعينىّ اجتلاء محيا كا

وقد كنت بالتذكار فى البعد قانعا ... وبالريح أن هبت بعاطر ريا كا

فحلَّتْ لى النعمى بما أنعمت به ... علىَّ فحياهـــا الإله وحيا كا

أيها الصدر الذى بمخاطبته يُباهى ويتشرف ، والعلَم الذى بالإضافة إليه يتعرف ، والروضُ الذى لم يزل على البعد بأزهاره الغضة يُتْحِف ، دمت تتزاحم على موارد ثنائك الألسن ، ويَرْوِى الرواة من أنبائك ما يصح ويَحْسُن ، طالما مالت إليك النفوسُ منا وجَنَحَتْ ، وزجرت الطائر الميمون من رقاعك كلَّما سَنَحَتْ ، فالآن اتضح البيان ، وصدّق الأثر العِيان ، ولقد كنا للمقام بهذه الرحال نرتمض ، ويجنُّ الظلام فلا نغتمض ، هذا يقلقه إصفار كيسه ، وهذا يتوجع لبعد أنيسه ، وهذا تروعه الأهوال ، وتضجره بتقلباتها الأحوال ، فمن أنة لا تنفع ، وشكوى إلى الله تعالى ترفع ، فلما ورد بقدومك البشير ، وأشار إلى ثَنِيِّة[1] طلوعك المشير ، تشوفت[2] النفوس الصَّدِية[3] إلى جلائها وصِقالها ، والعقول إلى حل عِقالها[4] ، والأنفس المُفْحَمة إلى فصل مَقالها ، ثم إن الداهر راجَع التفاته ، واستدرك ما فاته ، فلم يسمح من لقائك إلا بلمحة ، ولا بعث من نسيم روضك بغير نفحة ، فما زاد أن هيج الأشواق فالتهبت ، وشَنَّ غاراتها على الجوانح فانتهبت ، وأعلَّ القلوب وأمرضها ، ورمى ثغرة الصبر فأصاب غرَضَها ، فإن رأيت أن تنفِّس عن نفسٍ شد الشوق مُخَنَّقَها ، وكدر مشاربَ أنسها وأذهب رَوْنَقَها ، وتتحف من آدابك بدرر تقتنى ، وروضة طيبة الجَنَى ، فليست ببدع فى شيمك ، ولا شاذة فى باب كرمك ، ولولا شاغل

(١) أصل الثنية المكان الصاعد فى جبل (٢) تشوفت : تطلعت

(٣) الصدية : العطشى (٤) العقال — بكسر أوله — أصله ما تربط به الدابة

لا يبرح ، وعوائق أكثرها لا يشرح ، لنافسْتُ هذه السَّحاءة[١] فى القدوم عليك ، والمثول بين يديك ، فتشوُّقى إلى اجتلاء أنوارك شديد ، وتَشَيُّعى إلى إبلاء الزمان جديد ، انتهى .

ترجمة أبى الحجاج الجذامى

ووصف لسان الدين فى « التاج المحلى » أبا الحجاج المذكور بما صورته : حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتوبة الزمان الجمّ الذنوب ، ما شئت من أدب يتألق ، وفضل تتعطر به النسمات وتتخلق ، ونفس كريمة الشمائل والضرائب ، وقريحة يقذف بَحْرُها بدرر الغرائب[٢] ، إلى خشية لله تعالى تحول بين القلوب وقرارها ، وتَثْنِى النفوس عن اغترارها ، ولسان يبوح بأشواقه ، وجفن يسخو بدرر آماقه ، وحرص على لقاء كل ذى علم وأدب ، ومن يَمُتُّ إلى أهل الديانة والعبادة بسبب ، سبق بقُطْره الحَلْبة ، وفرع[٣] من الأدب الهضبة ، ورفع الراية ، و بلغ فى الإحسان الغاية ، فطارت قصائده كل المطار ، وتغنى بها راكب الفلك وحادى القطار ، وتقلد خُطَّة القضاء ببلده ، وانتهت إليه رياسة الأحكام بين أهله وولده ، فوضحت المذاهبُ بفضل مذهبه وحسن مقصده ، وله شيمة فى الوفاء تعلم منها الأس ، ومؤانسة عذبة لا تستطيعها الأكؤس ، وقد أثبتُّ من كلامه ما تتحلى به مراتب المهارق ، ويجعل طيبه فوق المفارق ، وكنت أتشوق إلى لقائه ، فلقيته بالمحلة من جبل الفتح لقيا لم تبل صدًى ، ولا شَفَتْ كمدًا ، وتعذر بعد ذلك لقاؤه ، فخاطبته بهذه الرقعة .

* حمدت على فرط المشقة رحلة *

فذكر لسان الدين ما قدمنا إلى آخره .

وقد أورد جملة من مطولاته وغيرها ومؤلفاته ، ولنلخص بعض ذلك فنقول :

ومن شعر أبى الحجاج المذكور يمدح الجهة الكريمة النبوية ، مُصَدِّراً بالنسيب لبسط الخواطر النفسانية قوله :

---

(١) السحاءة ــ بزنة السحابة ــ أراد بها الورقة التى كتب فيها

(٢) الغرائب : جمع غريبة ، وأراد بها هنا التى لا يعرف لها نظير

(٣) فرع : أراد طلع وصعد ، والهضبة : الأرض المرتفعة

لما تناهى الصبُّ فى تشويقه درر الدموع اعتاضها بعقيقه
متلهف وفؤاده متلهب كيف البقا بعد احتدام حريقه(١)
متموِّج بحرُ الدموع بخده أنَّى خلاصٌ يرتجى لغريقه
متجرع صاب النوى من هاجر ما إن يحن لِلاَعجاتِ مشوقِهِ
يسبى الخواطرَ حسنُه ببديعه يُصْبى النفوسَ جماله بأنيقه
قَيْدُ النواظر إذ يلوح لرامق لا تنثنى الأحداق عن تحديقه
للبدر لَمْحته كبشر ضيائه للمسك نَفْحته كنشر فتيقه(٢)
سكرت خواطر لامحيهِ كأنهم شربوا من الصهباء كأس رحيقه(٣)
عطشوا لثغر لا سبيل لريقه إلا كلمحهمُ المع بريقه
ماضر مولًى عاشقوه عبيدُه لو رقَّ إشفاقا لحال رقيقه
عنه اصطبارى ما أنا بمطيعه مثلُ السلوّ ولا أنا بمطيقه
سَجْعُ الحمام يَشُوق ترجيع الهوى فأثار شجو مشوقه بمَشُوقه
وبكت هديلاً راعها تفريقه ويحق أن يبكى أخو تفريقه
وبكاء أمثالى أحقُّ لأننى لم أقض للمولى أكيد حقوقه
وغَفَلْت فى زمن الشباب المنقضى أقْبحْ بنسخ بروره بعقوقه
وبدا المشيبُ وفيه زجر ذوى النهى لو كنت مزدجرا لشيم بروقه(٤)
حسبى ندامة آسف مما جنى يصلُ النشيجَ لوزره بشهيقه
ويروم ماخرم الهوى زمن الصبا ويروم من مولاه رَتْقَ فتوقه
ويردِّد الشكوى لديه تذللا عَلَّ الرضا يحييه درك لحوقه
فيصح من سكر التصابى سكره نسخا لحكم صَبوحه وغَبوقه

(١) احتدام : التهاب واشتعال
(٢) اللمحة : النظرة . ويلوح : يظهر ، والنفحة : الريح ، والنشر – بالفتح – طيب الرائحة ، والفتيق : المسك تستخرج رائحته بضم شىء إليه
(٣) الرحيق : الخمر (٤) شيم : مصدر « شام البرق » إذا نظر أين يقع مطره

لو كنت يممت التُّقَى وصحبته وسلكت إيثارا سَوَاءَ طريقِهِ[1]
لأفدت منه فوائدا وفوائد عرضت تُسَام لرائج فى سوقه
لله أرباب القلوب فإنهم من حزب مَنْ نال الرضا وفريقِهِ
قاموا وقد نام الأنام فنورهم هتك الدجى بضيائه وشروقه
وتأنسوا بحبيبهم فلهم به بشر لصدق الفضل فى تحقيقه
قَصَّرْتُ عنهم عندما سبقوا المدى ولسابق فضلٌ على مسبوقه
لولا رجاء تَلَمُّحٍ من نورهم يحيي الفؤاد بسيره وطروقه
وتأرج يستاف من أرواحهم سبب انتعاش الروح طيب خَلُوقِهِ[2]
لعنيت من جَرًّا جَرَائِرِىَ التى من خوفها قلبى حليف خفوقه
ومعى رجاء توسُّلٍ أعددته ذخراً لصدمات الزمان وضيقه
حبى ومدحى أحمد الهادى الذى فوز الأنام يصح فى تصديقه
أسمى الورى فى منصب وبمنسب من هاشمٍ زاكى النِّجار عريقه
الحق أظهره عقيبَ خفائه والدين نظمه لدى تفريقه
ونفى هداه ضلالة من جائر مستوثق بيَغُوثه ويَعُوقه
سبحان مرسله إلينا رحمةً يَهْدِى ويُهْدِى الفضل من توفيقه
والمعجزات بدت بصدق رسوله وحقيقهِ بالمأثرات خليقه
كالظَّبى فى تكليمه والجذع فى تحنينه والبدر فى تشقيقه
والنار إذ خمدت بنور ولادة وأجاج ماء قد حلا من ريقه
والزاد قَلَّ فزاد من بركاته فكفى الجيوش بتَمْره وسَوِيقه
ونبوع ماء الكف من آياته وسلام أحجار بدت بطريقه

(١) يممت : قصدت ، وسواء الطريق : نهجه المستقيم
(٢) الخلوق ـ بفتح الخاء ـ الطيب

والنخل لما أن دعاه مشى له ذا سرعة بعذوقه وعروقه
والأرض عاينها وقدزُوِيت له فقريب ما فيها رأى كسحيقهِ (١)
وكذا ذراع الشاة قد نطقت له نطق اللسان فصيحه وذليقه
ورمى عداه بكف حصبا فانثنت هربا كمذعور الجنان فَروقه (٢)
وعليه آيات الكتاب تنزلت تتلى بعلو جنابه وبسوقه (٣)
وأذيق من كأس المحبة صرفها سبحان ساقيه بها ومذيقه
حاز السناء وناله بعروجه جاز السماء طباقها بخروقه
ولكم له من آية من ربه وعناية ورعاية بحقوقه
يا خيرة الأرسال عند إلهه يا محرز العليا على مخلوقه
عَلَّقتُ آمالى بجاهك عدة والقصد ليس يخيب فى تعليقه
وعَلِقتَ من حبل اعتمادى عمدة لتمسكى بقويّهِ ووثيقه (٤)
ولئن غدوت أخِيذَ ذنبى إننى أرجو بقصدك أن أرى كطليقه
وكساد سوقى مذ لجأت لبابكم يقضى حصول نفوذه ونفوقه
ويحنُّ قلبى وهو فى تغريبه لمزاره لرُباك فى تشريقه
وتزيد لوعته متى حَثَّ السرى حاد حدا بجماله وبنُوقِهِ
وأرى قشيب العمر أمسى باليا ومرور دهرى جد فى تمزيقه
وأخاف أن أقضى ولم أقض المنى بنفوذ سَهْم منيتى ومُروقه
فمتى أحطُّ على اللوى رحلى وقد بلغت ركابى لِلْحِمَى وعقيقه
وأمرغ الخدين فى ترب غدا كالمسك فى أرج شذا منشوقه
وأعيد إنشائى وإنشادى الثنا ببديع نظم قريحتى ورقيقه

---

(١) السحيق : البعيد (٢) الفروق ، والفروقة : الجبان الشديد الذعر
(٣) بسق بسوقا : ارتفع (٤) الوثيق : المحكم

حَتَّى أميل العاشقين تطربا ... كالغصن مَرَّ صَبًا على ممشوقِهِ
وتحيــة التسليم أبْلَغ شافعٍ ... وثَنَا المديح حديثِهِ وعتيقِهِ[1]
ولذى الفخار وذى الحلى ووزيره ... صِدِّيقه وأخى الهدى فاروقه
منى السلام عليهم كالزُّهْر فى ... تأليفها والزَّهْرِ فى تأنيقــه

وقال :

هواكم بقلبى ما لأحكامه نسخ ... ومن أجله جفنى بمدمعه يسخو
ومن نشأتى ما إن صَحَتْ منه نَشْوتى ... سواء به عصر المشيب أو الشَّرْخ[2]
عليه حياتى مذ تمادت وميتتى ... وبعثى إذا بالصور يتفق النفخ
ولى خَلَدَ أضحى يبيض غرامه ... ولا شَرَكَ يدنى إليــه ولا فخ
قتلت سلوّى حين أحييت لوعتى ... وما اجتيح بالإقرار فى حالتى لطخ
وأغدو إلى سعدى بكرخ علاقتى ... وقصدى قصدى ليس سعدى ولا الكرخ
وناصح كتمى إذ زكت بَيِّناته ... يجول عليه من دموع الأسى نضخ
وأرجو بتحقيقى هواكم بأن أفى ... فعهد ولا نقض وعقد ولا فسخ
وما الحب إلا ما استقل ثبوته ... لمبناه رص فى الجوانح أو رسخ
إذا مسلك لم يستقم بطريقه ... سلكت اعتدالاً مثل مايسلك الرخ
بدا لضميرى من سناكم تلمح ... فبخٍّ لعقل لم يطر عنــدها بخ
على عود ذاك اللمح ما زلت نادبا ... كما تندب الورقاء فارَقَهَا الفرخ
يدى بأياديكم وقلبىَ شاغل ... فمن فكرتى نسج ومن أنملى نسخ

وقال :

إليك تحنّ النُّجبُ والنُّجَبَاء ... فهم وَهْىَ فى أشواقهم شركاء[3]
تخب بركَّاب تحب وصولها ... لأرض بهــا بادسَنًى وسناء

---

(١) العتيق ، هنا : القديم ، ضد الحديث .

(٢) شرخ الشباب : ميعته وقوته وفتاؤه .

(٣) النجب : أرادبها الإبل ،واحدها نجيب، والنجباء : أرادالأناسى ذوى النجابة

فأنفاسها ما إن ثنى صعداؤها ... وأنفسهم من فوقها سعداء
هُمُ عالجوا إذ عجل السير داءهم ... وأشباه مثلى مُدْنَفُونَ بِطاء (١)
فعدت ودونى للحبيب ترحلوا ... وما قاعد والراحلون سواء
له وعليه حب قلبى وأدمعى ... وقد صح لى حب وسَحَّ بكاء
بطيبة هل أرضى وتبدو سماؤها ... وإن تك أرضاً فالحبيب سماء
شذا نَفْحِها واللمح منها كأنه ... ذَكاء عبير والضياء ذُكاء (٢)
فيا حاد يا غنى وللركب حاديا ... عنانىَ بعد البعد عنك عناء
بسَلْع فسل عما أقاسى من الهوى ... وسل بقباء إذ يلوح قباء
وفى عالج مِنِّى بقلبىَ لاعج ... فهل لى علاج عنده وشفاء
وفى الرقمتين أرقم الشوق لادغ ... ودر يافه أن لو يُباح لقاء
أماكن تمكين وأرض بها الرضا ... وأرجاء فيها للمشوق رجاء

وقال :

أدبُ الفتى فى أن يرى متيقظاً ... لأوامر من ربه ونواهِ
فإذا تمسَّكَ بالهوى يهوى به ... والحبل منه لمن تيقن واهِ (٣)

وقال :

يا من بدنياه ظل فى لجج ... حقق بأن النجاة فى الشاطى
تطمع فى إرثك الفلاح وقد ... أضَعْتَ ما قبله مِنَ أشراط
كن حذراً فى الذى طمعت به ... من حجب نقص وحجب إسقاط

وقال :

ترى شعروا أنى غبطت نسيمة ... ذَكَتْ بتلاقى الروض غبَّ الغمائم

---

(١) مدنفون : مرضى ، واحدهم مدنف .
(٢) ذكاء عبير — بفتح الذال — انتشار الرائحة الطيبة ، وذكاء — بضم الذال — الشمس . (٣) واه : ضعيف ، وهى يهى وهيا : ضعف .

كما قابلت زهر الرياض وقبلت ثغور أقاحيه بـلا لوم لائم

وقال :

وَرَدَ المشيبُ مُبَيِّضاً بوروده ما كان من شعر الشبيبة حالـكا[١]

يا ليته لو كان بَيَّضَ بالتقى ما سوّدته مآثم من حالـكا[٢]

إن المشيب غـدا رداء للردى فإذا عَلاَك أجدّ فى ترحالـكا[٣]

وقال :

لوعة الحب فى فؤادى تعاصت أن تُداوى ولو أتى ألف راق

كيف يَبْرا من عـلة وعليها زائد عـلة النوى والفراق

فانسكابُ الدموع جارٍ فجار والتهاب الضلوع راقٍ فراقِ

ومن غرائب الاتفاق أنه قال : كنت جالسـاً بين يدى الخطيب أبى القاسم الشاكرونى صبيحة يوم بمسجد مالقة ، فقالى لنا فى أثناء حديثه : رأيت البارحة فى عالم النوم كأن أبا عبد الله الجليانى يأتينى ببيتى شعر فى يده ، وهما :

كلُّ علم يكون للمرء شُغْلاً بسوى الحق قادحٌ فى رشاده

فإذا كان فيـه لله حظ فهو ممـا يعدّه لمعاده

قال : فلم ينفصل المجلس حتى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد الله الجليانى ، والبيتان معه ، فعرضهما على الشيخ ، فأخبره أنه صنعهما البارحة ، فقال له كل من فى المجلس : أخبرنا بهما الشيخ قبل مجيئك ، فـكان هذا من العجائب .

ولأبى الحجاج المذكور تآليف ، منها كتاب « ملاذ المستعين ، فى بعض خصائص سيد المرسلين » أربعون حديثاً ، وكتاب « تخصيص القرب ، وتحصيل الأرب » و « قبول الرأى الرشيد ، فى تخميس الوتريات النبوية لابن رشيد » و « انتشاق

---

(١) الحالك هنا : الشديد السواد .

(٢) « حالـكا » هنا هو « حال » مضاف إلى كاف المخاطب .

(٣) الترحال : أحـد مصادر « رحل يرحل » وأراد به هنا الانتقال إلى العالم الآخر بالموت .

النسمات النجدية ، واتِّساق النزعات الجدية » و « غرر الأمانى المسفرات ، فى نظم المكفرات » و « النفحات الرندية ، واللمحات الزندية» مجموع شعره ، و «حقائق بركات المنام ، فى مرأى المصطفى خير الأنام » و « الاستشفاء بالعدة ، والاستشفاع بالعمدة ، فى تخميس البرده» و «توجع الرائى ، فى تنوّع المراثى » و«اعتلاق السائل ، بأفضل الوسائل » و « لمح البهيج ، ونفح الأريج » فى ترجيز كلام الشيخ أبى مدين من عبارات حكمية و إشارات صوفية ، وكتاب « تجريد رؤس مسائل البيان والتحصيل ، لتيسير البلوغ لمطالعتها والتوصيل » وفهرسة روايته ، ورجز ذكر مشايخ أبى عمر الطنجى ، وكتاب «أرج الأرجاء[1] ، فى مزج الخوف والرجاء» أربعون حديثاً فى الرجاء والخوف .

وكان رحمه الله تعالى حيا حين ألف لسان الدين «الإحاطة» رحم الله تعالى الجميع!

ورأيت على ظهر أوّل ورقة من « الريحانة» بخط الإمام الكبير الشهير الشيخ إبراهيم الباعونى الدمشقى رحمه الله تعالى ما نصه : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعونى — غفر الله ذنوبه ، وستر عيوبه ، و بلغه من فضله مطلوبه ! — صاحبُ كتاب الريحانة ، آية من آيات الله سبحانه ، لوجه أدبه طَلَاقه ، وللسانه ذَلَاقه ، وللقلوب به علاقه ، وفى خطه غلاقه ، يعرفها مَنْ عرف اصطلاحه بمطالعته ، و ينفتح له بابُ فهمها بتكرير مراجعته ، فليتأمل الناظر إليه ، والمقبل عليه، ما فيه من الجواهر، والنجوم الزواهر ، بل الآيات البواهر ، وليسبح الله تعالى تعجبا من قدرته جل وعلا ، ومواهبه التى عذب ماؤها النَّمِيرُ وحَلا ، وليقل عند تأمل دره النظيم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، اهـ .

وقوله رحمه الله تعالى « وفى خطه غلاقة » ليس المراد به إلا صعوبة الخط

---

(١) الأرج — بفتح الهمزة والراء — طيب الرائحة ، والأرجاء : جمع رجا — مثل عصا — وهو الناحية .

المغربي على أهل المشرق حسبما يعلم مما بعده ، وإلا فإن خط لسان الدين رحمه الله تعالى محمود عند المغاربة ، ولنقتصر من هذا الغرض على ما ذكر ، فإن تتبعه يطول ؛ إذ هو بحر لا ساحل له .

ثناء ابن عاصم على لسان الدين

وكان لسان الدين رحمه الله تعالى مؤثرا لقضاء حاجة مَنْ أمله ، وقَصَد بابه وأمله ، سواء كان من أودائه ، أو من أعدائه ، وقد ذكر الوزير الرئيس الكاتب أبو يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى عنه في ذلك حكاية في أثناء كلام رأيت أن أذكر جملته لما اشتمل عليه من الفائدة ، وهو أنه ذكر في ترجمة شموس العصر من ملوك بني نصر من كتابه المسمى «بالروض الأريض» في اسم السلطان الذي كان ابن الخطيب وزيره ، وهو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجي ، بعد كلام ما صورته : كان قد جرى عليه التمحيص الذي أزعجه عن وطنه إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بني مَرِين ، فأفادته الحنكة والتجربة هذه السيرة التي وقف شيوخنا على حقيقتها ، وانتهجوا واضح طريقتها ، و بلغتنا منقولة بألسنة صدقهم ، معبرا عنها في عرف التخاطب بالعادة ، فلم يكن الوزير الكيس والرئيس الجهبذ يجريان من الاستقامة على قانون ، ولا يطردان من الصواب على أسلوب ، إلا بالمحافظة على ما رسم من القواعد ، والمطابقة لما ثبت من العوائد ، وكان ذوو النبل من هذه الطبقة وأولو الحذق من أرباب هذه المهن السياسية يتعجبون من صحة اختياره لما رَسَمَ ، وجودة تمييزه لما قصد ، وَيَرَوْن المفسدة في الخروج عنها ضَرْبَة لازب[1] ، وأن الاستمرار على مراسمها آكد واجب ، فيتحرونها[2] بالالتزام كما تتحرى السنن ، و يتوخونها بالإقامة كما تتوخى الفرائض ، وسواء تبادر لهم[3] معناها ففهموه ، أو خفي عليهم وَجْهُ رسمها فجهلوه ، حدثني شيخُنا القاضي أبو العباس أحمد

---

(١) ضربة لازب : أي أمرا لا مفر منه ولا معدى عنه

(٢) تحرى الأمر يتحراه : قصده وتعمده ، وكذلك توخاه

(٣) تبادر لهم : أصله بمعنى سبق إلى فهمهم وإدراكهم ، ولكن المراد به ههنا ظهر لهم ، لمقابلته بقوله بعد « أو خفي عليهم »

ابن أبي القاسم الحسني أن الرئيس أبا عبد الله بن زَمْرَك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب يستأذنه في جملة مسائل مما يتوقف عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله بن زَمْرَك ، قال الشريف : فأمضاها كلها له ، ماعدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة، فقال له ذو الوزارتين بن الخطيب : لا ، والله يا رئيس أبا عبد الله لا آذن فى هذا، لأنا ما استقمنا فى هذه الدار إلا بحفظ العوائد .

ثم قال صاحب الروض : فلما تأذَّنَ الله تعالى للدولة بالاضطراب ، واستحكم الوهن بتمكن الأسباب،عَدَلَ عن تلك القواعد الراسخة، واستخف بتلك القوانين الثابتة ، فنشأ من المفاسد ما أعْوَزَ رَفْعُه ، وتعدد وتره وشفعه[1] ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دَفْعُه ، وتعذر فيه الدواء الذى يُرْجَى نفعه ، وكان قد صحبه من الجد ما سَنَّى آماله[2] ، وأنجح بإذن الله تعالى أقواله وأفعاله ، فكان يجرى الأمر على رسم من السياسة واضح ، ونظر من الآراء السديدة راجح ، ثم يحفه من الجد سياج لا يفارقه إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله ، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانية من فروعه وأصوله ، انتهى كلام ابن عاصم .

وإذ جرى ذكره فلا بأس أن نلمع بشىء من أحواله ، لأن أهل الأندلس كانوا يسمونه ابن الخطيب الثانى ، فنقول :

ترجمة الوزير أبي يحيي محمد بن عاصم

هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الجامع الكامل الشاعر المفلق الناثر الحجة ، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق ، ومالك خدم البراعة بالاسترقاق ، أبو يحيي محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم ، القيسى ، الأندلسى ، الغَرْنَاطى ، قاضى الجماعة بها ، كان ــ رحمه الله تعالى ! ــ

(١) الوتر : الفرد من الأعداد ، والشفع : الزوج

(٢) سنى آماله : يسرها وجعل قضاءها سهلا

من أكابر فقهائها وعلمائها ورؤسائها، أخذ عن الإمام المحقق أبى الحسن بن سمعت والإمام القاضى أبى القاسم بن سراج ، والشيخ الراوية أبى عبد الله المنثورى ، والإمام أبى عبد الله البيانى ، وغيرهم ، ومن تآليفه شرح تحفة والده ، وذكر فيه أنه ولى القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، ومنها كتاب «جنة الرضا ، فى التسليم لما قدر الله تعالى وقضى » وكتاب « الروض الأريض ، فى تراجم ذوى السيوف والأقلام والقَريض » كأنه ذيل به إحاطة لسان الدين بن الخطيب ، وله غير ذلك ، وقد أطلت الكلام فى ترجمته من كتابى « أزهار الرياض ، فى أخبار عياض ، وما يناسبها مما يحصل للنفس به ارتياح وللعقل ارتياض » .

ووصفه ابن فرج السبتى بأنه الأستاذ العلَم الصدر المفتى القاضى رئيس الكتاب ، ومعدن السماحة ، ومنبع الآداب ، انتهى .

وقد تقدم بعض كلامه فيما مرّ ، ومن بديع نثره الذى يسلك به نهج ابن الخطيب رحمه الله تعالى قوله من كلام جلبت جملته فى «أزهار الرياض» ، واقتصرت هنا على قوله بعد الحمدلة الطويلة ما صورته : أمّا بعدُ فإن الله على كل شىء قدير ، وإنه بعباده لخبير بصير ، وهو لمن أهل نيَّتَهُ ، وأخلص طَوِيَّتَهُ ، نعم المولى ونعم النصير ، بيده الرفع والخفض ، والبسط والقبض ، والرشد والغى ، والنشر والطَّى ، والمنح والمنع ، والضر والنفع ، والبطء والعجل ، والرزق والأجل ، والمسرة والمَسَاءة ، والإحسان والإساءة ، والإدراك والفَوْت ، والحياة والموت ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، وهو الفاعل على الحقيقة وتعالى الله عما يقول الآفكون [1] ، وهو الكفيل [2] بأن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ، وإن فى أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعبرة

---

(١) الآفكون : جمع آفك ، وهو الكاذب

(٢) الكفيل : الضامن ، ويظهر دينه : يقويه ويعليه

لمن يفهم قوله تعالى (إن الله يفعل ما يشاء وإن الله يحكم ما يريد) بينما الدسوت[١] عامرة ، والولاة آمرة ، والفئة مجموعة ، والدعوة مسموعة ، والإمرة مطاعة، والأجوبة سمعا وطاعة ، وإذا بالنعمة قد كُفِرَتْ[٢] ، والذمة قد خفرت ، إلى أن قال : والسعيد من اتعظ بغيره ، ولا يزيد المؤمن عمرُه إلا خيرا جعلنا الله تعالى ممن قضى عمره بخيره ، وبينما الفرقة حاصلة ، والقطيعة فاصلة ، والمضرة واصلة ، والحبل فى انبتات[٣] والوطن فى شتات ، والخلاف يمنع رَعْى متات[٤] ، والقلوب شتى[٥] من قوم أشتات ، والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقضمه ، ويلحظه لحظ الخائف على هضمه ، والأخذ بكَظْمه ، ويتوقع الحسرة أن يأذن الله بجمع شمله ونَظْمه ، على رغم الشيطان ورغمه ، وإذا بالقلوب قد ائتلفت ، والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت ، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله تعالى وازدلفت ، والمتضرعة إلى الله تعالى قد ابتهلت ، فى إصلاح الحالة التى سَلَفَتْ ، فألقت الحرب أوزارها ، وأدنت الفرقة النافرة مزارها ، وجلت الألفة الدينية أنوارها ، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ، ورفعت الوحشة الناشبة أظفارها أعذارها ، وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها ، وغضت الفئة المتعرضة أبصارها ، وأصلح الله تعالى أسرارها ، فجمعت الأوطان بالطاعة ، والتزمت نصيحة الدين بأقصى الاستطاعة ، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة ، وألقت إلى الإمامة الفلانية يَدَ التسليم والضراعة ، فتقبلت فَيْآتهم ، وأحمدت جَيْآتهم ، وأسعدت آمالهم ، وارتضيت أعمالهم ، وكملت مطالبهم ، وتمت مآربهم ، وقضيت حاجاتهم ، واستمعت مناجاتهم ، وألسنتهم بالدعاء قد انطلقت ، ووجهتهم فى الخلوص قد صدقت ، وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتفقت ، وأكفهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتلقت ، وكانت الإدالة فى الوقت على عدوّ الدين قد ظهرت

---

(١) الدسوت : جمع دست ، وهو صدر المجلس

(٢) كفرت : جحدت وغمطت (٣) انبتات : انقطاع وانجذام

(٤) متات : مصدر « مت إليه » أى توسل (٥) شتى : متفرقة

وبرقت ، إلى أن قال : وكفت القدرة القاهرة ، والعزة الباهرة ، من عدوان الطاغية غوائل ، بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فواتح وأوائل ، ومعلوم بالضرورة أن الله تعالى لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود ، و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها دليلٌ على ما سوّغ من الكرم والجود ، انتهى المقصود منه ، وهو كلام بليغ ، ومَنْ أراد جملته فعليه بأزهار الرياض .

ومن نظم ابن عاصم المذكور قوله مخاطبا شيخه قاضى الجماعة أبا القاسم ابن سراج ، وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة ، فظن أنه يستخبره عن سر من أسرار السلطان ، فأعده معتذرا ، ولم يصدق الظن :

فديتك لا تسأل عن السر كاتبا ... فتلقاه فى حال من الرشد عاطل

وتضطره إما لحالة خائن ... أمانتَهُ أو خائض فى الأباطل

فلافَرْقَ عندى بين قاض وكاتب ... وَشَى ذا بسرٍّ أو قضى ذا بباطل

ومن بديع ما نُظِم فى مَدْح الرئيس أبى يحيى بن عاصم المذكور قولُ العلامة ابن الأزرق رحمه الله تعالى :

خضعت لمعطفه الغصونُ الميَّسُ ... ورنا فهام بمقلتيه النرجس

ذو مبسم زهر الربا فى كسبه ... متنافس عن طيبه متنفس

ومُورَّد من ورده أو ناره ... يتنعم القلب العميد و ييأس

فالورد فيه من دموعى يرتوى ... والنار فيه من ضلوعى تقْبَسُ

كملت محاسنه فقدّ ناضر ... ولواحظ نُجْلٌ وثغر ألْعَس(1)

صعب التعطف بالغرام جبيته ... فالحب يحبى والتعطف يحبس

غرس التشوّق ثم أغرى الوجد بى ... فالوجد يغرى والتشوق يغرس

(1) القد : القامة ، واللواحظ : العيون ، والنجل : الواسعة ، والألعس : الوصف من اللعس وهو سمرة فى الشفة .

ما كنت أشقى لو حللت بجنة من وصله تحيا لديها الأنفس
ألحاظه ورُضَابُهُ وعِذاره حور بها أو كوثر أو سندس
وليال أنس قد أمنت بهنّ من واشٍ ينم ومن رقيب يحرس
أطلعت شمس الراح فيها فاهتدى عاشٍ إلينا فى الدجى ومُغَلِّسُ
صُفراء كالعقيان فى الألوان للنـــدمان كالشهبان منها أكؤس
صُبَّتْ شقيقا فاستحالت نرجسا فى مزجها فموَرَّد ومورَّسُ
وحَبابها يغنى بأسنى جوهر أنفى لغم المعـــدمين وأنفسُ
يجلى بها للغم منهـا حِنْدِسًا قمر عليه من الذؤابة حندس (١)
حتى إذا عمشت مِرَاةُ البدر من صبح بدا تلقاه إذ يتنفس
ناديته وَسَنَى الصباح محصحص ينجاب عنه من الظلام معسعس
يا مطلع الأنوار زهراً يجتنى ومشعشع الصهباء نارا تلمس
بك مجلس الأنس اطمأنّ وبابن عا صِمٍ اطمأن من الرياسة مجلس
بدر بأنوار الهدى متطلع غيث بأشتات الندى متبجِّسُ
حامى فلم تَرْتَعْ لخطب يعترى ووفى فلم نحفل بدهر يبخس
شيم مهذبة وعـــلم راسخ ومكارم هُتُن ومجـــد أقعس
لو كان شخصا ذكره لبدا على أعطافه من كل حمد مَلْبَسُ
ذا كم أبو يحيى به تحمى العلا وبه خلال الفخر طرًّا تحرس
بيت على عَمَد الفخار مُطَنَّب مجد على متن السماك مؤسس
خَيَّمَ وعرّس فى حماه فكم حوى فيـــه المرادَ مخيم ومعرس
إنا لنغـــــدو هُيَّمًا فينيلنا ريا ويوحشنا النوى فيؤنِّسُ

(١) الحندس : الظلام الشديد ، و « قمر » فاعل يجلى ، والذؤابة : الشعر ، وشبهه بالظلام الشديد فى السواد وستره ما يقع عليه .

حتى أقمنـــا والأمانى منهضا ... ت وابتسمنا والزمان مُعَبّس

لم ندر قبل يراعـــه و بنانه ... أن الذوابل بالغمائم تبجس

هن اليراع بها يُؤَمَّنُ خائف ... ويحاط مذعور ويَغْنَى مُفْلس

مهما انبرت فهى السهام بُرَى لها ... وقع لأغراض البيان مُقَرْطس

يشفى بمأمله الشكى المعترى ... يحيى بمأمنه الحمـــام المؤيس

فتقص حين تشق منها ألسن ... وتسير حين تقط منها أرؤس

من كل وشـــاء بأسرار النهى ... دَرِبٍ بإظهار السرائر يهجس

قد جمع الأضـــداد فى حركاته ... فلذا اطراد فخـــاره لا يعكس

عطشان ذو رىٍّ ، يبيس مثمر ، ... غضبان ذو صَفْحٍ ، فَصيحٌ أخرس

لله من تلك اليراع جـــواذب ... للسحر منك كأنها المغنيطس

رُضْنَا شِمَاسَ القول فى أوصافها ... فهى التى راضت لنا ما يشمس

وإليكها حللا تَشَـــابه نسجُها ... مثلى ينمصـــاها ومثلك يلبس

واهنأ بعيـــدٍ باسمٍ متهلل ... وافاك يجهر بالسرور ويهمس

واحبس لواء الفخر موقوفا فإن الحمد موقوف عليـــك محبس

قلت : وعندى الآن شك فى صاحب هذه القصيدة ، هل هو قاضى الجماعة بغرناطة محمد بن الأزرق أو ابن الأزرق الثانى القائل فيما يكتب على السيف ؟ :

إن عمت الأفْقَ من نقع الوغى سُحُبٌ ... فَشِمْ بها بارقا من لمع إيماضى [1]

و إن نَوَتْ حركات النصر أرضَ عِدًا ... فليس للفتح إلا فعلىَ الماضى

والله سبحانه أعلم .

---

(١) النقع : الغبار ، والوغى : الحرب ، وشم : انظر ، والإيماض : مصدر « أومض يومض » إذا لمع وبرق وأضاء .

ومن إنشاء الرئيس ابن عاصم المذكور ما كتب به يخاطب الكاتب أبا القاسم ابن طركاط ، وهو : القضاء - حفظ الله تعالى كمالك ، وأنجح آمالك ! - إذا لم يَحُطْه العدلُ من كلا جانبيه سبيلٌ معوجّ ، ومذهب لا يوافق عليه مناظر ولا ينصره محتجّ ، كما أنه إذا حاطه العدل جادة[1] للنجاة ، وسبب فى حصول رحمة الله تعالى المرتجاه ، وسوق النفاق بضاعة العبد المُزْجَاة ، وأجمل العدل ما تحلى به فى نفسه الحكم ، وجرى على مقتضى ما شهدت به الآراء المشهورة والحكم ، حتى يكون عن البغى رادعا ، وبالقسط صادعا ، ولأنف الأنفَةِ من الإذعان للحق جادعا[2] ، وأنت أجلك الله تعالى على سعة أطلاعك ، وشدة ساعد قيامك بالطريقة واضطلاعك ، ممن لا يُنَبَّه على ماينبغى ، ولا يرد على طلبته من الإنصاف المبتغى ، فلك فى الطريقة القاضوية التبريز ، وأنت إذا كان غيرُكَ الشبهَ[3] الذهبُ الإبريز ، ولعلمية عدلك التوشية بالنزاهة والتطريز ، وليتنى كنت لمظهرك الحكمى حاضرا ، ولإعلام القضاة بآرائك المرتضاة محاضرا ، والوازع قد تمرّسَ بالخصوم ، وجعل المتصدى للإذن فى محل المخصوم ، وأنت حفظك الله تعالى قد قمت من غلظ الحجاب بالمقام المعصوم ، ومثلت من سعة المنزل فى الفضل والطول كالشهر المصوم ، والباب قد سد ، وداعى الشفاعة قد رد ، والميقات للإذن قد حد ، ومطلب الأجرة المتعارفة قد بلغ الأشد ، حتى إذا قضى الواجب ، وأذن فى دخول الخصمين الحاجب ، وأولج السابقين إلى الحد الذى لا يَعْدُونه ، وحفز إيماؤه مَنْ تعداه أو وقف دونه ، وقد حصل باللحظ واللفظ التساوى ، وأنتج المطالبَ الأربعة هذا اللازم المُساوى ، ومجلسك قد رجح وقاره برَضْوَى ، ومجتلاك قد فضح نوره البدر الأضوَا ، وقد امتزت عن سواك من القضاة بمراسم لا تليق بجملتهم معارفها ،

---

(١) الجادة : الطريق الواضحة التى يسهل السير فيها

(٢) جادعا : قاطعا ، وهو خاص بالاستعمال فى قطع الأنف

(٣) الشبه — بالتحريك — النحاس الأصفر

وتخصصت عنهم بملابس تعج عجيجا من جذامهم مَطَارِفُهَا ، بحيث تحد لخلع النعلين حدا لا يتجاوز طُوَاه ، وتسد فى بعض الأوقات الباب سدا لا ترفع بالمحاجر كُوَاه ، وتفصل بين الخصمين أحيانا بالنية دون الكلام ولكل امرئ ما نَوَاه ، وهـذه أعانك الله تعالى مكملات من العدل فى الحـكم وقف عياض دون تحقيق مَنَاطها ، وأعيت ابنَ رُشْدٍ فلم يهتد بيانه ولا تحصيله لاستنباطها ، فما بال النازحة عنك حسا ومَعْنى ، النازلة من تقاضى دَيْنك بمنزلة المطول المعنَّى (١) ، المعتقلة من ملـكة رقك بحيث أفصاها لاعج الشوق ، المعذبة من الصبابة فيك بما شب عَمْرُه عن الطَّوق (٢) ، تتنفس العصداء مما نشاهده منك من مبتدعات الجَوْر ، وتردد البكاء على ضياع ما استعار الحسن لصفاتها من النجد والغَوْر ، وتقضى العجب مما تسمع من عدلك الذى لم تجتل لمحةً من نوره ، ومن حلمك الذى أشقاها فلم تحضر لدكة طُورِه ، وتستصوب أنظار النحاة فى منع التهيئة والقطع فى العامل ، وتستجلب اصطلاح العروضيين فى المديد والبسيط دون الطويل والـكامل ، فهلا راجعت فيها النظر ، وأنجزت لها الوعد المنتظر ، وكففت من عيونها دموعا مستهلَّة ، واجتليت من جبينها الوضاح ما أخجل بدورا مشرقة وأهِلَّة ، ولم تحوجها إلى أن ينطق قرينها الروحانى بالشعر على لسانها ولسانك ، ولم تضطرها فى هـذه المعاملة إلى مالا ترتضيه من كفر إحسانك ، والعذر أظهر ، والبرهان أبهر ، وخلافك فى العالم أشهر ، وأنت إن لم يكن ما يعصم الله تعالى منـه لمقتضى الطبيعة أقهر ، وقد أدرجْتُ لك فى طى هذا ما يصل إلى يدك ، وتلهج به فى يومك وغدك ، منتظرة منك إطفاء الجوى بالجواب ، ومحو ما سبق من الخطا بالخطاب ، إن شاء الله تعالى ، والله تعالى يصل سعادته ، ويحفظ مجَادته ، ومعاد السلام من الشاكر الذاكر

---

(١) يشير إلى قول كثير عزة :

قضى كل ذى دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

(٢) أخذه من مثل يقوله جذيمة الأبرش فى عمرو ابن أخته رقاش «شب عمرو عن الطوق»

ابن عاصم وفقه الله تعالى فى أوائل ذى الحجة عام خمسة وأربعين وثمانمائة ، انتهى ، وهو مما لم أذكره فى أزهار الرياض .

ولنذكر هنا الظهير الذى جلبته فيها بتقديم المذكور للنظر فى أمور الفقهاء وغيرهم ، ونصه : هذا ظهير كريم إليه انتهت الظهائر شرفا عليا ، وبه تقررت المآثر برهانا جلياً ، ورافت المفاخر قلائدا وحليا ، وتميزت الأكابر الذين افتخرت بهم الأقلام والمحابر ، اختصاصاً مولويا . فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت ، وتوالت المنشورات وتجددت ، أكرم مرسوم تمم فى الاعتقاد نظراً خطيرا ، وأحكم فى التفويض أمراً كبيرا ، وأبرم فى الاختصاص عزما أبيا . اعتمد بمسطوره العزيز ، واختص بمنشوره الذى تلقاه اليُمْنُ بالتعزيز ، من لم يزل بالتعظيم حقيقاً[1] ، وبالإكبار خليقا ، وبالإجلال حَرِيًّا . فهو شهير لم يزل فى الشهرة سابقا ، هاد لم يزل بالهدى ناطقا ، بليغ لم يزل بالبلاغة دَرِيًّا . عظيم لم يزل فى النفوس معظماً ، علم لم يزل فى الأعلام مقدما ، كريم لم يزل فى الكرام سَنِيا[2] . اشتملت منه محافل الملك على العقد الثمين ، وحَلَّت به المشورة فى الكنف المحوط والحرم الأمين ، فكان فى مشكاة الأمور هاديا ، وفى ميدان المراشد جَرِيًّا[3] . فإلى مقاماته تبلغ مقامات الإخلاص ، وإلى مرتبته تنتهى مراتب الاختصاص ، فيمن حاز خَصْلا ، وزين حَفْلا ، وشرف نَدِيًّا[4] . واستكمل هما ، واستعمل قلما ، واستخدم مشرفيا . فلله ما أعلى قدر هذا الشرف ، الجامع بين المتلد والمطرف ، السابق فى الفضل أمداً قَصِيًّا . الحال من الاصطفاء مظهراً ، الفارع من العلاء منبرا ، الصاعد من العز كرسيا . حاز الفضل إرثا وتعصيبا ، واستوفى الكمال حقا ونصيبا ، ثناء أَرَجُه كالروض لولم يكن الروض ذابلا وهديا . نوره كالبدر لولم يكن البدر آفلا ، ومجد

ظهير بتعيين ابن عاصم للقضاء

---

(١) الحقيق ، والخليق ، والحرى : كلها ألفاظ بمعنى واحد ، وهو المستحق لما يذكر الجدير به (٢) سنيا : رفيع القدر (٣) جريا : أى جريئا ، وصف من الجراءة (٤) الندى ، والنادى : مجتمع الناس للندوة والمشورة

علوه كالشُّهَا لو لم يكن السها خفيا . فما أشرف الملك الذى اصطفاه ، وكمل له حق التقريب ووفاه ، وأحله قراره التمكين ، ومَنَّ باختصاصه بالمكان المكين ، فسبق فى ميدان التفويض وسَمَا ، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى ، صادعا بالحق إماما علما ، موضحا من الدين نهجا أممًا(١) ، هاديا من الواجب صراطا سويا . بانياً للمجد صَرْحا مُشَيدا ، مشهراً للعدل قولا مؤيداً ، مبرما للخير سببا قويا . فالله تعالى يصل لمقام هذا الملك الذى طلع فى سمائه بدرا دونه البدور ، وصدراً تلوذ به الصدور ، سعدا لا تَمْطُله الأيام فى تقاضيه ، ونصراً يمضى به نصل الجهاد فلا يزال ماضيه ، على الفتح مبنيا . ويوالى له عزا يَذُودُ(٢) عن حرم الدين ويمنحه تأييدا يصبح فى أعناق الكفر حديث سيفه قطعيا . أمر به مرسوما عزيزاً لا تبلغ المرسومات إلى مداه ، ولا يبدى بآثار الاختصاص مثل ما أبداه ، عبد الله أمير المسلمين محمد الغالب بالله أيد الله تعالى مقامه ، ونصر أعلامه ، وشكر إنعامه ، وبشر مرامه ، لإمام الأئمة وعلم الأعلام ، وعماد ذوى العقول والأحلام ، وبركة حملة السيوف والأقلام ، وقدوة رجال الدين وعلماء الإسلام ، الشيخ الفقيه أبى يحيى ابن كبير العلماء ، شهير العظماء ، حجة الأكابر والأعيان ، مصباح البلاغة والبيان ، قاضى القضاة وإمامهم ، أوحد الجِلَّة وطود شمامهم ، الشيخ الفقيه أبى بكر بن عاصم أبقاه الله تعالى ، ومناطق(٣) الشكر له فصيحة اللسان ، ومواهب الملك به معهودة الإحسان ، وقلائد الأيادى منه متقلدة بجيد كل إنسان ، قد تقرر والمفاخر لا تنسب إلا لبنيها ، والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيد أركانها ويبنيها ، والكمال لا يصفى شِرْبه ، إلا لمن يؤمِّن سِرْبه ، أن هذا العلم الكبير ، الذى لا يفى بوصفه التعبير ، علم بآثاره يقتدى ، وبأنظاره يهتدى ، وبإشارته يستشهد ، وبإدارته يسترشد ، إذ لا أمد علو إلا وقد

---

(١) النهج: الطريق ، والأمم : القريب (٢) يذود : يدفع

(٣) مناطق : جمع منطق ، وهو هنا موضع النطق ، وهو الفم

تخطاه ، ولا مركب فضل إلا وقد تمطاه ، ولا شارقة هدى إلا وقد جلاها ، ولا لبة فخر إلا وقد حَلاَّها ، ولا نعمة إلا وقد أسداها ، ولا سومة إلا وقد أبداها ، لما له فى دار الملك من الخصوصية العظمى ، والمكانة التى تسوغ النعمى ، والرتب التى تسمو العيون إلى مُرْتَقاها ، وتستقبلها النفوس بالتعظيم وتتلقاها ، حيث سر الملك مكتوم ، وقرطاسه مختوم ، وأمره محتوم ، والأقلام قد روضت الطروس وهى ذاوية ، وقسمت الأرزاق وهى طاوية ، شقت ألسنتها فنطقت ، وقطت أرجلها فسبقت ، و يبست فأثمرت إنعاما ، ونكست فأظهرت قواما ، وخطت فأعطت ، وكتبت فوهبت ، ومشقت فرفقت ، وأبرمت فأنعمت ، فكم يسرت الجبر ، وعقرت الهِزَبر ، وشَنَّفت المسامع ، وكيفت المطامع ، وأقلت فيما ارتفع من المواضع ، وأحلت لما امتنع من المراضع ، فهى تنجز النعم ، وتحجز النقم ، وتبث المذاهب ، وتحث المواهب ، وتروض المراد ، وتنهض المراد ، وتحرس الأكناف ، وتغرس الأشراف ، مصيخة لنداء هذا العماد الأعلى ، طامحة لمكانه الذى سما واستعلى ، فيما يملى عليها من البيان الذى يقرله بالتفضيل ، الملكُ الضِّليل (١) ، و يشهد له بالإحسان ، لسان حسان ، ويحكم له ببرى القَوْس ، حبيب بن أوس ، و يهيم بما من الأساليب عنده ، شاعر كِنْده (٢) ، و يستمطر سحبه الثَّرَّه ، فصيح المعره (٣) ، إلى منشور تزيل الفقر فقره ، وتدر الرزق درره ، لو أنهى إلى قس إياد لشكر فى الصنيعة أياديه ، واستمطر سحبه وغواديه ، أو بلغ إلى سحبان لسحره ، وما فارقه عشيته ولاسَحَره ، ولو رآه الصابى لأبدى إليه من صبوته ما أبدى ، أو سمعه ابن عباد لكان له عبداً ، أو بلغ بديع الزمان لهجر بَدَائعه ، واستنزر بضائعه ، أو أتحف به البستى لاتخذه بستانا ، أو عُرض على عبد الحميد لأحمد من صَوْبه هَتَّانا ، فأعظم به من عالٍ لا ترقى ثَنِيته ،

---

(١) الملك الضليل : هو امرؤ القيس بن حجر الكندى

(٢) شاعر كندة : هو أبو الطيب المتنبى

(٣) فصيح المعرة : هو أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرى

ولا تحاز مزيته ، ولا يُرْجَمُ أفقه ، ولا يكتم حقه ، ولا ينام له عن اكتساب الحمد ناظر ، ولا ينقاس به فى الفضل مناظر ، وهل تقاس الأجادل بالبغاث[١] ، أو الحقائق بالأضغاث ، ألا وإن بيته هو البيت الذى طلع فى أفقه كل كوكب وَقَّاد ، ممن وشج به للعلوم اتقاء واتقاد ، وترامى به للمدارك ذكاء وانتقاد ، فأعظم بهم أعلاما وصدورا ، وأهلة وبدورا ، خلدت ذكرهم الدواوين المُسَطَّرة ، وسرت فى محامدهم الأنفاس المعطرة ، إلى أن نشأ فى سمائهم هذا الأوحد ، الذى شهرة فضله لا تجحد ، فكان قمرهم الأزهر ، ونيرهم الأظهر ، ووسيطة عقدهم الأنفس ، ونتيجة مجدهم الأقعس ، فأبعد فى المذهب آماده ، ورفع الفخر وأقام عماده ، وبنى على تلك الآساس المشيدة ، وجرى لإدراك تلك الغايات البعيدة ، فسبق وجَلّى ، وشنف بذكره المسامع وحَلَّى ، ورفع المشكل ببيانه ، وحرر الملتبس ببرهانه ، إلى أن أحله قضاء الجماعة ذروة أفقه الأصعد ، وبوّأه عزيز ذلك المقعد ، فشرف الخطة ، وأخذ على الأيدى المشتطة ، لا يراقب إلا ربه ، ولا يضمر إلا العدل وحبه ، والمجلس السلطانى أسماه الله تعالى يختصه بنفسه ، ويفرغ عليه من حلل الاصطفاء ولبسه ، ويستمطر فوائده ، ويجرب بأنظاره حقوق الملك وعوائده ، فكان بين يديه حكما مُقْسِطا ، ومقسما لحظوظ الإنعام مُقَسِّطا ، إلى أن خصَّه بالكتابة المولوية ، ورأى له ذلك حق الأولوية ، إذ كان والده المقدس نعم الله تعالى ثراه ، ومنحه السعادة فى أخراه ، مشرف ذلك الديوان ، ومعلى ذلك الإيوان ، يحبِّر رقاع الملك فتروق ، وتلوح كالشمس عند الشروق ، فحَلَّ ابنُه هذا الكبير شرفا ، الشهير سلفا ، مرتبتَه التى سَمَتْ ، وافترت به عن السعد وابتسمت ، فسحبت به للشرف مَطَارف ، وأحرزت به من الفخر التالد والطارف ، فهو اليوم فى وجهها غُرَّه ،

---

(١) الأجادل : جمع أجدل ، وهو الصقر ، وهو من كواسر الطير ، والبغاث — مثلث الباء — طير ضعيف .

وفى عينها قُرَّه ، ولله هو فى ملاحظة الحقائق ورعيها ، وسمع الحجج ووعيها ، فلقد فضل بذلك أهل الاختصاص ، وسبقهم فى تبيين ما يشكل منها وما يعتاص ، إذ المشكلة معه جلية الأغراض ، والآراء لديه آمنة من مأخذ الاعتراض ، فكم رتبة عمرها بذويها ، فاكسبها تشريفاً وتنويهاً(١) ، وعلى ذلك فأعلام قضاة الوطن ، ومن عَبَرَ منهم وقَطَن(٢) ، مع أقدارهم السامية ، ومعاليهم التى هى للزهر مسامية ، إنما رقتهم وساطته التى أحسنت ، وزينت بهم المجالس وحسنت ، فبه أمضوا أحكامهم ، وأعملوا فى الأباطيل احتكامهم ، وكتبوا الرسوم ، وكبتوا الخصوم ، وحلوا دَسْتَ القضاء ، وسلوا سيف المَضاء ، وفى زمانه تخرّجوا ، وفى بستانه تأرجوا ، ومن خلقه اكتسبوا ، وإلى طرقه انتسبوا ، وعلى موارده حَامُوا ، وحول فوائده قاموا ، وبتعريفه عرفوا ، وبتشريفه شرفوا ، وبصفاته كَلِفُوا ، وبعرَفاتِهِ وقفوا ، فأمِنُوا مع انسكاب سحب إفادته من الجَدْب ، وقاموا بذلك الفرض بسبب ذلك النَّدْب ، وهل العلماء وإن عمت فوائدهم ، وانتظمت بجياد الأذهان فرائدهم ، إلا من أنواره مستمدون ، وإلى الاستفادة من أنظاره ممتدون ، وببركاته معتدون ، وبأسبابه مشتدّون ، فبه اجتنيت من أفنان المنابر ثمراتهم ، وتأرجَتْ فى روضات المعارف زهراتهم ، وبه عمروا الحَلَق ، وائتلق من أنوارهم ما ائتلق ، إذ كل من اصطناعه محسوب ، وإلى بركته منسوب ، فهو بدرهم الأهْدَى ، وغيثهم الأجْدَى ، وعقدهم المقتنى ، وروضهم المجتنى ، وبدر منازلهم ، وصدر محافلهم ، وعلى ما أعلى المقام المولوى من مكانه ، وقضى به من استمكانه ، واعتمد من إبرامه ، وأبرم من اعتماده ، ومهد من إكرامه ، وكرم من مهاده ، واختص من علاه ، وأعلى من اختصاصه ، واستخلص من حُلاه ، وحلا من استخلاصه ، ووفى من تكرمه ،

---

(١) نوه به : ذكره وأشاد به وأعلى قدره

(٢) قطن : أقام ، وعبر — هو هكذا فى كل الأصول بالعين المهملة — ويراد به سافر ، وتقول « عبر فلان البحر يعبره » إذا انتقل من أحد شاطئيه إلى الآخر

وكرم من وفائه ، واصطفى من مجده ، ومجد من اصطفائه ، وقدم من براعته ، وحكم من يراعته ، وشقق من كتابته ، وأنطق من خطابته ، وسجل من أنظاره ، وعجل من اختياره ، فذكا ذكره(١) ، وسطا سَطْره ، وأمعن معناه ، وأغنى مغناه ، أشار أيده الله تعالى باستئناف خصوصيته وتجديدها ، وإثبات مقاماته وتحديدها ، لتعرف تلك الحدود فلا تتخطى ، وتكبر تلك المراتب فلا تستعطى ، فأصدر له شكر الله تعالى إصداره ، وعمر بالنصر داره ، هذا المنشورَ الذى تأرج بمحامدهِ نَشْره ، وتضمن من مناقبه البديع فراقَ طيه ونَشْره ، وغدا وفرائد المآثر لديه موجدة مكونه ، وأصبح للمفاخر مالكا لما أتى به مدونه ، وخصه فيه بالنظر المطلق الشروط ، الملازم للتفويض ملازمة الشرط للمشروط ، المستكمل الفروع والأصول ، المستوفى الأجناس والفصول ، فى الأمور التى تختص بأعلام القضاة الأكابر ، وكتاب القضاة ذوى الأقلام والمحابر ، وشيوخ العلم وخطباء المنابر ، وسائر أرباب الأقلام القاطن منهم والعابر ، بالحضرة العلية ، وجميع البلاد النَّصْرية ، تولى الله تعالى جميع ذلك بمعهود ستره ، ووصل لديه ما تعوّد من شفع اللطف ووتره ، يحوط مراتبهم التى قطفت من روضاتها ثمرات الحكم وجُنِيَتْ ، ويراعى أمورهم التى أقيمت على العوائد وبنيت ، وحقوقهم التى حفظت لهم فى المجالس السلطانية ورعيت ، ويحل كل واحد منهم فى منزلته التى تليق ، ومرتبته التى هو بها خَليق ، على ما يقتضى ما يعلم من أدواتهم ، ويخبر من تباين ذواتهم ، ويُرَشِّح كل واحد إلى ما استحقَّه ، ويؤتى كل ذى حق حقه ، اعتماداً على أغراضه التى عدلت ، وصدحت(٢) على أفنانها من الأفواه طيور الشكر وهَدَلَت ، واستناداً فى ذلك إلى آرائه ، وتفويضاً له فى هذا الشأن بين خلصاء الملك وظُهَرَائه(٣) ، وذلك على مقتضى

---

(١) ذكا ذكره : أراد ارتفع ، وأصله بمعنى أضاء

(٢) صدحت ، وهدلت : أى غنت

(٣) ظهراء : جمع ظهير ، وهو الناصر والمعين

ما كان عليه أعلام الرياسة الذين سبقوا ، وانتهضوا بهممهم واستبقوا ، كالشيخ الرئيس الصالح أبى الحسن بن الجيَّاب ، والشيخ ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب ، رحمهما الله تعالى ! فليقم أبقاه الله تعالى بهذه الأعمال التى سَمَتْ واعتزت ، ومالت بها أعطاف العدل واهْتَزَّت ، وسار بها الخبر حثيث السُّرَى[1] ، وصار بها الحق مشدود العُرَى ، وعلى جميع القضاة الأمضياء ، والعلماء الأرضياء ، والخطباء الأولياء ، والمقرئين الأزكياء ، وحملة الأقلام الأحظياء[2] ، أن يعتمدوا هذا الولى العماد فى كل ما يرجع إلى عوائدهم ، ويختص فى دار الملك من مرتباتهم وفوائدهم ، وما يتعلق بولاياتهم وأمنياتهم ، ويليق بمقاصدهم ونياتهم ، فهو الذى يسوّغهم المشارب ، و يبلغهم المآرب ، و يستقبل العلى بالعلى ، والعاطل بالحلى ، والمشكل بالجلى ، والمفرق بالتاج ، والمقدمة بالإنتاج ، وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد أقرهم على ولاياتهم وأبقاهم ، ولقاهم من حفظ المراتب ما رقّاهم ، فليَجْرُوا على ما هم بسبيله ، وليهتدوا بمرشد هذا الاعتناء ودليله ، وكتب فى صفر عام سبعة وخمسين وثمانمائة ، انتهى .

قلت : و إنما أتيت به لوجوه : أحدها ، ما يتعلق بلسان الدين إذ وقعت الإشارة إلى مرتبته فى آخره ، والثانى ما اشتمل عليه من الإنشاء الغريب ، والثالث معرفة حال الرئيس أبى يحيى بن عاصم وتمكنه من الرياسة ، لأنا بنينا هذا الكتاب على ذكر ما يناسبه من أنباء أهل المغرب ، لكون أهل هذه البلاد المشرقية ليس لهم بها عناية ، والرابع أن بعض أكابر شيوخنا ممن ألف فى طبقات المالكية لما عرّف بأبى يحيى ذكره فى نحو أسطر عشرة ، وقال : هذا الذى حضرنى من التعريف به ، والخامس أن ابن عاصم المذكور كما قاله الوادى آشى وغيره كان يدعى فى الأندلس بابن الخطيب الثانى ، و يعنون بذلك البلاغة والبراعة والرياسة والسياسة .

---

(١) حثيث السرى : سريع السير

(٢) الأحظياء : جمع حظى ، وهو ذو الحظوة

رجع إلى أخبار لسان الدين فنقول :

وأما كتب التأليف باسم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فقد قال فى الإحاطة لما أجرى ذكر ذلك ما صورته : وأما ما رفع إلى من الموضوعات العلمية ، والوسائل الأدبية ، والرسائل الإخوانية ، لما أقامنى الملك صنما يعتمد ، وخيالا إليه يستند ، صادرة عن الأعلام ، وحملة الأقلام ، ورؤساء النثّار والنظام ، فَجَمٌّ يضيق عنه الإحصاء ، ويعجز عن ضم نشره الاستقصاء[1] ، وربما تضمن هذا الكتاب كتاب الإحاطة منه كثيرا ، ومنظوما أثيرا ، ودراً نثيرا ، جرى فى أثناء الأسماء ، وانتمى إلى الإجادة أكرم الانتماء[2] ، غفر الله تعالى لى ولقائله ، فما كان أولانى وإياه بستر زوره ، وإغراء الإضراب بغروره فأهون بما لا ينفع ، وإن ارتفع الكلم الطيب لا يرفع[3] ، اللهم تجاوز عنا بفضلك وكرمك ، انتهى :

وقد تقدم فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطى الفاسى نزيل مالقة وصاحب التآليف العديدة أنه ألف تقييدا على قواعد الإمام القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله تعالى برسم ولد لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، وكذلك غير واحد من أهل عصره ، قصدوه بالنظم والنثر ، وهى سنة الله سبحانه وتعالى فى عباده ، إذ السلطان سوق يُجْلَب إليها ما ينفق فيها ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ ! ولى المكافأة ، لا إله غيره ، ولا مأمول سواه .

---

(١) ضم نشره : جمع متفرقه ، والاستقصاء : التتبع

(٢) انتمى : انتسب واعتزى

(٣) أخذ هذه الفقرة من قوله تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه)

الباب الخامس

فى إيراد جملة من نثره الذى عَبِق أريجُ البلاغة من نفحاته ، ونَظْمه الذى تألق نور البراعة من لمحاته وصفحاته ، وما يتصل به من أزجاله ومُوَشَّحاته ، ومناسبات رائقة فى فنون الأدب ومصطلحاته .

اعلم — سلك الله تعالى بى و بك أوضح مَحَجَّه[1] ، وجعلنا ممن انتحى صَوْب الصواب[2] ونهجه ! — أن هذا الباب ، هوالمقصود بتأليف هذا الكتاب ، وغيرُه كالتَّبَع له ، وها أنا أذكر ما حضرنى الآن من بنات أفكار لسان الدين التى هى بالمحاسن متقنعة ، وللبدائع منتعلة ، فأقول :

أما نثره فهو البحر الزخار ، بل الدر الذى به الافتخار ، وناهيك أن كتبه الآن فى المغرب قِبْلَة أرباب الإنشاء التى إليها يُصَلون ، وسُوق دُرَرهم النفيسة التى يزينون بها صدور طروسهم[3] ويُحَلون ، وخصوصا كتابه « ريحانة الكتاب ، ونُجْعة المنتاب » فإنه وإن تعدّدت مجلداته على فن الإنشاء والكتابة مقصور ، وقد اشتمل على السلطانيات وغيرها ومخاطبانه لأهل المشرق والمغرب على لسان ملوك الأندلس الذين عَلَم بلاغتهم منصور ، وقد تركت نسختى منه فى المغرب ، ولو حضرتنى لكفتنى عن هذه الفوائد التى أتعبت خاطرى فى جمعها من مُقَيداتى التى صحبتها معى ، وهى قليلة .

وقد مرّ فى هذا الكتاب جملة من نثره ونظمه ، والذى نجلبه هنا زيادة على ما سبق .

وقال رحمه الله تعالى فى « الإحاطة » عند ترجمة نثره ما صورته : وأما النثر

---

(١) المحجة : الطريق

(٢) انتحى : قصد ، وصوب الشىء — بالفتح — جهته

(٣) الطروس : جمع طرس ، وأراد ما يكتبون فيه

فبحر زاخر ، ومدى طوله مستأخر ، وإنك لم يفخر عليك كفاخر ، وقد مرّ منه في تضاعيف هذا الديوان كثير ، ونحن نجلب منه ما يشير إليه مُشير ، انتهى .

تحميد من إنشاء لسان الدين

فمن ذلك قوله فى غرض التحميد مما افتتح به الكتابَ فى التاريخ المتضمن دولة بنى نصر : الحمد لله الذى جعل الأزمنة كالأفلاك ، ودُوَل الأملاك كأنجم الأحلاك ، تطلعها من المشارق نيرة ، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة ، ثم تذهب بها غائرة متغيرة ، السائق عَجِل ، وطبع الوجود مرتجل ، والحى من الموت وَجِل ، والدهر لا معتذر ولا خَجِل ، بينما ترى الدَّسْتَ عظيم الزحام ، والموكب شديد الالتحام ، والوَزَعَة تشير ، والأبواب يقرعها البشير ، والسرور قد شمل الأهلَ والعَشير ، والأطراف تلثمها الأشراف ، والطاعة يشهرها الاعتراف ، والأموال يحوطها العَدْل أو يبيحها الإسراف ، والرايات تُعقَد ، والأعْطِيات تُنْقَد ، إذ رأيت الأبواب مهجورة ، والدسُوتَ لا مؤمَّلة ولا مَزُورة ، والحركات قد سكنت ، وأيدى الإدالة قد تمكنت ، فكأنما لم يسمر سامر[1] ، ولا نَهَى ناهٍ ولا أمر آمر ، ما أشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ، إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح .

من نثره فى الحض على الجهاد

ومن نثره قوله فى استدعاء إمداد وحَضّ على الجهاد : أيها الناس رحمكم الله تعالى ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قددَهَم العدوُّ قصمه الله تعالى سَاحَتَهم ، ورام الكفرُ خذله الله تعالى استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم بعزة الله تعالى أقْوَى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم الغريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهادَ الجهادَ فقد تعين ، الجارَ الجارَ فقد قرر الشرع حقه وبَيَّن ،

---

(١) أخذه من قول مضاض بن عمرو الجرهمى

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر

الله الله فى الإسلام ، الله الله فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جَدِّدوا عوائدَ الخير يَصِل الله تعالى لكم جميلَ العوائد ، صلوا رحم الكلمة ، وَاسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين أيديكم ، وألسنة الآيات تناديكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله سبحانه يقول فيه (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم) ومما صح عنه قوله « من اغبرت قدَمَاه فى سبيل الله حرمهما الله على النار » « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا » أدركوا ارمَقَ الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده ، جاهدوا فى الله بالألسن والأقوال حق جهاده .

ماذا يكون جوابكم لنبيكم ... وطريقُ هذا العذر غير مُمَهَّدِ[1]
إن قال لِمْ فرطتمُ فى أمتى ... وتركتموهم للعدوّ المعتدى
تالله لو أن العقوبة لم تُخَفْ ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

اللهم أعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بث لنا الحمية[2] فى البلاد ، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبابك وأوليائك ، يا خير الناصرين ، اللهم أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، انتهى .

ومن ذلك قوله فى صداق أمره السلطان بإنشائه لكبير الشرفاء بفاس

---

(١) مهدت الطريق : سويته وجعلته صالحا للسير فيه من غير مشقة ، استعمله هنا مجازا

(٢) بث : أراد أذعها وانشرها ، والحمية : الغضب لما يجب على الإنسان حمايته

من إنشائه فى ذكر أولية شريف فاس

فى فصل منه تضمن ذكر أوليتهم واستيطانهم لتلك المدينة ما صورته : فضرب بفاس — عمرها الله تعالى ! — حلته ، وأورث منها بالبقعة الزكية الرفيعة سراته وجِلَّته[1] ، فتبوّءوا من ذلك الغَوْر ، المعشب الروض الأرِج النَّوْر ، هالة سعد ، وأفق برق ورعد ، ودست وعيد ووَعْد ، يتناقلون رُتَبَ الشرف الصريح كابراً عن كابر ، ويَرْوِى مسلسل المجد عن بيتهم الرفيع الجد كلٌّ حريص على عوالى المعالى مثابر .

فالكف عن صِلة ، والأذن عن حَسَن والعين عن قرة ، والقلب عن جابر

حيث الأنوف الشُّم والوجوه الغر ، والعزة القَعْساء والنسب الحر ، والفواطم فى صدف الصون من لدن السكون كأنهن الدر ، آل رسول الله ونعم الآل ، والموارد الصادقة إذا كذب الآل[2] ، ومَنْ إذا لم يُصَلّ عليهم فى الصلاة حَبِطَت منها الأعمال ، طَلِبَة الراكب ، ونِشْدَة الطالب ، وسراة لؤى بن غالب ، وملتقى نور الله تعالى ما بين فاطمة الزهراء وعلى بن أبى طالب ، انتهى ، وهو طويل لم يحضرنى منه الآن سوى ما ذكرته .

ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى : كتبت إلى بعض السادة الفضلاء ، وقد بلغنى مرضه أيام كان الانزعاج عن الأندلس إلى الإيالة المَرِينية : وردت على من فئتى التى إليها فى معركة الدهر أتحيز ، وبفصل فضلها فى الأقدار المشتركة أتميز ، سَحَاءة سرت وساءت ، وبلغت من القصدين ما شاءت ، أطلع بها صنيعة وده من شكواه على كل عابث فى السويداء ، موجب اقتحام البيداء ، مضرم نار الشفقة فى فؤاد لم يبق من صبره إلا القليل ، ولا من إفصاح لسانه إلا الأنين والأليل ، ونوى مدت لغير ضرورة يرضاها الخليل ، فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع فى تقبُّل أعماله ، أو آمل ضويق فى فذلكة آماله ،

---

(١) السراة : جمع السرى ، وهو الوصف من السراوة ، وهى المروءة والكرم ، والجلة : جمع الجليل ، وهو العظيم القدر

(٢) الآل الثانى : ما يرى فى وسط النهار كأنه الماء وليس بماء .

لكنى رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخط[1] يبهر والحمد لله و يروق ، واللفظ الحسن تومض فى حبره للمعنى الأصيل بروق ، فقلت : ارتفع الوَصَب[2] ، ورُدَّ من الصحة المغتصب ، وآلة الحس والحركة هى العصب ، و إذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سَليطه[3] ، والروح خليط البدن والمرءُ بخليطه ، وعلى ذلك فتقليد احتياطى لا يقنعه إلا الشرح ، فبه يسكن الظمأ البَرْح ، وعُذْراً عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزَنْدُ القلق فى مثلها أوْرَى ، والشفيق بسوء الظن مُغْرَى ، والسلام .

خطاب من لسان الدين إلى من ولى الحسبة

ومن نثر لسان الدين ما ذكره فى « الإحاطة » فى ترجمة أبى عبد الله الشديد وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصارى الجيانى الأصل ثم المالقى ، إذ قال ما صورته : جملة جمال من خط حسن واضطلاع بحمل كتاب الله ، بُلْبُل دَوْح السبع المثانى ، وماشطة عروس أبى الفرج بن الجوزى ، وآية صُقْعه ، ونسيجُ وَحْدِه ، فى حسن الصوت وطيب النغمة ، اقتحم لذلك دسوت الملوك ، وجر أذيال الشهرة ، عذب الفكاهة ، ظريف المجالسة ، قادراً على المحاكاة ، متسوّراً حمى الوقار ، ملبياً داعى الانبساط ، قلد شهادة الديوان بمالقة فكان مُغَار حَبْل الأمانة ، شامخ مارن النزاهة ، لوحا للألقاب ، وعُزِّزت ولايته ببعض الألقاب النبيهة ، وهو الآن الناظر فى أمور الحِسْبَة ببلده ، ولذلك خاطبته برقعة أداعبه بها وأشير إلى أضداده بما نصه :

يا أيها المحتسب الجزل ومن لديه الجد والهزل
يهنيك والشكر لمولى الورى ولاية ليس لها عزل

---

(١) فى ب « الحظ » وأحسبه محرفا عما أثبته

(٢) الوصب : المرض ، وبابه فرح (٣) السليط : الزيت

كتبت أيها المحتسب ، المنتمى إلى النزاهة المنتسب ، أهنيك ببلوغ تمنيك ، وأحذرك من طمع نفس بالغرور تُمَنيك ، فكأنني بك وقد طافت بركابك الباعة ، ولزم أمرك السمع والطاعة ، وارتفعت فى مُصَانعتك الطاعة ، وأخذْتَ أهلَ الريب بغتة كما تقوم الساعة ، ونهضت تقْعِد وتقيم ، وسطوتك الريح العقيم ، و بين يديك القسطاس المستقيم ، ولابدّ من شَرَك ينصب ، وجماعة على ذى جاه تعْصَب ، ودالة يمت بها الجناب الأخصب ، فإن غضضت طرفك ، أمنت على الولاية صَرْفَك ، و إن ملأت ظَرْفَك ، رحلت عنها حرفك ، و إن كففت فيها كفك ، حفك العز فيمن حفك ، فكن لقالى المجبنة قاليا[1] ، ولحوت السلة ساليا ، وأبد لدقيق الحُوّارى زُهْدَ حَوَارِى[2] ، وازهد فيما بأيدى الناس من العَوَارِى ، وسر فى اجتناب الحَلْواء ، على السبيل السواء ، وارفض فى الشِّوَاء ، دواعى الأهواء ، وكن على الهراس وصاحب ثريد الراس شديد المراس ، وثِبْ على طبيخ الأعراس ليثاً مرهوبَ الافتراس ، وأدب أطفال الفسوق فى السوق ، سيما مَنْ كان قبل البلوغ والبسوق ، وصمم على استخراج الحقوق ، والناس أصناف فمنهم خسيس يطمع منك فى أكلة ، ومُسْتَعْدٍ عليك بوكزة أورَكْلَة ، وحاسد فى مطية تركب ، وعِطية تسكب ، فاخفض للحاسد جناحك ، وسَدِّد إلى حربه رماحك ، وأشبع الخسيسَ منهم مرقة فإنه حنق ، ودُسَّ له فيها عظما لعله يختنق ، واحفر لشريرهم حفرة عميقة ، فإنه العدوّ حقيقة ، حتى إذا حَصَلَ ، وعلمت أن وقت الانتصار قد اتصل ، فأوقع وأوجع ولا ترجع ، وأولياءه من الشياطين فأفجع ، والحق أقوى ، وأن تعفو أقرب للتقوى ، سددَكَ الله تعالى إلى غرض التوفيق ، وأعْلَقَكَ من الحق بالسبب الوثيق ، وجعل قدومك مقروناً برخص اللحم والزيت والدقيق ، انتهى .

---

(١) قالى : اسم الفاعل من « قلا الشىء يقليه قليا » والمجبنة : ضرب من الطعام يصنع بالجبن ، وقاليا : كارها (٢) الحوارى : لباب الدقيق وخالصه ، والحوارى : من يكون من أنصار الأنبياء ، وسمي أصحاب عيسى عليه السلام « الحواريون »

ومما كتب به لسان الدين إلى على بن بدر الدين الطوسى بن موسى بن رحح بن عبد الله بن عبد الحق من مدينة سَلاَ ما نصه :

يا جملة الفضـل والوفاء ما بمعاليك من خفاء
عندىَ بالود فيك عقـد صحفه الدهر باكتفاء
ما كنت أقضى حلاك حقا لو جئت مدحاً بكل فاء
فأوْلِ وجْهَ القبول عذرى وحسبك الشك فى صفاء

خطاب من لسان الدين إلى ابن عبد الحق

سيدى الذى هو فَصْلُ جنسه ، ومزية يومه على أمسه ، فإن افتخر الدين من أبيك ببدره افتخر منك بشمسه ، رحلت على المنشأ والقرارة[1] ، ومحل الصبوة والفرارة[2] ، فلم تتعلق نفسى بذخيرة ، ولا عهد جيرة خيرة ، كتعلقها بتلك الذات التى لطفت لطافة الراح ، واشتملت بالمجد الصُّراح ، شفقة أن تصيبها معرة والله تعالى يَقِيها ، ويحفظها ويُبْقِيها ، إذ الفضائل فى الأزمان الرذلة غوائل ، والضد عن ضده منحرف بالطبع ومائل ، فلما تعرفت خلاصَ سيدى من ذلك الوطن ، و إلقاءه وراء الفرضة بالعطَن ، لم تبق لى تَعِلَّة ، ولا أحرضتنى له علة ، ولا أوتى جمعى من قلة ، فكتبت أهنئ نفسى الثانية بعد هناء نفسى الأولى ، وأعترف للزمان باليد الطُّولىٰ ، فالحمد لله الذى جمع الشمل بعد شتاته ، وأحيا الأنس بعد مماته ، سبحانه لا مبدّل لكلماته ، و إياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدى ونصيبَه ، فلا يستطيع حادث أن يُصيبه ، وأنا أخرج له بث كمين ، ونصح أنا به قمين ، بعد أن أسْبُرَ غوْرَه ، وأخْبُرَ طوْرَه ، وأرصد دوره ، فإن كان له فى التشريق أمل ، وفى ركب الحجاز ناقة وجمل ، والرأى فيه قد نجحت منه نية وعمل ، فقد غنى عن عرف البقرات ، بأزكى الثمرات ، وأطفأ هذه الجَمَرات ، برمى الجمرات ، وتأنَّسَ بوصل السرى

---

(١) كذا ، ولعل أصل العبارة « رحلت عن المنشأ والقرارة » والمنشأ : المكان الذى نشأ فيه ، والقرارة : موضع استقراره

(٢) الفرارة : الكشف عن أحواله ، وقالوا « الجواد عينه فراره » أى ظاهره يدل على باطنه

ووصال السرات ، وأنابه إن رضيني أرضى مُرَافق ، ولواء عزى به خافق ، وإن كان على السكون بناؤه ، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه ، فأمر له ما بعده ، والله يحفظ من الغِيَر(١) سعده ، والحق أن تحذف الأبهة وتختصر ، ويحفظ اللسان ويغض البصر ، وينخرط فى الغِمار ، ويُخَـلّى عن المضمار ، ويجعل من المحظور مداخلة من لا خَلاَق له ، ممن لا يقبل الله تعالى قوله ولا عمله ، فلا يكتم سرا ، ولايتطوق من الرجولة زرا ، ويرفض زمام السلامة ، وتركُ العلامة على النجاة علامة ، وأما حالى فكما علمتم مُلاَزم كِنٍ(٢) ، ومهبط تجربة وسن ، أزجى الأيام ، وأروم بعد التفرق الالتئام(٣) ، خالى اليد ، ملىء القلب والخلَد ، بفضل الواحد الصَّمَد ، عامل على الرحلة الحجازية التى أختارها لكم ولنفسى ، وأصل فى التماس الإعانة عليها يومى بأمسى ، أوجب ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من ود قررته الأيام والشهور ، والخلوصُ المشهور ، وما أطلت فى شىء عند قدومى على هذا الباب الكريم إطالتى فيما يختص بكم من موالاته ، وبذل مجهود القول والعمل فى مرضاته ، وأما ذكركم فى هذه الأوضاع فهو مما يُقِر عين المَجادة ، والوظيفة التى ينافس فيها أولو السيادة ، والله يَصِلُ بقاءكم ، ويُيَسر لقاءكم ، والسلام ، انتهى .

ومن نثر لسان الدين ما أثبته فى « الإحاطة » فى ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ الذى تكرر نقلنا منه فى هذا التأليف .

ترجمة ابن خلدون من إنشاء لسان الدين

ولنذكر الترجمة بجملتها فنقول : قال رحمه الله تعالى فى « الإحاطة » مانصه: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون ، الحضْرَمى ، من ذرية عثمان أخى كريب المذكور فى نبهاء ثوّار الأندلس ، وينسب سَلَفُهم إلى وائل بن حجر ، وحاله عند القدوم

---

(١) غير الدهر : نوازله

(٢) الكن : المخبأ ، وأراد البيت

(٣) الالتئام : الاجتماع

على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة ، انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نَبَاهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك ، فاستقر بتونس منهم ثانى المحمدين محمد بن الحسن ، وتناسلوا على حشمة وسَرَاوة ورسوم حسنة ، وتصرَّفَ جدُّ المترجَم به فى القيادة ، وأما المترجم به فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وَقور المجلس ، خاصىُّ الزى ، عالى الهمة ، عَزُوف عن الضيم ، صَعْب المَقَادة ، قوى الجأش ، طامح لقُنَن الرياسة(١) ، خاطب للحظ ، متقدم فى فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مُغْرى بالتجلة ، جواد ، حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، مقيم لرسم التعين ، عاكف على رَعْى خلال الأصالة ، مفخر من مفاخر التُّخُوم المغربية ، قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال ، والعربية على المقرى الزواوى وغيره ، وتأدب بأبيه ، وأخذ عن المحدث أبى عبد الله بن جابر الوادى آشى ، وحضر مجلس القاضى أبى عبد الله بن عبد السلام ، وروى عن الحافظ أبى عبد الله السطى ، والرئيس أبى محمد عبد المهيمن الحضرمى ، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الأبلى وانتفع به ، انصرف من إفريقية منشئه بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة ، وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة ، عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، وعرف فضله ، وخطبه السلطانُ مُنْفِق سوق العلم والأدب أبوعنان فارس بن على بن عثمان ، واستحضره بمجلس المذاكرة فعرف حقه ، وأوجب فضله ، واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ، ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن التأنى ، وشفوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك ، فأغروابه السلطان إغراء عَضَّده ماجُبل عليه عَهْدَئذٍ(٢) من

---

(١) القنن : جمع قنة ، بضم القاف ـ وهى أعلى الجبل ، مثل القلة

(٢) عهدئذ : أى فى ذلك العهد ، كما تقول حينئذ ووقتئذ ، وأشباهها

إغفال التحفظ مما يريب لديه ، فأصابته شدة تخلصه منها أجله ، كانت مغربة فى جفاء ذلك الملك وهناة جواره ، وإحدى العواذل لأولى الهوى فى القول بفضله وعدم الخشوع و إهمال التوسل و إبادة المكسوب فى سبيل النفقة والإرضاخ على زمن المحنة وجار المنزل الخشن ، إلى أن أفضى الأمر إلى السعيد ولده ، فأعتبه قيم الملك لحينه ، وأعاده إلى رسمه ، ودالت الدولة إلى السلطان أبى سالم ، وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حُظوته ، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات ، محرر السهام ، نبيه الرتبة ، إلى آخر أيامه ، ولما ألقت الدولة مَقَادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الأمر ، وله إليه وسيلة ، وفى حليه شركة ، وعنده حق ، رابه تقصيره عما ارتمى إليه أمله ، فساء ما بينهما بما آل إلى انفصاله عن الباب المَرِينى ، وورد على الأندلس فى أوّل ربيع الأوّل عام أربعة وستين وسبعمائة ، واهتزله السلطان ، وأركب خاصته لتلقيه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه وأجلسه بمجلسه ، ولم يدخر عنه براً ومؤاكلة ومراكبة ومطايبة وفكاهة .

وخاطبنى لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرنى الآن .

فأجبته عنها بقولى :

حللت حلول الغيث فى البلد المحل ... على الطائر الميمون والرحب والسهل (١)

يمينا بمن تَعْنُو الوجوه لوجهه ... من الشيخ والطفل المهدَّإ والكهل (٢)

لقد نشأت عندى للقياك غبطة ... تُنَسِّى اغتباطى بالشبيبة والأهل

أقسمت بمن حجت قريش لبيته ، وقبر صرفت أزِمَّةُ الأحياء لميته ، ونور ضربت الأمثال بِمشْكَاته وزَيْتِه ، لو خيرت أيها الحبيب الذى زيارته الأمنية ، السنية ، والعارفة ، الوارفة ، واللطيفة ، المطيفة ، بَيْنَ رَجْعِ الشباب يَقْطُرُ ماء ، ويرفُّ نماء ،

(١) البلد المحل : المقفر المجدب

(٢) تعنو الوجوه : تخضع

ويغازل عيون الكواكب فضلا عن الكواعب إشارة وإيماء ، بحيث لا الوَخْطُ يلم بسياج لمته ، أو يَقْدح ذبالةً فى ظلمته ، أو يقوم حواريه فى ملته ، من الأحابش وأمته ، وزمانه رَوْح وراح ، ومغدى فى النعيم ومَرَاح ، وقصف صُرَاح ، ورقى وجراح ، وانتحاب وافتراح ، وصدور ما بها إلا انشراح ، ومسرات تردفها أفراح ، وبين قدومك خليعَ الرسن ، ممتعا والحمد لله باليقظة والوَسَن ، محكما فى نسك الجنيد أو فتك الحسن ، ممتعا بظرف المعارف ، مالئاً أكف الصيارف ، ماحياً بأنوار البراهين شبه الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن راقنى زمنه ، وأعيانى ثمنه ، وأجدّت سحائب دمعى دِمَنُه ، فالحمد لله الذى رقى جنون اغترابى ، وملكنى أزمة آرابى ، وغبطنى بمائى وترابى ، ومألف أترابى ، وقد أغصنى بلذيذ شرابى ، ووقع على سطوره المعتبرة إضرابى ، وعجلت هذه مغبطة بمناخ المطية ، ومنتهى الطية ، وملتقى السعود غير البطية ، وتهنى الآمال الوثيرة الوطية ، فما شئت من نفوس عاطشة إلى ريك ، متجملة بزيك ، عاقلة خُطَى مَهْرِيك ، ومولى مكارمه نشيدة أمثالك ، ومظان مثالك ، وسيصدق الخبر ما هنالك ، ويسع فضل مجدك فى التخلف عن الإصحار ، لا بل اللقاء من وراء البحار ، والسلام .

ولما استقر بالحضرة جرت بينى وبينه مكاتبات أقطعها الظرف جانبه ، وأوضح الأدب مذاهبه ، فمن ذلك ما خاطبته به وقد تَسَرَّى جارية رومية اسمها هند صبيحةَ الابتناء بها :

أوصيك بالشيخ أبى بكره لا تأمَنَنْ فى حالةٍ مكره

واجتنب الشك إذا جئته جنبك الرحمن ما تكره

سيدى لا زلت تتصف بالوالج ، بين الخلاخل والدمالج[1] ، وتركض فوقها ركض

---

(١) الخلاخل : جمع خلخال ، وهو حلية تلبسها النساء فى سوقهن ، والدمالج : جمع دملج ، وهى حلية تلبسها النساء فى سواعدهن ، وأراد بين الأيدى والأرجل

المهالج ، أخبرنى كيف كانت الحال ، وهل حُطَّت بالقاع من خير البقاع الرحال ، وأحكم بمرود المراودة الاكتحال ، وارتفع بالسقيا الإمحال ، وصح الانتحال ، وحَصْحَصَ الحق وذهب المحال ، وقد طولعت بكل بشرى و بشر ، وزفت هند منك إلى بِشْر ، فلله من عشية ، تمتعت من الربيع بفُرُش مَوْشِية ، وأبدلت منها أى آساد وحشية ، وقد أقبل ظبى الكِناس ، من الديماس ، ومطوق الحَمَام ، من الحمَّام ، وقد حسنت الوجه الجميل التَّطْرية(١) ، وأزيلت(٢) عن الفرع الأثيث الإبْرِية ، وصُقلت الخدود فكأنها الأمْرِية ، وسُلِّط الدَّلْكُ على الجلود ، وأغريت النورة بالشَّعر المولود ، وعادت الأعضاء يزلق عنها اللمس ، ولا تنالها البنان الخمس ، والسحنة يجول فى صفحتها الفضية ماء النعيم ، والمسواك يلبى من ثنية التنعيم ، والقلب يرمى من الكف الرقيم بالمقعد المقيم ، وينظر إلى نجوم الوشوم فيقول : إنى سقيم ، وقد تفتح ورد الخفَر ، وحكم لزنجى الظفيرة بالظفر ، واتصف أمير الحسن بالصدود المغتفر ، ورش بماء الطيب ، ثم أعلق بباله دخان العود الرطيب ، وأقبلت الغادة ، يهديها اليمن وتزفها السعادة ، فهى تمشى على استحيا ، وقد ذاع طيب الريا وراق حسن المحيا ، حتى إذ نزع الخف ، وقبلت الأكف ، وصخب المزمار وتجاوب الدف ، وذاع الأرج ، وارتفع الحرج ، وتجوّز اللواء والمنعرج ، ونزل على بشر بزيارة هند الفرج ، اهتزت الأرض وربَتْ ، وعوصيت الطباع البشرية فأبت ، ولله در القائل :

ومرت فقالت: متى نلتقى ؟ فهشَّ اشتياقا إليها الخبيث
وكاد يمـــزق سرباله فقلت : إليك يساق الحديث

فلما انسدل جنح الظلام ، وانتصفت من غريم العشاء الأخيرة فريضة السلام ،

(١) تطرية الوجه : تحسينه وتزيينه ، ووقع فى ب « الجميل النظرية » محرفا

(٢) أزيلت : نحيت و بعدت ، والفرع الأثيث : شعر الرأس ، والإبرية -بكسر الهمزة - قشر الرأس يزال بالمشط ونحوه ، ووقع فى ب « وأذبلت » تحريف

وخاطت خيوط المنام عيون الأنام ، تأتى دنو الجلسة ، ومسارقة الخلسة ، ثم عضة النهد ، وقبلة الفم والخد ، و إرسال اليد من النجد إلى الوهد ، وكانت الإمالة القليلة قبل المد ، ثم الإفاضة فيما يغبط و يرغب ، ثم الإماطة لما يشوش و يشغب ، ثم إعمال المسير ، إلى السرير .

وصرنا إلى الحسنى ، ورق كلامنا ورُضْتُ فذلت صعبةً أىَّ إذلال[١]

وهذا بعد منازعة للأطواق يسيرة ، يراها الغيد من حسن السيرة ، ثم شرع فى التكة ونَزْع الشِّكة ، وتهيئة الأرض العَزَاز عمل السكة ، ثم كان الوحى والاستعجال ، وحمى الوطيس والمجال ، وعلا الجزء الخفيف ، وتضافرت الخصور الهيف ، وتشاطر الطبع العفيف ، وتواتر التقبيل ، وكان الأخذ الوبيل ، وامتاز الأنوك من النبيل ، ومنها جائر وعلى الله قصد السبيل ، فيالها من نعم متداركة ، ونفوس فى سبيل القحة متهالكة ، و نفس يقطع حروف الحلق ، وسبحان الذى يزيد فى الخلق ، وعظمت الممانعة ، وكثرت باليد المصانعة ، وطال التراوغ والتزاور ، وشُكى التحاور ، وهنالك تختلف الأحوال ، وتعظم الأهوال ، وتخسر أو تربح الأموال ، فمن عَصاً تنقلب ثعباناً مبينا ، ونونة تصير تنينا ، و بطل لم يهمله المعترك الهائل ، والوهم الزائل ، ولا حال بينه و بين قرنه الحائل ، فتعدى فتكة السُّلَيك إلى فتكة البرَّاض ، وتقلد مذهب الأزارقة من الخوارج فى الاعتراض ، ثم شق الصف ، وقد خضب الكف ، بعد أن كان يصبب البوسى بطعنته ، ويبوء بمقت الله ولعنته

طعنت ابن عبد الله طعنة ثائر لها نَفَذٌ لولا الشعاع أضاءها[٢]

وهناك هدأ القتال ، وسكن الخبال ، ووقع المتوقع فاستراح البال ، وتشوف إلى مذهب الثنوية من لم يكن للتوحيد بمبال ، وكثر السؤل عن المبال ، بما بال ،

---

(١) البيت من لامية امرىء القيس التى أولها * ألا عم صباحا أيها الطلل البالى *
(٢) البيت لقيس بن الخطيم ، وهو من شعر الحماسة (انظر شرح التبريزى ١٧٨/١ بتحقيقنا)

وجعل الجريح يقول وقد نظر إلى دمه ، يسيل على قدمه :

أقول حَمَّلْتُه فى سفكه تعبا ... إنى له عن دمى المسفوك مُعْتَذر

ومن سنان عاد عنانا ، وشجاع صار جبانا ، كلما شابته شائبة رَيْبه ، أدخل يده فى جيبه ، فانحجرت الحية ، وماتت الغريزة الحية ، وهنالك يزيغ البصر ، ويخذل المنتصر ، ويسلم الأسر ، ويغلب الحصر ، ويجف اللعاب ، ويظهر العاب[1] ، ويخفق الفؤاد ، ويكبو الجواد ، ويسيل العرق ، ويشتد الكرب والأرق ، وينشأ فى محل الأمن الفرق ، ويدرك فرعونَ الغَرَق ، ويقوى اللجاج ويعظم الخرق ، فلا تزيد الحال إلا شدة ، ولا تعرف تلك الجائحة المؤمنة إلا رده

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فكم مغرى بطول اللبث ، وهو من الخبث ، يؤمل الكرة ، ليزيل المعرة ، ويستنصر الخيال ، ويعمل باليد الاحتيال .

إنك لا تشكو إلى مصمت ... فاصبر على الحمل الثقيل أو مت

ومعتذر بمرض أصابه ، جرَّعه أوصابه[2] ، ووجع طَرَقه ، جلب أرقَهَ ، وخطيب أُرْتِج عليه أحيانا ، فقال : سيحدث الله بعد عسر يسرا و بعد عِيٍّ بيانا ، اللهم إنا نعوذ بك من فضائح الفروج إذا استغلقت أقفالها ، ولم تتسم بالنجيع أغفالها ، ومن مَعَرَّات الأقذار ، والنكول عن الأبكار ، ومن النزول عن البطون والسُّرَر ، والجوارح الحسنة الغرر ، قبل ثقب الدرر ، ولا تجعلنا ممن يستحيي من البكر بالغداة ، وتعلم منه كلال الأداة ، وهو مجال فضحت فيه رجال ، وفراش شكيت فيه أوجال ، وأعملت روية وارتجال ، فمن قائل :

أرفعه طورا على أصبعى ... ورأسه مضطرب أسفله

---

(١) العاب : العيب ، لغة فيه

(٢) جرعه : سقاه ، والأوصاب : جمع وصب وهو المرض ، شبهه بالشراب

كالخنش المقتول يلقى على عود لكى يطرح فى مَزْبَلَهْ

وقائل :

عدمت من أيرى قُوَى حسه يا حَسْرَةَ المرء على نفسه
تراه قد مال على أصله كحائط خر على أسه

وقائل :

أيحسدنى إبليس داءين أصبحا برجلى ورأسى دُمَّلاً وزكاما
فليتهما كانا به وأزيده رخاوة أير لا يطيق قياما
إذا نهضت للنيك أزباب معشر توسَّدَ إحدى خصيتيه وناما

وقائل :

أقول لأيرى وهو يرقب فتكة به : خبت من أير وعالتك داهيه
إذا لم يكن للأير بخت تعذرت عليه وجوه النيك من كل ناحيه

وقائل :

تعقَّف فوق الخصيتين كأنه رِشاء إلى جنب الركية ملتفُّ
كفرخ ابن ذى يومين يرفع رأسه إلى أبويه ثم يدركه الضعف

وقائل :

تكرش أيرى بعد ما كان أملسا وكان غنيًّا من قواه فأفلسا
وصار جوابى للمهَا إن مررْنَ بى مضى الوصل إلا منية تبعث الأسَى

وقائل :

بنفسى مَنْ حييته فاستخفَّ بى ولم يخطر الهجران يوما على بالى
وقابلنى بالغَوْر والنَّجْد بعد ما حططت به رحلى وجردت سربالى

وما أرتجى من موسر فوق تكة عرضت له شيئا من الحشف البالى

هموم لا تزال تبْـكى ، وعلل الدهر تشكى ، وأحاديث تقص وتحكى ، فإن كنت أعزك الله سبحانه من النمط الأوّل ، ولم تقل :

* وهل عند رسم دارس من معوّل *(١)

فقـد جنيت الثمر ، واستطبت السَّمَر ، فاستدع الأبواق من أقصى المدينة ، واخْرُجْ على قومك فى ثياب الزينة ، واستبشر بالوفود ، وعرف المسمع عازفة الجود ، وتبجح بصلابة العود ، و إنجاز الوعود ، واجن رمّان النهود ، من أغصان القدود ، واقطف ببنان اللثم أقاحَ الثغور وورْدَ الخدود ، و إن كانت الأخرى فأخْفِ الـكمد ، وارض الثمد ، وانتظر الأمد ، وأكذب التوسم ، واستعمل التبسم ، واستكتم النسوة ، وأفِضْ فيهن الرشوة ، وتقلد المغالطة وارتكب ، وجىء على قميصه بدم كذب ، واستنجد الرحمن ، واستعن على أمرك بالـكتمان :

لا تظهرنَّ لعاذل أو عاذر حاليك فى الضراء والسراء

فَلِرَحْمة المتفجعين حرارة فى القلب مثل شماتة الأعداء

وانتشق الأرَجَ ، وارتقب الفرج ، فـكم غمام طماً ، وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى ، وأَمْلِكْ بعدها عِنان نفسك حتى تمـكنك الفرصة ، وترفع إليك القصة ، ولا تسرع إلى عمل لا تفىء منه بتمام ، وخُذْ عن إمام ولله در الحارث بن هشام :

الله يعـلم ما تركت قتالهم حتى رموا مهرى بأشقر مزبد

وعلمت أنى إن أقاتِلْ دونهم أقتل، ولم يضرر عدوى مشهدى

ففررت منهم والأحبة فيهمُ طمعا لهم بعقاب يوم مفسد

واللُّبانات تلين وتجمح ، والمآرب تدنو وتنزح ، وتحرن ثم تسمح(٢) ، وكم من شجاع

---

(١) هذا عجز بيت من معلقة امرىء القيس بن حجر وصدره قوله :

* وإن شفائى عبرة مهراقة *

(٢) تحرن : تجمح ، وتسمح هنا : تلين ويسهل قيادها بعد صعوبة

خام[١] ، و يقظ نام ، ودليل أخطأ الطريق ، وأضل الفريق ، والله عز وجل يجعلها خلة موصولة ، وشملا أكنافه بالخير مشمولة ، و بنية أركانها لركائب اليمن مأمولة ، حتى تكثر خدم سيدى وجواريه ، وأسرته وسَرَاريه ، وتضفو عليه نعم باريه ، ما طورد قَنِيص ، واقْتُحم عِيص ، وأدرك مَرَام عَويص ، وأعطى زاهد وحرم حريص ، والسلام .

تواليفه — شرح البردة شرحا بديعا دل به على انفساخ ذَرْعه ، وتفنن إدراكه ، وغزارة حفظه ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظره فى العقليات تقييداً مفيدا فى المنطق ، ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازى ، و به داعبته أول لقيه ، فقلت له : لى عليك مطالبة فإنك لخصت محصلى ، وألف كتابا فى الحساب ، وشرع فى هذه الأيام فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه بشىء لا غاية فوقه فى الكمال .

وأما نثره وسلطانياته السجعية فخُلُج بلاغة ، ورياض فنون ، ومَعَادن إبداع ، يفرغ عنها يراعه الجرىء ، شبيهة البداآت بالخواتم ، فى نداوة الحروف ، وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة ، واسترسال الطبع .

وأما نظمه فنهض لهذا العهد قُدُماً فى ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه فانثال عليه جوده ، وهان عليه صَعْبه ، فأتى منه بكل غريبة .

خاطب السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة أولها :

أسْرَفْنَ فى هجرى وفى تعذيبى وأطَلْنَ موقف عَبْرتى ونحيبى[٢]
وأبين يوم البين وقفة ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كئيب[٣]

---

(١) خام : جبن (٢) العبرة ـ بالفتح ـ الدمعة ، والنحيب : البكاء
(٣) مشغوف الفؤاد : وصل الحب إلى شغاف قلبه

لله عهــد الظاعنين وغادروا ... قلبي رهينَ صبابة ووجيب[1]
غَرَبت ركائبهم ودمعي سافح ... فشرِقتُ بعدهُم بماء غروبي[2]
يا ناقعا بالعتب غُـلَّةَ شوقهم ... رحماك في عذلي وفي تأنيبي
يستعذب الصبُّ الملامَ وإنني ... ماء الملام لديَّ غير شريب[3]
ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى ... لولا تذكر منزل وحبيب
أهفو إلى الأطلال كانت مَطْلعا ... للبـدر منهم أو كناس ربيب
عبثت بها أيدي البلى وترددت ... في عطفها للدهر آي خطوب
تبلى معاهدها وإنَّ عهودها ... ليجدّها وصفي وحسن نسيبي
وإذا الديار تعرضت لمتيم ... هَزَّته ذكراها إلى التشبيب
إيه على الصبر الجميــل فإنه ... ألوى بدين فؤاديَ المنهوب
لم أنسها والدهر يثني صرفه ... ويغض طرفَيْ حاسدٍ ورقيب
والدار مونقــة محاسنها بما ... لبست من الأيام كل قشيب[4]
ياسائق الأظعان تعتسف الفلا ... وتواصل الإســآد بالتأويب[5]
متهافتاً عن رحــل كل مذلل ... نشوان من أين ومَسّ لُغُوب
تتجاذب النفحات فضل ردائه ... في ملتقاها من صَباً وجَنوب
إن هام من ظَمَإ الصبابة صحبُه ... نهلوا بمورد دمعــه المسكوب
أو تعترض مَسْراهم سدف الدجى ... صدعوا الدجى بغَرامه المشبوب
في كل شعب منية من دونها ... هجر الأماني أو لقــاء شَعُوبِ
هلا عطفت صدورهن إلى التي ... فيهــا لُبانة أعين وقلوب
فتؤم من أكناف يثرب مأمنا ... يكفيك ما تخشاه من تثريب

(١) الظاعنين: المفارقين ، والصبابة : السير مع دواعي النفس ، والوجيب :خفقان القلب واضطرابه (٢) الغروب : جمع غرب ، وهو عرق في العين يسيل منه الدمع

(٣) شريب : مشروب ، فعيل بمعنى مفعول (٤) القشيب : الجديد

(٥) الإسآد : الإغذاذ في السير ، أي الإسراع فيه ، أوهو سير الليل كله بغير تعريس

حيث النبوّة آيُها مجلوّة تتلو من الآثار كل غريب
سر غريب لم يحجِّبه الثرى ما كان سر الله بالمحجوب

ومنها بعد تعديد معجزاته :

يا سيد الرسل الكرام ضراعة تقضى مُنَى نفسى وتذهب حُوبى[(١)]
عاقت ذنوبى عن جنابك والمنى فيها تعللنى بكل كذوب
لا كالألى صرَفُوا العزائم للتقى فاستأثروا منها بخير نصيب
لم يخلصوا لله حتى فرقوا فى الله بين مضاجع وجُنُوب
هب لى شفاعتك التى أرجو بها صفحا جميلا عن قبيح ذنوبى
إن النجاة وإن أتيحت لامرئ فبفضل جاهك ليس بالتسبيب
إنى دعوتك واثقا بإجابتى ياخير مَدْعُوّ وخير مجيب
قصرت فى مدحى فإن يك طيباً فبما لذكرك من أريج الطيب
ماذا عسى يبغى المطيل وقد حوى فى مدحك القرآن كل مطيب
ياهل تبلِّغنى الليالى زورةً تدنى إلىّ الفوزَ بالمرغوب
أمحو خطيئاتى بإخلاصى بها وأحطّ أوزارى وإصْرَ ذنوبى[(٢)]
فى فتية هجروا المنى وتعوّدوا إنضاء كل نجيبة ونجيب[(٣)]
يطوى صحائفَ ليلهم فوق الفلا ما شئت من خَبَبٍ ومن تقريب[(٤)]
إن رنّمَ الحادى بذكرك رددوا أنفاس مشتاق إليك طَرُوبِ
أو غرد الركب الجلى بطيبة حَنُّوا لمغناها حنينَ النِّيب
ورثوا اعتساف البيد عن آبائهم إرث الخلافة فى بنى يعقوب
الطاعنون الخيلَ وهى عوابس يغشى مُثَارُ النقع كلّ سَبِيبِ

(١) الحوب - بضم الحاء - الذنب والإثم
(٢) الأوزار : جمع وزر - بالكسر - وهو الذنب ، والإصر - بالكسر أيضاً - ثقل الذنب
(٣) أنضى ناقته إنضاء : حملها على السير حتى أهزلها
(٤) الخبب والتقريب : ضربان من السير السريع

والواهبون المقربات هواتنـــا من كل خوّار العنان لعوب[1]

والمانعون الجار حتى عرضهم فى منتدى الأعداء غير معيب

تُخْشَى بوادرهم ويُرْجَى حلمهم والعز شـيمة مرتجًى ومَهيبِ

ومنها :

سائل به طامى العُباب وقد سرى تزجى بريح العزم ذات هبوب

تهديه شُهْبُ أسـنة وعزائم يصدعْنَ ليل الحادث المرهوب[2]

حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه وسطا الهدى بفريقها المغلوب

يا ابن الألى شادوا الخلافة بالتقى واستأثروك بتاجها المعصوب

جمعوا بحفظ الدين آى مناقب كرموا بها فى مشهد ومغيب

لله مجـدك طارفا أو تالدا فلقد شهدنا منه كل عجيب

كم رهبة أو رغبة لك والعلا تقتاد بالترغيب والترهيب

لا زلت مسروراً بأشرف دولة يبدو الهدى من أفقها المرقوب

تحيى المعالى غاديا أو رائحا وجديدُ سعدك ضامن المطلوب

وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان إليه وفيها الزرافة :

قدحت يد الأشواق من زندى وهفت بقلبى زفرة الوجـد

ونبذت سلوانى على ثقـــة بالقرب فاستبدلت بالبعـــد

ولربَّ وصلٍ كنت آمله فاعتضت منه مؤلم الصـــد

لا عهد عنـــد الصبر أطلبه إن الغرام أضاع من عهدى

يلحى العـــذول فما أعنفه وأقول ضَلَّ فأبتغى رشدى

وأعارض النفحات أسألها بَرْدَ الجوى فتزيد فى الوَقْدِ

(١) المقربات : الخيل

(٢) صدعه يصدعه : شقه وكسره ، وأراد هنا أن نورها ظهر فى ظلام الليل ، فكأنها فلقت الظلام فلقا .

تهدى الغرام إلى مسالكها … لتعللى بضعيف ما تهدى
يا سائق الوجناء معتسفا … طى الفلاة لطية الوجـد[١]
أرح الركاب ففى الصَّبا نبأ … يغنى عن المستنة الجرد[٢]
وسَـلِ الربوع برامة خبرا … عن ساكنى نجد وعن نجد
ما لى تلام على الهوى خلقى … وهى التى تأبى سوى الحمد
لا بيت إلا الرشد مذ وضحت … بالمستعين معالم الرشـد
نعم الخليفة فى هُدًى وتقى … وبنـاء عز شامخ الطَّوْدِ
نجل السراة الغر شأنهم … كسب العلا بمواهب الوجد

ومنها :

لله مِـنِّى إذ تأوَّبَنِى … ذكراه وهو بشاهق فرد[٣]
شهم يفـل بواترا قضبا … وجموع أفيال أولى أيْدِ
أوريت زند العزم فى طلبى … وقضيت حق المجد من قصدى
ووردت عن ظمإ مناهِلَهُ … فرويت من عز ومن رِفد[٤]
هى جنة المأوى لمن كلفت … آماله بمطالب المجـد
لو لم أعَلَّ بورد كوثرها … ما قلت هـذى جنة الخلد
من مُبْلغ قومى ودونهمُ … قُذُفُ النوى وتَنُوفة البعد
أنى أنفْتُ على رجائهمُ … وملكت عز جميعهم وحدى

ومنها :

ورقيمة الأعطاف حالية … مَوْشية بوشـائع البرد
وَحْشية الأنساب ما أنست … فى موحش البيداء بالقرد

(١) الوجناء : الناقة السريعة السير (٢) المستنة الجرد: أراد الخيل القصيرة الشعر
(٣) تأوبنى : عاودنى ورجع إلى (٤) الرفد ـ بالكسر ـ العطاء

تسمو بجيد بالغ صُعُـدًا ... شرف السُّروح بغير ما جهد
طالت رؤس الشامخات به ... ولربما قصرت عن الوهد
قطعت إليك تنائفا وصلت ... إسْـآدها بالنص والوخد(١)
تحدى على استصعابها ذُلُلاً ... وتبيت طوع القن والقِدّ(٢)
بسعودك اللائى ضمنَّ لنا ... طول الحياة بعيشة رغد
جاءتك فى وفد الأحابش لا ... يرجون غيرك مكرم الوفد
وافوك أنضاء تقلبهـــم ... أيدى السُّرَى بالغَوْر والنجد
كالطيف يستقرى مضاجعه ... أو كالحسام يسلُّ من غمد
يثنون بالحسنى التى سبقت ... من غير إنـكار ولا جَحْد
ويرون لحظك من وفادتهم ... فخراً على الأتراك والهنـد
يا مستعينا جل فى شرف ... عن رتبة المنصور والمهدى
جازاك ربك عن خليقته ... خير الجزاء فنعم ما تسدى
وبقيت للدنيا وساكنها ... فى عزة أبدا وفى سعـــد

وقال يخاطب عمر بن عبد الله مدبر ملك المغرب :

ياسيد الفضلاء دعوة مشفق ... نادى لشكوى البث خير سميع
مالى وللاقصاء بعــد تعلة ... بالقرب كنت لها أجل شفيع
وأرى الليالى رَنَّقَتْ لى صافيا ... منها فأصبح فى الأُجاج شروعى
ولقد خلصت إليك بالقُرَب التى ... ليس الزمان لشملها بصَدُوع
ووثقت منك بأى وعد صادق ... إنى المصون وأنت غيرُ مُضيعِ
وسما بنفسى للخليفة طاعــة ... دون الأنام هواك قبل نزوع

---

(١) الإسآد : السير ، والنص والوخد : ضربان من السير السريع

(٢) الذلل : جمع ذلول ، وهى التى ريضت حتى سهل قيادها . والقن والقد : أراد بهما ما تربط به من حبل ونحوه .

حتى انتحانى الكاشحون بسعيهم فصددتهم عنى وكنتَ منيعى[1]
رغمت أنوفهم بنُجْحٍ وسائلى وتقطعت أنفاسهم بصنيعى
وبغوا بما نقموا على خلائقى حسدا فراموني بكل شنيع
لا تطمعنَّهُمُ ببذل فى التى قد صنتها عنهم بفضل قنوعى
أنى أضام وفى يدى القلم الذى ما كان طيعه لهم بمطيع ؟
ولىَ الخصائص ليس تأبى رتبة حسبى بعلمى ذاك من تفريعى
قسما بمجدك وهو خير ألية أعتدها لفؤادىَ المصدوع
إنى لتصطحب الهمومُ بمضجعى فتحول ما بينى وبين هجوعى
عطفا على بوَحْدتى عن معشر نَفَثَ الإباء صدودهم فى رُوعِى
أغدو إذا باكرتهم متجلدًا وأروح أعثر فى فضول دموعى
حيران أوجس عند نفسى خيفة فتسر فى الأوهام كل مَرُوعِ[2]
أطوى على الزفرات قلبا آده حملُ الهموم تجول بين ضلوعى
ولقد أقول لصَرْف دهرٍ رابنى بحوادث جاءت على تنويع
مهلا عليك فليس خطبك ضائرى فلقد لبست له أجَنَّ دروع[3]
إنى ظفرت بعصمة من أوحد بَذَّ الجميع بفضـله المجموع

وقال يخاطب بعض الوزراء فى حال وَحْشَة :

هنيئا بصوم لا عـداه قَبُولُ وبشرى بعيد أنت فيه منيل
وهنيتها من عزة وسعادة تَتَابَعُ أعوامٌ بهـا وفصول
سقى الله دهرا أنت إنسان عينه ولا مَسَّ ربعا فى حماك مُحول[4]
فعصرك ما بين الليالى مواسم لهـا غرر وضاحة وحُجُولُ

---

(١) انتحانى : قصدنى ، والكاشحون : المبغضون ، ومنيعى : مانعى منهم
(٢) مروع : اسم المفعول من « راعه يروعه » أى أخافه .
(٣) أجن دروع : أكثرها وقاية (٤) محول : جمع محل ، وهو الجدب

وجانبك المأمول للجود مشرع — يحوم عليـــه عالم وجهول
عساك و إن ضنّ الزمان منوّلى — فرسم الأمانى من سواك مُحِيل(١)
أجرنى وليس الدهر لى بمسالم — إذا لم يكن لى فى ذَرَاك مَقيل(٢)
وأوليتنى الحسنى بمــا أنا آمل — فمثلك يولى راجيـــاً وينيل
ووالله ما رُمْتُ الترحل عن قِلًى — ولا سَخَطٍ للعيش فهــو جزيل
ولا رغبة فى هـــذه الدار إنها — لَظِلٌ على هـــذا الأنام ظليل
ولــكن نأى بالشعب عنى حبائب — دعاهنّ خطب للفراق طويل
يهيج بهن الوجــد أنى نازح — وأن فؤادى حيث هنّ حُلول(٣)
عزيز عليهن الذى قــد لقيته — وأن اغترابى فى البلاد يطول
توارت بأنبائى البقاع كأننى — تُخُطِّفت أو غالت ركابى غُولُ
ذكرتك يا مَغْنَى الأحبة والهوى — فطارت بقلـــبى أنَّةٌ وعويل
وحييت عن شوق رباك كأنما — يُمَثَّل لى نُؤْى بهـــا وطلول(٤)
أأحبابنا والعهدُ بينى و بينكم — كريم ، وما عهد الكريم يحول
إذا أنا لم ترض الحمول مدامعى — فــلا قرّبتنى للقـــاء حمول
إلامَ مقامى حيث لم ترد العلا — مرادى ولم تعط القيـــاد ذلول ؟
أجاذب فضل العمر يوماً وليلة — وســـاء صباح بينها وأصيل
ويذهب فيما بين يأس ومطمع — زمانٌ بنيل المكرمات بخيل
تعللنى منـــه أمانى خوادع — ويُؤْيسنى ليّانُ منه مَطولُ
أما لليال لا ترد خطوبهـــا — ففى كبدى من وقعهن فلول
يروّعنى من صرفها كل حادث — تكاد له صُمُّ الجبـــال تزول

---

(١) محيل : دارس متغير (٢) ذراه ـ بفتح الذال ـ جانبه وناحيته
(٣) حلول : مقيمون
(٤) النؤى ـ بضم النون ـ حفيرة تجعل حول الخيمة لئلا يدخلها المطر .

أداري على رغم العِدَا لا لريبة ... يصانع واشٍ خوفها وعذول
وأغدو بأشجانى عليلا كأنما ... تجود بنفسى زفرة وغليل(١)
وإنى وإن أصبحت فى دار غربة ... تحيل الليالى سلوتى وتزيل
وصَدَّتْنِيَ الأيام عن خير منزل ... عهدت به أن لا يُضَام نزيلُ
لأعلم أن الخير والشر ينتهى ... مَدَاه وأن الله سوف يُديل(٢)
وأنى عزيز بابن ماساى مكثر ... وإن هان أنصار وبان خليلُ

وقال يمدح :

هل غير بابك للغريب مؤمّل ... أو عن جنابك للأمانى مَعْدِلُ
هى همة بعثت إليك على النوى ... عزما كما شُحِذ الحسام الصَّيْقل(٣)
متبوأ الدنيا ومنتجع المنى ... والغيث حيث العارض المتهلّل(٤)
حيث القصور الزاهرات منيفة ... تعنى بها زهر النجوم وتحفل
حيث الخيام البيض ترفع للملا ... والمكرمات طرافها المتهدل
حيث الحمى للعز دون مجاله ... ظل أفاءته الوَشِيجُ الذُّبَّل(٥)
حيث الكرام ينوب عن نار القرى ... عَرْفُ الكِبَاءُ بحيهم والمَنْدَلُ(٦)
حيث الجياد أملهن بنو الوغى ... مما أطالوا فى المُغار وأوغلوا
حيث الوجوه الغر قنعها الحيا ... والبشر فوق جبينها يتهلل
حيث الملوك الصِّيد والنفر الألى ... عَزَّ الجوار لديهمُ والمنزل

وأنشد السلطان أبا عبد الله بن الحجاج لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم عام أربعة وستين وسبعمائة هذه القصيدة :

حى المعاهِدَ كانت قبلُ تُحْيِينى ... بواكف الدمع يرويها ويُظْمينى

---

(١) الغليل : حرارة الباطن (٢) يديل : يجعل لى الدولة عليهم
(٣) شحذ : صقل ، والحسام : السيف ، والصيقل : الذى أحد وصار قاطعا
(٤) العارض : السحاب (٥) الوشيج الذبل : أراد الرماح
(٦) الكباء - بزنة الكتاب - وكذا المندل : ضربان من العود الطيب الرائحة

إن الألى نزحت دارى ودارهم ... تحملوا القلب فى آثارهم دونى
وقفتُ أنشد صبرا ضاع بعدهم ... فيهم وأسأل رَسْمًا لا يناجينى (١)
أمثل الربع من شوق وألثمه ... وكيف والفكر يدنيه ويقصينى
وينهب الوجد منى كل لؤلؤة ... ما زال جفنى عليها غير مأمون
سَقَتْ جفونى مغانى الربع بعدهم ... فالدمع وَقْفٌ على أطلاله الجون
قد كان للقلب عن داعى الهوى شُغُل ... لو أن قلبى إلى السلوان يدعونى
أحبابنَا هل لعهد الوصل مُدَّكر ... منكم وهل نسمة منكم تحيينى
مالى وللطيف لا يعتاد زائره ... وللنسيم عليلا لا يداوينى
يا أهل نجد وما نجد وساكنها ... حسنا سوى جنة الفردوس والعين
أعندكم أننى ما مَرَّ ذكركم ... إلا انثنيت كأن الراح تثنينى (٢)
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكم ... شوقا ، ولولا كم ما كان يصبينى
يا نازحا والمنى تُدْنيه من خلدى ... حتى لأحسبه قربا يناجينى
أسلى هواك فؤادى عن سواك وما ... سواك يوماً بحال عنك يسلينى
ترى الليالىَ أنْسَتْكَ ادِّكارىَ يا ... مَنْ لم يكن ذكرُهُ الأيامُ تنسينى

ومنها :

أبعد مَرِّ الثلاثين التى ذهبت ... أولى الشباب بإحسانى وتحسينى
أضعت فيها نفيساً ما وردت به ... إلا سرابَ غرورٍ لا يروّينى
واحسرتى من أمانى كلها خُدَع ... تَرِيشُ غيى ومر الدهر يبرينى (٣)

ومنها فى وصف المشور المبنى لهذا العهد :

يا مصنعا شَيَّدَتْ منه السعودُ حِمًى ... لا يطرق الدهر مبناه بتوهين

---

(١) أنشد صبرا : أطلبه ، من قولهم « نشد فلان الضالة » والرسم : أثر الديار
(٢) انثنيت : عدت ورجعت ، وكأن الراح تثنينى : يريد أنه ذاهب العقل
(٣) تريش : يريد تقوى ، ويبرينى : يريد يضعفنى

صرح يحار لديه الطرف مفتتنا فيما يروقك من شكل وتكوين
بُعْدًا لإيوان كسرى إن مشورك السـامى لأعظم من تلك الأواوين
ودع دمشق ومغناها فقَصْرُكَ ذا أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

ومنها فى التعريض بالوزير الذى كان انصرافه بسببه :

مَنْ مبلغ عنىَ الصحب الألى جهلوا وُدِّى وضاع حماهم إذ أضاعونى
أنى أوَيْتُ من العليا إلى حرم كادت مغانيه بالبشرى تحيينى (١)
وأننى ظاعن لم ألق بعدهم دهراً أشاكى ولا خصما يشاكينى
لا كالتى أخفرت عهدى ليالىَ إذ أقلب الطرف بين الخوف والهون
سقيا ورعيا لأيامى التى ظفرت يداى منها بحظٍّ غـير مَغْبون
أرتاد منهـا مليًّا لا يماطلنى وعدا وأرجو كريماً لا يُعَنِّينى (٢)

ومنها :

وهاك منهـا قوافٍ طيَّهَا حكم مثل الأزاهر فى طى الرياحين
تلوح إن جُلِيَتْ درا ، وإن تليت تثنى عليك بأنفاس البساتين
عانيت منها بجهدى كل شاردة لولا سعودك ما كانت تواتينى (٣)
يمانع الفكر عنهـا ما تقسمه من كل حزن بطىّ الصدر مكنون
لكن بسعدك ذَلَّتْ لى شواردها فرُضْتُ منهـا بتحبير وتزيين (٤)
بقيت دَهْرَكَ فى أمن وفى دعة ودام ملكك فى نصر وتمكين

---

(١) أويت : ركنت ، وكأنه جعله مأوى له

(٢) لا يعنيني : لا يتعبنى ولا يشق على

(٣) تواتيني : تسعفنى

(٤) ذلت : خضعت وانقادت ، وشواردها : نوافرها ، واحدها شاردة ، وأصلها الدابة تنفر من راكبها وتصعب عليه فلا يزال يروضها ويذللها حتى يسلس له قيادها ، شبه القوافى بها ، والتحبير : أراد به التحسين .

وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة قد استعمل فى السفارة إلى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه .

مولده بتونس بلده فى شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائه ، انتهى كلام لسان الدين فى حق ابن خلدون .

قلت : هذا كلام لسان الدين فى حق المذكور فى مبادئ أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير الذى نقلنا منه فى مواضع وسماه « ديوان العبر ، وكتاب المبتدأ والخبر ، فى تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ورأيته بفاس وعليه خطه فى ثمان مجلدات كبار جدا ، وقد عرف فى آخره بنفسه ، وأطال ، وذكر أنه لما كان بالأندلس وحظى عند السلطان أبى عبد الله شم من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض ، فقوض الرحال[1] ، ولم يرض من الإقامة بحال ، ولعب بكرته صوالجة الأقدار ، حتى حل بالقاهرة المعزية واتخذها خير دار ، وتولى بها قضاء القضاة وحصلت له أمور ، رحمه الله تعالى ! .

وكان ـ أعنى الولى بن خلدون ـ كثير الثناء على لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ! .

ولقد رأيت بخط العالم الشهير : الشيخ إبراهيم الباعونى الشامى فيما يتعلق بابن خلدون مانصه محل الحاجة منه : تقلبت به الأحوال حتى قدم إلى الديار المصرية ، وولى بها قضاء قضاة المالكية ، فى الدولة الشريفة الظاهرية ، وصحبته ـ رحمه الله تعالى ! ـ فى سنة ٨٠٣ عند قدومه إلى الشام صحبة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق فى فتنة تمرلنك عليه من الله تعالى ما يستحقه ، وأكرمه تمرلنك غاية الإكرام ، وأعاده إلى الديار المصرية ، وكنت أكثر الاجتماع به بالقاهره المحروسة للمودة الحاصلة بينى وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين

(١) قوض الرحال : أراد أنه انتقل عن هذه البلاد ، وأصله أن العرب كانت بيوتهم خياما ، وكانوا أصحاب رحلة ؛ فكانوا إذا أرادوا الانتقال قوضوا خيامهم أى هدموها وحملوها على إبلهم ؛ ولذلك يقولون فى هذ المعنى أيضا « شدوا رحالهم » و « تحملوا » .

ابن الخطيب ، ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتقاصر عن إدراكه الأطماع ، فرحمة الله تعالى عليهما ، وأزكى تحياته تهدى إليهما ! ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان ، وله من النظم والنثر ما يزرى بعقود الجمان ، مع الهمة العلية ، والتبحر فى العلوم النقلية والعقلية ، وكانت وفاته بالقاهرة المعزية سنة ٨٠٧ ، سقى الله تعالى عهده ! ووطأ فى الفردوس مَهْده ! قاله وكتبه الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن أحمد الباعونى الشافعى ، غفر الله تعالى له زلله ، وأصلح خلله ! انتهى .

ترجمة يحيى البرغواطى من انشاء لسان الدين

ومن نثر لسان الدين ما ذكره فى « الإحاطة » فى ترجمة يحيى بن إبراهيم ابن يحيى البرغواطى من بنى الترجمان ، ولنذكر الترجمة بجملتها لاشتمالها على ما ذكر وغيره فى حق المذكور بعد قوله « إنه من بنى الترجمان » ما صورته : عزف عنهم[1] وانقطع إلى لقاء الصالحين ، وصحبة الفقراء المتجردين ، وكان نسيجَ وَحْدِه فى طلاقة اللسان ، حافظا لكل غريبة من غرائب الصوفية ، يتكلم فى مشكلاتهم ، حفظ « منازل السائرين » للهروى ، وتائية ابن الفارض ، مليح الملبس ، مترفع عن الكُدْية[2] ، حسن الحديث ، صاحب شهرة ، ومع ذلك فمغضوض منه ، محمول عليه ، لما جبل عليه من رفض الاصطلاح ، واطراح التغافل ، مُولَع بالنقد ، والمخالفة فى كل ما يطرق سمعه ، مرشحا ذلك بالجدل المبرِم ، ذاهبا أقصى مذاهب القِحَة ، كثير الفلتات ، نالته بسبب هذه البلية محن ، ووسم بالرهق فى دينه مع صحة العقد ، وهو الآن عامر الرباط المنسوب إلى اللجام على رسم الشياخة ، عديم التابع ، مهجور الفناء ، قيد الكثير من الأجزاء : منها فى نسبة الذنب إلى الذاكر جزء نبيل غريب المأخذ ، ومنها فيما أشكل من كتاب أبى محمد بن الشيخ ، وصنف كتابا كبير الحجم

(١) عزف عنهم : أى انصرف عنهم وتركهم

(٢) الكدية : أراد بها السؤال ، والمستعمل فى كلام العرب فى هذا المعنى « التكدية » يقولون « كدى تكدية » ولكن المولدين يستعملون هذا اللفظ كثيرا .

فى الاعتقادات جلب فيه كثيراً من الحكايات ، رأيت عليه بخط شيخنا أبى عبد الله المقَّرى ما يدل على استحسانه ، ومن البرسام الذى يجرى على لسانه ، بين الجد والقحة والجهالة والمجانة ، قوله لبعض خدام باب السلطان وقد ضويق فى شىء أضجره منقولا من خطه بعد رد كثير منه للإعراب ما نصه : الله نور السموات من غير نار ولا غيرها ، والسلطان ظل له وسراجه فى الأرض ، ولكل منهما فَرَاش مما يليق به ويتهافت عليه ، فهو تعالى محرق فراشه بذاته ، مغرقهم بصفاته وسراجه ، وظله هو السلطان محرق فَرَاشِهِ بناره ، مغرقهم بزيته ونواله ، ففراش الله تعالى ينقسم إلى حافين ومسبحين ومستغفرين وأمناء وشاخصين ، وفراش السلطان ينقسمون إلى أقسام لا يشذ أحدهم عنها ، وهم وزغة ابن وزغة ، وكلب ابن كلب ، وكلب مطلقا ، وعار ابن عار ، وملعون ابن ملعون ، وقط ، فأما الوزغة فهو المغرق فى زيت نواله المشغول بذلك عما يليق بصاحب النعمة من النصح وبذل الجهد ، والكلب ابن الكلب هو الكيس المتحرز فى تهافته من إحراق وإغراق يعطى بعض الحق ويأخذ بعضه ، وأما الكلب مطلقاً فهو المواجه وهو المشرد للسفهاء عن الباب المعظم القليل النعمة ، وأما العار ابن العار فهو المتعاطى فى تهافته ما فوق الطوق ، ولهذا امتاز هذا الاسم بالرياسة عند العامة إذا مر بهم جلف أو متعاظم يقولون : هذا العار ابن العار ، يحسب نفسه رئيساً ، وذلك لقرب المناسبة ؛ فهو موضوع لبعض الرياسة ، كما أن الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة ، وأما الملعون ابن الملعون فهو المغالط المعاند المشارك لربه المنعم عليه فى كبريائه وسلطانه ، وأما القط فهو الفقير مثلى المستغنى عنه لكونه لا تختص به رتبة ، فتارة فى حجر الملك ، وتارة فى السنداس ، وتارة فى أعلى الرتب ، وتارة محسن ، وتارة مسىء ، تغفر سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة ، إذ هو من الطوَّافين ، متطير بقتله وإهانته ، تياه فى بعض الأحايين بعزة يجدها من حرمة أبقاها له الشارع ، وكل ذلك لا يخفى ، وأما الفراش المحرق

فهو عند الدول نوعان : تارة يكون ظاهراً وحصته مسح المصباح وتصفية زيته ، وإصلاح فتيله وستر دخانه ومسايسة مايكون من المطلوب منه ، ووجود هذا شديد الملازمة ظاهرا ، وأما المحرق الباطن فهوالمشار إليه فى دولته بالصلاح والزهد والورع فيعظمه الخلق و يترك لماهو بسبيله ، فيكون وسيلة بينهم و بين ربهم وخليفته الذى هومصباحهم ، فإذا أراد الله تعالى إهلاك المروءة و إطفاء مصباحها تولى ذلك أهل البطالة والجهالة ، وكان الأمر كما رأيتم ، والكل فَرَاش متهافت ، وكل يعمل على شاكلته .

قال الوزير لسان الدين : وطلب منى الكتب عليه بمثل ذلك فكتبت ببعض أوراقه إثارة لضجره ، واستدعاء لفكاهة انزعاجه ، ما نصه : وقفت من الكتاب المنسوب لصاحبنا أبى زكريا البرغواطى على برسام محموم[1] ، واختلاط مذموم ، وانتساب زَنْجٍ فى رُوم ، وكان حقه أن يتهيب طريقا لم يسلكها ، ويتجنب عقيلة لم يملكها ، إذ المذكور لم يتلق شيئاً من علم الأصول ، ولا نظر من الإعراب فى فصل من الفصول ، إنما هى قِحَة وخلاف ، وتهاون بالمعارف واستخفاف ، غير أنه يحفظ فى طريق القوم كل نادرة ، وفيه رجولية ظاهرة ، وعنده طلاقة لسان ، وكفاية قلما تتأتى لإنسان ، فإلى الله نضرع أن يعرفنا مقادير الأشياء ، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء ، وقد قلت مرتجلا من أوّل نظرة ، واجتزاء بقليل من كثرة :

كل جار لغاية مَرْجُــوَّه فهو عندى لم يعد حق الفتوّه
وأراك افتحمت ليلا بهيما موجلا منك ناقة فى كوّة
لا اتباعا ولا اختراعا أتدنا إذ نظرنا عروسك المجلوّه

---

(١) أصل البرسام ـ بكسر الباء أو فتحها ـ التهاب يعرض للحجاب الذي بين الكبد والقلب ، فارسى مركب ، ومعناه التهاب الصدر ، ويقولون « فلان مبرسم » و « برسم فلان » بالبناء للمجهول ـ وهم يريدون أنه يهذى ويهرف ، لأن من لوازم البرسام اشتداد الحرارة ، فينشأ عنه الهذيان .

كل ما قلته فقد قاله النا　　س مقالا آياته متلوّه

لم تزد غير أن أبحث حمى الإعراب فى كل لفظة مقروّه

نسأل الله فكرة تلزم العقـ　　ـل إلى حشمة تحوط المروّه

وعزيز علىّ أن كنت يحيى　　ثم لم تأخذ الكتاب بقوّه(١)

من لسان الدين إلى السلطان ابن يغمراسن

ومن بديع نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه لسلطان تلمسان إثر قصيدة سينية حازت قصب السبق ، ولنثبت الكل هنا فنقول : قال الإمام الحافظ عبد الله التنيسى نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ، عند ماجرى ذكر أمير المسلمين السلطان أبى حَمُو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن بن زيان رحمه الله تعالى ، ما صورته : وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب كثيراً ما يوجه إليه بالأمداح ، ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة ، وذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه ، فجعلها مقدّمة بين يدى نَجْوَاه ، لتمهد له مَثْوَاه ، وتحصل له المستقر ، إذا ألجأه الأمر إلى المفر ، فلم تساعده الأيام ، كما هو شأنها فى أكثر الأعلام ، وهى هذه :

أطْلَعْنَ فى سُدَف الفروع شُمُوسَا　　ضحك الظلامُ لها وكان عَبُوسَا(٢)

وعطفن قُضْبًا للقدود نواعما　　بوّئن أدواح النعيم غُرُوسَا

وعَدَلْنَ عن جهر السلام مخافة الواشى فجئن بلفظه مهموسا

وسَفَرن من دَهَش الوداع وقومُهُنّ إلى الترحل قد أناخوا العيسا

وخلسن من خلل الحجال إشارة　　فتركن كل حجالها مخلوسا

لم أنسها من وحشة والحىّ قد　　زجر الحمول وآثر التغليسا

لا الملتقى من بعدها كَثَبٌ ولا　　عُوجُ الركائب تسأم التجنيسا(٣)

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى شأن يحيى بن زكريا : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة)

(٢) السدف : جمع سدفة - بالضم - أى الظلمة ، والفروع : جمع فرع ، وهو الشعر ، وأراد بالشموس وجوههن . (٣) كثب : قريب ، والعوج : الضامرة من الإبل التى اعوجت هزالا وجوعا ، واحدها أعوج أو عوجاء .

فوقفت وقفـــة هائم برحاؤه وقفت عليـه وحبست تحبيسا
ودَعَوْتُ عينى عاتبا وعيونهـــا بعصا النوى قد بجست تبجيسا[1]
نافست يا عينىَّ در دموعهم فعرضت درا للدموع نفيســـا
ما للحمى بعـد الأحبة موحشا ولـكم تراءى آهـــلا مأوسا
ولسِرْبِهِ حول الخميـــلة نافرا عمن يحسُّ به وكان أنيسا
واظله المورود غمر قليبـــه لا يقتضى وردا ولا تعريســـا
حييته فأجابنى رَجْعُ الصـدى لا فرق بينهما إذا ما قيســـا
ما إن يزيد على الإعادة صوته حرفا فيشفى بالمزيد نسيســـا
نضب المعين وقلص الظل الذى ظَلْنَاً عكوفا عنـده وجلوسا
نتواعـــد الرجْعَى ونغتنم اللقا ونديرمن شكوى الغرام كؤسا
فإذا سألت فلا تسائل مخـــبرا وإذا سمعت فلا تحس حسيسا
عهدى به والدهر يتحف بالمنى وقد اقتضت نعماه أن لا بوسا
والعيش غَضٌّ الربع والدنيا قد اجتليت بمغناه على عروســا
أترى يعيد الدهر عهدا للصـــبا درست مغانى الأنس فيه دروسا
أوطان أوطار تعوّض أفْقُهَا من رونق البشر البهى عبوسا
هيهات لا تغنى لعلَّ ولا عسى فى مثلهـــا إلا لآية عيسى
والدهر فى دَسْت القضاء مدرس فإذا قضى يستأنف التدريسا
تفتنُّ فى جمـــل الورى أبحاثه لا سيما فى باب نعم وبيســـا
وسجية الإنسان ليس بناصـــل من صبغها حتى يُرَى مَرْمُوسا
يغتر مهما ســـاعدت آماله فإذا عَرَاه الخطب كان يَؤُسا

---

(١) بجست تبجيسا : أراد انهمرت الدموع منها ، وأخذ هذه الاستعارة من قوله تعالى فى شأن موسى عليه السلام (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا) .

فلو أن نفسا مكنت من رشدها ... يوما وقدّسها الهدى تقديسا
لم تستفزّ رسوخها النعمى ولا ... هلعت إذا كَشَرَتْ إليها البوسا
قل للزمان إليك عن متذمّمٍ ... بضمان عز لم يكن ليخيسا(١)
فإذا استحرّ جلاده فأنا الذى استغشيت من سَرْد اليقين لَبُوسا
وإذا طغى فرعونه فأنا الذى ... من ضره وأذاه عُذْتُ بموسى
أنا ذا أبو مَثْواه مَنْ يحمى الحمى ... ليثا ويعلم بالزئير الخيسا
بحمى أبى حمو حططت ركائبى ... لما اختبرت الليث والعرّيسا
أسد الهياج إذا خطا قدمًا سطا ... فتخلف الأسد الهزبْرُ فريسا
بدر الهدى يأبى الضلال ضياؤه ... أبدا فيجلو الظلمة الحنديسا
جبل الوقار رسا وأشرف واعتلى ... وسما فطأطأت الجبالُ رؤسا
غيث النوال إذا الغمام حَلُوبة ... مثلت بأيدى الحالبين بَسُوسا
تلقاه يوم الأنس روضا ناعما ... وتراه بأسا فى الهياج بئيسا
كم غمرة جلى وكم خطب كفى ... إن أوطأ الجُرْدَ العتاقَ وطيسا
كم حكمة أبدى وكم قصد هدى ... للسالكين أبان منه دريسا
أعلى بنى زيان والقدّ الذى ... لبس الكمال فزين الملبوسا
جمع الندى والبأس والشيم العلا ... والسؤدد المتواتر القُدْمُوسا
والحلم ليس يباين الخلق الرضى ... والعلم ليس يعارض الناموسا
والسعد يغنى حكمه عن نصبة ... تستخبر التربيع والتسديسا
كم راض صعبا لايراض مُعاصيا ... كم خاض بحرا لايخاض ضَرُوسا
بلغ التى لا فوقها متمهلا ... وعلا السها واستسفل البرجيسا

(١) إليك : أى تنح وابعد . ومتذمم : أراد به المتمسك بذمة وعهد، ويخيس يغدر ، تقول « خاس فلان بعهده يخيس خيسا » إذا غدر ونكث

يا خير من خفقت عليه سحابة ... للنصر تمطره أجش بجيسا
وأجل من حملته صهوة سابح ... إن كر ضعضع كره الكردوسا[(١)]
قسما بمن رفع السماء بغيرما ... عمد ورفّع فوقها إدريسا
ودحا البسيطة فوق لجّ مزْبد ... ما إن يزال على القرار حبيسا
حتى يهيب بأهله الوعدُ الذى ... حشر الرئيس إليه والمرؤسا
ما أنت إلا ذخر دهرك دمت فى الصون الحريز ممتّعًا محروسا
لو ساومته الأرض فيك بماحوت ... لرآك مستاما بها مبخوسا
حلف البرورُ بها أليةَ صادق ... ويمين من عقد اليمين غموسا
مَن قاس ذاتك بالذوات فإنه ... جهل الوزان وأخطأ التقييسا
لا تستوى الأعيان فضل مزية ... وطبيعة فطر الإله وسُوسا[(٢)]
لعناية التخصيص سر غامض ... من قبل ذرء الخلق خصّ نفوسا
من أنكر الفضل الذى أوتيته ... جحد العيان وأنكر المحسوسا
من دان بالإخلاص فيك فعقده ... لا يقبل التمويه والتلبيسا
والمنتمى العلوى عيصُك لم تكن ... لترى دخيلا فى بنيه دسيسا
بيت البتُول ومنبت الشرف الذى ... تحمى الملائك روحه المغروسا
أما سياستك التى أحكمتها ... ورمَيْتَ بالتقصير إسطاليسا
فلوَ أن كسرى الفرس أبصر بعضها ... ما كان يطمع أن يعد بسوسا
لو سار عدلك فى السنين لما اشتكت ... بخسا، ولم يك بعضهن كبيسا
ولوِ الجوارى الخنّس انتسبت إلى ... إقدام عزمك ما خنسن خنوسا
قُدْتَ الصعاب فكل صعب سامح ... لك بالقياد وكان قبل شَمُوسا

(١) الصهوة : مقعد الفارس من الفرس ، والسابح : أراد به الفرس السهل السير كأنه يسبح فى الماء فهو لا يتعب راكبه ، وكر : أقدم فى الحرب ، وضعضع : أضعف والكردوس - بضم الكاف - أراد به الكتيبة من الجيش .

(٢) السوس - بالضم - الخيم والسجية والطبيعة .

تلقى الليوث وللقتام غمامة قَدَحَ الصفيحُ وَمِيضَها المقبوسا
وكأنها تحت الدروع أراقم ينظرن من خلل المغافر شُوسَا
مالابن مامة فى القديم وحاتم ضرب الزمانُ بجودهم ناقوسا
من جاء منهم مثل جودك كلما حسبوا المكارم كسوة أو كيسا
أنت الذى فتك السفين وأهله إذ أوسعت سبلُ الخلاص طموسا
أنت الذى أمددت ثغر الله بالصـدقات تُبْلِسُ كرة إبليسا
وأعَنْتَ أندلُسًا بكل سبيكة موسومة لا تعرف التدنيسا
وشَحَنته بالبر فى سبل الرضا والبر قارب قاعها القاموسا
إن لم تجرّ بها الخميسَ فطالما جَهَّزْتَ فيها للنوال خميسا
وملأت أيديها وقد كادت على حكم القضاء تُشَافِهِ التفليسا
صدّقت للآمال صنعةَ جابر وكفيتها التشميع والتشميسا[1]
والحل والتقطير والتصعيد والتخمير والتصويل والتكليسا
فسبكت من آمالها مالا ، ومن أوراقها وَرِقاً ، وكنّ طروسَا
بُهِتُوا فلما استخبروا لم ينكروا وزنا ولا لونا ولا ملموسا
وتُدِير من قلب السُّطور سبائكا منها ومن طبع الحروف فلوسا
ونحوت نحو الفضل تعضد منه بالمسموع ما ألفيت منه مَقِيسَا
وجبرت بعد الكسر قومَك جاهدا تُغْنِى العديمَ وتطلق المحبوسا
ونشرت راية عزهم من بعدما دال الزمانُ فسامها تنكيسا
أحكمت حيلَةَ برئهم بلطافة قد أعجزت فى الطب جالينوسا
وَفَللتَ من حد الزمان وإنه أوحى وأمضى من غِرَار المُوسَى[2]

---

(١) يريد جابر بن حيان ، وهو ممن اشتهر بالكيمياء ، والألفاظ التى استعملها فى هذا البيت والذى بعده من مصطلح علم الكيمياء . (٢) غرار الموسى : حده .

وشحذت حَـدًّا كان قبلُ مُثَلَّما ونعشت جَدًّا كان قبلُ تعيسا[١]

لم ترجُ إلا الله جل جـلاله في شدة تكفي وجرح يُوسَى

قدمت صبحا فاستضأت بنوره ووجدت عند الشدة التنفيسا

ما أنت إلا والج متيقّن بالنُّجْح تعمر مُمْرِعًا ويبيسا

ومُناجز جعلَ الأريكةَ صهوة عربيـة والمتكا القربُوسا

ما إن تبايع أو تشارى واثقا بالربح إلا المالك القُدُّوسا

والعزم يفترعُ النجومَ بناؤه مهما أقام على التقى تأسيسا

ومقام صبرك واتكالك مُذْكر بحديثـه الشبليَّ أو طَاوُسا[٢]

ومن ارتضاه الله وفَّقَ سعيه فرأى العظيم من الحظوظ خسيسا

ما ازددتَ بالتمحيص إلا جِدَّةً ونضوت من خِلَع الزمان لَبِيسَا

ولطالما طرق الخسوفُ أهـلةً ولطالما اعترض الكسوف شموسا

ثم انجلتْ نَسَماتها عن مشرق للسعد ليس بحاذر تتعيسا

خذها إليك على النوى سينية ترضى الطِّباق وتشكر التجنيسا

إن طُووِلَتْ بالدر من حول الطُّلَى يوما تشكّتْ حظها الموكوسا

لولاكَ ما أصغَتْ لِخطبةِ خاطبٍ ولعُنِّسَتْ في بيتها تعنيسا

قصدت سليمان الزمان وقاربت في الخطو تحسب نفسها بَلْقيسا

لي فيك وُدٌّ لم أكن من بعدما أعطيت صفقةَ عهدِه لأخيسا

كم لي بصحة عقده من شاهد لا يَحْذَرُ التجريح والتدليسا

يقفو الشهادة باليمين ، وإنه لمؤَمَّنٌ من أن يعد قَسِيسَا[٣]

لا يستقر قرار أفكاري إلى أن أستقر لدى علاك جليسا

(١) شحذت : أراد حددت ، والمثلم : المكسر الحد ، ونعشت : أراد به معنى أسعدت ، والجد — بفتح الجيم — الحظ والبخت . (٢) الشبلي : هو دلف بن جحدر بن يونس ، وطاوس : هو طاوس بن كيسان الخولاني ، وهما من كبار الزهاد المتصوفين (٣) القسيس — بزنة أمير — أصله النمام ، وأراد هنا الكذاب

وأرى تجاهلك مستقيم السير للقصد الذى أعملته معكوسا

هى دين أيامى فإن سمحَتْ به ... لم يبق من شىء عليه يُوَسَّى

لا زال صنعُ الله محبوبا إلى ... مَثْوِك يهدى البشر والتأنيسا

متتابعا كتتابع الأيام لا ... يَذَرُ التعاقب جمعة وخميسا

فَلَوَ اُنصفتك إيالة الملك الذى ... رُضْتَ الزمان لها وكان شَرِيسا

قرنت بذكرك والدعاء لك الذى ... تختاره التسبيح والتقديسا

القلبُ أنت لها رئيس حياتها ... لم تعتبر مهما صلحت رئيسا

ثم قال الحافظ التنيسى رحمه الله تعالى بعد سَرْد هذه القصيدة ما معناه : إن لسان الدين بن الخطيب حَذَا فى هذه القصيدة السينية حَذْوَ أبى تمام فى قصيدته التى أولها :

أقشيبَ ربعهم أراك دَرِيسَا ... تَقْرِى ضيوفَكَ لوعة ورَسِيسَا[1]

واختلس كثيرا من ألفاظها ومعانيها ، انتهى .

ووصل لسان الدين هذه القصيدة بنثر بديع نصه : هذه القصيدة ــ أبقى الله تعالى أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل المجموع ، والثناء المسموع ، والملك المنصور الجموع ! ــ نفثة مَنْ باح بسر هَوَاه ، ولبى دعوة الشوق العابث بلبه وقد ظفر بمن يهْدِى خبر جَوَاه إلى محل هواه ، ويختلس بعث تحيته ، إلى مُثِير أريحيته ، وهى بالنسبة إلى ما يعتقد من ذلك الكمال ، الشاذ عن الآمال ، عنوانٌ من كتاب ، وذواق من أوقار ذات أقتاب ، وإلا فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه ، أو يكافىء إحسانَهَا إحسانه ، أو يستقل بوصفها براعه ، أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه ؟ ولا مكابرة بعد الاعتراف ، والبحر لا ينْفَدُ بالاغتراف ، لاسيما وذاتكم اليومَ والله تعالى يبقيها ، ومن المكاره يَقِيها ، وفى معارج القرب من حضرة القدس يرقيها ،

---

(١) القشيب : الجديد ، والدريس ومثله الدارس : المتغير البالى ، وتقرى : مضارع « قرى ضيفه » إذا قدم له الألطاف ، والرسيس : أراد به أس الحب .

ياقوتة اختارها واعتبرها ، ثم ابتلاها بالتمحيص فى سبيل التخصيص واختبرها ، وسبيكة خلصها وسخرها ، فخلصها لتسخيره من الشَّوْب ، وأبرزها من لباب الذوب ، وقصرت عن هذه الأثمان ، وسر يصدق دعواه البهرمان ، ليفاضل بين الجهام والصَّيِّب ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، فأراكم أن لا جَدْوَى للعديد ولا للعدة ، وعرّفكم بنفسه فى حال الشدة ، ثم فسح لكم بعد ذلك فى المدة ، لتعرفوه إذا دال الرخاء ، وهبت بعد تلك الزعازع الريحُ الرُّخاَء ، وملأكم من التجارب ، وأوردكم من ألطافه أعذبَ المشارب ، ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلائه ، ولم يَسْلُبكم إلا حقيرا عند أوليائه ، وأعادكم المعاد المُطَهر ، وألبسكم من أثواب اختصاصه المُعْلِم المشهر ، فأنتم اليومَ بعين العناية ، بالإفصاح والكناية ، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجناية ، فإن كان الملك اليوم عِلْما يدرس ، وقوانين فى قوّة الحفظ تغرس ، وبضاعة برَصْد التجارب تحرس ، فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة ، وأصمعيُّ شعوبه المنسوبة ، إلى ماحزتم من أشتات الكمال ، المُرْبِية على الآمال ، فالبيت علوى المنتسب ، والملك بين الموروث والمكتسب ، والجود يعترف به الوجود ، والدين يشهد به الركوع والسجود ، والبأس تعرفه التَّهائم والنُّجُود ، والخلق يحسده الروض المَجُود ، والشعر يغترف من عذب نَمِير ، ويصدق من قال : بدئ بأمير وختم بأمير ، وإن مملوككم حوّمَ من بابكم على العذب البَرُود ، فعاقه الدهر عن الورود ، واستقبل أفقه ليحقق الرَّصْد ، ولكنه أخطأ القصد ، ومن أخطأ الغرض أعاد ، ورجا من الزمان الإسعاد ، فربما خَبِئَ نصيب ، أوكان مع الخواطئ سهم مصيب (١) ، وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز ، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز ، وقطعته القواطع التى لم ينلها الحساب ، ومنعت الموانع التى خاص منها إلى الفتنة الانتساب ،

---

(١) أخذه من قولهم فى مثل « مع الخواطىء سهم صائب »

ومن طلب الأيام أن تجرى على اقتراحه ، وَجَبَ العملُ على اطِّراحه[1] ، فإنما هى البحر الزاخر ، الذى لا يدرك منه الآخر ، والرياح متغايرة ، والسفينة الحائرة ، فتارة يتعذر من المرسى الصرف ، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتدَّ الطَّرْف ، هذا إن سالمها عَطَبُها ، وأُعْفِيَ من الوقود حَطَبُها ، ولقد علم الله جل جلاله أن لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمامُ المطلوب ، ممن يجبر كسر القلوب ، فإنه مما انعقد على كماله الإجماع ، وصَحَّ فى عَوَالى معاليه السَّماع ، وارتفعت فى وجود مثاله الأطماع ، أخلاقا هَذَّبها الكرم الوضاح ، وسجية كلف بها الكمال الفضاح ، وحرصا على الذكر الجميل وما يتنافس فيه إلا مَنْ سَمَتْ هِمَمُه ، وكرمت ذِمَمُه ، وألفت الخلد رممه ، إذ الوجود سَرَاب ، وما فوق التراب تراب ، ولا يبقى إلا عمل راق ، أو ذكر بالجميل يُسَطر فى أوراق ، حسبما قلت من قصيدة كتبتها على ظهر مكتوب موضوع أشار به من كانت له طاعة ، فوفت بمقترحِه استطاعة :

يمضى الزمان وكل فانٍ ذاهب   إلا جميل الذكر فهو الباقى

لم يبق من إيوان كسرى بعد ذا   ك الحفل إلا الذكر فى الأوراق

هل كان للسفاح والمنصور والـ   ـمهدىِّ من ذكر على الإطلاق

أو للرشـيد وللأمين وصِنْوه   لولا شَبَاة يراعـة الوَرَّاق[2]

رَجَعَ التراب إلى التراب بما اقتضت   فى كل خلق حكمةُ الخلاق

إلا الثناء الخالد العَطِر الشَّذَى   يهدى حديث مكارم الأخلاق

والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب ، أن يمكنها من حسن المَثَاب ، فتحظى بحلول ساحته ، ثم بلثم راحته ، ثم بالإصغاء ، ولا مزيد للابتغاء ، إلى أن ترتفع الوَسَاطة ، وتغنى عن التركيب البساطة ، ويُذْنَى الأثر بالعَيْن ، ويحسن الدهر قضاء الدين ،

---

(١) اطراحه : أراد به تركه وعدم الاعتداد به ، وأصل معناه الرمى

(٢) أصل الشباة ـ بفتح الشين ـ حد السنان ونحوه ، واليراعة : القلم ، وأراد بالشباة طرفها الذى يكتب به .

ونسأل الذى أغرى بها القريحة ، ولم يجعل الباعثَ إلا المحبةَ الصريحة ، أن يبقى تلك المثابة زيْناً للزمان ، وذخرا مكنوفا باليمن والأمان ، مظللا برحمة الرحمن ، بفضله وكرمه ، انتهى .

من لسان الدين إلى ابن مرزوق

ومما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى إلى الشيخ الرئيس الخطيب شيخه أبى عبد الله بن مرزوق رحمه الله تعالى حين كانت أزِمَّةُ أمر المغرب بيده أيام السلطان أبى سالم ابن السلطان أبى الحسن المَرِينى رحم الله تعالى الجميع ! ما صورته :

سيدى بل مالكى بل شافعى ، ومُنْتَشِلى من الهفوة ورافعى ، وعاصمى عند تجويد حروف الصنائع ونافعى ، الذى بجاهه أجزلت المنازلُ قِرَاى ، وفضلت أولاى والمنة لله تعالى أخراى[1] ، وأصبحت وقول أبى الحسن هِجِّيراى :

علقت بحبلٍ من حبال محمد أمنت به من طارق الحَدَثَانِ
تغطيْتُ من دهرى بظلِّ جناحه فعينى ترَى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام ما اسْمِيَ ما دَرَتْ وأين مكانى ما عرفن مكانى

وصلت مكناسة حرسها الله تعالى حدانى حدو نداك ، سحائب[2] لولا الخصال المبرة قلت بذاك ، وكان الوطن لاغتباطه بجوارى ، أو ما رآه من انتياب زوّارى ، أوغر إلى بهت يقطع الطريق ، وأطلع يده على التفريق ، وأشرق القوافل مع كثرة الماء بالريق ، فلم يسع إلا المقام أياما قعودا فى البر وقياما ، واختياراً لضروب الأنس واعتياما ، ورأيت بلدة معارفها أعلام ، وهواؤها برد وسَلام ، ومحاسنها تعمل فيها ألسنة وأقلام ، فحيَّا الله تعالى سيدى فلكَمْ من فضل أفاد ، وأنس أحياه وقد باد ، وحفظ منه على الأيام الذخْرَ والعَتَاد ، كما ملكه زمام الكمال فاقتاد ، وأنا أتطارح عليه فى صِلات تَنَقُّدِهِ ، وموالاة يده ، بأن يُسْهمنى فى فرض مخاطبته

---

(١) يريد أن أخراه كانت من أفضل من أولاه ، وكان الواجب عليه عربية أن يقول « وفضلت أخراى والمنة لله أولاى » لأن تقديم الفاعل فى مثل هذا واجب عربية لكون الفاعل والمفعول غير ظاهرى الإعراب . (٢) فى ب « وسحائب »

مهما خاطب معتبرا بهذه الجهات ، و يصحبنى من مناصحته بكؤس مسرة يعمل فيها هاكَ وهات ، فالعز بعزه معقود ، والسعد بوجوده موجود ، ومَنْهَلُ السرور بسروره مورود ، والله عز وجل يُبْقيه بقاء الدهر ، ويجعل حُبَّه وظيفة السر وحَمْده وظيفة الجهر ، ويحفظ على الأيام من زمنه زمن الزهر ، ويصل لنا تحت إيالته العام بالعام والشهر بالشهر ، آمين آمين ، انتهى .

من لسان الدين تهنئة إلى ابن أبى مدين

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى صاحب الأشغال بالمغرب أبا عبد الله بن أبى القاسم بن أبى مَدْين يهنيه بتقلد المنصب من رسالة قوله :

تعود الأمانىُّ بعد انصراف ويعتدل الشىء بعد انحراف

فإن كان دَهْرُكَ يوماً جَنَى فقد جاء ذا خَجَلٍ واعتراف

طلع البشير أبقاك الله تعالى بقَبول الخلافة المرينية ، والإمامة السنية ، خصها الله تعالى ببلوغ الأمنية ، على تلك الذات التى طابت أرومتها[1] وزكت ، وتأوّهت العلياء لتذكر عَهْدها و بكت ، وكاد السرور يتقطع لولا أنها تركت منك الوارثَ الذى تركت ، فلولا العذر الذى تأكدت ضرورته ، والمانع الذى ربما تقررت لديكم صورته ، لكنت أول مُشَافه بالهناء ، ومصارف لهذا الاعتناء ، الوثيق البناء ، بنُقُود الحمد لله والثناء ، وهى طويلة .

من لسان الدين يشكو من مشقة نالته

ومما خاطب به رحمه الله تعالى قاضىَ الجماعة وقد نالته مشقة جرها غلطُ الخدّام السوء واشتراك الأسماء أعتبه[2] عندها السلطان وخلع عليه وأشاد بقدره بما نصه :

تعرفت أمرا ساءنى ثم سرنى وفى صحة الأيام لا بدّ من مَرَضْ

تعمدك المحبوب بالذات بعدما جرى ضدّه والله يكفيه بالعرض

---

(١) الأرومة : الأصل ، وزكاؤها : طهارتها ونماؤها .

(٢) أعتبه : أزال سبب عتبه وأرضاه .

فى مثلها سيدى يُحْمَدَ الاختصار ، وتقصر الأنصار ، وتصرف الأبصار ، إذ لم يتعين ظالم ، ولم يتبين يَقِظ ولا حالم ، وإنما هى هدية أجر ، وحقيقة وصل أعقبت مَجاز هجر ، وجرح جُبَار[1] ، وأمر ليس به اعتبار ، ووقيعة لم يكن فيها إلا غُبَار ، وعَثْرة القدم لا تنكر ، والله سبحانه يُحْمَدَ فى كل حال ويُشْكَر ، وإذا كان اعتقاد الخلافة لم يَشُبْه شائب ، وحسن الولاية لم يعبه عائب ، والرعى دائب ، والجانى تائب ، فما هو إلا الدهر الحسود ، لمن يسود ، خَمَشَ بيد ثم سَتَرها ، ورمى عن قَوْس ما أصلحها والحمد لله ولا أَوْتَرَها ، إنما باء بشَيْنه ، وجنى من مزيد العناية محنة عَيْنه ، ولا اعتراض على قَدَر ، أعقب بحظ معتذر ، ووِرْدٍ نُغِّصَ بكدر ، ثم أنس بإكرام صَدَر ، وحسبنا أن نحمد الدفاع من الله تعالى والذب ، ولا نقول مع الكَظْم إلا ما يُرْضِى الرب ، وإذا سابَقَ أولياء سيدى فى مضمار ، وحماية ذِمار ، واستباق إلى بر وابتدار ، بجهد اقتدار ، فأنا ولا فخر متناول القَصَبة ، وصاحب الدين من بين العَصَبة ، لما بلوت من بر أوجبه الحسب ، والفضل الموروث والمكتسب ، ونصح وضح منه المَذْهب ، وتنفيقٍ راق منه الرداء المُذْهب ، هذا مُجْمَل وبيانُه إلى وقت الحاجة مؤخر[2] ، ونبذة شرحٍ لتعجيلها يراع مسخر ، والله سبحانه يعلم ما أنطوى عليه لسيدى من إيجاب الحق ، والسير من إجلاله على أوضح الطرق ، والسلام . انتهى .

من لسان الدين إلى بعض الفضلاء

وقال رحمه الله تعالى : خاطبت بعضَ الفضلاء بقولى مما يظهر من الجملة غرضه :

تعرفت قُرْبَ الدار ممن أحبه فكنت أجِدُّ السير لولا ضروره
لأتلوَ من آى المحامد سورة وأبصر من شخص المحاسن صوره

كنت أبقاك الله تعالى لاغتباطى بوَلائك ، وسرورى بلقائك ، أود أن أطوى

---

(١) جبار — بالضم — هدر لا عقوبة عليه ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « جرح العجماء جبار » .

(٢) يشير إلى قول أهل الأصول « يجوز تأخير البيان إلى وقت الحاجة »

إليك هذه المَرْحَلة ، وأجدّد العهد بلُقياك المؤمَّلة ، فمنع مانع ، وما ندرى فى الآنى ما الله صانع ، وعلى كل حال فشأنى قد وضَح منه سبيل مسلوك ، وعلِمه مالك ومملوك ، واعتقادى أكثر مما تسعه العبارة ، والألفاظ المستعارة ، ومُوَصِّلها ينوب عنى فى شكر تلك الذات المستكملة شروط الوزارة ، المتصفة بالعفاف والطهارة ، والسلام .

من لسان الدين إلى أبى عبد الله ابن نصر

وقال سامحه الله تعالى يخاطب السلطان أبا عبد الله بن نصر جبره الله تعالى عند وصول ولده من الأندلس :

الدهر أضيق فُسْحَةً من أن يرى ... بالحزن والكمد المضاعف يقطع

و إذا قَطَعْتَ زمانه فى كُرْبة ... ضيعت فى الأوهام ما لا يرجع

فاقنع بما أعطاك ربك واغتنم ... منه السرور وخلّ مالا ينفع

مولاى الذى له المِنَن ، والخلق الجميل والخُلق الحسن ، والمجد الذى وضح منه السَّنَن(1) كتبه عبدك مهنئاً بنعم الله تعالى التى أفاضها عليك ، وَجلَبها إليك ، من اجتماع شملك ، بنَجْلك ، وقضاء دَيْنكَ ، من قُرة عينك ، إلى ما تقدم من إفلاتك ، وسلامة ذاتك ، وتمزق أعدائك ، وانفرادك بأوِدَّائك(2) ، والزمن ساعةٌ فى القِصر ، لا بل كلَمْح البصر ، وكأنى بالبساط قد طُوِى ، والتراب على الكل قد سوى ، فلا تبقى غبطة ولا حسرة ، ولا كربة ولا يسرة ، وإذا نظرت ما كنت فيه تجدك لاتنال منه إلا أكلة وفراشا ، وكِنّا(3) ورياشا ، مع توقع الوقائع ، وارتقاب الفجائع ، ودعاء المظلوم وصُدَاع الجائع ، فقد حصل ما كان عليه التعب ، وأمن الرهب ، ووضح الأمر [و] المذهب ، والقدرة باقية ، والأدعية واقية ، وماتدرى ماتحكم به الأقدار ، ويتمخض عنه الليل والنهار ، وأنت اليوم على زمانك بالخيار ، فإن اعتبرت الحال

---

(1) السنن ــ بفتح السين والنون الأولى جميعا ــ الطريق

(2) الأوداء : جمع ودود ، وهو الكثير الود (3) الكن بالكسر ــ المأوى

واجتنبت المحال ، لم يخف عليك أنك اليوم خير منك أمس ، من غير شك ولا لَبْس، وكان من أملى التوجُّه إلى رؤية ولدكم ولكن عارضتنى موانع ، ولا ندرى فى الآنى ما الله تعالى صانع ، فاستنبت هذه فى تقبيل قدَمِه ، والهناء بمقدمه ، والسلام

من لسان الدين إلى محمد بن نوار تهنئة بعرس

وقال رحمه الله تعالى : قلت أخاطب محمد بن نوار وقد أعْرَسَ ببنت مزوار الدار السلطانية وهو معروف بالوسامة وحسن الصورة :

إن كنت فى العُرْس ذا قُصور ... فـلا حضور ولادخاله
ينوبُ نظمى منابَ تيس ... والنثر عن قفة النخاله

هنا كم الله سبحانه دعاء وخبرا ، وألبسكم من السرور حِبَرا ، وعوذ كم بالخمس ، حتى من عين الشمس ، فلعمرى لقد حصلت النسبة ، ورضيت هذه المعيشة الحسبة ، ومن يكن المزوار ذواقه ، كيف لايشقّ البدر أطواقه ، وينشر القبولُ عليه رِواقه ، وأنتم أيضاً بركان جمال ، وبقيـة رأس مال ، ويمين فى الانطباع وشمال ، بمنزلـكم اليوم بدرٌ وهلال ، ولعقد التوفيق بفضل الله تعالى استقلال ، فأنا أهنيكم بتَسَنّى أمانيكم[1] ، والسلام .

من لسان الدين إلى عامر بن محمد الهنتانى

وقال رحمه الله تعالى مخاطباً عميد مراكش المتميز بالرأى والسياسة والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجافى عن مال الجباية عامر بن محمد بن على الهنتانى :

تقول لىَ الأظعان والشوق فى الحشا ... له الحـكم يمضى بين ناه وآمر
إذا جبلَ التوحيد أصبحتَ فارعًا ... فخيم قَرار العين فى دار عامر
وزُرْ تربة المعلوم أن مزارها ... هو الحجُّ يُفضِى نحوه كلُّ ضامر
ستلقى بمثْوى عامر بن محمـد ... ثغورَ الأمانى من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سـعد وجهه ... ولله ما تلقاه من يُمْن طائر
وتستعمل الأمثال فى الدهر منكما ... بخـير مَزور أو بأغبط زائر

---

(١) تسنى أمانيكم : تيسيرها وتسهيل أمرها

لم يكن همى أبقاك الله تعالى مع فراغ البال ، و إسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام والليال ، إذ الشمل جميع ، والزمان كله ربيع ، والدهر مطيع سميع ، إلا زيارتك فى جَبَلك الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمْنُه بين النوم والأجفان ، وأن أرى الأفق الذى طلعت منه الهداية ، وكانت إليه العودة ومنه البداية ، فلما حُمَّ الواقع [1] ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع ، وأصبحت ديار الأندلس وهى [2] البلاقع ، وحسنت من استدعائك إياى المواقع ، وقوى العزم و إن لم يكن ضعيفا ، وعرضت على نفسى السفر بسببك فألفيته خفيفا ، والتمست الإذن حتى لا نرى فى قبلة السداد تحريفا ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند للعزم مقدوح ، والله سبحانه يحقق السول ، و يسهل بمثوى الأماثل المثول ، ويهيىء من قبل هنتاتة القبول ، بفضله .

للسان الدين فى وصف بلاد الأندلس والمغرب

وللسان الدين بن الخطيب مقامة عظيمة بديعـــة وصف بها بلاد الأندلس والعُدْوة ، وأتى فيها من دلائل براعته بالعجب العُجَاب ، وقد تركتها مع كتبى بالمغرب ، ولم يحضرنى منها الآن إلا قوله فى وصف مدينة سبتة ما صورته : قلت فمدينة سبتة ، قال : عروس المجلى ، وثنية الصباح الأجلى ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصقيلة ، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ، وإذا قامت بيض أسوارها ، وكان جبل بنيونش شَمَّامة أزهارها ، والمنارة منارة أنوارها ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارها ، وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها ؟ إلى المينا الفُلْكية ، والمراقى الفلكية ، الذكية الزكية ، غير المنزورة ولا البكية [3] ، ذات الوَفُود الجزل ، المعد للأزل ، والقصور المقصورة على الجد والهزل ، والوجوه الزُّهر السِّحَن ، المضنون بها عن المحن ، دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحرب الناشبة ، والأسطول المرهوب ، المحذور الألهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ،

---

(١) حم ــ بالبناء للمجهول ــ قدر

(٢) البلاقع : جمع بلقع ــ بزنة جعفر ــ وهى المقفرة الخالية من السكان

(٣) البكية ــ بزنة الهدية ــ القليلة ، ووقع فى ب « المبكية »

والأثر المعروف المنسوب ، كرسى الأمراء والأشراف ، والوسيطة لخامس أقاليم البسيطة فلاحظ لها فى الانحراف ، بَصْرة علوم اللسان ، وصنعاء الحُلَل[1] الحسان ، وثمرة امتثال قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الأمينة على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافل العصير والحرير والكتان ، وكفاها السكنى ببنيونش فى فصول الأزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان ، والمدفن المرحوم ، غير المزحوم ، وخزانة كتب العلوم ، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم[2] ، إلا أنها فاغرة أفواه الجنوب ، للغيث المصبوب ، عرضة للرياح ذات الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب ، وناهيك بحسنة تعد من الذنوب ، فأحوال أهلها رقيقة ، وتكلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة ، وأنسابُ نفقاتهم فى تقدير الأرزاق عَريقة ، فهم يمصون البلالة مص المحاجم ، ويجعلون الخبز فى الولائم بعدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم ، وراعى الجديب بالمطر الساجم ، فلا يفضِّلون على مدينتهم مدينة ، الشك عندى فى مكة والمدينة ، انتهى

وقد سلك فى هذه المقامة وصف بلدان المغرب بالسجع والتقفيه ، ووفاها من المدح وضده أكمل توفية ، وعكس هذه الطريقة فى « نفاضة الجراب » فوصف فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع ، مع كونه أقطع من السيف إذا بان عنه القُراب .

فمن ذلك قوله حين أجرى ذكر مدينة «مكناسة الزيتون» : وأطلَّتْ مدينة مكناسة فى مظهر النَّجد ، رافلة فى حلل الدوح ، مبتسمة عن شنب المياه العذبة ، سافرة عن أجمل المراد ، قد أحكم وَضْعَهَا الذى أخرج المرعى ، قيد النص وفذلكة

(١) الحلل : جمع حلة ــ بضم الحاء ــ وهو اللباس الذي يتحلي به ، وصنعاء من البلاد المشهورة عند العرب بصنع الوشى

(٢) الحلوم هنا : العقول ، وأصالتها : سدادها

الحسن ، فنزلنا بها منزلا لا تستطيع العين أن تخلفه حسنا ووضعاً ، من لد دارت به المداسر المُغِلَّة ، والتفتْ بسوره الزياتين المفيدة ، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذى يسمو إليه الطرف، ورحب ساحة والتفاف شجرة ونباهة بنية و إشراف ربوة[١] ، ومثلت بإزائها الزاوية القُدْمَى المعدة للوراد ، ذات البركة النامية ، والمئذنة السامية ، والمرافق المتيسرة ، يصاقبها الخان البديع المنصب الحصين الغلَق الخاص بالسابلة والجوّابة فى الأرض يبتغون من فضل الله تعالى ، تقابلها غربا الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال ، إلى أن قال : و بداخلها مدارس ثلاث لبث العلم ، كلفت بها الملوك الجلة الهمم ، وأخذها التنجيد ، فجاءت فائقة الحسن ، ما شئث من أبواب نحاسية ، و برك فياضة تقذف فيها صافى الماء أعناقٌ أسدية ، وفيها خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين ، وتفضل هذه المدينة كثيراً من لِدَاتها بصحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه وتعمير الخزائن ومداومة البر لجوار ترابها سليما من الفساد معافًى من العفن ، إذ تقام ساحات منازلها غالبا على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث و يصحبها التعمير وتتجافى عنها الأرض ، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمة ، قال ابن عبدون من أهلها ولله دره :

إن تفتخر فاسٌ بما فى طيها ... وبأنها فى زيها حسناء

يكفيك من مكناسة أرجاؤها ... والأطيبان هواؤها والماء

و يُسامتها[٢] شرقا جبل زرهون، المنبجس العيون[٣] ، الظاهر البركة ، المتزاحم العمران، الكثير الزياتين والأشجار ، قد جلله سكراً ورزقا حسنا ، فهو عنصر الخير ، ومادة

---

(١) الربوة : ما ارتفع من الأرض ، وإشرافها : علوها

(٢) يسامتها : يقابلها

(٣) المنبجس العيون : يريد المتفجر المياه

المجبى ، وفى المدينة دور نبيهة ، و بنى أصيلة ، والله سبحانه ولى من اشتملت عليه بقدرته ، وفيها أقول :

بالحسن من مكناسة الزيتون ... قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهواء وصحة الماء الذى ... يجرى بها وسلامة المخزون
سَحَّت عليها كل عين ثَرَّة ... للمزن هامية الغمام هَتُون
فاحمر خدُّ الورد بين أباطح ... وأُفْتَرَّ ثغر الزهر بين غصون
وقد كفاها شاهداً مهما ادعت ... قَصَبَ السباق القربُ من زرهون
جبل تضاحكت البروق بجوّه ... فبكت عِذَابُ عيونِهِ بعيون
وكأنما هو بربرىٌّ وافد ... فى لوحه والتين والزيتون
حييت من بلد خصيب أرضه ... مَثْوَى أمان أو مناخ أَمُونِ
وضعت إليك من الإله عناية ... تكسوك ثوبَىْ أمنةٍ وسكون

وقد وصفها فى مقامة البلدان على منوال السجع بقل : مكناسة مدينة أصيلة ، وشُعَب للمحاسن وفضيلة ، فضلها الله تعالى ورعاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، فجانبها مَرِيع [(١)] ، وخيرها سريع ، ووضعها له فى قُنَّة [(٢)] الفضائل تفريع ، اعتدل فيها الزمان ، وانسدل الأمان ، وفاقت الفواكه فواكهها ولاسيما الرمان ، وحفظ أقواتها الاختزان ، ولطفت فيها الأوانى والكيزان ، ودنا من الحضرة جوارها ، فكثر قصادها من الوزراء وزُوَّارها ، وبها المدارس والفقهاء ، وقصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء .

ويعنى بالحضرة مدينة فاس المحروسة لأنها إذ ذاك كرسى الخلافة ، ومكناسة مقر الوزارة ، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التى فيها كرسى الخلافة بالحضرة .

قلت : دخلت مكناسة هذه مراراً عديدة ، وقد أبلى الدهر محاسنها التى

---

(١) مربع : مخصب

(٢) أصل القنة : أعلى مكان فى الجبل ، ومثله القلة

زيارة المؤلف لمكناسة ووصفها

كانت فى زمان لسان الدين بن الخطيب جديدة ، واستولى عليها الخراب ، وتكدر منها بالفتن الشراب ، وعاث فى ظاهرها الأعراب ، وفى باطنها سماسرة الفتنة العائقة عن كثير من الآراب ، حتى صار أهلها حزبين ، لبس كثيرمن أهلها ثياب البعد عنها والبين ، والله تعالى يجبرُ حالها ، ويعقب بالخصب إمحالها ، ويرحم الله تعالى ابن جابر إذ قال :

لا تنكرنَّ الحسن من مكناسة　　فالحسن لم يبرح بها معروفا

ولئن محَتْ أيدى الزمان رسومَها　　فلربما أبقت هناك حروفا

على أن ضواحيها كانت فى زمان لسان الدين مأوى المحاربين واللصوص ، ومثوى للأعراب الذين أعضل داؤهم بأقطار المغرب على العموم والخصوص ، ولذلك يقول لسان الدين رحمه الله تعالى :

مكناسة حشرت بها زُمَرُ العدا　　فمدى بريدٍ فيه أنفُ مَريدِ[1]

من واصل للجوع لا لرياضة　　أو لابس للصوف غير مُريدِ[2]

فإذا سلكت طريقها متصوفا　　فانو السلوك بها على التجريد

وما أشار إليه رحمه الله تعالى فيما سبق من ذكر الزاوية القُدْمىٰ والجديدة أشار به إلى زاويتين بناهما السلطان أبو الحسن المَرِينى الكثير الآثار بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس ، وكان بنى الزاوية القدمىٰ فى زمان أبيه السلطان أبى سعيد والجديدة حين تولى الخلافة ، وله فى هذه المدينة غير الزاويتين المذكورتين عدّة آثار كثيرة جميلة من القناطر والسقايات وغيرها ، ومن أجلِّ مآثره بها المدرسة الجديدة ، وكان قدَّم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ، ولما أخبر السلطان بتمام بنائها جاء إليها من فاس ليراها ، فقعد على كرسى من كراسى الوضوء حَوْل صهريجها ،

---

(١) المدى ـ بفتح الميم مقصورا ـ المسافة ، والمريد ـ بفتح الميم ـ العاني المتمرد الخارج عن الطاعة

(٢) مريد ـ بضم الميم هنا ـ لفظ من اصطلاح الصوفية يقرب من معنى التلميذ

وجىء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها ، فغرقها فى الصهريج قبل أن يطالع ما فيها ، وأنشد :

لا بأس بالغالى إذا قيل حَسَنْ ليس لما قَرَّتْ به العين ثَمَنْ

وهذا السلطان أبو الحسن أشهر ملوك بنى مَرِين ، وأبعدهم صيتا ، وكان قد ملك رحمه الله تعالى المغربَ بأسره و بعض الأندلس ، وامتد ملكه إلى طرابلس الغرب ، ثم حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان حين قاتل أعراب إفريقية ، فغدره بنو عبد الوادّ الذين أخذ من يدهم ملك تلمسان ، وانتهزوا الفرصة فيه ، وهربوا إلى الأعراب عند المُصَافة ، فاختل مصافه ، وهزم أقبح هزيمة ، ورجع إلى تونس مغلوبا ، وركب البحر فى أساطيله ، وكانت نحو السبمائة من السفن ، فقضى الله تعالى أن غرقت جميعا ، ونجا على لوح ، وهلك مَنْ كان معه من أعلام المغرب ، وهم نحو أربعمائة عالم ، منهم السطى شارح الحوفى ، وابن الصباغ الذى أملى فى مجلس درسه بمكناسة على حديث « يا أبا عمير ، مافعل النُّغير »(١) أربعمائة فائدة .

قال الأستاذ أبو عبد الله بن غازى رحمه الله تعالى : حدثنى بعضُ أعيان الأصحاب أنه بلغه أن الفقيه ابنَ الصباغ المذكور سُمِع بمنصورة تلمسان المحروسة ينشد كالمعاتب لنفسه :

ياقلب كيف وقعت فى أشراكهم ولقد عهدتك تحذر الأشراكا(٢)
أرضاً بذلٍّ فى هوًى وصبابة هــذا لعمرُ الله قد أشقاكا

ومات رحمه الله تعالى غريقا فى أسطول السلطان أبى الحسن المرينى على ساحل

---

(١) هو حديث قاله النبى صلى الله عليه وسلم لأبى عمير أخى أنس بن مالك ، والنغير : تصغير نغر ـــ بزنة صرد ـــ وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار

(٢) الأشراك : جمع شرك ـ بزنة سبب وأسباب ـ وأصله ما ينصبه الصياد ليقع فيه الصيد ، واستعمله هنا مجازا ، وتحذر : أراد به هنا تتقى وتتجنب

تدلس هو والفقيه السطى والأستاذ الزواوى وغير واحد فى نكبة السلطان أبى الحسن المعروفة .

نظم لابن الصباغ يحصر فيه علاقات المجاز

ومن نظم ابن الصَّباغ المذكور فى العلاقات المعتبرة فى المجاز وفى المرجحات له قوله رحمه الله تعالى :

يا سائلا حَصْر العلاقات التى ... وَضْعُ المجاز بها يَسُوغ ويجمل
خذها مرتبةً وكلٌّ مقابل ... حكم المقابل فيه حقا يحمل
عن ذكر ملزوم يعوّض لازم ... وكذا بعلته يُعَاض معلّل
وعن المعمم يستعاض مخصص ... وكذاك عن جزء ينوب المكمل
وعن المحلِّ ينوب ما قد حَلَّهُ ... والحذف للتخفيف مما يسهل
وعن المُضَاف إليه ناب مُضَافه ... والضدُّ عن أضداده مُسْتَعمل
والشبه فى صفة تبين وصورة ... ومن المقيَّد مطلق قد يبدل
والشىء يُسْمَى باسم ما قد كانه ... وكذاك يُسْمَى بالبديل المبدل
وضع المجاور فى مكانة جاره ... وبهذه حكم التعاكس يكمل
واجعل مكان الشىء آلتَه ، وجىء ... بمنكر قَصْدَ العموم فيحصل
ومُعَرف عن مطلق وبه انتهت ... وجلها حكم التداخل يشمل
وبكثرة وبلاغة ولزومه ... لحقيقة رجحانه يتحصل

انتهى كلام شيخ شيوخ شيوخنا الإمام أبى عبدالله محمد بن غازى رحمه الله تعالى !.

وقد حكى ابنُ غازى المذكور عن شيخه القورى عن شيخه ابن جابر أن ابن الصباغ المذكور اعترض على القاضى ابن عبدالسلام التونسى ، قال : لما لقى ابن الصباغ بتونس اعترض عليه ابن الصباغ أربع عشرة[1] مسألة لم ينفصل عن واحدة منها ، بل أقر

---

(١) هذا لا يقدح فى علمه وفضله ، فإن « لا أدرى » من أجوبة أماثل العلماء ، وقد استفاض أن الإمام مالك بن أنس سئل عن مسائل فأجاب فى أكثرها بقوله « لا أدرى » .

بالخطأ فيها ، إذ ليس ينبغى اتصاف بالكمال ، إلا لربى الكبير المتعال ، انتهى .

حكاية عن عائن

وذكر الشيخ أبو عبد الله الأُبِّى رحمه الله تعالى فى شرح مسلم عند تكلمه على أحاديث العين ما معناه أن رجلا كان بتلك الديار معروفا بإصابة العين، فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبى الحسن أن يصيب أساطيله بالعين ، وكانت كثيرة نحو الستمائة ، فنظر إليها الرجل العائن ، فكان غرقها بقدرة الله الذى يفعل ما يشاء ، ونجا السلطان بنفسه ، وجرت عليه محن ، واستولى ولده السلطان أبو عنان فارس على ملكه ، وكان خَلَّفه بتلمسان ، ولم يزل فى اضطراب حتى ذهب إلى سجلماسة ، ومنها خلص إلى جبل هنتانة قرب مراكش ، فذهب إلى حربه ابنُه السلطان أبو عنان فارس بجيوشه ، وأناخ على الجبل بكَلْكله ، ولم تَخْفر أهلُ هنتانة جوارَه لديهم ، ولا كبيراهم عامر بن محمد وأخوه ، وصبروا على الحصار ، وخراب الديار ، وحرق الأماكن ، حتى مات هنالك رحمه الله تعالى ونقل بعدُ إلى شالة سلا مدفن أسلافه ، ومَنْ أراد الوقوف على أخباره فعليه بكتاب الخطيب ابن مرزوق الذى ألفه فيه وسماه « المسند الصحيح الحسن ، من أحاديث السلطان أبى الحسن » .

زيارة لسان الدين لقبر السلطان أبى الحسن

ولما ذهب لسانُ الدين بن الخطيب إلى عامر بن محمد بجبله المشهور زار محل وفاة السلطان المذكور ، وقد ألم بذكر ذلك فى « نفاضة الجراب » إذ قال: وشاهدت بجبل هنتانة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبى الحسن رحمه الله تعالى ! حيث أصابه طارق الأجل ، الذى فَصَل الخطة ، وأصمت الدعوة ، ورفع المنازعة ، وعاينته مرفعا عن الابتذال بالسكنى مفترشا بالحصباء ، مقصودا بالابتهال والدعاء ، فلم أبرح يوم زيارة محل وفاته أنْ قلت :

يا حسنها من أربُعٍ وديار أضحت لباغى الأمن دار قرار(١)

وجبال عز لا تذِلُّ أنوفها إلا لعز الواحد القهار

ومقر توحيد وأسِّ خلافة آثارها تنبى عن الأخبار(٢)

ما كنت أحسب أن أنهار الندى تجرى بها فى جملة الأنهار

ما كنت أحسب أن أنوار الحِجَا تلتاح فى قُنَن وفى أحجار

مجت جوانبها البرود، وإن تكن شبت بها الأعداء جَذْوَةَ نار

هدت بناها فى سبيل وفائها فكأنها صَرْعَى بغير عُقَار(٣)

لما توعدها على المجد العِدَا رضيت بعَيْثِ النار لا بالعار

عمرت بحِلَّة عامر وأعزها عبد العزيز بمرهفٍ بتار(٤)

فرسا رهان أحرزا قَصَبَ الندى والبأس فى طلق وفى مضمار

وَرِثَا عن النَّدْبِ الكبير أبيهما مَحْضَ الوفاء ورفعة المقدار

وكذا الفروع تطول وهى شبيهة بالأصل فى وَرَق وفى أثمار

أزرت وجوه الصِّيدِ من هنتانة فى جوِّها بمطالع الأقمار

لله أى قبيلة تركت لها النظراء دَعْوَى الفخر يوم فخار

نصرت أمير المسلمين وملكه قد أسلمته عزائم الأنصار

وارَتْ عليا عند ماذهب الردى والروعُ بالأسماع والأبصار

وتخاذل الجيش اللهام وأصبح الأبطال بين تقاعد وفرار

كفرت صنائعه فيمم دارها مستظهرا منها بعز جوار

وأقام بين ظهورها لا يتقى وقع الردى وقد ارتمى بشرار

فكأنها الأنصار لما أن سمت فيما تقدم غربة المختار

---

(١) الأربع : جمع ربع ، وهو المنزل ، وباغى الأمن : طالبه .

(٢) تنى : أصله تنبىء — بالهمز — ومعناه تخبر . (٣) العقار : الخمر .

(٤) المرهف : السيف المحدد ، والبتار : الشديد القطع

لما غدا لحظا وهم أجفانه ... نابت شفارهم عن الأشفار(١)

حتى دعاه الله بين بيوتهم ... فأجاب ممتثلا لأمر البارى

لو كان يمنع من قضاء الله ما ... خَلَصَتْ إليه نوافذ الأقدار

قد كان يأمل أن يكافئ بعض ما ... أولوه لولا قاطع الأعمار

ما كان يقنعه لو امتدَّ المدَى ... إلا القيام بحقها من دار

فيعيد ذاك الماء ذائبَ فضةٍ ... ويعيد ذلك الترب ذوبَ نُضار(٢)

حتى تفوز على النوى أوطانها ... من ملكه بجلائل الأوطار(٣)

حتى يلوح على وجوه وجوههم ... أثر العناية ساطع الأنوار

ويسوّغ الأمل القصىَّ كرامها ... من غير ما ثُنْيَا ولا استعصار(٤)

ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى ... عن دِرْهَم فيهم ولا دينار

أو أن يتوّج أو يقلد هامها ... ونحورها بأهلَّة ودرارى

حَقٌّ على المولى ابنه إيثارُ ما ... بذلوه من نصر ومن إيثار

فلمثلها ذُخِر الجزاء ، ومثلُه ... مَنْ لا يضيع صنائع الأحرار

وهو الذى يقضى الديون وبرُّه ... يرضيه فى علن وفى إسرار

حتى تحجَّ محلة رفعوا بها ... علم الوفاء لأعين النظار

فيصير منها البيت بيتا ثانيا ... للطائفين إليه أىَّ بِدَار

تغنى قلوب القوم عن هدى به ... ودموعهم تكفى لرمى جمار

حُيِّيتِ من دار تكفل سعيها الـ ... ـمحمود بالزُّلْفَى وعقبى الدار

وضَفَتْ عليك من الإله عناية ... ما كر ليل فيك إثر نهار

ويعنى بالمولى ابنه السلطان أبا سالم ابن السلطان أبى الحسن .

---

(١) شفارهم : أجفان عيونهم ، والأشفار : أراد بها السيوف .

(٢) النضار — بالضم — الذهب .

(٣) الاوطار : الأغراض والمقاصد ، واحدها وطر .

(٤) القصى : البعيد ، والثنيا — بالضم — الاستثناء .

ومن العجائب أن الرئيس عامر بن محمد الذى جرى فى هذه الأبيات ذكره كان يؤمل بإيوائه للسلطان أبى الحسن ونُصْرته له وعدم إخفار ذمته فيه أن ينال من أولاده الملوك بذلك عزا مستطيلا ورياسة زائدة على ما كان فيه ، فقضى الله تعالى أن كان حتفه على يد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبى الحسن ، إذ نازله بجنوده ، وحاصرهُ بمعقله ، حتى استولى عليه وقَتَلهُ ، حسبما استوفى ذلك الشيخ الرئيس قاضى القضاة أبو زيد عبدُ الرحمن بن خلدون الحضرمى المغربى نزيل مصر فى تاريخه الكبير الذى سماه « بكتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » فمن شاء فليراجعه ثَمَّةَ .

وكان الرئيس أبو ثابت عامر بن محمد الهنتاتى المذكور خرج على السلطان عبد العزيز بالسلطان المعتمد على الله أبى الفضل محمد ابن أخى السلطان عبد العزيز المذكور ، فكان من قتله ما ذكر ، والله غالب على أمره .

ولنرجع إلى ما كنا فيه من نثر لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ورضى عنه ! فنقول :

لسان الدين يعد بتصنيف كتاب كبير فى التاريخ

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى فى كتابه « إعلام عمال الأعلام[1] » ما صورته : وفى غرضى إذا منَّ الله تعالى بانفراج الضيقة الوقتية ، ومُعَاودة الأزمان الهنية ، والنصبة النقية ، أن نصنف فى التاريخ كتابا مبنيا على التطويل ، مستوعبا للكثير والقليل ، نسميه « بضاعة المهولين ، فى أساطين الأوّلين » يكون هذا الكتاب بالنسبة إليه الحصاة من الرمال ، والقَطْرة من الغيث المنثال[2] ، بإعانة ذى القدرة والجلال ، انتهى .

---

(١) كذا ، ولعل كلمة « عمال » زائدة ، والأصل « إعلام الأعلام »

(٢) الغيث : المطر ، والمنثال : المنهمر المتدفق

ومن كلامه رحمه الله تعالى : فما استبعد المرام ، مَنْ قصد الكرام ، وما فقد الإيناس ، من أمّلَ الناس ، انتهى .

وقد سلك لسانُ الدين رحمه الله تعالى فى كثير من كتبه كالكتيبة الكامنة والتاج المحلى والإكليل الزاهر وغيرها تحليةَ الأعلام ، من حملة السيوف والأقلام ، بالكلام المسجّع الآخذ بحظه من الإتقان على طريقة صاحب القلائد والمطمح أبى نصر الفتح بن عبيد الله المدعو بابن خاقان بليغ الأندلس غير مدافع ، وعلى نهج مُبَاريه ابن بسّام صاحب « الذخيرة ، فى محاسن أهل الجزيرة » وهو كتاب ينبغى أن يُرَاجع ، وقد رأيت أن آتى بشىء من كلام لسان الدين فيما ذكر ، ونُلم بعد تحليته بالتعريف بحال مَنْ حلاه من الأعلام ، بحسب ما من به ويسره لى الملك العلام ، سبحانه وتعالى ، فنقول :

مثل من إنشاء لسان الدين فى التراجم

قال لسان الدين رحمه الله تعالى فى بعض كتبه فى وصف بعض من عرّف به ما نصه : أى نفس صافية من الكدر ، وصدْر طيب الوِرْدِ والصَّدَر[1] ، ودَوْحة عهد تَنْدَى أوراقها ، ومِشْكاة فضل يستطلع إشراقها ، تمسك برضاع الكأس يرى ذلك من حسن عهده ، وقسم لحظاته بين آس الرياض وورده ، فلما حوّم حِمَامُه للوقوع ، وكاد يقوّض رَحْلَه عن الربوع ، وشعر بحبائل المنية تعتلقه ، وسَرْعانِ خيل الأجَلِ ترهقه ، أقلع عن فنّه ، وأمر بسفك دَنّه ، ولجأ إلى الله تعالى بأوْبَته[2] ، وضرع إلى الله تعالى فى قبول توبته وغفران حَوْبته[3] ، فكان ذلك عنوانَ الرضا ، وعلامة عفو الله تعالى عما مضى ، دخلت عليه فى مرضه ، وأشرتُ باستعمال الدواء المسمى بلحية التيس عند الأطباء ، فاستعمله ، فوجد بعض خفة .

وقال فى آخر : كثيف الحاشية ، معدود فى جنس السائمة والماشية ، تليت

---

(١) الورد — بالكسر — القدوم على الماء للسقيا منه ، والصدر — بالتحريك — الرجوع عنه . (٢) الأوبة : الرجوع . (٣) الحوبة : الذنب والإثم .

على العمال به سورة الغاشية ، تولّى الأشغالَ السلطانية فذعرت الجُباة لولايته ، وقامت قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا : جاءت الدابة تكلمنا وهى إحدى الشروط ، من رجل صائم الحُشْوة ، بعيد من المصانعة والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخاطبة : لا مِسَاس ، وثلى مسافة نَجْهِه[١] ، وتجهُّم وَجهه ، فكان خالطاً إساءته بإحسانه ، مشتغلا بشانه ، غاضًّا من عنان لسانه ، عهدى به فى الأعمال يقدر فيها ويدبر ، ويرجح ويعبر ، ويُخْبط ويتبِّر ، وهو مع ذلك يكبر ، ويحسن من الأزمنه ويقبح ، وهو يسبح ، ولما شرع فى البحث والتنقير ، والمحاسبة على القِطْمير والنَّقير ، أتاه قاطع الأجل ، فَحَنَّ ركابه فاقضى العجل ، وصدرت عنه أبيات خَضَم فيها وقَضَم ، وحصل تحت القدر المشترك مع من نظم .

وقال فى آخر : كركدن حَلبة الآداب ، وسِنَّور عبدالله بيع بقيراط لماشاب ، هام بوادى الشعر مع مَنْ هام ، واستمطر منها الَجهام[١] ، فجاء بأبيات أوهى من بيت العنكبوت نسجا ، ومقاصد لا تبين قصداً ولا نَهْجا ، وله بيت معمور بقضاة أكابر ، فرسان أقلام ومحابر ، وعمال قادوا الدهر بأزمَّة أزمتهم ، وفرعوا الزهر بهمتهم[٢] ، وتكاثرت عليه رحمه الله الإحن ، وتعاورته المِحَن ، وتصرف آخر عمره فى بعض الأعمال المخزنية فتعلل بنزْر القوت ، إلى الأجل الموقوت .

وقال فى آخر : معدود فى وقته من أدبائه ، ومحسوب فى أعيان بلده وحُسَبائه ، كان رحمه الله تعالى من أهل العدالة والخير ، سائراً على منهج الاستقامة أحْسَن السَّير ، وله أدب لا يقصر عن السداد ، وإن لم يكن بطلا فمن يكثر السواد ، قد أثبتُّ له ما عثرت عليه ، مما ينسب الناس إليه .

---

(١) النجه : استقبال الناس بما يكرهون ، وفى ب «نهجه» بتقديم الهاء ، وأعتقده محرفا عما أثبته (٢) الجهام — بزنة السحاب — هو السحاب الذى لا مطر معه .

(٣) الزهر — بالضم — النجوم ، وأحدها زهراء ، وفرعوها : أراد ارتفعوا فوقها وعلوا عليها .

وقال فى آخر : معتر غير قانع[١] ، ومنجع كل شهم وخانع ، نشأ ببلده مالقة أبرع من أورد اليَرَاعة فى نِقْس ، وهز غصنها فى روضة طِرْس[٢] ، إلا ما كان من سخافة عقله ، وقعوده تحت المثل « اخْبُرْ تَقْلِهْ »[٣] لا يرتبط إلى رتبة ، ولا ينتمى إلى عُصْبة ، ولا يتلبس بسَمْت ، ولا يستقيم من أمْت ، أخبرنى مَنْ عُنى بخبره ، وذكر عِبَرِه ، من صِباه إلى كبره ، أنه رشح فى بعض الدول ، وعرض لاكتساب الخيل والخَوَل ، وخلعت عليه كسوة فاخرة ، وشارة بزهر الرياض ساخرة ، فانقاد طَوْعَ حرمانه ، ونبذ صَفْقَةَ زمانه ، وحملهُ فرطُ النَّهَم ، على أن ابتاع فى حجره طعاماً كثير الدسَم ، وأقبل وأذياله منه تقطر ، كما اختلفت باللبن الأشطر ، فطرد ونبذ ، وطرح بعد ما جُبذ ، لقيته بمالقة وقد قلب له زمانُه عينيه ، وسقط فى يديه ، فانتابنى بأمداحه ، وتعاورنى بأجاجه وأقراحه .

وقال فى آخر : أديبٌ نارُ فكرِه تتوقد ، وأريب لا يُعْترض كلامه ولا يُنْقَد ، أما الهزل فهو طريقته المُثْلَى ، ركض فى ميدانها وجَلَّى ، وطلع فى أفقها وتجلى ، فأصبح علم أعلامها ، وعابر أحلامها ، إن أخذ بها فى وصف الكاس ، وذكر الورد والآس ، وألم بالربيع وفَصْله ، والحبيب ووصله ، والروض وطيبه ، والغَمَام وتقطيبه ، شقَّ الجيوبَ طرَبا ، وعلَّ النفوس شربا وضرَبا ، وإن ابتغى لاعتلال العشية ، فى فرش الربيع المَوْشِيَة ، ثم تعداها إلى وصف الصَّبوح ، وأجهز على الزق المجروح ، وأشار إلى نغمات الوُرْق ، يرفلن فى الحلل الزُّرْق ، وقد اشتعلت فى عنبر الليل نارُ البرق ، وطلعت بنودُ الصباح فى شرفات الشرق ، سَلَبَ الحليم وقاره ، وذَكَّر الخليعَ كأسَه وعقاره ، وحرك الأشواق بعد سكونها ، وأخرجها من ركونها ، بلسان يتزاحم على موارد الخيال ، ويتدفق من حافاته

---

(١) المعتر : الذى يتعرض للسؤال .

(٢) النقس : المداد الذى يكتب به ، والطرس : القرطاس (الورق) الذى يكتب فيه

(٣) هذا مثل ، واخبر : جرب وامتحن وابتل ، وتقله : مضارع قلاه أى كرهه وأبغضه

الأدب السَّيَّال ، وبيان يقيم أَوَدَ المعانى ، ويشيد مصانع اللفظ محكمة المبانى ، ويكسو حُلَل الإحسان جسوم المثالث والمثانى ، إلى نادرة لمثلها يُشَار ، ومحاضرة يُجْـنَى بها الشهد ويُشَار (١) ، وقد أثبتُّ من شعره المعرب وإن كان لا يتعاطاه إلا قليلا ، ولا يجاوز إلا تعليلا ، أبياتا لا تخلو عن مسحة جمال على صفحاتها ، وهَبَّة طيب يَنِمُّ فى نفحاتها .

وقال أيضاً فى آخر : ظريفُ السجية ، كثير الأريحية ، ارتحل من لورقة فتحها الله تعالى واتخذ المرية دارا ، وأَلِفَ بها استقرارا ، إلى أن دعاه بها داعيه ، وقام فيها ناعيه .

وقال فى وصف آخر : شيخ أخلاقُه لينة ، ونفسه كما قيل فى نفس المؤمن هَيِّنه ، ينظم الشعر عَذْبا مَسَاقُه ، محكما اتساقُه ، على فاقة (٢) ، وحال مالها من إفاقة ، أنشد المقام الـكريم بظاهر بلدهِ قصيدةً استغرب منها مترعها ، واستعذب من مثله مشرعها .

وقال فى آخر : من أئمة أهل الزمام ، خليق برَعْى الميثاق والذِّمام ، ذو خط كما تفتَّح زهرُ الـكِمام ، وأخلاق أعْذَبَ من ماء الغمام ، كان ببلده رحمه الله تعالى بدار إشرافه محاسباً ، ودرة فى لجة الإغفال راسبا ، صحيح العَمَل ، يُلْبِس الطروس من براعته حُسْنَ الحلل ، وله شعر لا بأس به ، ولا خفاء بفضل مذهبه .

وقال فى آخر : خير من استبق إلى داعى الفلاح استباقا ، وانتمى إلى القوم الذين هم فى الآخرة أطْوَلُ أعناقا ، وإن كانوا فى الدنيا أضيق أرزاقا ، مردد أذكار ، ومُسَبح أسحار ، وعامر مئذنة ومَنَار ، كان ببلده مؤذناً بجامعها ، ومؤقتاً بأم صوامعها ، ومعتبراً فيمن كان بها من السَّدَنة ، ومن مثله قوله فكأَنما قَرَّبَ بدنَة ، وله لسان

---

(١) الشهد : عسل النحل ، ويشار : مضارع مبنى للمجهول ، شاره يشوره واشتاره يشتاره : جناه . (٢) الفاقة : الفقر .

مخيف ، وشعر سخيف ، توشح بحليته ، وجعله وسيلة كُدْيته .

وقال فى آخر : عظيم الهيئة حسن اللقاء ، أغرب فى حسن المداراة من العَنْقاء استمر عمره للحكم ، وصبر على حجج الصُّم والبكم ، وأفرط فى هَشَّته وهزته ، وتنزل عن نخوة القضاء وعزته ، وله سلف فى القضاء عالى المَرَاقب ، مُزَاحِم للنجم الثاقب ، وقد أثبتُّ من شعره ما تيسر إثباته ، ونَجَح بروض هذا المجموع نباته .

وقال فى آخر : قاضٍ توارث كُلَّ جلالة ، [لا] عن كَلالة[1] ، وجمع فى العلم الحسب ، بين الموروث والمكتسب ، أشرق بجيد معمٍّ فى العشيرة مخوِل ، وألقت عليه مقاليدَها من منقول ومتأوّل ، إلى نزاهة لا تعزها البيضاء ولا الصفراء ، وحلم لا تستهويه السعاية ولا يستفزه الإغراء ، ووقار يستخف الجبال الراسية ، ونظر يكشف الظلم القاسية ، تولى قضاء الحضرة فأنفذ الأحكام وأمضاها ، وشام سيوفَ الجزالة وانتضاها ، ولبس أثواب النزاهة والانقباض فما نَضَاها ، وسلك الطريقَ التى اختارها السلفُ وارتضاها ، فاجتمت الأهوال المفترقة عليه ، وصَرَفَ الثناء أعنة الألسن إليه ، ثم كَرَّ إلى بلده ، واستقر خطيباً بقرارة أهله وولده .

وقال فى آخر : مُنْتَمٍ إلى معرفة ، متصف من الذكاء بأحسن صفة ، أقرأ ببلده علم اللسان ، وما حاد عن الإحسان ، وعانى الشعر فنظم قوافيه ، وما تكلف فيه ، وعلى غزارة مادته ، ووُضوح جادَّته ، فشعره قليل البشاشة ، ذاهبُ الحشاشة ، وذوالإكثار ، كمثل العثار ، وله سلف يخوض فى الحقائق ، وينتحل بعض الكلام الرائق

وقال فى آخر : منتمٍ لدين وعفة ، وإلى نفس بالعَرَضِ الأدنى مُسْتَخِفة ، ممن نزع إلى سلوك ورياضة ، ويفيض فى طريق القوم بعض إفاضة .

وقال فى آخر : ممن يتشوف إلى المعارف والمَقَالات ، ويرتاح إلى الحقائق

(١) كلمة « لا » غير موجودة فى ب ، والكلالة : قرابة غير الولاد ، نعنى ما كان من القرابة غير الآباء والأبناء ، يقال « ورث هذا الأمر لا عن كلالة » ويراد أنه انحدر إليه من آبائه : فاذا قلت « ورثه عن كلالة » كان ذلك ذما ، إذ المقصود لاأولية له فى هذا الأمر

والمحالات ، ويشتمل على نفس رقيقة ، ويَسيرُ من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويُعانى من الشعر ما يشهد بنُبْله ، ويستطرف من مثله .

وقال فى آخر : مشمر فى الطلب عن ساق ، مثابر على اللحاق بدرجات الحُذَّاق ، منتحل للعربية جادفى إحصاء خِلافها ، ومُعاطاة سُلافها[1] ، ور بما شرست فى المذاكرة أخلاقه ، إذابُهْرِجت أعلاقه[2] ، ونُوزِعَ تمسكه بالحجة واعتلاقه ، ورحل إلى المغرب فاستجدى بالشعر سلطانه ، ثم راجع أوطانه .

وقال فى آخر : منتمٍ إلى زهد ، باذل فى التماس الخير الجهد ، نظمه لا يخلو من حَلاوة ، ومَعانيه فى طريقه عليها بعض طُلاوة .

وقال فى آخر : كاتب سجلات لا يساجَلُ فى صحة فصولها ، وتوقيع فروعها على أصولها ، وكلما طلب بالنظم القريحة ، وأعمل الفكرة الصريحة ، مع إقلاله ، وعدم استعماله ، أجابت وألبَّت ، وتنسمت رياحُها وهَبَّتْ .

وقال رحمه الله تعالى وسامحه فى بعض العدول الصوفية الأخيار ، الذين وحدوا الله وفَنُوا عن سائر الأغيار : خير عدل ، وممن له وقار وفضل ، مُقسم بخيره ، معرض عن غيره ، مشتمل بصفات مرضية ، يُلم بالنظم فى الطريقة الصوفية .

وللسان الدين رحمه الله تعالى رَكْض فى هذا الميدان لا يُجارى فيه ، وثبوت فضل لا يستند إلى دليلٍ جاحدُه ونافيه .

وقال رحمه الله تعالى فى كتابه « التاج المحلى ، فى مساجلة القِدْح المعلَّى » فى ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمى المرينى ، ما صورته : لُجُّ معرفة لا يَغِيض ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويُفيض ، نشأ ببلده مشمراً عن ساعد اجتهاده ، وسائراً فى فُنَن العلم ووهاده ، حتى أينع رَوْضُه ، وفَهَق حوضه ، ثم أخذ

من ترجمة ابن لب بقلم لسان الدين

---

(١) السلاف ـ بزنة الغراب ـ الخمر

(٢) بهرجت : زيفت وأظهر عدم رواجها ، وأراد معنى نقدت ، وأعلاقه : نفائسه التى يضن بها ، يقصد أنه لا صبر له على النقد

فى راحة ذاته ، وشام بارقَ لذاته ، ثم سار فى البطلة سير الجَمُوح ، وواصل الغَبُوق بالصَّبُوح ، حتى قضى وطَره ، وسئم بطره ، وركب الفلك ، وخاض اللجج الحلك ، واستقر بمصر على النعمة العريضة ، على شك فى قضاء حجة الفريضة ، وهو اليوم بمدرستها الصالحية نبيهُ المكانة ، معدود فى أهل العلم والديانة ، انتهى .

وقال فى « الإحاطة » فى حق المذكور ما نصه : من خط شيخنا أبى البركات فى الكتاب « المؤتمن ، على أنباء أبناء الزمن » : كان سهلا سَلْس القياد ، لذيذ العشرة ، دمث الأخلاق ، ميالا إلى الدَّعة ، نفوراً عن النَّصَب ، يركن إلى فضل نَبَاهة ، وذكاء يحاسب بهما عند التحصيل والدراسة والدؤب على الطلب من رجل يجرى من الألحان على مضمار لطيف ، ولم يكن له صوت رخيم يساوق[1] انطباعه فى التلحين ، فجبر ذلك بالأوتار ، وحاول من ذلك بيده مع أصحابه ما لاذ به الظرفاء منهم ، واستعمل بدار الأشراف بالمرية ، فأحكم تلك الطريقة فى أقرب زمان ، وجاء زمامه يروق مَنْ ذلك العملُ من شأنه ، ثم نهضت به همته إلى أرفع من ذلك ، فسار إلى غَرْنَاطة ، فقرأ بها العربية وغيرها ، وانخرط فى سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة ، ثم رحل إلى بلاد المشرق فى حدود العشرين وسبعمائة ، فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هوائها علة كان يشكوها ، وأخذ فى إقراء العربية بها ، وعرف بها إلى أن صار يدعى بأبى عبد الله النحوى ، قال شيخنا المذكور : ورأى فى صغره فارة أنثى فقال : هذه قرينة ، فلقب بذلك ، وصار هذا اللقب أغلب عليه من اسمه ومعرفته .

ثم قال لسان الدين فى حق المذكور ما ملخصه : إنه قرأ بالحضرة على الخطيب أبى على القبطاجى وطبقته ، وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبى حيان ، وانتفع بجاهه ، نقل إلينا الحاج الحافظ أبو جعفر بن غصن من شعره حسبما قيده عنه بمصر :

---

(١) يساوق انطباعه : أراد يجاريه ويوازيه

بُعْدُ المزار ولوعـــةُ الأشواق ... حَـكما بفيْضِ مدامع الآماق
وخفوق نجدىِّ النسيم إذا سرى ... أذكى لهيب فؤادىَ الخفاق
أمعللى أن التواصل فى غـد ... من ذا الذى لغدٍ فديتُك باقى
إن الليـــالى سُبَّق إن أقبلت ... وإذا تولت لم تنل بلحـــاق
عُجْ بالمطىّ على الحمى ، سُقِىَ الحمى ... صوبَ الغمام الواكف الرقراق (١)
فيـه لذى القلب السليم ودادة ... قلب سليم ماله من راق
قلب غداة فراقهم فارقتــه ... لا كان فى الأيام يوم فراق
يا ساريا والليـل ساج عاكف ... يَفرِى الفَـــلاَ بنجائب ونياق (٢)
عرّج على مثـــوى النبىّ محمد ... خـــير البرية ذى المقام الراقى
ورسول رب العالمين ومَنْ له ... حفظ العهود وصحـــة الميثاق
الظاهر الآيات قام دليلُها ... والطاهر الأخلاق والأعراق
بَدْرُ الهـــدى وهو الذى آياته ... وجبينه كالشمس فى الإشراق
الشافع المقبول مَنْ عَمَّ الورى ... بالجـــود والإرفاد والإرفاق
الصادق المأمون أكرم مرسـل ... سارت رســـالته إلى الآفاق
أعلى الـكرام ندًى وأبسطهم يدا ... قبضت عنان المجد باستحقاق
وأشـــد خلق الله إقداما إذا ... حَمِىَ الوطيسُ وشمرت عن ساق
أمضاهمُ والخيل تعثر فى الوغى ... وتجول سَبْحًا فى الدم المهراق
من صير الأديان دينا واحـدا ... من بعـد إشراك مضى ونفاق
وأحلَّنا من حرمة الإسـلام فى ... ظل ظليل وارف الأوراق
لو أن للبدر المنـــير كماله ... ما ناله كسف ونكس محاق

(١) عج : أمر من « عاج يعوج » أى مال يميل ، و « سقي الحمى » دعاء ، وصوب الغمام : أراد به المطر ، والواكف : المنهمر

(٢) الفلا : جمع فلاة ، وهى المفازة والصحراء ، ويفريها : يقطعها سيرا ، والنجائب : جمع نجيب ، وهو من الإبل السريع السير

لو أن للبحرين جودَ يمينه أمن السفينُ غوائلَ الإبساق
لو أن للآساد شدّة بأسه لثنت عن الإنجاد والإعراق
لو أن للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهمُ من الإشفاق
ذو العلم والحلم الخفى المنجلى والجاه والشرف القديم الباقى
آياته شهُبٌ وغُرٌّ بنانه سُحُبُ النوال تدرُّ بالأرزاق(١)
ماجت فتوح الأرض وهو غياثها ورَبَتْ ربا الإيمان وهو الساقى(٢)
ذو رأفة بالمؤمنين ورحمة وهدى وتأديب بحسن سياق
وخصال مجد أفردت بالخصل فى مرمى الفخار وغاية السباق
ذو المعجزات الغرِّ والآى التى كم آية فقدت وهُنَّ بواقى
ثَنَتِ المُعارض حائرا لما حكت فَلَقَ الصباح وكان ذا إفلاق
يقظ الفؤاد سرى وقد هجع الورى لمقام صدق فوق ظهر بُرَاق
وسما وأملاك السماء تحفه حتى تجاوزهُنَّ سبع طباق

ومنها :

ياذا الذى انصل الرجاء بحبله وانبت من هذا الورى بطلاق
حُبِّى إليك وسيلتى وذخيرتى إنى من الأعمال ذو إملاق(٣)
وإليك أعملتُ الرواحل ضُمَّرا تختال بين الوَخْد والإعناق(٤)
نُجُباً إذا نشدت حلى تلك العلا تطوى الفلا ممتد الأعناق
يحدو بهنَّ من النحيب مردَّدٌ وتقودهن أزِمَّةُ الأشواق
غرض إليه فوّقتنا أسهما وهى القسىّ برين كالأفواق
فأنختها بفنائك الرَّحْب الذى وَسِعَ الورى بالنائل الدفَّاقِ

---

(١) آياته شهب: أراد واضحة وضوح النجوم ظاهرة للرائى ، وغر بنانه سحب: يريد أن يديه تجودان كما يجود الغيث ، وتدر : تهمى وتهطل

(٢) ربت : زادت ونمت (٣) الإملاق : الفقر ، يريد أنه ليس له عمل طيب

(٤) الوخد والإعناق : ضربان من السير السريع

وقِرَى مؤمِّلك الشفاعةُ فى غد ... وكفى بها هبةً من الرزاق
وعليك ياخـير الأنام تحية ... تحيى النفوس بنشرِها الفتاق
تتأرَّج الأرجاء من نفحاتها ... أرَجَ الندىِّ بمدحك المصداق

ومنها :

قسما بطيب تراب طيبة ؛ إنه ... مسك الأنوف وإثمد الأحداق
وبشأن مسجدها الذى برحابهِ ... لمُعَامِـلِ الرحمن أى نفاق
لأجود فيـه بأدمُعٍ أسلاكُها ... منظـومة بترائب وتراقِ
أغدو بتقبيل على حصبائه ... وعلى كرائم جُـدْرِهِ بعناق

ومنها :

وعليك ذا النورين تسليم له ... نور يلوح بصفحـة المهراق[1]
كفؤ النبى وكفؤ أعلى جنـة ... حيزت له بشهادة وصـداق
وكفاه مافى الفتح جاء ومصحف ... فى الفتح يحمده وفى الإطباق[2]
وعلى أبى السبطين مَنْ سبق الألى ... سبقوا إلى الإسلام يوم سـباق[3]
الطاهر الطهر أبن عم المصطفى ... شرفا على التخصيص والإطلاق
مُبْدِى القضايا من وراء حجابها ... ومفتح الأكمام عن أعلاق
يغزو العُدَاة بغلظة فيهـدّهم ... بصوارم تنمى الفقـار رقاق
راياته لا شىء من عقبانهـا ... بمطار يوم وغًى ولا بمطـاق
وعلى كرام سـتة عشرت بهم ... عنـد النظام لآلىء النسّاق
ما بين أروع ماجـد نيرانه ... جنح الظلام تشبُّ للطـرّاق
وأخى حروب صده رَشق القنا ... عما قدود مثلهن رقاق

---

(١) ذو النورين : هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، تزوج بنتين من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على التعاقب ، فلقبوه بذلك اللقب لهذا

(٢) مافى الفتح : أراد ما كان من وضع النبى صلى الله عليه وسلم فى بيعة الرضوان يده الأخرى وقال «هذه عن عثمان» وكان عثمان رضى الله عنه قدم إلى مكة يفاوض أهلها عن الرسول

(٣) أبو السبطين : أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه

ما غردت شَجْوًا مُطَوَّقة وما شقت كِمَامَ الروض عن أطواق
وعلى القرابة والصحابة كلهم والتابعين لهم ليوم تلاقِ

وذكر فى « الإحاطة » غير هذه .

من إنشاء لسان الدين فى ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوادى آشى

وقال لسان الدين فى «التاج» فى ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوادى آشى ماصورته ناظم أبيات ، وموضح غُرَر وشِيَات ، وصاحب توقيعات وقيعات ، و إشارات ذوات شارات ، وكان شاعراً مكثارا ، وجوادا لا يخاف عثارا ، دخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه ، بعد انتثار سلكه ، وخروج الحضرة عن ملكه ، واستقراره بوادى آش مُرَوَّع البال ، متعللا بالآمال ، وقد بلغه دخول طبرنش فى طاعته ، فأنشده من ساعته :

خذها إليك طبرنشا شَفَّعْ بها وادى الأشا
والأم تأتى بنتها والله يفعل ما يشا

ومن نوادره العذبة ، ما كتبه إليه يطلب منه الحسبة :

أنلنى أيا خير البرية خطة ترفِّعنى قدراً وتكسبنى عزا
فأعتز فى أهلى كما اعتز بَيْدَقٌ على سفرة الشطرنج لما انثنى فرزا

فوقع له بما ثبت فى ترجمته ، انتهى .

من إنشاء لسان الدين فى ترجمة ابن العطار المزنى

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى عبد الله بن العطار المزنى ما صورته : ممن نبغ ونجب ، وحق له البر بذاته ووجب ، تحلَّى بوقار ، وشعشع للأدب كأس[1] عقار ، إلا أنه اختُرِمَ فى اقتبال ، وأصيب للأجل بنبال ، انتهى .

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن على بن محمد بن على بن يحيى ابن خاتمة الأنصارى المزنى ، ما صورته : ممن ثكلته اليراعة ، وفقدته البراعة ، تأدب

---

(١) شعشع : أصله فى الخمر ، يقولون « شعشع الكأس » يريدون مزج فيه الخمر بالماء ، وقال عمرو بن كلثوم :

مشعشعة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

بأخيه وتهذب ، وأراه فى النظم المذهب ، وكساه من التفهم والتعليم الرداء المذهب ، فاقتفى واقتدى ، وراح فى الحَلْبـة واغتدى ، حتى نبل وشدا ، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى ، وأماخطه نقيد الأبصار ، وطرفة من طرف الأمصار ، واغْتُبِطَ يانع الشبيبة ، مخضرَّ الـكتيبة ، مات عام خمسين وسبعمائة .

من إنشاء لسان الدين فى ترجمة أبى عبد الله ابن خاتمة

وأورد له فى « الإحاطة » قوله :

وَمَضَ البرق فثار القلق	ومضى النوم وحل الأرق[1]
مذ تذكرت لأيام خلت	ضمنا فيها الحمى والأبرق
وعَشِيَّات تقضت باللوى	فى محيا الدهر منها رونق
إذ شبابى والتصابى جمعا	ورياض الأنس غَضٌّ مُورِقُ
شَتَّ يوم البين شملى ليت ما	خلق البين لقلب يعشق[2]
آه من يوم قضى لى فرقة	شاب منى يوم حلت مَفْرِقُ

وقوله :

الرفع نعتكم لا خانكم أمل	والخفض شيمة مثلى والهوى دُوَلُ
هل منكم لى عطف بعد بعدكم	إذ ليس لى منكم ياسادتى بَدَلُ

قلت : البيت الثانى غاية فى معناه ، وأما الأول فسافل و إن أسس على الرفع مبناه ، والله أعلم .

من إنشاء لسان الدين فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن عيسى المالقى

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن عيسى ابن داود الحميرى المالقى ما صورته : عَلَم من أعلام هذا الفن ، ومُشَعشع راح هذا الدن ، مجموع أدوات ، وفارس يراعة ودوات ، ظريف المنزع ، أنيق المرأى والمسمع ، اختصَّ بالرياسة فأدار فلك إمارتها ، واتسم باسم كتابتها ووزارتها ،

---

(١) ومض البرق : أضاء ولمع ، والقلق : الاضطراب ، والأرق : السهر .

(٢) شت : فرق ، و « ما » فى « ليت ما خلق البين » نافية ، يتمنى أن البين — وهو الفراق — لم يخلق ، ولا أذكر الآن نظيراً لهذا فى العربية .

ناهضا بالأعباء ، صاعداً فى درج التقريب والاجتباء ، مصانعاً دهره فى راح وراحة ، آويا إلى فضل وسماحة ، وخصب ساحه ، كلما فرغ من شأن خدمته ، وانصرف عن رب نعمته ، عقد ثَرْبا[1] ، وأطفأ من الاهتمام بغِيَر الأيام حربا ، وعكف على صوت يستعيده ، وظرف يبديه ويعيده ، فلما تقلبت بالرياسة الحال ، وقوضت منها الرحال ، استقر بالمغرب غريبا ، يقلب طرفا مستريباً ، ويلحظ الدنيا تبعة عليه وتثريباً ، وإن كان لم يعدم من أمرائه حظوة وتقريبا ، وما برح يبوح بشَجَنه ، ويرتاح إلى عهود وَطَنه ، ومما أعرب به ، عن براعة أدبه ، قوله :

يا نازحين ولم أفارق منهم شوقا تأجج فى الضلوع ضرامه
غُيِّبتمو عن ناظرىَّ وشخصكم حيث استقر من الضلوع مقامه
رَمَتِ النوى شملى فشتت شمله والبين رامٍ لا تطيش سهامه
وقد اعتدى فيها وجَدَّ مبالغاً وجرت بمحكم جوره أحكامه
أترى الزمان مؤخرا فى مدتى حتى أراه قد انقضت أيامه

تحملها يا نسيم نجدية النَّفَحات ، وَجْدِيَّة اللفحات ، تؤدى عنى إلى الأحبة نفحها سلاما ، وتورد عليهم لفحها برداً وسلاما ، ولا تقل كيف تحملنى نارا ، وترسل على الأحبة منى إعصارا ، كلا إذا أهديتهم تحية إيناسى ، وآنسوا من جانب هبوبك نار ضرام أنفاسى ، وارتاحوا إلى هبوبك ، واهتزوا فى كف مَسْرَى جنوبك ، وتعللوا بك تعليلا ، وأوسعوا آثار مَهَبِّك تقبيلا ، أرسلها عليهم بليلا ، وخاطبهم بلطافة تلطفك تعليلا ، ألم ترونى كيف جئتكم بما حملنى عليلا :

كذاك تركته مُلْقىً بأرض له فيها التعلُّل بالرياح
إذا هبت إليه صَبَا إليها وإن جاءته من كل النواحى

---

(١) الثرب — بفتح الثاء المثلثة وسكون الراء — شحم رقيق على الكرش والأمعاء ، وأراد بقوله « عقد ثربا » امتلاءه وعبالته وضخامة جثته ، ويكنى بهذه العبارة عن عدم المبالاة ، لأن من عادتهم التفكير فى كل شىء يهزلون ويضوون

تساعده الحمائم حين يبكى ... فما ينفك موصول النُّوَاح

يخاطبهن مهما طِرْنَ شوقا ... أما فيكن واهبة الجناح

ولولا تعلله بالأمانى ، وتحدث نفسه بزمان التدانى ، لكان قد قضى نحبه ، ولم أبلغكم إلا نعيه أو ندبه ، لكنه يتعلل من الآمال بالوعد الممطول ، ويتطارح باقتراحاته على الزمن المجهول ، ويحدث نفسه وقد قنعت من بروق الآمال بالخُلَّب ، ووثقت بمواعيد الدهر القُلَّب [1] ، فيناجيها بوحى ضميره ، وإيماء تصويره ، كيف أجدك يوم الالتقاء بالأحباب ، والتخلص من رِبْقة الاغتراب ، أبائنة الحضور أم بادية الاضطراب ، كأنى بك وقد استفزك وَلَه السرور ، فصرفك عن مشاهدة الحضور ، وعاقتك غشاوة الاستعبار للاستبشار ، عن اجتلاء مُحَيّاً ذلك النهار .

يوم يُدَاوِى زَمَانَاتى مِنَ أزْمَانِى ... أزال تنغيصَ أحْيَانِى فأحيانى

جعلتُ لله نذراً صَوْمَه أبداً ... أفى به وأوَفِّى شرط إيمانى

إذا ارتفعنا وزال البعد وانقطعت ... أشطان دهر قد التفَّتْ بأشطانى

أعده خير أعياد الزمان إذا ... أوْطَانِىَ السعد فيه ترب أوطانى

أرأيت كيف ارتياحى إلى التذكار ، وانقيادى إلى مُعَللات توهمات الأفكار ؟ كأن البعد باستغراقها قد طويت شقته ، وذهبت عنى مشقته ، وكأنى بالتخيل بين تلك الخمائل أتنسم صبَاها ، وأتسنم رُباها [2] ، وأجتنى أزهارها ، وأجتلى أنوارها ، وأجول فى خمائلها ، وأتنعم ببُكرها وأصائلها ، وأطرف بمعالمها ، وأنتشق أزهار كمائمها ، وأصيخ بأذن الشوق إلى سجع حمائمها ، وقد داخلتنى الأفراح ، ونالت منى نشوة الارتياح ، ودنا السرور لتوهم ذهاب الأتراح ، فلما أفقت من غمرات سكرى ، ووثبت من هفوات فكرى ، وجدت مرارة ما شابه لى فى استغراق

---

(١) دهر قلب — بوزن سكر — كثير التقلب من حال إلى حال .

(٢) أتسنم رباها : ارتفع إليها . والربا : جمع ربوة ، وهى المكان المرتفع

دهرى ، وكأنى من حينئذ عالجت وقفة الفراق ، وابتدأت منازعة الأشواق ، وكأنه أغمضنى النوم ، وسمح لى بتلك الفكرة الحلم :

ذَكَرَ الديار فهاجه تذكاره وسرت به من حينه أفكاره

فاحْتَلَّ منها حيث كان حلوله بالوهم منها واستقر قراره

ما أقْرَبَ الآمالَ من غَفَواته لو أنها قضيت بها أوطاره

فإذا جئتها أيها القادم والأصيلُ قد خلع عليها برداً مُوَرَّسا ، والربيع قد مد على القيعان منها سندسا ، فاتخذها فديتك مُعَرسا[1] ، واجْرُرْ ذيولك فيها متبخترا ، وبث فيها من طيب نفحاتك عنبرا ، وافْتُقْ عليها من نوافج[2] أنفاسك مسكا أذفرا ، واعطف معاطف بانها ، وأرْقِصْ قُضُبَ ريحانها ، وصافح صفحات نهرها ، ونافِحْ نفحات زهرها[3] ، هذه كلها أمارات ، وعن أسرار مقاصدى عبارات ، هنالك تنتعش بها صُبابات ، تعالج صَبابات ، تتعلل بإقبالك ، وتعكف على لثم أذيالك ، وتبدو لك فى صفة الفانى المتهالك ، لاطفها بلطافة اعتلالك ، وترفَّقْ بها ترفق أمثالك ، فإذا مالت بهم إلى هواك الأشواق ، ولَوَوْا إليك الأرؤس والأعناق ، وسألوك عن اضطرابى فى الآفاق ، وتقلبى بين الإشآم والإعراق ، فقل لهم : عرض له فى أسفاره ، ما يعرض للبدر فى سِرَاره ، من سرار السرار ، ولحاق المحاق ، وقد تركته وهو يسامر الفرقدين ، ويساير النيرين ، وينشد إذا راعه البين :

وقد نكون وما يُخْشَى تَفرُّقنا واليوم نحنُ وما يُرْجَى تلاقينا

لم يفارق وَعْثاء الأسفار ، ولا ألقى من يده عصى التسيار ، يتهاداه الغَوْر والنجد ، ويتداوله الإرقال والوَخْد ، وقد لفحته الرَّمْضاء ، وسئمه الإنضاء ، فالجهات تلفظه ، والآكام تَبْهَظه ، يحمل همومه الرواسم ، وتحياته البواسم :

---

(١) المعرس — بضم الميم وفتح العين وتشديد الراء مفتوحة — مكان النزول ليلا

(٢) النوافج : أوعية المسك ، واحدها نافجة .

(٣) نافح : أمر من المنافحة ، والمراد بها هنا المغالبة فى إظهار الريح ليظهر أيهما أعبق وأظهر أريجا .

لا يستقر بأرض حين يبلغها ... ولاله غير حَدْوِ العيس إيناس

ثم إذا استوفوا سؤالك عن حالى ، وتقلبى بين حلى وترحالى ، و بلغت القلوب منهم الحناجر ، وملأت الدموعُ المحاجر ، وابتلّت ذيولك بمائها ، لا بل تضرجت بدمائها ، فحيِّهم عنى تحية منفصل ، وداع مرتحل ، ثم اعطف عليك ركابك ، ومَهِّد لهم جنابك ، وقل لهم إذا سألنى عن المنازل بعد سكانها ، والربوع بعد ظعن أظعانها ، بماذا أجيبه ؟ و بماذا يسكن وَجِيبه ، فسيقولون لك هى البلاقع المقفرات ، والمعارف التى أصبحت نكرات :

صَمَّ صـــداها وعفا رَسْمُها ... واستعجمت عن منطق السائل

قل لهم : كيف الروض وآسُه ؟ وعَمَّ تتأرج أنفاسه ؟ عهدى به والحمام يردد به أسجاعه ، والذباب يغـــنى به هزجا فيحك بذراعه ذراعَه [1] ، وغصونه تعتنق ، وأحشاء جداوله تَصْطَفِق ، وأشجاره تتنسم ، وآصاله تتوسم ، كما كانت بقية نَضْرته ، وكما عهدتها أنيقة خضرته ، وكيف التفاته عن أزرق نهره ، وتأنقه فى تكليل إكليله بيانع زهره ، وهل رق نسيمُ أصائله ، وصفت موارد جداوله ؟ وكيف انفساح ساحاته ، والتفاف دَوْحاته ؟ وهل تمتدّ كما كانت مع العشى فينانةُ سَرْحاتِه ؟ عهدى بها المديدة الظلال ، المزعفرة السِّربال ، لم تحدق الآن به عيون نرجسه ، و يمد بساط سندسه ، وأين منه مجالس لذاتى ، ومعاهد غدواتى وروحاتى ؟ إذ أبارى فى المجون لمن أبارى ، وأسابق إلى اللذات كلَّ من أجارى ، فسيقولون لك : ذوَتْ أفنانه ، وانقصفت أغصانه ، وتـكدرت غُدْرَانه ، وتغير رَوْحُه وريحانه ، وأقفرت معالمه ، وأخرست حمائمه ، واستحالت حُلَلُ خمائله ، وتغبرت وجوه بُـكَره وأصائله ، فإن صَلْصَلَ حنين رعد فمن قلبى لفراقه خَفَقَ ، وإن

(١) أخذ هذه الفقرة من قول عنترة بن شداد فى معلقته :

وترى الذباب بها يغنى وحده ... غزوا كفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الأجذم

تلألأ برق فعَنْ حر حشاى ائتلق ، وإن سَحّت السحب فمساعدة لجفنى ، وإن طال بكاؤها فعنّى ، حياها الله تعالى منازل ، لم تزل بمنظوم الشمل أواهل ، وحين انتثرت نثرت أزهارها أسفا ، ولم تثن الريحُ من أغصانها مِعْطَفا ، أعاد الله تعالى الشمل فيها إلى محكم نِظَامه ، وجعل الدهر الذى فرقه يتأنق فى إحكامه ، وهو سبحانه يجبر الصَّدْع ، ويعجل الجمع ، إنه بالإجابة جدير ، وعلى ما يشاء قدير .

إيه بُنيَّ كيف حال من استودعتهم أمانتك ، وألزمتهم صونك وصيانتك ، وألبستهم نسبك ، ومهدت لهم حسبك ؟ الله فى حفظهم فهو اللائق بفعالك ، والمناسب لشرف خلالك ، ارْعَ لهم الاغتراب لديك ، والانقطاع إليك ، فهم أمانة الله تعالى فى يديك ، وهو سبحانه يحفظك بحفظهم ، ويُوَالى بلحظك أسباب لحظهم ، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال ، فنعمُ الله تعالى ممتدة الظلال ، وخيراته وارفةُ السِّربال ، لولا الشوق الملازم ، والوَجْدُ الذى سكن الحيازم .

من إنشائه فى ترجمة أبى بكر محمد بن مقاتل المالقى

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى بكر محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل المالقى ما نصه : نابغة مالقية ، وخَلَف وبقية ، ومغربى الوطن أخلافه مَشْرقية ، أزمع الرحيل إلى المشرق ، مع اخضرار العود وسَوَاد المَفْرِق [1] ، فلما توسطت السفينة اللُّجَج ، وقارعت الثَّبَج [2] ، هال عليها البحر فسقاها كأس الحمام ، وأولدها قبل التمام ، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على نوره سوادها ، من جملة الطلبة والأدباء ، وأبناء السراة الحسباء ، أصبح كل منهم مطيعاً ، لداعى الردى وسميعا ، وأحيوا فرادى وماتوا جميعاً ، فأجروا الدموع حزنا ، وأرسلوا العبرات عليهم مُزْنا ، وكأن البحر لما طَمَسَ سبيلَ خلاصهم وسدّها ، وأهال هضبة سفينتهم وهدّها ، غار على نفوسهم النفيسة فاستردّها ، والفقيه أبو بكر مع إكثاره ، وانقياد نظامه

(١) اخضرار العود : ميعة الشباب وطراءته . وسواد المفرق : أراد أن الشيب لم يحل برأسه

(٢) الثبج — بالتحريك — الموج .

ونثاره ، لم أظفر من أدبه إلا بالقليل التافه ، بعد وداعه وانصرافه ، فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عاثراً :

ومهفهف هافى المعاطف أحْوَر ... فضحت أشعة نوره الأقمارا
زَلَّتْ له قدم فأصبح عاثرا ... بين الأنام لَعاً لِذَاكَ عِثارا(١)
لو كنت أعلم ما يكون فرَشْتُ فى ... ذاك المكان الخدّ والأشفارا

وقال :

أيا لبنى الرفاء تنضى ظباؤهم ... جفون ظُبَاهم فالفؤاد كليم
لقد قطع الأحشاء منهم مهفهف ... له التبر خد واللجَيْنُ أديمُ(٢)
يسدد إذ يرمى قسِىَّ حواجب ... وأسْهُمُهَا من مقلتيه تسوم
وتسقمنى عيناه وهى سقيمة ... ومن عَجَب سقم جناه سقيم
ويَذْبُلُ جسمى فى هواه صبابة ... وفى وصله للعاشقين نعيم

كان غرقه فى أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعمائة ، انتهى .

من إنشائه فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن الشديد المالقى

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد الشديد المالقى ما نصه : شاعر مُجيد حَوْكَ الكلام ، ولا يقصر فيه عن درجة الأعلام ، رحل إلى الحجاز لأول أمره فطال بالبلاد المشرقية ثَوَاؤه ، وعُمِّيت أنباؤه ، وعلى هذا العهد وقفتُ له على قصيدة بخطه غرضُها نبيل ، ومرعاها غير وَبيل ، تدل على نَفَس ونَفَس ، وإضاءة قَبَس ، وهى :

لنا فى كل مكرمة مَقَامُ ... ومن فوق النجوم لنا مُقَامُ

ومنها :

رَوِينا من مياه المجد لما ... وردناها وقد كثر الزحام

---

(١) « لعا » كلمة دعاء لمن عثر ، ومعناها « أنعشه الله ! » فإذا أريد الدعاء عليه قيل « لا لعاله » .

(٢) التبر : الذهب ، واللجين : الفضة ، وأصل الأديم الجلد .

فنحن هم ، وقُلْ لى مَنْ سوانا ، لنا التقديم قدماً والكلام
لنا الأيدى الطِّوال بكل صَوْب يُهَزُّ به لدى الروع الحسام(١)
ونحن اللابسون لكل درع يصيبُ السمر منهن انثلامُ
بأندلس لنا أيام حرب مواقفهن فى الدنيا عظام
ثوى منها قلوبَ الروم خَوْفُ يُخَوِّف منه فى المهد الغلام(٢)
حمينا جانب الدين احتسابا فها هو لا يهان ولا يضام
وتحت الراية الحمراء منا كتائب لا تُطاق ولا تُرام
بنو نصر وما أدراك ما هم أسود الحرب والقوم الكرام
لهم فى حربهم فتكاتُ عمرٍو فللأعمار عندهُمُ انصرام
يقول عداتهم مهما ألموا أتونا ما من الموت اعتصام
إذا شرعوا الأسنة يوم حرب تحقق أن ذاك هو الحمام
كأن رماحهم فيها نجوم إذا ما أشبه الليلَ القتامُ
أناس تُخْلف الأيام ميتا بحيٍّ منهمُ فلهم دوام
رأينا من أبى الحجاج شخصا على تلك الصفات له قيام
مُوَقَّى العرض محمود السجايا كريم الكف مقدام همام
يجول بذهنه فى كل شىء فيدركه وإن عَزَّ المَرامُ
قَويمُ الرأى فى نُوَب الليالى إذا ما الرأى فارقه القوام
له فى كل معضلة مَضَاء مضاء الكف ساعدها الحسام
رؤوف قادر يُغْضِى ويعفو وإن عظم اجتناء واجترام
تطوف ببيت سُؤدده القوافى كما قد طاف بالبيت الأنامُ

(١) الروع — بالفتح — الخوف والفزع ، والحسام : السيف .

(٢) ثوى : أقام ، و « قلوب الروم » منصوب على الظرفية ، أى أقام الخوف من أيامنا فى قلوب الروم ، والمهد : المكان الذى يرقد فيه الاطفال .

وتسجد فى مقام علاه شكرا ونعم الركن ذلك والمقام
أفارسها إذا ما الحرب أخنت على أبطالها ودَنَا الحِمامُ(١)
وممطرها إذا ما السحب كَفَّتْ وكفٌّ أخى الندى أبدا غمام
لك الذكر الجميل بكل قطر لك الشرف الأصيل المستدام
لقد جُبْنَا البلاد فحيث سرنا رأينا أن ملكك لا يُرَامُ(٢)
فضلت ملوكها شرقا وغربا وبتَّ لملكها يقظا وناموا
فأنت لكل معلوة مَدَار وأنت لكل مكرمة إمام
جَعَلْتَ بلاد أندلس إذا ما ذَكَرْتَ تغار مصرٌ والشآم
مكان أنت فيه مكان عز وأوطان حللت بها كرام
وهبتك من بنات الفكر بكرا لها من حسن لقياك ابتسام
فنَزِّه طرف مجدك فى حلاها فللمجد الأصيل بها اهتمام

من إنشائه فى ترجمة محمد ابن الحسن العمرانى الفاسى

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة الشريف محمد بن الحسن العمرانى من أهل فاس ما صورته : كريم الانتماء ، متظلل بأغصان الشجرة الشَّمَّاء ، من رجل سليم الضمير ، ذى باطن أصفى من الماء النَّمير ، له فى الشعر طبع يشهد بعربية أصوله ، ومضاء نصوله .

وذكر فى « الإحاطة » : إن الشريف المذكور توفى فى حدود ثمانية وثلاثين وسبعمائة

من إنشائه فى ترجمة محمد بن محمد المرادى

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة محمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم المُرَادى العشاب ، وهو قرطبى الأصل تونسى المولد والمنشأ ، ما نصه : جواد لايتعاطى طَلَقَه ، وصُبْح فضل لا يماثل فَلَقَه ، كانت لأبيه رحمه الله تعالى من الدول الحفصية منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة فى العقد والحل ، ولم يزل تسمو به قدم النجابة ، من العمل

---

(١) أخنت على أبطالها : أتت عليهم وأهلكتهم ، ومنه قول النابغة الديبانى :
أمست خلاء وأمسى هلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد
والحمام ـ بكسر ، بزنة الكتاب ـ الموت ، ودنوه : قربه
(٢) جبنا البلاد : قطعناها بالسير فيها ، و « ملكك لايرام » لايطمع فيه طامع لأنه موطد الدعائم ثابت الأساس محمى الثغور

إلى الحجابة ، ونشأ ابنه هذا مقضىَّ الديون ، مُفَدًّى بالأنفس والعيون ، والدهر ذو ألوان ، ومارقُ حرب عَوَان ، والأيام كُرَات تتلقف ، وأحوال لا تتوقف ، فألوى بهم الدهر وأنحى(١) ، وأغام جوّهم بعقب ما أصحى ، فشملهم الاعتقال ، وتعاورتهم النُّوَبُ الثقال(٢) ، واستقرت بالمشرق ركابه ، وحُطَّتْ به أقتابه ، فحج واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعَمَر ، وعكف على كتاب الله تعالى فجوّد الحروف ، وقرأ المعروف ، وقيد وأسند ، وتكرر إلى دور الحديث وتردّد ، وقدم على هذا الوطن قدومَ النسيم البليل ، على كبد العليل ، ولما استقر به قَرَاره ، واشتمل على جفنه غِرازه ، بادرت إلى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته ، فاجتليت للسر شخصا ، وطالعت ديوان الوفاء مُسْتَقْصى ، وشعره ليس بحائد عن الإحسان ، ولا غفل عن النكت الحسان ، انتهى .

من إنشائه في ترجمة محمد ابن عمر المليكشي

وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم المليكشي ما صورته : كاتب الخلافة ، ومُشَعْشِع الأدب الذي يزرى بالسُّلافة ، كان بطل مَجَال ، وربَّ روية وارتجال ، قدم على هذه البلاد وقد نبابه وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عَطَنه ، فتلوّم النسيم بين الخمائل ، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل ، ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة ، وميرة يانعة ، ثم آثر قُطْره ، فولى وَجْهَه شَطْره ، واستقبله دهره بالإنابة ، وقلده خُطَّة الكتابة ، فاستقامت حاله ، وحُطَّت رحاله ، وله شعر أنيق ، وتصوّف وتحقيق ، ورحلة إلى الحجاز سعيها في الخير وثيق ، ونَسَبها في الصالحات عريق ، ومن شعره قوله :

رِضًا نلت ماترضين من كل مايهوى	فلا توقفيني موقفَ الذل والشكوى(٣)
وصَفْحًا عن الجاني المسيء لنفسه	كفاه الذي يلقاه من شدة البلوى

(١) ألوى بهم الدهر : أهلكهم ، وأنحي عليهم : مثله

(٢) تعاورتهم: تداولت عليهم

(٣) « رضا » مفعول مطلق بفعل محذوف ، أي ارضى رضا ، ومثله «صفحا» في البيت التالي ، و« نلت ماترضين ـ إلخ » جملة دعائية

بما بيننا من خَلْوَة معنوية — أرقَّ من النجوى وأحلى من السلوى
قفى أشتكى لوعة البين ساعة — ولا يك هذا آخر العهد بالنجوى
قفى ساعدينى عرصة الدار وانظرى — إلى عاشق ما يستفيق من البلوى
وكم قد سألْتُ الريح شوقا إليكم — فما حنّ مسراها علىَّ ولا ألوى
فياريح حتى أنت ممن يغار بى — ويانجدُ حتى أنت تهوى الذى أهوى
خُلِقْتُ ولى قلب جليد على النوى — ولكن على فقد الأحبة لا يقوى

وحدث بعض من عنى بأخباره ، أيام مقامه بمالقة واستقراره ، أنه لقى بباب الملعب من أبوابها ظبيةً من ظبيات الإنس ، وقَيْنة من قينات هذا الجنس ، فخطب وصالها ، واتقى بفؤاده نِصالَهَا ، حتى همت بالانقياد ، وانعطفت انعطافَ الغصن الميّاد ، فأبقى على نفسه وأمسك ، وأنِفَ من خلع العذار بعدما تنسّك ، وقال :

لم أنس وقفتنا بباب الملعب — بين الرجا واليأس من متجنب
وعَدَتْ فكنت مراقبا لحديثها — ياذل وقفة خائف مترقِّبِ
وتدللت فذللْتُ بعد تعزز — يأبى الغرام بكل أمر معجب
بدوية أبدى الجمال بوجهها — ماشئتَ من خدٍّ شريق مذهب (١)
تدنو وتبعد نفرة وتجنبا — فتكاد تحسبها مهاة الرَّبْرَبِ (٢)
ورنت بلحظ فاتن لك فاتر — أنضى وأمضى من حسام المضرب
وأرتك بابلَ سحرها بجفونها — فسبت ، وحق لمثلها أن تستبى
وتضاحكت فحكتْ بنيِّر ثغرها — لمعان نور ضياء برق خُلَّبِ
بمنظم فى عقد سمطَىْ جوهر — عن شبه نوْر الأقحوان الأشنب
وتمايلت كالغصن أخضَلَه الندى — ريَّان من ماء الشبيبة مُخْصِبِ (٣)

---

(١) خد شريق : مشرق ، وقد يكون من قولهم «شرق لونه» إذا احمر من الخجل
(٢) المهاة — بفتح الميم — البقرة الوحشية ، والربرب : القطيع من بقر الوحش
(٣) أخضله الندى : بلله

تَثْنيه أرواحُ الصبابة والصبا فتراه بين مشرق ومغرب
أبت الروادف أن تميل بميله فرسَتْ وجال كأنه فى لولب
متتوّجا بهلال وجه لاح فى خلل السحاب لحاجب ومحجب
يا من رأى فيها محبا مغرما لم ينقلب إلا بقلب قلب
ما زال مذ وَلّى يحاول حيلة تدنيه من نيل المنى والمطلب
فأجال نارَ الفكر حتى أوقدت فى القلب نار تشوّق وتلهب
فتلاقتِ الأرواحُ قبل جسومها وكذا البسيط يكون قبلَ مركَّبِ

وقال :

أرى لك ياقلبى بقلبى محبة بعثت بها سِرّى إليك رسولا
فقابله بالبشرى ، وأقبل عشية فقد هبَّ مسك للنسيم عليلا
ولا تعتذر بالقطر أو بالل الندى فأحسن ما يأتى النسيم بليلا

توفى عام أربعين وسبعمائة بتونس ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

من إنشائه فى ترجمة محمد بن على العبدرى التونسى

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن على بن عمر العبدرى التونسى الشاطبى الأصل ، مانصه : غَذِىُّ نعمة هامية ، وفريع رتبة سامية ، صُرفت إلى سلفه الوجوه ، ولم يبق من إفريقية إلا مَنْ يخافه ويَرْجوه ، وبلغ هو مدة ذلك الشرف ، الغايةَ من الترف ، ثم قلب الدهر له ظهر المِجَنّ ، واشتد به الُخمار عند فراغ الدَّنّ ، ولحق صاحبُنا هذا بالمشرق بعد خطوب مُبيرة ، وشدة كبيرة ، فامتزج بسكانه وقُطّانه ، ونال من اللذات به ما لم ينله فى أوطانه ، واكتسب الشمائل العذاب ، وكان كابن الجَهْم [1] بعث إلى الرصافة ليرقّ فذاب ، ثم حوّم على وطنه تحويم الطائر ، وألم بهذه البلاد إلمام الخيال الزائر ، فاغتنمت صفقة وده لحين

---

(١) ابن الجهم : هو على بن الجهم بن بدر ، كان من شعراء جعفر المتوكل العباسى ، ثم انحرف المتوكل عنه فنفاه ، وهو القائل :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وروده ، وخطبت موالاته على انقباضه وشروده ، فحصلت منه على درة مُقْتَنَى ، وحديقة طيبة الجَنَى ، أنشدنى فى أصحاب له بمصر قاموا ببره :

لكل أناس مذهب وسجية ومذهب أولاد النظام المكارم(١)
إذا كنت فيهم ثاويا كنت سيدا وإن غِبْتَ عنهم لم تنلك المظالم
أولئك صحبى ، لاعدمت حياتهم ! ولا عدموا السعد الذى هو دائم !
أغنى بذكراهم وطيب حديثهم كما غردت فوق الغصون الحمائم

وقال :

أحِبَّتَنا بمصر لو رأيتم بكائى عند أطراف النهار
لكنتم تشفقون لفرط وجدى وما ألقاه من بعد الديار

من إنشائه فى ترجمة محمد بن يحيي العزفى السبتى

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى القاسم محمد بن أبى زكريا يحيي بن أبى طالب عبد الله بن محمد بن أحمد العزفى السبتى ، ما صورته : فرع تأوّد من الرياسة فى دَوْحة ، وتردد بين غدوة فى المجد ورَوْحَة ، نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله ، والدهر ييسر أمله الأقصى ويُسَهله ، حتى اتسقت أسبابُ سعده ، وانتهت إليه رياسة سَلَفه من بعده ، فألقت إليه رحالها وحطت ، ومتعته بقربها بعد ما شطَّت ، ثم كلح له الدهر بعد ما تبسَّم ، وعاد زَعْزَع(٢) نسيمُه الذى كان يتنسم ، وعاق هلاله عن تِمِّه ، ما كان من تغلب ابن عمه ، واستقر بهذه البلاد نازح الدار ، بحكم الأقدار ، وإن كان نبيه المكانة والمقدار ، وجرت عليه جراية واسعة ، ورعاية متتابعة ، وله أدب كالروض باكرتْهُ الغمائم ، والزهر تفتحت عنه الكمائم ، رفع منه راية خافقة ، وأقام له سوقا نافقة ، وعلى تدفق أنهاره ، وكثرة نظمه واشتهاره ، فلم أظفر منه إلا باليسير التافه ، بعد انصرافه ، انتهى .

---

(١) هذا البيت مأخوذ من قول أبى الطيب المتنبى فى سيف الدولة الحمدانى :
لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن فى العدى
(٢) الزعزع : الريح الشديدة ، قيل لها ذلك لأنها تزعزع كل شىء عن مكانه

من إنشائه في ترجمة محمد ابن المكودي الفاسي

وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن المكودي الفاسي ما نصه : شاعر لا يتقاصى ميدانه ، ومَرْعَى بيانٍ وَرِفَ عِضَاهُه وأينع سَعْدانه ، يدعو الكلام فيُهْطِع لداعيه[1] ، ويَسْعَى في اجتلاب المعاني فتنجح مساعيه ، غير أنه أفرط في الانهماك ، وهوى إلى السمكة من أوْج السِّماك[2] ، قدم على هذه البلاد مفلتا من رهق تلمسان حين الحصار ، صفر اليمين واليسار من اليَسَار ، مليء هوًى أنحى على طريفه وتِلاده ، وأخرجه من بلاده ، ولما جذبه البين ، وحل هذه البلدة بحال تقبحها العين ، والسيف بهزَّته ، لا بحسن بزَّته ، دعوناه إلى مجلس أعاره البدر هالته ، وخلع عليه الأصيلُ غلالته ، ورض تفتح كِمامه ، وهمى عليه غمامه ، وكأس أنس تدور ، فتتلقى نجومَها البدور ، فلما ذهبت المؤانسة بخَجَله ، وتذكر هواه ويوم نواه حتى خفنا حلول أجله ، جذبنا للمؤانسة زمامه ، واستسقينا منه غمامه ، فأمتع وأحْسَبَ ، ونظر ونسب ، وتكلم في المسائل ، وحاضر بطُرَف الأبيات وعيون الرسائل ، حتى نشر الصباحُ رايته ، وأطلع النهار آيته ، فمما نسبه إلى نفسه وأنشدَنَاه قولُه :

غرامي فيك جَلَّ عن القياس وقد أسقيتنيه بكل كاس
ولا أنسى هواك ولو جفاني عليك أقاربي طُرًّا وناسي
ولا أدري لنفسي من كمال سوى أني لعهدك غيرُ ناسي

وقال :

بَعَثْتَ بخمر فيه ماء وإنما بعثت بماء فيه رائحة الخمر
فَقَلَّ عليه الشكر إذ قل سكرنا فنحن بلا سكر وأنت بلا شكر

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد

---

(١) يهطع : يسرع ، وفي التنزيل الكريم : (مهطعين إلى الداع)

(٢) السمكة : واحدة السمك ، وهو أيضا برج في السماء يقال له الحوت ، والسماك ــ بكسر السين بزنة الكتاب ــ واحد السماكين ، وهما كوكبان نيران يقال لأحدهما السماك الرامح وللآخر السماك الأعزل ، ومراده أنه هوى من الأوج إلى الحضيض

من إنشائه فى ترجمة ابن بيش العبدرى الغرناطى

ابن بيش العبدرى الغرناطى ما صورته : معلم مدرب ، مسهل مقرب ، له فى صنعة العربية باعٌ مَديد ، وفى هدفها سهم سديد ، ومشاركة فى الأدب لا يفارقها تسديد ، خاصى المنازع مختصرها ، مرتب الأحوال مقررها ، تميز أول وقته بالتجارة فى الكتب فسُلِّطت منه عليها أرَضَة آكلة ، وسهم أصاب من رميتها الشاكلة ، أترب بسببها وأثرى ، وأغنى جهة وأفقر أخرى ، وانتقل لهذا العهد الأخير إلى سكنى مسقط راسه ، ومنبت غِراسه ، وجرت عليه جراية من أحباسها[1] ، ووقع عليه قبولٌ من ناسها ، وبها تلاحق به الحمام ، فكان من ترابها البداية وإليها التمام ، وله شعر لم يقصر فيه عن المَدَى ، وأدب توشح بالإجادة وارتدى ، أنشدنى بسبتة تاسع جمادى الأولى عام اثنين وخمسين وسبعمائة يجيب عن بيتى ابن العفيف التلمسانى :

يا ساكنا قلبىَ المعنَّى ... وليس فيه سواك ثانى
لأى معنى كسرت قلبى ... وما التقى فيه ساكنان

فقال :

نحلتَنِى طائعا فؤادا ... فصار إذ حُزْتَه مكانى
لا غرو إذ كان لى مضافا ... أنِّى على الكسر فيه بانى

وقال يخاطب الشريف أبا العباس وأهدى أقلاما :

أناملُكَ الغرّ التى سَيْبُ جودِها ... يَفيضُ كفيض المزن بالصيِّب القطر[2]
أتتنىَ منها تحفة مثل عدّها ... إذا انتضيت كانت كمُرْهَفة السُّمر
هى الصفر لكن تعلم البيضُ أنها ... محكمة فيها على النفع والضر
مهــذبة الأوصال ممشوقَةٌ كما ... تصوغ سهام الرمى من خالص التبر

(١) الأحباس : الأوقاف

(٢) الأنامل : جمع أنملة ، وهى مابين كل عقدتين من الأصابع ، وأراد هنا الأصابع من إطلاق اسم الجزء على الكل ، والسيب - بالفتح - العطاء ، والمزن : السحاب ، والصيب : المطر الكثير الانصباب

فقبلتها عشرا ومثلت أننى ظفرت بلثم فى أناملك العشر

وقال فى ترتيب حروف الصحاح :

أساجعـة بالواديين تَبَوَّئى ثمارا جَنَتهَا حاليات خواضب

دعى ذكر روض زانه سقى شربه صباح ضحى طى ظباء عصائب

غرام فؤادى قاذفٌ كل ليلة متى ما نأى وَهْناً هواه يراقب

مولده فى حدود ثمانين وستمائة ، وتوفى بغرناطة فى رجب عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، انتهى .

قلت : رأيت بخط الجلال السيوطى على هامش جوابه عن بيتى ابن العفيف التلمسانى ماصورته : قلت : فى هذا البيت تصريح بأن المضاف إلى الياء مبنى على الكسر، وهورأى مرجوح عندالنحاة ، ذهب إليه الجرجانى ، والصحيح أنه معرب ، على أن ذاك لايحتاج إلى جواب كما يظهر بالتأمل ، قاله عبدالرحمن السيوطى ، انتهى ، و يعنى بذلك أن الساكنين إنما يكسر أحدهما ، لا محلهما ، والله سبحانه أعلم .

من إنشائه فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن هانى اللخمي ، السبتى

وقال لسان الدين فى « الإكليل » فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن هانىء اللخمى السبتى ، وأصله من إشبيلية ، ماصورته : علم تشير إليه الأكفُّ[1] ، ويُعْمَل إلى لقائه الحافر والخف[2] ، رفع للعربية ببلده راية لاتتأخر ، ومرج منها لجة تزخر ، فانفسح مجالُ درسه ، وأثمرت أدواحُ غرسه ، فركض ما شاء وبرح ، ودوّن وشَرَح ، إلى شمائل يملك الظرف زمامها ، ودعابة راشت الحلاوة سهامها ، ولما أخذ المسلمون فى مُنازلة الجبل وحصاره ، وأصابوا الكفر منه بجارحة إبصاره ، ورموا بالثُّكْل فيه نازحَ أمصاره ، كان ممن انتدب وتطوّع ، وسمع النداء

(١) الإشارة بالأكف تستعمل بمعنى أن الأمر الذى يتحدث عنه مشهور متعارف بين الناس ، سواء أكان مما يمدح به أم كان مما يذم به ، وقال الفرزدق :

إذا قيل أى الناس شر قبيلة أشارت كليب بالأكف الأصابع

(٢) الحافر : يراد به الخيل ونحوها ، والخف : يراد به الإبل ، والمعنى أنه مقصود من جميع الناس

فأهطع ، فلازمه إلى أن نفد لأهله القوت ، وبلغ من فسحة الأجـل الموقوت ، فأقام الصلاة بمحرابه ، وحيَّاه وقد غير محياه طول اغترابه ، وبادره الطاغية قبل أن يستقر نصل الإسلام فى قِرابه[1] ، أو يعلق أصلُ الدين فى تُرابه ، وانتدب إلى الحصار به وتبرع ، ودعاه أجلُه فلبَّى وأسرع ، ولماهدر عليه الفنيق[2] ، وركع إلى قبلة المنجنيق ، أصيب بحجر دوّم عليه كالجارح المحلق ، وانقضَّ إليه انقضاضَ البارق المتألق ، فاقتنصه واختطفه ، وعمد إلى زهره فاقتطفه ، فمضى إلى الله تعالى طوع نيته ، وصحبته غرابة المنازع حتى فى أمنيته ، انتهى .

وقد جوّد ترجمته فى «الإحاطة» وقال : إنه ألف كتبا منها شرح «تسهيل الفوائد» لابن مالك ، مبدع تنافس الناس فيه ، وكتاب «الغرة الطالعة ، فى شعراء المائة السابعة» وكتاب «إنشاد الضوال ، وإرشاد السُّؤَّال» فى لحن العامة ، وهو مفيد ، وكتاب «قوت المقيم» ودوّن ترسيل أبى المطرف بن عميرة وضمه فى سفرين ، وله جزء فى الفرائض ، وحدثنى شيخنا الشريف القاضى أبو القاسم قال : خاطبت ابن هانىء بقصيدة من نظمى أوّلها :

* هاتِ الحديث عن الركب الذى شَخَصَا *

فأجابنى بقصيدة على رويها ، أوّلها :

لولا مشيب بفودى للفؤاد عصى	أنضيت فى مَهْمَه التشبيب لى قُلُصَا
واستوقفت عَبَراتى وهى جارية	وَكْفَاء توهم ربعا للحبيب قَصَا
مسائلا عن لياليه التى انتهزت	أيدى الأمانى بها ما شئته فُرَصَا
وكنت جاريت فيه من جرى طَلَقاً	من الإجادة لم يجمح ولا نكصا
أصاب شاكلة المرمىِّ حين رمى	من الشوارد ما لولاه ما اقتنصا

(١) القراب — بكسر القاف — جفن السيف وغمده ، والعبارة كناية عن بقاء القلق .

(٢) هدر ، هنا : صوت ، والفنيق — بفتح الفاء — الفحل من الإبل يكرم ولا يؤذى ولا يركب لكرامته على أهله ، وجمعه فنق ، بضم الفاء والنون .

ومن أعدّ مكان النبل نبل حجا لم يرض إلا بأبكار النهى قنصا
ثم انثنى ثانيا عِطْفَ النسيب إلى مدح به قد غلا ما كان قد رخصا
فظلت أرفل فيها لبسةً شرفت ذاتا ومنتسبا أعْزِزْ بهـا قُمُصَا
يقول فيها وقد خوّلت منحتها وجُرِّعَ الكاشح المغرَى بها غُصَصَا(١)
هذى عقائل وافت منك ذا شرف لولا أياديه بيع الحمد مرتخصا
فقلت هلا عكست القول منك له ولم يكن قابلا فى مدحه الرخصا
وقلت ذى بكر فكر من أخى شرف يردِى ويرضى بها الحساد والخلصا(٢)
لهـا حلى حسنيات على حلل حسنية تستبى مَنْ حَلَّ أو شخصا
خوّلتها وقد اعتزت ملابسها بالبخت ينقاد للانسان ما عوصا
خذها أبا قاسم منى نتيجة ذى ود إذا شئت ودا للورى خلصا
جاءت تجاوب عما قد بعثت به إن كنت تأخذ من در النحور حصا

وهى طويلة .

ومما ينسب إليه :

ما للنوى مدّت لغير ضرورة ولقبل ما عهدى بها مقصوره
إن الخليل و إن دعته ضرورة لم يرض ذاك فكيف دون ضروره

وقال مضمنا للثانى :

لا تلمنى عاذلى حين ترى وجه من أهوى فلومى مستحيل
لو رأى وَجْـهَ حبيبى عاذلى لتفارقنا على وجـه جميل

وأجاب الشريف المذكور عن قصيدة مهموزة بقوله :

يا أوحد الأدباء أو يا أوحد الفضلاء أو يا أوحـد الشرفاء

---

(١) جرع — بالبناء للمجهول — سقى ، والكاشح : الكاره القالى المبغض ، والمغرى بها — بضم الميم وفتح الراء على زنة اسم المفعول — المولع بها ، والغصص : جمع غصة — بضم الغين فيهما — وهو عدم انسياغ الطعام فى الحلق .

(٢) يردى : يهلك ، و «الحساد» راجع إليه ، و «الخلصا» راجع إلى «يرضى»

من ذا تراه أحقَّ منك إذا التوت ... طرق الحِجاج بأن يجيب ندائى
أدب أرقُّ من الهواء و إن تشأ ... فمن الهوا والماء والصَّهباء[1]
وألذ من ظَلْم الحبيب وظُلْمه ... بالظاء مفتوحا وضم الظاء[2]
ما السحر إلا ما تصوغُ بنانُه ... ولسانه من حليـــة الإنشاء

وهى طويلة ، يقول فيها بعد جملة أبيات :

لله نفثة سحر ما قد شِدْتَ لى ... من نفث سحرك فى مشاد ثناء
عارضت صفوانا بها فأريت ما ... يستعظم الراوى لها والرائى
لوراء لؤلؤك المنظم لم يفـــز ... من نظم لؤلؤه بغير عَنَـــاء
بوّأتنى منها أجـــلَّ مبوّإ ... فلأخمصى مستوطىء الجوزاء
وسما بها اسمى سائرا فأنا بما ... أسديت ذو الأسماء فى الأسماء
وأشَدْتَ ذكرى فى البلاد فلى بها ... طولَ الثناء و إن أطلت ثوائى
ولقومىَ الفخر المشيد بنيتــــه ... يا حسن تشييد وحسن بناء
فليهن هانيهم يدٌ بيضـــاء ما ... إن مثلها لك من يد بيضاء
حَلَّيت أبياتا له لخميـــة ... بحُـلَى عُلًى مضرية غراء
فليشمخوا أنفا بما أوليتهم ... يا محــــرز الآلاء بالإيلاء

ووصلها بنثر نصه : هذا بنى - وصل الله سبحانه لى ولك علوَّ المقدار ! وأجرى وفق أوفوق إرادتك و إرادتى لك جاريات الأقدار ! - ماسنحَ به الذهن الـكليل ، واللسان القليل ، فى مراجعة قصيدتك الغراء ، الجالبة السراء ، الآخذة بمجامع القلوب ، الموفية بجوامع المطلوب ، الحسنة المَهْيَع والأسلوب ، المتحلية بالحلى

(١) الصهباء : اسم من أسماء الخمر ، والهواء والماء والصهباء ثلاثتهن مما يضرب المثل بهن فى الرقة .

(١) الظلم — بفتح الظاء — الريق ، والظلم — بضم الظاء — ضد العدل ، وقد جمع بينهما ابن الفارض فى قوله :

عليك بها صرفا ، وإن شئت مزجها ... فعدلك عن ظلم الحبيب هو الظلم

السنية ، العريقة المنتسب فى العـــلا الحسنية ، الجالية لصدأ القلوب ران عليها الـكَسَل ، وخانها المُسْعدان السؤلُ والأمل ، فمتى حامت المعانى حولها ، ولو أقامت حَوْلها، شكت وَيْلَها[١] وعَوْلَها ، وحرمت من فريضة الفضيلة عَوْلها[٢] ، وعهدى بها والزمان زمان ، وأحكامها الماضية أمانى مَقْضية وأمان ، تتوارد آلافها ، ويجمع إجماعها وخلافها ، و يساعدها من الألفاظ كل سهل ممتنع، مفترق مجتمع ، مستأنس غريب ، بعيد الغَوْر قريب ، فاضح الحُلَى ، واضح العلا ، وضاح الغرة والجبين، رافع عمود الصبح المبين ، أيد من الفصاحة بأياد ، فلم يَحْفِل بصاحبى طيء و إياد ، وكسى نصاعة البلاغة ، فلم يعبأ بهمّام وابن المراغة[٣] ، شفاء المحزون ، وعـلم سر المخزون ، مابين منثوره والموزون ، والآن لاملهج ولامبهج ، ولامرشد ولامنهج ، عكست القضايا فلم تُنْتِـج ، فتبلد القلب الذكى ، ولم يرشح القلم الزكى ، وعم الإفحام وغم الإحجام ، وتمكن الإكداء والإجبال ، وكورت الشمس وسيرت الجبال ، وعلت سآمة ، وغلبت نَدَامة ، وارتفعت مَلاَمة ، وقامت لنوعى الأدب قيامة ، حتى إذا ورد ذلك المُهْرَق ، وفرّع غصنه المورق ، تغنى به الحمام الأورق ، وأحاط بعداد عداته الغصص والشَّرَق ، وأمن من الغصْب والسَّرَق ، وأقبل الأمن وذهب لإقباله الفرَق ، نفخ فى صـــور أهل المنظوم والمنثور ، و بعثر مافى القبور وحُصِّل ما فى الصدور ، وتراءت للأدب صُوَر ، وعمرت للبلاغة كُوَر ، وهمت للبراعة دِرَر ، ونظمت للبراعة دُرَر ، وعند ما تبين أنك واحد حَلْبة البيان ، والسابق فى ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القدَم ، وأقر لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوحَقّ فصاحة ألفاظ أجَدْتها حين أوردتها ، وأسلتها حين أرسلتها ، وأزنتها حين وزنتها ، وبراعة معان سلـكتها حين ملـكتها، وأرويتها حين رَوّيْتها أورويّتها ، وأصلتها حين فصلتها أووصلتها ، ونظام جملته بجسد البيان قَلْبا ، ولمعصمه

(١) الويل ، والويب ، والويح : الهلاك ، والعول ـ بالفتح ـ البكاء ، مثل العويل

(٢) العول ، هنا : من اصطلاح علماء الفرائض ، وهو أن تزيد أنصباء الورثة عن التركة فيعود النقص على كل واحد منهم بنسبة نصيبه من التركة .

(٣) همام : هو الفرزدق ، وابن المراغة : جرير بن عطية

قَلْبا ، وهصرت حدائقه غُلبا ، وارتكبت روية صَعْبا ، ونثار أتبعته له خديما ، وصيرته لمدير كأسه نديما ، ولحفظه ذِمامه المُدامى أومُدَامه الذمامىّ مديما ، لقد فتنتنى حين أتتنى ، وسَبَتْنى حين صَبَتْنى ، فذهبت خِفتُها بوقارى ، ولم يرعها بعد شيب عذارى ، بل دعت للتصابى فقلت مرحبا ، وحللت لفتنتها الحُبَا ، ولم أحفل بشيب ، وألفيت مارد تصابى نصيب ، وإن كنا فرسَىْ رِهانٍ ، وسابقى حَلْبة ميدان ، غير أن الجلدة بيضاء ، والمرجوّ الإغضاء بل الإرضاء ، بُنَىَّ كيف رأيت للبيان هذا الطوع ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ، أين صَفْوان بن إدريس ، ومحل دعواه بين رحلة وتعريس[1] ؟ كم بين ثُغاء بقر[2] الفلاة و بين ليث الفريس[3] ؟ كما أنى أعلم قطعا وأقطع علما ، وأحكم مَضَاء وأمضى حكما ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارضة بها قصيدته ، المنتسخة بها فريدته ، لذهب عرضا وطولا ، ثم اعتقد لك اليدَ الطولَى ، وأقر فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك العلامات والأطماع ، ونسى كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربه من تلك الإلهية ، بُنَىَّ وهذا من ذلك ، من الجرى فى تلك المسالك ، والتبسط فى تلك المآخذ والمتارك ، أينزع غيرى هذا المنزع ؟ أم المرء بنفسه وابنِهِ مُولَع ؟ حيا الله الأدب و بنيه ، وأعاد علينا من أيامه وسِنِيه ! ما أعلى مَنازعه ، وأ كبى مُنازِعه ، وأجَلَّ مآخذه ، وأجهل تاركه وأعلم آخذه ، وأرق طباعه ، وأحق أشياعه وأتباعه ، وأبعد طريقه ، وأسعد فريقه ، وَأقْوَمَ نهجه ، وأوثق نَسْجَه ، وأسمح ألفاظه ، وأفصح عُكاظه ، وأصدق معانيه وألفاظَه ، وأحمد نظامه ونثاره ، وأغنى شعاره ودثاره ، فعائبه مطرود ، وعاتبه مصفود ، وجاهله محسود ، وعالمه محسود ، غير أن الإحسان فيه

---

(١) التعريس : النزول ليلا للراحة من وعثاء السفر .

(٢) الثغاء — بضم الثاء — الصوت ، وأصله صوت الشاء والمعز وما شاكلها ، فأما صوت البقر فهو الخوار ، بضم الخاء .

(٣) الفريس : هكذا هو في الأصول ، وله وجه ، ولكنى أحسبه محرفا عن « العريس » — بكسر العين وتشديد الراء مكسورة — وهو مأوى السباع .

قليل ، ولطريق الإصابة فيه علم ودليل ، مَنْ ظفر بهما وصَلَ،وعلى الغاية القصوى منه حصل ، ومن نكب عن الطريق ، لم يُعَدَّ من ذلك الفريق ، فليَهْنِكَ أيها الابن الذكى ، البرُّ الزكى ، الحبيب الحفىّ(١) ، الصفىّ الوفىّ ، أنك حاملُ رايتِهِ ، وواصل غايته ، ليس أوّلوه وآخروه لذلك بمنكرين ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، ولولا أن يطول الكتاب ، وينحرف الشعراء والكُتّاب ، لفاضت ينابيع هذا الفضل فيضا ، وخرجت إلى نوع آخر من البلاغة أيضا ، قرّتْ عيونُ أودّائك ، وملئت غيظا صدور أعدائك ، ورَقِيتَ درج الآمال ، ووقيت عين الكمال ، وحفظَ منصبك العالى ، بفضل ربك الكبير المتعالى ،والسلام الأتم الأكمل الأعم ، يخصك به من طال فى مدحه إرقالك وإغذاذك ، ورادروض حمدك وابلك وطَلُّكَ ورذاذك ، وغدت مصالح سعيه فى سعى مصالحك ، وسينفعك بحول الله وقوته وفضله ومنته مُعاذُك ، ووسمت نفسك بتلميذه فسمت نفسه بأنه أستاذك ، ابن هانئ ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكانت وفاته شهادة فى أواخر ذى القعدة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، ورثاه شيخنا أبو القاسم الحسنى بقصيدة أثبتت فى اسمه منها :

سقى الله بالخضراء أشلاء سؤدد   تضمنهن التُّرْبُ صَوْبَ الغمائم

ورثاه شيخنا أبو بكر بن شبرين فقال :

قد كان ما قال البريد   فاصبر فحزنك لا يفيد
أودى ابن هانىء الرِّضَى   فاعتادنى للثكل عيد
بحر العلوم وصدرها   وعميدُها إذ لا عميد
قد كان زينا للوجو   د ففيه قد فجع الوجود
العلم والتحقيق والتـ   وفيق والحسب التليد

---

(١) أصل الحفى الذى يبالغ فى السؤال عن الشىء ، وفى القرآن الكريم : (يسألونك كأنك حفى عنها) .

تَنْدَى خلائقه فقل فيها هى الروض المَجُود(١)
مُغْضٍ عن الإخوان لا جَهْمُ اللقاء ولا كَنود
أودى شهيداً باذلا مجهوده ، نعم الشهيد
لم أنسه حين المعا رف باسمه فينا تشيد
وله صبوب فى طلا ب العلم يتلوه صُعُود
لله وقت كان ينظمنا كما نظم الفريد
أيام نغدو أو نرو ح وسَعْيُنَا السعى الحميد
وإذا المشيخة جثم هضبات حلم لا تميد
ومرادنا جم النبا ت وعيشنا خَضِرٌ بَرود
لهفى على الإخوان والأتراب كلهم فقيد
لو جئت أوطانى لأنكرنى التَّهائم والنُّجود
ولراع نفسى شيب مَنْ غادرته وهو الوليد
ولطُفْتَ ما بين اللحو د وقد تكاثرت اللحود
سَرْعَانَ ماعاث الحما م ونحن أيقاظ هجود
كم رُمْتُ إعمال المسير فقيدت عزمى قيود
والآن أخلفت الوعو د ، وأخلقت تلك البرود
ما للفتى ما ينبغى فالله يفعل ما يريد
أعلَى القديم الملك يا ويلاه يعترض العبيد ؟
يا بين قد طال المدى أبرق وأرعد يا يزيد(٢)
ولكل شىء غاية ولربما لان الحديد

---

(١) المجود : اسم المفعول من « جاد المطر الأرض » أى هطل عليها .

(٢) أخذه من قول الشاعر :

أرعد وأبرق يا يزيد فما وعيدك لى بضائر

إيه أبا عبد الإلٰه ودوننا مَرْمًى بعيد
أين الرسائل منك تأ تينا كما نسق العقود
أين الرسوم الصالحا ت؟ تَصَرَّمَتْ ، أين العهود؟
أنعم مساء لا تخطيك البشائر والسعود
وأُقدم على دار الرضا حيث الإقامة والخلود
والْقَ الأحبة حيث دا ر الملك والقصر المشيد
حتى الشهادة لم تَفُتْكَ فنجمك النجم السعيد
لا تبعدَنْ وعْدًا لوان البدء فى الدنيا يعود
فلئن بليت فإن ذكر ك فى الدنا غَضّ جديد
تالله لا تنساك أندية العلا ما اخضر عود
وإذا تسومح فى الحقو ق فحقُّك الحق الأكيد
جادت صَداك غمامة يرمى بها ذاك الصعيد
وتعهدتك من المهيمن رحمة أبدا وَجُودْ

وقوله أول هذه الرسالة « عارضت صفوان بها إلى آخره » يعنى بذلك همزية صفوان بن إدريس المشهورة بين أدباء المغرب ، ولنذكرها إفادة للغرض ، وهى :

جاد الربا من بانة الجرعاء نَوْآن من دمعى وغَيْم سماء(١)
فالدمع يقضى عندها حقَّ الهوى والغيمُ حقَّ البانة الغناء
خلت الصدور من القلوب كما خلت تلك المقاصر من مَهًا وظباء
ولقد أقول لصاحبىَّ وإنما ذُخِرَ الصديقُ لآكد الأشياء
يا صاحبىَّ ولا أقلَّ إذا أنا ناديت من أن تصغيا لندائى

---

(١) المراد بالنوء — بالفتح — المطر ، وأصله صعود نجم مع هبوط آخر ، وكان العرب يقولون « مطرنا بنوء كذا » للكواكب ، ونهى الإسلام عن ذلك ، فلما كثر استعمالهم ذلك انتقلوا منه إلى تسمية المطر نفسه نوءا .

عوجا بُجارى الغيثَ فى سَقْى الحمى حتى يُرَى كيف انسكاب الماء(١)
ونَسُنّ فى سقى المنازل سنة نُمْضِى بها حكما على الظرفاء
يا منزلا نشطت إليه عَبرتى حتى تبسم زهره لبـكائى
ما كنت قبل مَزَار ربعك عالما أن المدامع أصدق الأنواء
ياليت شعرى والزمان تنقُّل والدهر ناسخ شدة برخاء
هل نلتقى فى روضة مَوْشية خفاقة الأغصان والأفياء
وننال فيها من تألفنا ولو ما فيه سخنة أعين الرقباء
فى حيث أتلعت الغصون سوالفا قد قُلِّدت بلآلىء الأنداء
وبدت ثغور الياسمين فقبلت عنى عذار الآسة الميساء
والورد فى شطّ الخليج كأنه رمد ألم بمقلة زرقاء
وكأن غضَّ الزهر فى خضر الربا زهر النجوم تلوح بالخضراء
وكأنما جاء النسيم مبشراً للروض يخبره بطول بقاء
فكساه خِلعة طيبهِ ورمى له بدراهم الأزهار رمى سخاء
وكأنما احتقر الصنيعَ فبادرت للعذر عنه نغمة الورقاء
والغصن يرقص فى حلَى أوراقه كالخود فى موشية خضراء
وافتر ثغر الأقحوان بما رأى طربا وقهقه منه جرى الماء
أفديه من أنس تصرّمَ فانقضى فكأنه قد كان فى الإغفاء
لم يبق منه غير ذكرى أو مُنًى وكلاهما سبب لطول عناء
أو رقعة من صاحب هى تحفة إن الرقاع لتحفة النبهاء

---

(١) عوجا : ميلا ، وكثر هذا المعنى فى كلام العرب ، ومنه

عوجوا نحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار

و « نجارى الدمع » نسابقه فى الجريان ونغالبه ليرى أينا أكثر ماء ، ووقع فى ب « نجارى الدمع » محرفا عما أثبتناه

كبطاقة الوقشى إذ حَيَّا بها إن الكتاب تحية الخلطاء
ما كنت أدرى قبل فض ختامها أن البطائق أكؤس الصهباء
حتى ثنيت مَعاطفى طربًا بها وجررت أذيالى من الخيلاء
فجعلت ذاك الطِّرس كأس مدامة وجعلت مهديه من الندماء
وعجبت من خل يعاطى خلَّه كأسا وراء البحر والبيداء
ورأيت رونق خطها فى حسنها كالوَشْى نمق معصم الحسناء
فوحقها من تسع آيات لقد جاءت بتأييدى على أعدائى
فكأننى موسى بها ، وكأنها تفسير ما فى سورة الإسراء
لو جاد فكر ابن الحسين بمثلها صحت نبوّته لدى الشعراء(١)
سوداء إذ أبصرتها لكنها كم تحتها لك من يد بيضاء
ولقد رأيت وقد تأوّى بنى الكرَى فى حيث شابت لمة الظلماء
أن السماء أتى إلىَّ رسولها بهدية ضاءت بها أرجائى
بالفرقدين وبالثريا أدرجا فى الطىِّ من كافورة بيضاء
فكنى بذاك الطِّرس من كافوره وبنظم شعرك من نجوم سماء
قسما بها وبنظمها وبنثرها لقد انتحت لى ملء عين رجائى
وعلمت أنك أنت في إبداعها لفظا وخَطًّا معجز النبلاء
لا ما تعاطت بابلٌ من سحرها لا ما ادعاه الوشى من صنعاء
ولقد رميت لها القياد وإنها لقضية أعيت على البلغاء
وطلبت من فكرى الجوابَ فعقّنى وكبا بكف الذهن زَنْدُ ذكائى
فلذا تركت عَرُوضَها ورويها وهجرت فيها سُنَّة الأدباء
وبعثتها ألفية همزية خدعا لفكر جامع إيبائى

(١) ابن الحسين : هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبوز بالمتنبي

علمت بقدرك فى المعارف فانبرت　　　من خجلة تمشى على استحياء

انتهت القصيدة ، ومن خط ناظمها صفوان نقلتها .

من إنشاء لسان الدين فى ترجمة أبى محمد الأزدى

رجع — وقال لسان الدين رحمه الله تعالى فى ترجمة أبى محمد عبدالله بن إبراهيم ابن عبدالله الأزدى فى «التاج» ماصورته : طويل القوادم والخوافى ، كَلِف على كبر سنه بعقائل القوافى ، شابَ فى الأدب وشبَّ ، ونشق ريح البيان لماهَبَّ ، فحاول رقيقه وجَزْلَه ، وأجاد جدّه وأحكم هزله ، فإن مَدَح ، صَدَح[1] ، و إن وصف ، أنصف ، و إن عصف[2] ، قصف ، و إن أنشأ ودوّن ، وتقلب فى أفانين البلاغة وتلوّن ، أفسد ما شاء الله وكوّن ، فهو شيخ الطريقة الأدبية وفتَاها ، وخطيب حَفْلها كلما أتاها ، لا يتوقف عليه من أغراضها غرض ، ولايضيع لديه منها مفترض ، ولم تزل بُرُوقه تتألَّق ، ومعانيه بأذيال الإحسان تتعلَّق ، حتى برّز فى أبطال الكلام وفرسانه ، وذُعِرت القلوب بسطوة لسانه ، وألقت إليه الصناعة زمامَهَا ، ووقفت عليه أحكامها ، وعَبَرَ البحرَ منتجعا بشعره ، ومنفقا فى سوق الكساد من سعره ، فأبرق وأرْعَدَ ، وحَذَّر وأرعد ، و بلغ جهد إمكانه ، فى التعريف بمكانه ، فما حرك ولاهَزَّ ، وذل فى طلب الرفد وقد عَزَّ ، وما برح أن رجع إلى وطنه الذى اعتاده ، رجوع الحديث إلى قتَادَه ، وقد أثبتُّ من نزعاته ، و بعضِ مخترعاته ، ما يدل على سَعَة باعه ، ونهضة ذراعه ، فمن النسيب قولُه :

ما للمحب دواء يذهب الألما　　　عنه سوى لَمَمٍ فيه ارتشاف لَمَى

ولا يرد عليه نوم مقلته　　　إلا الدنو إلى مَنْ شَفَّهُ سقَمَا

يا حاكما والهوى فينا يؤيِّدُه　　　هواك فىّ بما ترضاه قد حكما

ثم سردها ، وقال فى المديح :

---

(١) صدح : أصل معناه غنى ، ولعل المراد أنه قال الشعر الذى يجرى على كل لسان ، وكانوا يسمون الأعشى « صناجة العرب » بذلك المعنى

(٢) عصف : أحسبه أراد به معنى « هجا »

إليك جدَّ بىَ التَّسيارُ تأميلا فلى على فُضلك المأمول تعويلا
الحمد لله حمداً لا كفاء له بسعد أيامك المأمولُ قد نِيلاَ
يا راغبا من حجاه دفع معضلة فصبره بصروف الدهر قد عيلا
أَلِمْ بحضرة ملك كُلُّ مفتخر بالملك يوليه بالتعظيم ترسيلا
فرع من الدَّوْحة النصرية اجتمعت فيه الفضائل تتميما وتكميلا
لديهِ مما لدى الصديق تسمية وميسَمٌ وكفاه ذاك تفضيلا

وهى طويلة ، انتهى .

من إنشائه في ترجمة أبي الحسن السكاك الغرناطي

وقال لسان الدين فى « الإكليل » فى ترجمة أبى الحسن على بن إبراهيم ابن على بن خطاب السكاك من أهل غرناطة ، ما صورته : متسوِّر على بيوت القريض(١) ، فى الطويل من الكلام والعريض ، ممن أطاعته براعة الخط ، وسلَّمت لأنامله رماحُ الخطِّ(٢) ، عانى كتابة الشروط لأول أمره ، ثم ألظَّتْ به محنتُه على توفُّر خصاله ، ونبل خلاله ، وهو الآن من كتاب ديوان الحساب ، يتعين من الأمور المخزنية ببعض الألقاب ، انتهى .

ومن إنشائه في ترجمة أبي الحسن بن الصباغ العقيلي

وقال فى « التاج » فى ترجمة أبى الحسن على بن محمد بن عبد الحق بن الصباغ العقيلى الغرناطى ما صورته : اللَّسِن العارف ، الناقد لجواهر المعانى كما يفعل بالسكة الصيارف ، والأديب المجيد ، الذى تحلى به للعصر النحرُ والجيد ، إن أجال جيادَ براعته فضح فرسان المَهارق ، وأخجل بين بياض طِرْسه وسواد نِقْسه الطُّرَرَ تحت المفارق ، وإن جلا أبكار أفكاره ، وأثار طير البيان من أوكاره ، سلب الرحيقَ المفدَّم فضلَ إسكاره ، إلى نفس لا يفُارقها ظرف ، وهمة لا يرتد إليها طرف ، وإبانة لا يفُلُّ لها غَرْب ولا حرف ، وله أدب غض ، زهرهُ على مُجتنيه

(١) لا يعجبنى قوله « متسور على بيوت القريض » فى مقام المدح ؛ فإن ظاهره ينبىء عن أنه يسرق شعره ويسطو فيه على شعر غيره

(٢) الخط الأول : الكتابة ، والخط الثانى : مرفأ كانت تجلب إليه الرماح ، وإليه تنسب فيقال « رماح خطية » و « رماح الخط »

منفض ، كتبت إليه أستنجز وعده فى الإتحاف برائقه ، والإمتاع بزهر حدائقه ، قولى :

عندى لموعـــدك افتقارُ مُحْرِج وعهودك افتقرت إلى إنجازها(١)

والله يعلم فيك صِدْقَ مودتى وحقيقة الأشياء غـــير مجازها

فأجابنى بقوله :

يا مهـــدى الدر الثمين منظما كِلمًا حلالُ السحر فى ايجازها

أدركت حَلْبات الأوائل وانيـــا ورددت أولاها على أعجازها

أحرزْتَ فى المضمار خَصْل سباقها ولأنت أسبقهم إلى إحرازها(٢)

حَلَّيْتَ بالسمطين منى عاطـــلا و بعثت من فكرى فتاة مفازها

فلأ نجزن مواعـــدى مستعطفا فاسمح ، و بالإغضاء منك لجازِهَا

وقال فى « الإحاطة » فى حق المذكور : إنه من أهل الفضـــل والسَّراوة والرجوله والجزلة ، وذفى الكفاية ، ظاهر السذاجة والسلامة ، مُصْعَب لأضداده ، شديد العصبية لأولى وداده ، يشتمل على خلال من خط بارع وكتابة حسنة وشعر جيد ومشاركة فى فقه وأدب ووثيقة ومحاضرة ممتعة ، ناب عن بعض القضاة وكتب الشروط ، وارتسم فى ديوان الجند ، وكتب عن شيخ الغزاة أبى زكريا يحيى بن عمر على عهده ، ثم انصرف إلى العُدْوة سابع عشر جمادى الأولى من عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فارتسم فى الكتابة السلطانية مُنَوها به مستعملا فى خدم مجدية بان غَنَاؤه فيها وظفرت كفايته ، انتهى .

وقد وصفه بصاحبنا ، ثم قال : ومن شعر المذكور قوله :

ليت شعرى والهوى أمل وأمانى الصب لا تقف

---

(١) كذلك هو فى الأصول ، وأحسبه محرفا عن « افتقار محوج »

(٢) أحرزت : أى حزته وأخذته ، والمضمار ، هنا : المكان الذى تجرى فيه خيل الحلبة ، والخصل ـ بالفتح ـ الخطر الذى يراهن عليه فى النضال

هل لذلك الوصل مرتجَعٌ أو لهذا الهجر مُنْصَرَف ؟

وقال :

وظبى سبى بالطَّرف والعِطف والجَيَدْ وما حاز من غَنْج ولين ومن غَيَدْ(١)

أشرت إليه بالدنو مداعبـــا فقال : أيدنو الظبى من غابة الأسَدْ ؟

وقال فى مبدأ قصيدة مطوّلة :

حديث المغانى بعدهُنّ شجون وأوجـــه أيام التباعد جُونُ

لحا الله أيام الفراق فكم شجت وغادرتِ الجذْلَانَ وهو حزين

وحيـــا ديارا فى رُبا غرناطة وإنى بذلك القرب منك ضنين

لأرخَصْت فيها من شبابىَ ماغلا وعزمى على مال العفاف أمين

خليلىَّ لا أمرٌ بأربعها قفـــا فعندى إلى تلك الربوع حنين

ألم تريانى كلما ذر شارق تضاعف عندى عـــبرة وأنين

إذا لم يساعدنى أخ منكما فلا حدَتْ نحوَه بعد ذاك أمونُ

أليس عجيباً فى البرية مَنْ له إلى عهد إخوان الزمان رُكونُ

فلا تثقن من ذى وفاء بعهده فقد أجِنَ السَّلسال وهو مَعين

لقلبىَ عـــذر فى فراق ضلوعه وللدمع فى ترك الشؤن شؤن

ومن تَركَ الحزم المعين فإنه لعانٍ بأيدى الحادثات رهين

رعى الله أيامى الوثيقَ ذمامُها فإن مكانى فى الوفاء مكين

ولم أر مثل الدهر أما عدوّه فخب وأما خـــله فخؤن

ولولا أبو عمرو وجُـــودُ بنانه لما كان فى هذا الزمان معين

---

(١) الجيد ـ بفتح الجيم والياء جميعا ـ طول الجيد أى العنق ، والغيد ـ بزنة الجيد ـ النعومة ، ويقال للأنثى « غيداء » أى ناعمة متبخترة لطيفة البشرة كاملة الحسن

وقال :

زار الخيالُ ويالهـــا من لذة لـكنّ لَذّاتِ الخيال منـام
ما زلت ألثم مَبْسِما منظومـهُ در ومَوْرِدُهُ الشهيُّ مـدام[1]
وأضمّ غصن البان من أعطافه وأشم مسكاً فض عنـه ختام

مولده عام ستة وسبعمائة ، وتوفى بفاس ، وقد تخلفه السلطان كاتب ولده عند توجهه لإفريقية فى العشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى !

وقدومهم لسان الدين فى شهر وفاة المذكور ، وإنما الصواب أنه توفى يوم الأحد ثامن شوّال ، فاعلم ذلك ، والله سبحانه أعلم .

من إنشاء لسان الدين فى ترجمة شيخه ابن الجياب

رجع ـ وقال فى « التاج المحلى ، فى مساجلة القدح المعلى » وفى « الإكليل الزاهر ، فيمن فضل عند نظم التاج الجواهر » وغيرهما مما ثبت فى حلى رؤساه الـكتاب ، وحالى ألويه الآداب ، فى ترجمة شيخه ابن الجياب ، مانصه : صدر الصدور الجلَّة ، وعلم أعلام هذه الملة ، وشيخ الـكتابة وبانيها ، وهاصِرُ أفنان البدائع وجانيها ، اعتمدته الرياسة فناء بها على حبل ذراعه ، واستعانت به السياسه فدارت أفلاكها على قطب من شَباة يرَاعه[2] ، فتفيأ للعناية ظلا ظليلا ، وتعاقبت الدول فلم ترَ به بديلا ، من نَدْب[3] على علوّه متواضع ، وحبر لثَدْى المعارف راضع ، لاتمرّ مذاكرة فى فن إلا وله فيه التبريز ، ولا تعرض جواهر الـكلام على محكات الأفهام إلا وكلامُه الإبريز ، حتى أصبح الدهر راويا لإحسانه ، وناطقا بلسانه ، وغرّب ذكره وشرّق ، وأشأم وأعرق ، وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق ، إلى نفس هذبت الآداب شمائلها ، وجادت الرياضة خمائلها ، ومراقبة لربه ، واستنشاق لرَوْح الله من مَهَبّه ، ودين لا يُغْجم عوده ، ولا تخلف وعوده ، وكل

---

(١) أراد بمنظومه أسنانه ، شبهها بالدر ، وأراد بمورده رضابه ، شبهه بالمدام وهى الخمر

(٢) اليراع : القلم ، وأراد بشباته طرفه الذى يكتب به وأصل الشباة طرف الرمح ونحوه

(٣) الندب ـ بالفتح ـ الخفيف فى الحاجة الظريف النجيب ، يندب للأمر فيخف لقضائه

ماظهر علينا معشر بنيه من شارة تجلى بها العين ، أو إشارة كما سبك اللُّجَين ، فهى إليـــه منسوبة ، وفى حسناته محسوبة ، فإنما هى أنفسٌ راضَها بآدابه ، وأعلقها بأهدابه ، وهذب طباعها ، كالشمس تلقى على النجوم شعاعها ، والصور الجميلة تترك فى الأجسام الصقيلة انطباعها ، وما عسى أن أقول فى إمام الأئمة ، ونور الدياجى المُدْلَهِمة ، والمثل السائر فى بعد الصيت وعلوّ الهمة ، وقد أثبتّ من عيون قصائده ، وأدبه الذى علق الإحسان فى مَصَايده ، كلَّ وثيق المبنى ، كريم المجنى جامع بين حَصَافة اللفظ ولطافة المعنى ، انتهى .

والمذكور له ترجمة فى هذا الـكتاب فى باب مشيخة لسان الدين فلتراجع .

ومن إنشائه فى ترجمة عمر ابن على المنتقوري

وقال فى « الإكليل » فى حق عمر بن على بن غفرون الـكلبى من أهل منتقرير ما صورته : شيخ خدم ، قام له الدهر فيها على قدَم ، وصاحب تعريض ، ودهاء عَريض ، وفائز من الدول النَّصْرية بأيادٍ بيض ، أصلُه من حصن منتقرير ، خدم به الدولة النصرية عند انتزاء[1] أهله ، وكان ممن استنزلهم من حَزْنه إلى سَهْله ، وحكم الأمر الغالب فى يافعه وكَهْله ، فكسب حُظْوة[2] أرْضَتْه ، ووسيلة أرهفته وأمضته[3] ، حتى عظم جاهه وماله ، وبَسَقت آمالُه ، ثم دالت الدول ، وتنكرت أيامه الأول ، وتغلب من يُجَانسه ، وشقى بمن كان ينافسه ، فجف عودُه ، والتاثت سعوده ، وهلك والخمولُ يُظِله ، والدهر يقوته من صُبابة حرث كان يَسْتَغِلُّه ، وله شعر لم ينقنه النظر ، ولا وضحت منه الغُرَر ، توفى فى ذى الحجة عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، انتهى .

من إنشائه فى ترجمة قاسم بن محمد الفهري المرى

وقال فى « الإكليل » فى حق قاسم بن محمد بن الجدّ الفهرى المرى ماصورته : هو من أئمة أهل الزمام ، خليق بَرعْى الذمام ، ذو حظ كما تفتح زهر الـكمام ،

---

(١) انتزاء أهله : تسورهم ووثوبهم

(٢) الحظوة ــ بالضم ــ المـكانة والمنزلة عند الناس

(٣) أرهفته : حددته ، وأمضيته : جعلته ماضيا نافذا ، وأصل استعمال هذين اللفظين فى السيف ونحوه

وأخلاق أعذب من ماء الغمام ، كان ببلده حاسبا ، ودُرًّا فى لُجَّةِ الإغفال راسبا ، صحيح العمل ، يُلْبِس الطروسَ من براعته أسنى الحلل ، قال يمدح السلطان :

أرى أوجه الأيام قد أشرقَتْ بشرا فقل لى رعاك الله ما هذه البشرى
وما بال أنفاس الخُزَامَى تعطرت فأرَّجَتِ الأرجاء من نفحها عطرا
ونقبت الشمسُ المنيرةُ وجهَهَا قصوراً عن الوجه الذى أخجل البدرا

وهى طويلة ، توفى المذكور عام خمسين وسبعمائة بالطاعون .

من إنشائه فى حق سعيد الغساني

وقال فى « الإكليل » فى حق أبى عثمان سعيد الغسانى ما صورته : هو ممن يتشوّق إلى المعرفة والمقالات ، ويتسق إلى الحقائق والمُحالات ، ويشتمل على نفس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقه ، ويعانى من الشعر ما يشهد بنُبْله ، ويُستظرف من مثله ، انتهى .

من إنشائه فى ترجمة يوسف بن على الطرطوشى

وقال فى « الإكليل » فى ترجمة أبى الحجاج يوسف بن على الطرطوشى ما صورته : روض أدب لا تعرف الذواء[1] أزهارُه ، ومجموع فضل لا تخفى آثاره ، كان فى فنون الأدب مُطْلَق الأعِنَّة ، وفى معاركه ماضى الظُّبا والأسِنة ، فإن هزل ، وإلى تلك الطريقة اعتزل ، أبرم من الغزل ما غزل ، وبزل من دنان راحه ما بزل ، وإن صرف إلى المغرب غَرْب لسانه[2] ، وأعاره لمحة من إحسانه ، أطاعه عاصيه ، واستجمعت لديه أقاصيه ، وَرَدَ على الحضرة الأندلسية والدنيا شابة ، وريح القبول هابَّة ، فاجتلى محاسن أوطانها ، وكتب عن سلطانها ، ثم كَرَّ إلى أوطانه وعطفه ، وأسرع اللحاق كالبارق إذا خطف ، وتوفى عن سنّ عالية ، وبرود من العمر غالية .

من إنشائه فى ترجمة محمد بن أحمد العذرى

وقال فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن أحمد بن المتأهل العذرى من أهل وادى آش ما صورته : رجل غليظ الحاشية ، معدود فى جنس السائمة والماشية ، تليت

(١) الذواء : الذبول ، ذوت الزهرة والغصن تذوى ، بوزن رمى يرمى ، أى ذبلت وجفت ، واستعمله هنا مجازا . (٢) غرب السيف ــ بالفتح ــ حده ، هذا أصله ، واللسان يوصف بالصرامة كما يوصف السيف ، قال حسان :

لسانى وسيفى صارمان كلاهما ويبلغ مالا يبلغ السيف مذودى

على العمال به سورة الغاشية ، ولىَ الأشغال السلطانية فذعرت الجباة لولايته ، وأيقنوا بقيام قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا : جاءت الدابة تكلمنا وهى إحدى الشروط ، من رجل صائم الحُشْوة ، بعيد عن المصانعة والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخالطة لهم : لامساس ، عهدى به فى الأعمال يحبط ويُتبّر ، وهو يهلل ويكبر ، ويحسن ويقبح ، وهو يسبح ، وقال يخاطب بعض أمراء الدولة :

عمادى ، ملاذى، موئلى ، ومؤمَّلِى ... ألا أُنْعِمْ بما ترضاه للمتأهل
وحقق بنيل القصد منك رجاءه ... على نحو ما يرضيك ياذا التفضل
فأنت الذى فى العلم يُعرف قدره ... بخير زمان فيه لا زلت تعتلى
فهُنِّيت يا معنى الكمال برتبة ... تقر لكم بالسبق فى كل محفل

توفى عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ، انتهى .

وتذكرت بقوله « ويحسن ويقبح ، وهو يسبح » قولَ الآخر :

قد بلينا بأمير ... ظلم الناس وسَبَّحْ
فهو كالجزار فيهم ... يذكر الله ويَذْبح

من إنشائه فى ترجمة أبى عبد الله ابن باق

رجع — وقال لسان الدين فى ترجمة أبى عبد الله بن باق من التاج ما صورته : مدير أكؤس البيان المعتّق ، ولَعُوب بأطراف الكلام المشقق ، انتحل لأول أمره الهزل من أصنافه ، فأبرز درَّ معانيه من أصدافه ، وجنى ثمرة الإبداع لحين قِطافه ، ثم تجاوزه إلى المغرب وتخطَّاه ، فأدار كأسه المُترَع[1] وعاطاه ، فأصبح لفنيه جامعا[2] ، وفى فلكيه شهابا لامعا ، وله ذكاء يطير شرره ، وإدراك تتبلج غُرره ، وذهن يكشف الغوامض ، ويسبق البارق الوامض[3] ، وعلى ذَلاقة لسانه ، وانفساح أمد إحسانه ، فشديد الصبابة بشعره ، مُغْلٍ لسعره ، انتهى .

---

(١) المترع — بزنة اسم المفعول — الملىء ، أترع الكأس يترعه : أى ملأه
(٢) أراد بفنيه النظم والنثر
(٣) الوامض : المضىء

والمذكور هو محمد بن إبراهيم بن على باق الأموى ، مرسى الأصل ، غرناطى النشأة ، ما لقى الاستيطان .

وقال فى «عائد الصلة» : كان رحمه الله تعالى كاتباً أديباً ذكياً لوذعيا يجيد الخط ويرسل النادرة ، ويقدم على العمل ، ويشارك فى الفريضة ، وَبَذَّ السُّبَّاق فى الأدب الهزلى المستعمل بالأندلس ، غبر زماناً من عمره محارفاً للفاقة يعالج بالأدب الـكُدْيَة[1] ، ثم استقام له الميسم ، وأمكنه البخت من امتطاء غاربه ، فأنشبت الحُظْوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد ومحاسب ومدير تَجْر ، فأثرى ونما ماله ، وعظمت حاله ، عهد عند ما شارف الرحيل بجملة تناهز الألف من العين ، لتصرف فى وجوه من البر ، فتوهم أنها كانت زكاة أمسك بها ، انتهى .

وقال أيضاً : أخبرنى الـكاتب أبو عبد الله بن سلمة أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله فى رَوِيِّه :

أحرز الخصل من بنى سلمه ... كاتب تخـدم الظُّبَا قلمَهْ

يحمل الطِّرْسُ من أنامله ... أثر الحسن كلمـا رقمه

ويمدّ البيان فـكرته ... مرسـلا حيث يممت ديمه[2]

خَصَّـنى متحفـاً بخمس إذا ... بسم الروض فُقْنَ مبتسمه

قلت أهدى زهر الربا خَضِلاً ... فإذا كل زهرةٍ كلمَـهْ

أقسم الحسن لا يفارقهـا ... فأبرَّ انتقاؤها قسـمه

خط أسطارها ونمقهـا ... فأتت كالعقود منتظـمه

كاسـياً من حـلاه لى حللا ... رَسْمُهَـا من بديع ما رسمه

طالباً عنـد عاطش نَهَلاً ... ولديه الغيوث منسجمه

---

(١) الـكدية : السؤال ، وقد مضى قولنا فى هذا اللفظ (انظر ص ٢٩٨ من هذا الجزء)

(٢) يممت : أراد اتجهت ، وأصل معناه قصدت ، والديم : جمع ديمة - بكسر الدال - وهو المطر الدائم الذى لا ينقطع

يبتغى الشعر من أخى بَلَه أخرس العِىُّ والقصور فمه
أيها الفاضل الذى حفظت ألسن المدح والثنا شيمه
لا تكلِّفْ أخاك مقترحا نشر عار لديه قد كتمه
وابقَ فى عزة وفى دَعَةٍ ضافى العيش واردا شَبِمَهْ(١)
ما ثنى الغصن عِطْفَه طربا وشدا الطير فوقه نغمه

ورأيت على هامش هذه القصيدة بخط أبى الحسن على بن لسان الدين ما صورته : نعم ما خاطب به شيخنا و بركة أهل الأندلس وصدر صدورهم أبا عبد الله بن سلمة ، ومن لفظه سمعتها بالقاهرة ، و إنها لمن النظم العلى المتسق نسق الدر فى العقود ، رحمه الله تعالى ! قاله ابن المؤلف ، انتهى .

وقرأ ابن باق المذكور على الأستاذ أبى جعفر بن الزبير والخطيب أبى عثمان ابن عيسى ، وتوفى بمالقة فى اليوم الثامن والعشرين لمحرم فاتح عام اثنين وخمسين وسبعمائة ، وأوصى بعد أن حفر قبره بين شيخيه الخطيبين أبى عبد الله الطنجالى وأبى عثمان بن عيسى أن يدفن به ، وأن يكتب على قبره هذه الأبيات :

ترحَّمْ على قبر ابن باق وَحَيِّهِ فمن حق ميت الحى تسليم حيه
وقل أمَّنَ الرحمن رَوْعَةَ خائف لتفريطه فى الواجبات وغيه
قد اختار هذا القبر فى الأرض راجيا من الله تخفيفاً بقدر وليه
فقد يشفع الجار الكريم لجاره ويشمل بالمعروف أهل نَدِيِّهِ
وإنى بفضل الله أوثق واثق وحسبى و إن أذنبت حُبُّ نبيه

من إنشائه فى ترجمة ابن فضيلة المرى

رجع ـ وقال لسان الدين فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن سالم ابن فضيلة المعافرى المرى المدعو بالتنوء من «الإكليل» مانصه : شيخ أخلاقه لينة ،

---

(١) ضافي العيش : واسعه ، كنى به عن صلاح حاله وانفساح آماله وطمأنينة باله ، والشبم ـ بفتح الشين وكسر الباء ـ البارد

ونفسه كما قيل هينة ، ينظم الشعر سهلا مَسَاقُه ، محكما اتساقه ، على فاقة ، مالها من إفاقة ، أنشد المقامَ السلطانى بظاهر بلده قوله :

سرت ريحُ نجد من رُبَا أرض بابل	فهاجت إلى مَسْرَى سُرَاها بلابلى
وذكرنى عَرْفُ النسيم الذى سرى	معاهدَ أحبـــاب سراة أفاضل
فأصبحت مشغوفا بذكر منـازل	ألفت ، فواشوقى لتلك المنـــازل
فيـــاريح هُبِّى بالبطاح وبالربا	ومُرِّى على أغصان زهر الخمائل
وسيرى بجسمى للتى الروحُ عندها	فروحى لديها من أجلِّ الوسائل
وقولى لهـــا عنى مُعَنَّك بالنوى	له شـــوق معمود وعبرة ثاكل[1]
فيا بأبى هيفـــاء كالغصن تنثنى	تقد بقد كاد ينقـــــد مائل

وهى طويلة .

ومن شعر المذكور قوله من قصيدة :

بهرت كشمس فى غلالة عسجد	وكبدر تمٍّ فى قضيب زبرجد
ثم انثنت كالغصن هزَّته الصبا	طربا فتزرى بالغصون المُيَّـــدِ
حوراء بارعة الجمـــال غريرة	تزهى فتزرى بالقضيب الأملد
إن أدبرت لم تُبْقِ عقلَ مدبر	أو أقبلت قتلت ولـكن لا تَدِى

قال القاضى أبو البركات بن الحاج : وابتلى باختصار كتب الناس ، فمن ذلك مختصره المسمى « الدرر الموسومة ، فى اشتقاق الحروف المرسومة » وكتاب حكايات يسمى « دوحة الجنان ، وراحة الجنان » وغير ذلك .

قال أبو البركات : وسألته عن مولده ، فقال لى : اليوم ستون سنة ، وقال ذلك

---

(١) المعمود : اسم المفعول من قولهم « عمده الحب » أى أحزنه ، وبابه ضرب ، والثاكل : الفاقد ، وأصله خاص بالمرأة تفقد ولدها ، وعبرتها - بفتح العين - دمعتها

ليلة الخميس السابع والعشرين لذى قعدة عام أربعين وسبعمائة ، وتوفى آخر رمضان من عام تسعة وأربعين ، رحمه الله تعالى ! انتهى .

من إنشائه فى ترجمة أحمد ابن على المليانى

رجع - قال لسان الدين فى «الإكليل» فى ترجمة الكاتب صاحب العلامة أبى العباس أحمد بن على المليانى المراكشى ما نصه : الصارم الفاتك ، والكاتب الباتك ، أى اضطراب فى وَقَار ، وتجهم تحته أنس العقار ؟ اتخذه ملك المغرب صاحب علامته ، وتوجه تاج كرامته ، وكان يطالب جملة من أشياخ مراكش بثار عمه ، ويطوّقهم دَمَه بزعمه ، ويقصر على الاستنصار منهم بنات همه ، إذ سَعَوْا فيه حتى اعتقل ، ثم جدوا فى أمره حتى قتل ، فترصد كتابا إلى مراكش يتضمن أمراً جَزْما ، ويشمل من أمور الملك عَزْما ، جعل فيه الأمر بضرب رقابهم ، وسَبْى أسبابهم ، ولما أكد على حامله فى العَجَل ، وضايقه فى تقدير الأجل ، تأنّى حتى علم أنه قد وصل ، وأن غرضه قد حصل ، فر إلى تلمسان وهى بحال حصارها ، فاتصل بأنصارها ، حالاًّ بين أنوفها وأبصارها ، وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجّمَت الظنون[1] فى آثاره ، ثم وصلت الأخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة ، فتركها شنيعة على الأيام ، وعاراً فى الأقاليم على حملة الأقلام ، وأقام بتلمسان إلى أن حل مُخَنَّق حصرها ، وأزيل هميان الضيقة عن خصرها ، فلحق بالأندلس ولم يعدم براً ، ورعيا مستمراً ، حتى أتاه حمامه وانصرمت أيامه ، انتهى .

والمذكور ترجمه فى « الإحاطة » بقوله : صاحب العلامة بالمغرب ، الكاتب الشهير البعيد الشأو فى اقتضاء التِّرة ، المثل المضروب فى الهمة ، وقوة الصريمة ، ونفاذ العزيمة .

---

(١) رجمت الظنون : أصل هذه المادة الرجم وهو الرمى بالحجارة ، ثم قالوا « رجم فلان » - من باب نصر - إذا تكلم بالظن ، وقالوا « رجم بالغيب » بالتضعيف - إذا تكلم بما لا يعلمه

حاله ــ كان نبيه البيت ، شهير الأصالة ، رفيع المكانة ، على سجية غريبة من الوقار والانقباض والصمت ، آخذا بحظ من الطب ، حسن الخط ، مليح الكتابة ، قارضاً للشعر ، تذهب نفسه فيه كل مذهب

وصمته ــ فتك فتكة شهيرة أساءت الظن بِحَمَلَة الأقلام على ممر الدهر ، وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة .

شعره ــ من شعره الذى يدل على بأوه ، وانفساح خُطَاه فى النفاسة وبُعْد شأوه ، قوله :

العز ما ضُربت عليه قبابى ‏ ‏ والفضل ما اشتملت عليه ثيابى[1]

والزهر ما أهداه غصنُ براعتى ‏ ‏ والمسك ما أبداه نِقْسُ كتابى

فالمجد يمنع أن يزاحم موردى ‏ ‏ والعزم يأبى أن يُضام جنابى

فإذا بلوت صنيعة جازيتها ‏ ‏ بجميل شكرى أو جزيل ثوابى

وإذا عقدت مودة أجريتها ‏ ‏ مجرى طعامى من دمى وشرابى

وإذا طلبت من الفراقد والسُّهَا ‏ ‏ ثأراً فأوشك أن أنال طلابى

وفاته ــ توفى بغرناطة يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة ودفن بجبانة باب البيرة ، تجاوز الله تعالى عنه ! انتهى .

رجع إلى نثر ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

من نثره فى كتابه « الروض »

فمن ذلك قوله، فى « الروض » فى ترجمة « ضخام الغصون ، من شجرة السر المصون » ماصورته : وهى التى أفادت الظل الظليل ، وزانت المرأى الجميل ، وتكفلت لمحاسن الشجرة الشماء بالتكفيل ، وتتعدد إلى غصون المحبوبات ، وأقسام موضوعاتها المكتوبات ، وغصن المحبين ، أصنافهم المرتبين ، وغصن علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصَّبَّة ،

---

(١) كنى بهذا عن ثبوت صفة العزله ، وعن ثبوت الفضل ، وأخذه من قول العرب « المجد بين بردى فلان » ومن قول الشاعر :

إن السماحة والمروأة والندى ‏ ‏ فى قبة ضربت على ابن الحشرج

وغصن الأخبار المنقولة ، عن ذوى النفوس المصقولة ، وعند تعين هذه الأغصان المقسومة ، كمل شكل الشجرة المرسومة ، والسَّرْحة الموصوفة الموسومة ، ففاءت الظلال ، وكرمت الخلال ، فحيى من تفرد وتوحد ، واستظل من استهدى واسترشد ، ووقف الهائم فخطب وأنشد :

يا سرحــة الحى يامطول شَرْحُ الذى بيننا يطول[1]
عندى مقال فهل مقــام تُصْغِينَ فيه لما أقول
ولى ديون عليك حَلَّتْ لو أنه ينفع الحــلول
ماض من العيش كان فيه منزلَنا ظلُّك الظليــل
زال وماذا عليــه ماذا يا سَرْحَ لو لم يكن يزول
حيًّا عن المذنب المعنى منبتك القَطْرُ والقبول

وقال رحمه الله تعالى : فصول فى المعرفة تغازل بها عيون الإشارة ، إذا قصرت عن تمام المعنى ألسُنُ العبارة ، ولله در القائل :

وإذا العقول تقاصرت عن مدرك لم تتكل إلّا على أذواقهــا

المعرفة اختراق المراتب الحسية ، والنفوس الجنسية ، والعقول القدسية ، والبروز إلى فضاء الأزل ، إذا فنى من لم يكن و بقى من لم يزل ، مع عمران المراتب ، ورؤية الجائز فى الواجب .

ومن عَجَب أنى أحنُّ إليهمُ وأسأل شوقا عنهمُ وهم معى
وتبكيهمُ عينى وهم فى سوادها ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعى

المعرفة مقام يأتلف من جمع مفروق ، وأفول وشُروق ، وسل عروق ، ورد مسروق ،

---

(١) أصل السرحة ــ بالفتح ــ الشجرة العظيمة ، وقيل : كل شجرة لا شوك فيها ، وقيل : كل شجرة طويلة ، ثم يكنون عن المرأة بالسرحة ، ومن ذلك قول حميد الأرقط :

أبى الله إلا أن سرحة مالك على كل أفنـان العضاه تروق

حتى يذهب الكيف والأين ، ويتعين العين ، فيجمع العدد ويجمل ، وينحى السوى ومع ذلك لا يهمل .

للعِدَا منك نصيب ولك السهم المصيب
إنما يومك يومان خصيب وعصيب

المعرفة مقام سامى المُنْعَرَج ، عاطر الأرَج ، ينقل من السَّعة إلى الحرج [1] ، ومن الشدّة إلى الفرج .

طريقك لا تخفى به إن تتبعت خطاك ولا يخفى مبيتك فيه
متاعُكَ منشور على كل خيمة ورؤياك أمن من ترفع تيه

المعرفة عين إن لم تبصر أجزاءها ، أحسن الله عزاءها ، وحقيقه إن لم يجعل الفراق إزاءها ، كانت الغيرة جزاءها ، فهى دائرة مركزها يجمع ، ومحيطها فى التفريق يطمع ، يستقل الملك أجمع ، ويرى من يرى ويسمع من يسمع .

بُعْدُ المحيط من المحدد واحد والكل فى حق الوجود سواء
والحق يعرف ذاته من ذاته صح الهوى فتلاشت الأهواء

المعرفة صُعود ونزول ، ووقوف ووصول ، فلا الوصول عن البداية يقطع ، ولا البداية عن النهاية تمنع .

من له الأمر أجمع كل ما شاء يصنع
حصل القصد واستقر فلم يبق مطمع

العارف فى البداية يشكر الراكع والساجد ، ثم يعذر الواجد والمتواجد ، ثم يرجم المنكر الجاحد ، فإذا انتهى ورُدَّ العدد إلى الواحد ، قال لسان حالِهِ :

من رأى لى نشيدة أو على عينها أثر

---

(١) هكذا فى الأصول ، والذى يتفق ما بعده أن يكون أصل العبارة « ينقل إلى السعة من الحرج »

فـله الحكم قل له ذهب العين والأثر

إلى أن قال : قال الرئيس : العارف هَشّ بش بَسّام ، فيجل الصغير من تواضعه مثل ما يجل الكبير ، و يبسط من الخامل مثل ما يبسط من النبيه ، ثم علل فقال : وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق ، و بكل شىء فإنه يرى فيه الحق ، إنى لأجد ريح يوسف .

لمعت نارهم وقد عسعس الليـل وضَجَّ الحادى وحار الدليـل

فتأملتهـا وقلت لصحبى هـذه النارُ نار ليلى فمِيلُوا

العارف شجاع ، وكيف لا وهو بمعزل عن هيبة الموت ، وجواد ، وكيف لا وهو بمعزل عن صحبة الباخل ، وصفاح ، وكيف لاونفسه أكبر من أن تُحْرجها زلة بشر ، ونَسَّاء للأحقاد ، وكيف لا وذكره مشغول بالحق ، وقالوا : مَنْ عرف الله تعالى صفاله العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شىء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله رب العالمين .

الشبلى : ليس لعارف علاقة ، ولا لمحب شكوى ، ولا لعبد دعوى ، من عرف الله سبحانه انقطع ، بل خرس وانقمع ، لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، انتهى .

وقال رحمه الله تعالى فى بعض تراجم الروضة : الفرع الصاعد[1] إلى الهواء ، على خط الاستواء ، من رأس العمود القائم ، إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجرم شريف ، وأفنان[2] ذوات ألوان ، قِنوان وغير قنوان ، وطَلْع نَضيد ، وجَنًى سعيد ، فالقشر الحدود والرسوم ، وخواص العارف الذى هو المعروف بها والموسوم[3] ، والفنون التى يقوم عليها العلوم ، والجرم ظاهر الخلق المقسوم ، وعلاجه

---

(١) الصاعد : أراد المرتفع (٢) الأفنان : الأغصان ، واحدها فنن ، بالتحريك

(٣) الموسوم : اسم المفعول من « وسمه يسمه سمة » مثل وعده يعده عدة ــ أى جعل له علامة

كما تعالج الجسوم ، وباطنه المجاهدات التى عليها يقوم ، وقلبه الرياضة والغصون المقامات فيها المقام المعلوم ، ومادتها السلوك الذى بتدريج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم ، والزهرات اللوائح والطوالع والبواده التى لها الهجوم، والواردات التى تدوم أو لا تدوم ، ثم الجنى وهو الولاية التى كان الغارس عليها يحوم[1] ، انتهى .

ثم فَصَّل الكل رحمه الله تعالى فليراجعه من أراده .

من إنشائه على لسان سلطانه إلى الأمير يلبغا

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه على لسان سلطانه للأمير يلبغا[2] الخاصكى ، وهو : إلى الأمير المؤتمن على أمر سلطان المسلمين ، المقلّد بتدبيره السَّديد قلادة الدين ، المثنى على رسوم بره لمقامه لسان الحرم الأمين ، الآوى من مرضاة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى رَبْوة ذات قرار ومَعين ، المستعين من الله تعالى على ما تحمله وأمله بالقوى المعين ، سيف الدعوة ، ركن الدولة ، قوام الملة ، مؤمل الأمة ، تاج الخواص ، أسد الجيوش ، كافى الكفاة ، زين الأمراء ، علم الكبراء ، عين الأعيان ، حَسَنة الزمان ، الأجل المرفع الأسنى الكبير الأشهر الأسمى الحافل الفاضل الكامل المعظم الموقر الأمير الأوحد يلبغا الخاصكى[2] ، وصل الله له سعادة تشرق غُرَّتُها ! وصنائع[3] تسح فلا تشحُّ درتها ! وأبقى تلك المَثَابة قلادة الله تعالى وهو درتها .

سلام كريم ، طيب عميم ، يخص إمارتكم التى جعل الله تعالى الفضل على سعادتها أمارة ، واليُسْرَ لها شارة ، فيساعد الفلك الدوّارمهما أعملت إدارة ، وتمتثل الرسوم كلما أشارت إشارة .

أما بعدَ حمدِ الله تعالى الذى هو يعلمه فى كل مكان ، من قاصٍ ودان ، وإليه توجه الوجوه وإن اختلفت السير وتباعدت البلدان ، ومنه يلتمس الإحسان ،

---

(١) حام حول المكان يحوم : دار (٢) فى ب « بلبغا » بالموحدة أوله

(٣) الصنائع : جمع صنيعة ، وهى الإحسان ، وتسح : أصله قولهم « سح المطر يسح سحا » أى هطل ، وتشح — بالمعجمة — أى تبخل .

وبذكره ينشرح الصدر ويطمئن القلب ويمرح اللسان ، والصلاةِ والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله العظيم الشان ، ونبيِّه الصادق البيان الواضح البرهان ، والرضا عن آله وأصحابه وأحزابه أحْلَاسِ[1] الخيل ، ورُهْبان الليل[2] ، وأسُود الميدان ، والدعاء لإمارتكم السعيدة بالعز الرائق الخبر والعِيان ، والتوفيق الوثيق البنيان ، فإنا كتبناه إليكم — كتب الله تعالى لكم حظا من فضله وافرا ، وصنيعا عن مُحيا السرور سافرا ، وفى جوّ الإعلام بالنعم الجسام مسافرا ! — من حمراء غَرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الأندلس دافع الله سبحانه عن حَوْزَتها كيد العداة ، وأتحف نَصْلها ببواكر النصر المُهْداة ، ولا زائد إلا الشوق إلى التعارف بتلك الأبواب الشريفة التى أنتم عنوان كتابها المرقوم ، وبيت قصيدها المنظوم ، والتماس بركتها الثابتة الرسوم ، وتقرير المثول فى سبيل زيارتها بالأرواح عند تعذره بالجسوم ، وإلى هذا فإننا كانت بين سلفنا تقبل الله تعالى جهادهم ، وقدس نفوسهم ، وأمن مَعَادهم ، وبين تلك الأبواب كما عرفتم من عدلها وإفضالها ، مراسلةٌ ينم عَرْفُ الخلوص من خلالها ، وتسطع أنوار السعادة من آفاق كمالها ، وتلتمح من أسطار طروسها محاسن تلك المعاهد الزاكية المشاهد ، وتُعرب عن فضل المذاهب وكرم المقاصد ، اشْتَقْنَا إلى أن نجددها بحسن منابكم ، ونواصلها بمواصلة جنابكم ، ونغتنم فى عَوْدها الحميد مكانكم ، ونؤمل لها زمانكم ، فخاطبنا الأبواب الشريفة فى هذا الغرض مخاطبة خجلة من التقصير ، وَجِلة من الناقد البصير ، ونؤمل الوصول فى خفارة يدكم التى لها الأيادى البيض ، والموارد التى لا تغيض ، ومثلكم من لا تخيب المقاصد فى شمائله ، ولا تَضْحَى المآملُ فى ظل خَمائله ، فقد اشتهر من حميد سيركم ماطَبَّقَ الآفاق ، وصحب الرِّفاق ، واستلزم الإصفاق ، وهذه البلاد مباركة ،

---

(١) أحلاس الخيل : الذين يلازمون صهواتها ولا يفارقونها ، وأراد أنهم فرسان مغاوير .

(٢) رهبان الليل : يريد أنهم كثيرو العبادة قوامون ليلهم .

ما أسلف أحد فيها مشاركة ، إلا وجدها فى نفسه ودينه وماله وعياله، والله سبحانه أكرم مَنْ وَفى لامرىء بمكياله ، والله عز وجل يجمع القلوب على طاعته ، وينفع بوسيلة النبى صلى الله عليه وسلم الذى نعوّل على شفاعته ، ويُبْقى تلك الأبوابَ مَلجأً للاسلام والمسلمين ، وظلا لله تعالى على العالمين ، وإقامة لشعائر الحرم الأمين ، ويتولى إعانة إمارتكم على وظائف الدين ، ويجعلكم ممن أنعم الله تعالى عليه من المجاهدين ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

من إنشائه كتاب أرسله لمن امتنع عن أكل طعامه

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله فى قضية امتناع بعض الموثقين من أكل طعامه بمدينة سَلاَ ، وقد صدر به كتابه المسمى « مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة » وهذا نصه : أما بعد حمد الله الذى قرر الحكم وأحكمه ، وبين الحلال من الحرام بما أوضحه من الأحكام وعَلَّمه ، ونوّع جنس المعاش وقسمه ، وماز[1] كل نوع منه ووسمه ، فأثبته متفاوتا فى درجات التفضيل ورسمه ، والصلاة والسلام على مولانا محمد رسوله الذى فضله على الأنبياء وقربه وطهر من دَنَس الشبهات شِيَمه ، فما استعمله فى غير طاعته ولا استخدمه ، ولا أعمل فى سوى البر والهدى بنَانه ولا قدَمه ، والرضا عن آله وأصحابه الذين رَعَوْا ذِمَمه[2] ، واستمطروا دِيَمه ، وتواصوا من أجله بالبر وتواصوا بالمرحمة ، فهذا كتابُ « مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة » دعا إلى جمعه قلة الإنصاف من المُداهن والمعاصر ، والمباهت فى درك النور الباصر ، ورضى مظنة النيل منهم بالباع القاصر ، والمناضلة عن الحمى الذى لم يؤيده الحق بالولى ولا بالناصر ، ولوضعه حكاية ، ولنفثته شكاية ، إذ معرفة الأشياء بعللها مما يتشوق إليه ، ويحرص عليه ، وهو أنى لما قدمت على مدينة فاس حرسها الله تعالى ، مستخلصا بشفاعة الخلافة ، ذات الإنافة ، مستدعًى برسالة الإيالة ، ذات الجلالة ، فانسحب والمنة

---

(١) ماز الشيء عن الشيء : ميزه وفصل أحدهما عن الآخر .

(٢) رعوا ذممه : حفظوا عهوده ولم يخفروها .

لله الستر ، وانفسح الفتر ، وشفع من النعم الوتر ، واقتدى المرؤس بالرئيس ، وتنافس الأعلام فى التأنيس ، واتصل الاحتفاء والاستدعاء ، وانتخب الموعى والوعاء ، وأخذ أعقاب الطيبات الوضوء والطيب والدعاء ، تعرفت فيمن جمعته الأخْوِنَة ، والمداعى المتعينة ، برجل من نبهاء موثقيها غرَّنى بمَخِيلة البشاشة التى يُستفز بها الغريب ، ويستخلص هوى من لم يعمل التجريب ، فأنست بمكانه ، واستظهرت على مايعرض من مكتتب بدكانه ، وشأنى فى الاغتباط بمن عرفت شانى ، فلست للمِقَة بشانى ، واسترسالى ، حتى لمن أسا لى ، طوع عنانى :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة ضميرى ويتلوه يدى ولسانى(١)

ولم يك إلا أن حللت بمدينة سَلاَ حرسها الله تعالى مقصودَ المحل وإن رغم الدهر الذى رمى فأقْصَدَ ، معتمداً بفتوحات الله تعالى وإن أرتج الباب بزعمه وأوصد ، مُصْحَباً بمدد عنايته وإن كمن وأرصد ، لايمر فاضل إلا عَرَّجَ على مَثواى(٢)، وأتى من البر فوق هوَاى ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، وتعرفت عن صاحبى الفاسى أنه قدم علينا من سخر عملية فلالها الدسر المنهوبة ، وتحللها المسبعة المرهوبة ، واغتذى الأطعمة التى مَرَقَتُها الدموع ، ومطبختها الحِمَى المَرُوع ، واستقر بالمدينة بعد أن لان وضَرَع ، وجدّل وصَرَع ، نافقَ البقلة كاسِدَ الوَرَع ، ونزل بمَثْوَى خمول ، ومحطّ مجهول ، وكَنَف ممقوت ، وجوارٍ لايبخل بغيبة ولايسمح بقوت ، فبادرت استدعاءه بفاضل من الطلبة ممن يتلقى به الوارد ، ويقتاد الشارد ، وقد أغرب بقراءة الاحتفاء والاحتفال ، وأجنب الإغفاء والإغفال ، وجهزت السرايا إلى التماس نعم الله تعالى نحلت الأنفال ، فلما عرض عليه الدعوة تعجرف ونفر ، ولما مسح عِطفه بالاستنزال نزا وطَفَر ، حتى بهت الرسول كما بهت الذى كفر ، وآب يحمل عذراً بارداً ، واحتجاجاً شارداً ، فأقطعته جانب شِماسه ، وخليت بينه وبين وَسْوَاسه ،

(١) الذى أحفظه فى رواية هذا البيت هكذا :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ، ولسانى ، والضمير المحجبا

(٢) المثوى : مكان الإقامة .

ومن الغد قَصَدَنى فاعتذر ، وأكثر الهَذَر ، ولم ينبت الله النبات الحسن شيئا مما بَذَر ، وكان جوابى إياه ما نصه :

أبيتم دعوتى إما لشأو — وتأبى لومه مُثْلَى الطريقه
وبالمختار للناس اقتداء — وقد حَضَرَ الوليمة والعَقِيقه
وغير غريبة أن رَقَّ حر — على مَنْ حاله مثلى رقيقه
وإما زاجر الورع اقتضاها — ويأبى ذلك دكان الوثيقه
وغشيان المنازل لاختيار — يُطَالب بالجليلة والدقيقه
شكرت مَخِيلَةً كانت مجازا — لكم وحصلت بعد على الحقيقه

وذاع خبرها فقلبت عنها الجنوب ، وكلف بها الطالب والمطلوب ، وهَشَّ إلى المُرَاجعة عنها أحد الموثقين بسلا ممن يحوم حول حمى الإدراك ، ويروم درجة الاختصاص ببعض الفنون والاشتراك ، وله فى الأدب مساس ، وجلب الباس ، بما نصه :

رسولك لم يُبِنْ لى عن طريقه — تقرب من حديقتك الأنيقه
فلا بأو لدى ولا إباء — ولكن ساء فى الغرض الطريقه(١)
وهَبْ أنى أسأت فكم صديق — تدَلَّلَ واعتدى فجفا صديقه
فلا عجب فديت لرفق حر — يسكن عند خَجْلته رفيقه
وإنى فيك معتقد ، ولكن — أرى الأيام حاقدة حنيقه
على ذى الود فيمن وَدَّ حتى — يفارقه وإن أضحى رفِيقَهْ

فراجعته بما نصه لما أسلفته من جزاء مِصَاعه(٢) ، وكِلْتُ له بصاعه :

من استغضبت من هذى الخليقه — بمغضبة بإنكارِ خليقه
ولم يغضب فتَيْسٌ أو حمار — مجازاً ، لا ، لعمرى ، بل حقيقه
بعثت بمرسل لك مع عتيق — فلم تطع الرسول ولا عتيقه

(١) البأو — بفتح الباء وسكون الهمزة — الكبر ، والإباء : الامتناع
(٢) المصاع ، هنا : مصدر « ماصع فلان بلسانه » إذا قذف .

وطوّقت السفير الذنبَ لما عجلت به ولم تُبْلعه ريقه[(١)]

إمام جماعة وفريع تقوى ومبلغ حجة وحفيظ سيقه[(٢)]

فبُؤْتَ بها على الأيام داء عُضالا لا تفيق عليه فِيقَهْ

وقد عارضت عذرك باعتراف فزدت مذمة تَسِمُ الطريقه

وهل بعد اعتراف من نزاع وهل بعد افتصال من وثيقه

ومَنْ جهل الحقوق أطاع نفسا ببحر الجهل راسبةً غريقه

ومنجى نيقة أمر بعيد إذا نصب المهندس مَنْجَنيقه

فأمسك حينئذ وأقصر ، ورأى الأمر يطول فاختصر ، إلا أنه نمى لى عنه قوله : إن دكان الوثيقة إنْ نافَى الورَعَ فبغير بلده ، وأذهلته لذة لَدَدِه ، عما هو بصَدَده ، فارتهنت له أن أنصر الدعوى بما يسلمه المنصف المُساهل ، وينكره الأرعن الجاهل وتشدّ به المنازل والمناهل ، والمعالم والمجاهل ، مستندا إلى الحكم الشرعى ، والسَّنَن المرعى ، والمشاهدة والحس ، وشهادة الجن والإنس .

* ولو ترك القطا لَيْلاً لناما *

والله يجعله موقِظًا من السِّنات ، وازعا عن كثير من الْهَنات ، وينفع فيه بالنية فإنما الأعمال بالنيات ، وها أنا أبتدىء وعلى الله الإعانة ، وبحوله وقوّته الإفصاحُ والإبانه .

قلت : ينحصر الكلام فيه فى سبعة أبواب : الباب الأول : فى جواز الإجارة فيها عند العلماء ، الباب الثانى فى الشركة المستعملة بين أربابها ، الباب الثالث فى

---

(١) طوقته الذنب : ألزمته إياه ، وكأنما جعله طوقا فى عنقه ، وفى القرآن الكريم (سيطوقون ما بخلوا يوم القيامة) ولم تبلعه ريقه : كناية عن أنه لم يمهله حتى يروى ويفكر أو يتهيأ .

(٢) «وحفيظ سيقه» هكذا هو ، ولا يظهر لى فيه معنى أطمئن إليه ، وقد يكون محرفا عن «وحفيظ شيقه» — بشين معجمة مكسورة — وهو جانب البلد مثلا ، وكأنه قال — إن صح — حافظ الديار وحاميها .

محلها من الورع إن سوّغها الفقه ، الباب الرابع : فى منزلتها من الصنائع والمهن ، الباب الخامس : فى أحوال منتحليها من حيث العلم غالباً . الباب السادس : فى أحوالهم من جهة استقامة الرزق وانحرافه . الباب السابع : فى رد بعض ما يحتج به فيها . انتهت الخطبة المقتطعة من تأليف لسان الدين رحمه الله تعالى .

وهذا التأليف فى نحو كراسة ، وقال فى آخره ما صورته : فإن قيل : ترك الأجر وقبول العوض فى هـذا الأمر يدعو إلى تعطيله ، فيفقد الناس منفعة هذه الطريقة وغناءها[1] ، قلت : الإنصاف فيها اليوم أن لو كان متوليها يرتزق من بيت المال وأموال المصالح والأوقاف التى تسع ذلك ، وحالُ الجماهير فى فقدانها والاضطرار إليها ورفع أمورهم بها إلى السلطان ورغبتهم فى نصب من يتولى ذلك حالُهم فى فقدان أئمة الصلاة فى المساجد الراتبة فى جريانه من بيت المال بعلة التزامهم وارتباطهم فقط ، حسبما نَقَلَ الإجماع فيه القاضى أبو بكر بن العربى رحمه الله تعالى ومنع الارتزاق من غـيره إجماعا ، وقد كان بالمدن المعتبرة من بلاد الأندلس ــ جبرها الله تعالى ! ــ ناس من أولى التعفف والتعين ، كبنى الجدّ بإشبيلية ، وبنى الخليل وغيرهم بغيرها ، يتعيشون من فضول أملاكهم ، ووجائب رِباعهم ، ويقعدون بدورهم عاكفين على بر ، منتابين لرواية وفتيا ، يقصدهم الناس فى الشهادة فيجاملونهم ، ويُبرِّكون على صفقاتهم ، ويهدونهم إلى سبيل الحق فيها من غير أجر ولا كلفة ، إلا الحفظ على المناصب ، وما يجريه السلطان من الحرمة والتفقد فى الضرورة ، وما يهديهم الناسُ من الإطراء والتجـلة ، والله سبحانه من الأجر والمَثُوبة ، وبلغنى اليوم أن حالها بمدينة سجلماسة ينظر إلى هذا الحال من طرف خفى ، ولم يفسد بها كل الفساد ، وكذلك لم نزل نتعرف أن الأمر فى شأنها بمدينة تونس أقرب ، وبعض الشر أهون من بعض ، ولو بقيت

---

(١) غناءها ــ بفتح الغين ــ من قولهم « لا يغنى غناء فلان أحد » أى لا ينفع مثل منفعته أحد ، ولا يقوم بمثل ما يقوم به أحد

بحالها لوجب تقرير فضلها وتقريظ منتحلها ، فالصدق أنجى ، والحق عند الله أحْجَى ، والله عز وجل يستعملنا فيما يرضيه ، ويلطف بنا فيما يجريه علينا من أحكامه وما يقضيه ، ويجعلنا ممن ختم له بالحسنى ، ويقربنا إلى ماهو أقرب من رحمته وأدنى ، وصلوات الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، انتهى .

وكتب على ظهر الورقة الأولى من هذا التأليف شيخُ شيوخ شيوخنا الإمام الكبير المؤلف الشهير سيدى أحمد الوانشريسى رحمه الله تعالى ما صورته : الحمد لله ، جامعُ هذا الكلام المقيد هذا بأوّل ورقة منه قد كدّ نفسه[1] فى شىء لا يعنى الأفاضل ، ولا يعود عليه فى القيامة ولا فى الدنيا بطائل[2] ، وأفنى طائفةً من نفيس عمره فى التماس مَسَاوى طائفة بهم تُسْتَبَاح الفروج ، وتملك مُشَيَّدات الدور والبروج ، وجعلهم أضحوكة لذوى الفتك والمَجانة ، وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة ، سامحه الله تعالى ! وغفر له ! قال ذلك وخَطَّه بيمنى يديه عُبيد ربه أحمد بن يحيى ابن محمد بن على الوانشريسى خار الله سبحانه له ! انتهى ما ألفيته .

وقد كان لسان الدين رحمه الله تعالى كثيراً ما يعرّض ويصرح بهجو بعض أهل سَلاَ أو كلهم حتى قال :

أهل سلا صاحت بهم صائحه ... غادية فى دورهم رائحه
يكفيهمُ من عَوَر أنهم ... ريحانهم ليست له رائحه

والله المرجو للعفو عن الزلات .

من إنشائه خطبة كتاب له فى المحبة

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى خطبة كتاب فى المحبة الذى ما ألف فى فنه أجمع منه ، ولنوردها فإن فيها دلالة على فضله وعظم قدر الكتاب ، وهى : اللهم طيب بريحان ذكرك أنفاسَ أنفسنا الناشقة ، وعلل بجِرْيال حبك جوانح أرواحنا العاشقة ، وسدد إلى أهداف معرفتك نبالَ نبلنا الراشقة[3] ، واستخدم

(١) كد نفسه : أجهدها وأتعبها (٢) يقولون « هذا أمر لا طائل تحته » يريدون أنه لا فائدة فيه (٣) سدد : صوب ووجه ، والأهداف : الأغراض التى توضع ليرمى إليها بالسهام ونحوها ، واحدها هدف

فى تدوين حمدك شَبَا أقلامنا(١) الماشقة ، ودُلَّ على حضرة قُدْسِك خطرات خواطرنا الذائقة ، وأَبِنْ لنا سُبُلَ السعادة التى جعلت فيها الكمال الأخير لهذه الأنفس الناطقة ، وأُصرفنا عند سلوكها عن القواطع العائقة ، حتى نأمن مخاوف أجبالها الشاهقة ، وأحزابها المنافقة ، وأوهامها الطارئة الطارقة ، وبرازخها القاسية الغاسقة(٢) ، فلا تسرق بضائعَنا العوائدُ السارية السارقة ، ولا تحجبنا عنك العوارض الجسمية اللاحقة ، ولا الأنوار المغلطة البارقة ، ولا العقول المُفَارقة ، يا من له الحكمة البالغة والعناية السابقة ، وصَلِّ على عبدك ورسولك محمد درة عقود أحبابك المتناسقة ، وجالب بضائع توحيدك النافقة ، المؤيد بالبراهين الساطعة والمعجزات الخارقة ، ما أطلعت أفلاك الأدواح زُهْر أزهارها الرائقة ، وحَدت قطار السحائب حُدَاة رعودها السائقة ، وجمعت ريحُ الصَّبا بين قدود أغصانها المتعانقة .

أما بعد ، فإنه لما ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة بحدود سيوف الله حدودها ، الصادقة بنصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وُعُودها ، وصَلَ الله تعالى عوائد صنعه الجميل لديها ، وأبقاها دار إيمان إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومَنْ عليها ، ديوانُ الصبابة وهو الموضوع الذى اشتمل من أبطال العشاق على الكثير ، واستوعب من أقوالهم الحديثة والقديمة كلَّ نظيم ونَثير ، وأسْدَى فى غزل غَزَله وألحم(٣) ، ودلّ على مَصارع شهدائهم من وقف وترحَّم ، فصدّق الخبر المخبر ، وطمت اللجة التى لا تعبر ، وتأرَّجَ من مَسْراه المسكُ والعنبر ، وقالت العشاق عند طلوع قمره : الله أكبر .

مررت بالعشاق قد كبروا   وكان بالقرب صبى كريم

فقلت : مابالهم ؟ قال لى :   ألقى للحب كتاب كريم

---

(١) شبا الأقلام : أطرافها ، واحدها شباة ، وأصلها طرف الرمح

(٢) الغاسقة : المظلمة (٣) أسدى : نسج السدى ، وألحم : نسج لحمة الثوب ، والسدى : ما كان من خيوط الثوب طولا ، واللحمة : ما كان منها عرضا

ولا غرو أن أقام بهذه الآفاق ، أسواق الأشواق ، وزاحم الزفرات فى مسالك الأطواق ، وأسال جواهر المدامع من بين أطباق تلك الحقاق ، وفتك نسيمها الضعيف العهد والميثاق بالنفوس الرقاق :

جنى النسيم علينا وما تبينت عذره
إذ صير الخلق نجدا والأرض أبناء عذره

فوقع للحجة المصرية التسليم ، وقالت ألسنة الأقلام معربة عن ألسنة الأقاليم :

سلمت لمصر فى الهوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشاقه
من ينكر دعواى فقل عنى له تكفى امرأة العزيز من عشاقه

فغمر المحافل والمجالس (١) ، واستجلس الراكب واستركب الجالس ، يدعو الأدب إلى إلى مأدبته فلا يتوقف ، ويُلْقى عصا سحره المصرى فتتلقف ، ما شئت من ترتيب غريب ، وتطريب من بنان أريب ، يشير إلى الشعر فتنقاد إليه عيونه ، ويصيح بالأدب الشريد فتلبيه فنونه ، وأنهى خبره للعلوم المقدسة ، ومدارك العز الموطَّدة المؤسَّسة ، سما به الجد صُعُداً إلى المجلس السلطانى مَقر الكمال ، ومطمح الأبصار والآمال ، حيث رفارف العز قد انسدلت ، وموازين القسط قد عدلت ، وفصول الفضل قد اعتدلت ، ووُرْقُ أوراق المحامد قد هَدَلت (٢) ، مجلس السلطان المجاهد ، الفاتح الماهد ، المتحلِّى فى رَيْعان العمر الجديد ، والملك السعيد ، بحلى القانت الزاهد ، شمس أفق الملة ، وفخر الخلفاء الجِلة ، بدرُ هالاتِ السروج المجاهدة ، أسد الأبطال البارزة إلى حَوْمة الهياج الناهدة ، مُغشِى الأبصار المشاهدة ، مظهر رضا الله تعالى عن هذه الأمة الغريبة عن الأنصار والأقطار ، من وراء أمواج البحر الزخار ، باختياره لها واعْتِيامه (٣) ، وملبسها برودَ اليمن والأمان ببرَكة أيامه ، ومن

---

(١) غمر المحافل : ملأها
(٢) الورق : الحمائم ، واحدها ورقاء ، وهدلت : غنت
(٣) اعتيامه : اختياره وانتخابه

أطلع الله تعالى أنوار الجمال من أفق جبينه ، وأنشأ أمطارَ السماح من غمام يمينه ، وأجرى فى الأرض المثل السائر بحلمه و بسالته ودينه ، أمين الله تعالى على عهدة الإسلام بهذا القطر وابنُ أمينه وابنِ أمينه ، فخر الأقطار والأمصار ، ومطمح الأيدى وملمحُ الأبصار ، وسلالة سعد بن عُبَادة سيد الأنصار ، ومَنْ لو نطق الدين الحنيفى لحياه وفدّاه ، أو تمثل الكمالُ صورةً ماتعداه ، مولانا السطان الإمام العالم العامل المجاهد أمير المسلمين أبو عبد الله ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر الأنصارى الخزرجى ، جعل الله تعالى ثغرَ الثغر مبتسما عن شَنَب نصره ! والفتحَ المبين مذخورا لعصره ! كما قصر آداب الدين والدنيا على مقاصير قَصْره ! وسوّغه من أشتات مواهب الكمال ما تعجز الألسن عن حَصْره ! ولا زالت أفنان أقلامه تتحف الأقاليم بجَنِيِّ فنون هَصْره ! فخصته عينُ استحسانه أبقاه الله تعالى بلحظة لحظ ، وما يلقاها إلا ذو حَظٍّ ، وصَدرت إلى منه الإشارة الكريمة بالإملاء فى فنه ، والمنادمة على بنت دَنّه ، وحَسِبَ الشحم من ذى وَرَم (١) والله سبحانه يجعلنى عند ظنه ، ومتى قورن المثرى بالمترب (٢) ، أووزن المشرق بالمغرب ؟ شتان بين من تجُلَى الشمس منه فوق منصتها ، و بين من يشرق أفقه الغربى لابتلاع قرصتها ، لكنى امتثلت ، ورشت ونثلت ، ومُكْرَهًا لا بطَلا مَثَلْت (٣) ، وكيف يتفرغ للتأليف ، و يتفرع للوفاء بهذا التكليف ، مَنْ حَمَلَ الدنيا فى سن الكهولة على كاهله ، ورَكَضَ طِرْفَ الهوى بين معارفه ومجاهله ، واشترى السهر بالنوم ، واستنفد سواد الليل و بياض اليوم ، فى بَعْث يجهز ، وفرصة تنهز ، وثغر للدين يُسَد ، وأزر للملك يشد ، وقِصَّة ترفع ، ووساطة تنفع ، وعَدْل يحرص على بذله ، وهوى يجهد فى عذله ، وكريم قوم ينصف من نذله ، ودين تزاح

(١) أخذ هذا من قول أبى الطيب المتنبي :

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

(٢) المثرى : الغنى ، والمترب : الفقير الذى لصق بالتراب

(٣) أخذه من قولهم فى مثل « مكره أخوك لا بطل »

الشوائب عن سُبْله ، وسياسة تشهد للسلطان بذُبْله و إصابة نَبْله ، ما بين سيف وقلم ، وراحة وألم ، وحرب وسلم ، ونشر عَلَم أو عِلْم ، وجيش يعرض ، وعطاء يفرض ، وقَرْض حسن لله تعالى يُقْرَض ، فى وطن توافر العدو على حَصْره ، ودار به دَوْرَ السوار على خَصْره ، وملك قصر الصبر والتوكل على قَصْره ، وعدد نسبته من العدد العظيم الطاقة ، الشديد الإضاقة ، نسبة الشعرة من جلد الناقة ، وبالله نستدفع المكروه ، و إليه نمد الأيدى ونصرف الوجوه ، وسألت منه - أيده الله تعالى ! - القنوع بما يسره الوقت ، مما لا يناله المَقْت ، والذهاب بهذا الغرض لما يليق بالترب والسن ، ويؤمن من اعتراض الإنس والجن ، وما كنت ممن آثر على الجد الهزل ، واعتاض[1] من الغزل الرقيق الغزل بشيمة الجزل ، ولا آنف من ذكر الهوى بعد أن خُضْتُ غماره ، واجتنيت ثماره ، وأقمت مناسكه ورميت جماره ، وما أبرّىء نفسى إن النفس لأمّارة ، فالهوى أوّل تميمة قلدتنى الداية ، والترب التى عرفتها فى البداية ، وأنا الذى عن عُرْوته[2] نُبْتُ ، و بُعثت إلى الرصافة لأرقّ فُذبْت[3] ، إلى أن تبين الرشد من الغى ، وصار النشر إلى الطى ، وتصايح ولْدان الحى ، كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم كما من على .

جزى الله عنى زاجر الشيب خيرما جزى ناصحا فازت يداه بخيره
ألفتُ طريق الحب حتى إذا انتهى تعوضت حب الله عن حب غيره

حال السواد بحال الفؤاد ، وصَوَّح المرعى فانقطعت الرُّوَّاد ، ونهانى ازورار خيال الزوراء ، والتفات عاذل الشيب عن المقلة الحوراء ، وكيف الأمان ، وقد طلع منه النذير العريان ، يدل على الخبر بخبره ، وينذر بهاذم اللذات على أثره ، ولله در القائل :

---

(١) اعتاض : استبدل (٢) أراد عروة بن حذام أحد الشعراء الغزلين
(٣) هذه عبارة قيلت فى على بن الجهم الشاعر المشهور ، وانظر (ص٣٤٨ من هذا الجزء)

دعتنىَ عينـاكَ نحو الصبا   دعاء يردد فى كل ساعه
فلولا، وحقك ، عُذْرُ المشيب   لقلت لعينيك : سمعا وطاعه

ولولا أن طيف هـذا الـكتاب الوارد طَرَقَ مضاجعى وقد كادَ يبدو الحاجب ، و يضيع من الفرض الواجب ، و يعجب من نوم الغفلة العاجب ، لجريت معه فى ميدانه ، وعقدت بنانى ببنانه ، وتركت شانى و إن رغم الشانى لشانه[1] ، وقلت معتذراً عن التهويم فى بعض أحيانه :

أهلا بطيفك زائراً أو عائدا   تفديك نفسى غائباً أو شاهدا
يا من على طيف الخيال أحالنى   أتظن جفنى مثل جفنك راقدا ؟
ما نمت ، لكن الخيال يُلِمُّ بى   فيجله طرفى فيطرق ساجدا

ومن العصمة أن لا تجد ، هلا قبل المشيب ، ومع الزمن القشيب ، وقبـل أن تمخض القربة ، وتبنى الخانقاه والتربة ، وتونس بالله الغربة ، وعلى ذلك فقد أثر ، وباء قلبى المعثر ، اللهم لا أ كثر .

و بدا له من بعد ما اندَمَلَ الهوى   برق تألق مَوْهِناً لمعـــــانه
يبدو كحاشـــية الرداء ودونه   صَعْبُ الذرا متمنع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح ، فلم يطق   نظراً إليـــه ورددت أشجانه
فالنار ما اشتملت عليـه ضلوعه   والمــاء ما سمحت به أجفانه

وجعلت الإملاء على حمل مؤازرته أيده الله تعالى علاوه ، و بعد الفراغ من ألوان ذلك الخوان حلاوه ، وقلت أخاطب مؤلف كتاب الصبابة بما يعتمده جانب إنصافه ، و يغطى على نقصى إن وقع فيه كمال أوصافه :

يا من أدار من الصبابة بيننا   قدحا ينم المسك من ريَّاه

---

(١) رغم ـ من باب فرح ـ لصق بالرغام وهو التراب ، والشانى : الـكاره المبغض ، و «لشانه» يتعلق بقوله «تركت» يريد ترك أمر نفسه ليأخذ فى شأن هذا الـكتاب

وأتى بريحان الحديث فكلما سمح النديم براحـه حياه
أنا لا أهيم بذكر مَنْ قتل الهوى لكن أهيم بذكر من أحياه

وعَنَّ لى أن أذهب بهذا الحب المذهب المتأدى إلى البقاء ، الموصِّل إلى ذروة السعادة فى معارج الارتقاء(١) ، الذى غايتُه نعيم لاينقضى أمَدُه ، ولا ينفد مدده ، ولا يُفْصَل وَصْلُه ، ولا يفارق الفرعَ أصله ، حب الله المبلغ إلى قربه ، المستدعى لرضاه وحبه ، المؤثر بالنظر إلى وجهه ، ويالها من غاية ، الملقى رَحْل المتصف به بعد قطع بحار الفناء على ساحل الولاية .

وكنت وقفت من الكتب المؤلفة فى المحبة على جملة منها كتاب يشهده العوام ، ويستخفة الهوام ، ورسالة ابن واصل رسالة مهذارة ، تطفو من دارة إلى داره ، فى مطاردة هرّ وفاره ، وكتاب ابن الدباغ القيروانى كتاب مفرقع ، ووجه المقصود منه متبرقع ، وكتاب ابن خلصون وهو أعدلها لولا بداوة تَسِمُ الخرْطُوم ، وتناسب الجمل المخطوم ، فكنت بما ذكر لا أقنع ، وأقول ما أصنع ، فالله يعطى ويمنع .

قلت للساخر الذى رفع الأنف واعتلى
أنت لم تأمن الهوى لاتُعَـيِّرْ فتبتـلى

شعر :

وعذلت أهل العشق حتى ذُقْتُه فعجبت كيف يموت من لايعشق

ومن المنقول : لا تظهر الشماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك .

بَلاَنى الحبُّ فيك بما بلانى فشانى أن تَفِيض غروبُ شانى

أجل بلانى بالغرض الذى هو من القلوب سر أسرارها ، ومن أفنان الأذهان

---

(١) ذروة كل شيء : أعلاه ، والمعارج : المصاعد ، وهي كل ما ترتفع به من أسفل إلى أعلي ، وأصله فى الحسيات كالسلم ، وكثيرا ما تستعمل فى المعنويات

بمنزلة أزهارها ، ومن الموجودات وأطوارها قطبُ مَدَارها ؛ ليكون كتابى هـذا المقدم على المأزق المهلك ، المتشبع بما لا يملك ، وأن يقنع الاتصاف ، فعسى أن يشفع الإنصاف ، والافتراف ، يدرؤه الاعتراف ، أنا عند المنكسرة قلوبهم ، ولا تجود يد ، إلا بما تجد ، وكل ينفق مما آتاه الله .

وابن اللَّبُون إذا ما لُزَّ فى قَرَن لم يستطع صَوْلة البُزْل القَنَاعيس[1]

وعسى الذى أنطق شوقا ، أن ينطق ذَوْقا ، والذى حرك سفلا أن يُحرك فوقا ، والذى يسره مقالا ، أن يكفيه حالا * فأوّلُ الغَيْث طَلّ ثم يَنْسكب * الحربُ أوّلَ ما تكون لجاجةٌ * وإن الحرب أولها الكلام * نحمد الله سبحانه على الكَلَف بهذه الطريقه ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وللأرض نصيب من كأس الكريم :

أليس قليلا نظرة إن نظرتها إليك ؟ وكَلَّا ليس منك قليل

فاتنى أن أرى الديار بطرفى فلعلى أرى الديار بسمعى

وعلى ذلك فذهبت فى ترتيبه أغرب المذاهب ، وقرعت فى التماس الإعانة بابَ الجواد الواهب ، وأطلعت فصوله فى ليل طلوعَ نجوم الغياهب ، وعرضت كتائب العزيمة عرضا ، وأقرضت الله قَرْضا ، وجعلته شجرة وأرضا ، فالشجرة المحبة مناسبة وتشبيها ، وإشارة لما ورد فى الكتب المنزلة وتنبيها ، والأرض النُّفوس التى تغرس فيها ، والأغصان أقسامها التى تستوفيها ، والأوراق حكاياتها التى تحكيها ، وأزهارها أشعارها التى تُحييها ، والوصول إلى الله تعالى ثمرتها التى ندَّخرها بفضل الله ونقتنيها ، شجرة لعمر الله يانعه ، وعلى الزعازع متمانعه ، ظلها ظَليل ، والطرف عن مَدَاها كليل ، والفائز بجنَاها قليل ، رست فى التخوم ، وسَمَتْ إلى

---

(١) البزل : الإبل التى بزل نابها ، وإنما يكون ذلك إذا كبرت ، وأراد بابن اللبون صغارها ، والقرن ـ بفتح القاف والراء جميعا ـ الحبل ، وهذا البيت يضرب مثلا لمن قرن بمن لا يستطيع مجاراته

النجوم ، وتنزهت عن أعراض الجُسُوم ، والرياح الحُسُوم ، وسقيت بالعُلوم ، وغذيت بالفُهوم ، وحملت كمائمها بالزهر المكتوم ، ووفيت ثمرتها بالغرض المَرُوم ، فاز من استأثر بجنَاها ، وتَعَنَّى(١) من عُنى بلفظها دون معناها ، فمن استصبح بدُهْنها استضاء بسَنَاها ، ما أبعدها وما أدناها ، عيناً ملأت الأكفَّ بغناها ، كم بين أوراقها من قلب مقلب ، وفى هوائها من هوًى مغلب ، وكم بين أفنانها من صادح ، وكم فى التماس سَقيطها من كادح ، وكم دونها من خَطْب فادح ، ولأربابها من هاج ومادح ، تنوَّعَت أسماؤها ، ولم تتنوع أرضها ولا سماؤها ، فسميت نخلة تهز وتجنى ، وزيتونة مباركة يستصبح بزيتها الأسنى ، وسِدْرة إليها ينتهى المَعْنى ، أصلها للوجود أصل ، وليس لها كالشجر جنس ولا فَصْل ، وتربتها روح ونفس وعقل ، وشرفها يُعَضِّده بَديهة ونقل ، يحط الهائمون بِفِنائها ، ويصعد السالكون حول بنائها ، تخترق السبع الطباق بِبُرَاقها ، وتمحى ظلم الحس بنور إشراقها ، فسبحان الذى جعلها قُطْب الأفلاك ، ومدافن الأضواء والأحلاك ، ومغرد طيور الأملاك ، وسبب انتظام هذه الأسلاك ، لم يحل فيها طريد بعيـــد ، ولا اتَّصف بصفاتها إلا سعيد ، ولا اعْتَلَقَ بأوْجِها هاوٍ فى حضيض ، ولا بمحض برهانها مختبط فى شرك نقيض ، ولا تعرض لشَيم بوارقها متسم بسمة بغيض ، الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ومنه نستزيدُ الاستغراقَ فى بحارها ، والاستنشاقَ لنواسم أسحارها ، والاستدلال بذرى أفنانها عليه ، والوصول بسبب ذلك إليه ، إنه ولى ذلك سبحانه ، فطاب لعمرى المنْبِت والنابت ، وسما الفرعُ الباسق(٢) ورسا الأصل الثابت ، وفاءت الأفنان(٣) ، وزخرفت الجنان ، وتعددت الأوراق والزهرات والأغصان ، ولم أترك فَنَناً إلا جمعت بينه و بين مناسبه ،

---

(١) تعنى : احتمل العناء ، وهو الجهد والمشقة ، وعنى ـ بالبناء للمجهول ـ
(٢) الباسق : الذاهب صعدا فى الهواء
(٣) فاءت : صارت ذا فىء ، وهو الظل ، والأفنان : الأغصان

ولا فرْعًا إلى ضممته إلا ما يليق به ، واستكثرت من الشعر لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذى يحرك عَذَبات أفنانها ، ويؤدى إلى الأنوف روائح بستانها ، وهو المزمار الذى ينفخ الشوقُ فى يرَاعته[1] ، والعزيمة التى تُنْطِق مجنون الوجد من ساعته ، وسلعة ألسن العشاق ، وترجمان ضمير الأشواق ، وَمَجْلَى صور المعانى الرقاق ، ومَكامن قنائص الأذواق ، به عَبَّر الواجدون عن وَجْدِهم ، ومشى المحبُّون إلى قَصْدهم ، وهو رسول الاستلطاف ، ومنزل الألطاف ، اشتمل على الوزن المطرب ، والجمال المعجب المغرب ، وكان للأوطان مركبا ، ولانفعال النفوس سَبَبا ، فلا شىء أنسب منه للحديث فى المحبة ، ولا أقرب للنفوس الصَّبَّة ، واجتلبت الكثير من الحكايات وهى نوافل فروض الحقائق ، ووسائل مجالس الرقائق ، ومراوح النفوس من كدر الأفكار ، وإحماض مسارح الأخبار ، وحظ جارحة السمع من منح الاعتبار ، وبعض الجواذب لنفوس المحبين ، والبواعث لِهِمَم السالكين ، وحجتها واضحة بقوله تعالى (وكلا نقص عليك) فى القرآن المبين ، ونقلتُ شواهدَ من الحديث والخبر تجرى صحاحُها مجرى الزكاة من الأموال ، والخواطر من الأحوال ، ويجرى ما سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال ، ليكون هذا الكتاب لعموم خبره ، مَسْرحا للفاره وغيره ، ويجد كل ميدانا لسَيْره ، وملتقطا لطيره ، ومحكا لغيره ، فمن فاق كلف بأصوله ، ومن قصر قنع بفصوله ، ومن وصل حمد الله تعالى على وُصُوله ، وسميته « روضة التعريف ، بالحب الشريف » ويحتوى على أرض زكِيَّه ، وشجرات فلكيه ، وثمرات ملكيه ، وعيون غير بَكِيه .

والحب حياة النفوس المَوَات ، وعلة امتزاج المركبات ، وسبب ازدواج الحيوان والنبات ، وسر قوله عز وجل (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى

---

(١) أراد باليراعة هنا القصبة الجوفاء التى يزمر بها ، وقد استعمله شاعر مصر البارودى فى هذا المعنى وذلك قوله :

وما أنا ممن يأسر الحب قلبه ويملك سمعيه اليراع المثقب

به فى الناس كمن مثله فى الظلمات) ليس كالحب الذى دَوَّن فيـه المدوّنون ، ولعبت بكُرَة أقباسه صَوَالج الجنون ، وقاد الهوى أهله بحَبْل الهُون ، وساقت فيه المَنى للمَنُون ، حين نظرت النفوس من سفلى الجنبتين ، ورضيت الأثَر عن العَيْن ، وباعت الحق بالمَيْن ، ولم يحصل إلا على خُفَّى حُنَين[1] ، وارحمتا لعشاق الصور ، وسُبَّاق ملاعب الهوى والهور ، لقد كَلِفُوا بالزخارف الحائنة الحائلة[2] ، والمحاسن الزائفة الزائلة ، وسِلَع الجبانة ، و بضائع الإهانة ، أزمانُ التمتُّع بهم قصيره ، والأنكاد عليهم مُغيرة ، فتراهم ما بين طعين بعامِلِ قَدٍّ ، ومضرّج بدم خَدٍّ ، وأسير ثغر قد أعوز فداؤه ، وسقيم طَرْف قد أعضل داؤه ، وما شئت من ليل يسهر ، ونداء به يجهر ، وجُيُوب تشق ، و بصائر تخطف أبصارها إذا لمع البرق ، ونواسم تحمل التحيّات ، وخلع أيْكٍ تتلقى بخلع الأريحيات ، ور بما اشتد الخَتْل ، وأصابت النبل فكان الخبل ، قلوب اشتغلت عن الله فشغلها الله بغيره ، وهَبِ الحبَّ الجسمانى لا يبعث عليه شهوة بهيمية ، ولا تدعو إليه قوّة وَهْمية ، أليست الداعية مرتفعة ، والباعثة منقطعة ، وصورة الحسن دائرة ، وأجزاؤه المتناظمة متناثرة ؟ أليس الجراب العنصرى عائدا إلى أصْلِه ؟ أليس الجنس مفارقا لفَصْله ؟ ولله در على رضى الله تعالى عنه ، وقد نظر إلى قدح الماء وقد أراد أن يشرب ، وعن الاعتبار أعرب ، فقال : كم فيك من خدّ أسيل ، وطرف كحيل ؟ فأوّاه مكررة مردَّدة ، وواهفاه معادة مجدّدة ، على قلب أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول يا ليتنى لم أشرك بر بى أحدا ، وحسبنا مرارة الفراق ذلا ، وفقد النقد قلاّ ، والغفلة عن الله شقاء محتوما ، والكآبة على الفائت شوما :

صدّنى عن حلاوة التشييع اتقــائى مرارة التوديع

---

(١) يضرب المثل بخفى حنين لمن باء بالخيبة ولم يحصل من سعيه على شىء فيقال « رجع فلان بخفى حنين »

(٢) كلفوا : أولعوا ، والحائنة : الهالـكة ، والحائلة : المتغيرة المتحولة

لم يقم أنس ذا بوحشة هـذا   فرأيت الصواب ترك الجميع

وإن كانت الشهوة فأخْسِسْ بها داعيـه ، وإلى الفضيحة ساعيه ، حَسْبُك من حمار يعلن بنداء المحبـة نهاقه ، ويقذفه على السباق اهتياجه إلى السِّفاد واشتياقه ، أسير خَبَال ، وصريع مَبَال ، أولى له ثم أولى لو تأمل محاسن الجسوم ما أكذب رائدها المُطْرِى ، وأخبث زخرفها المُغْرِى ، وأقصر مدة استمتاعها ، وأكثر المساعى تحت قناعها .

على وَجه مَىٍّ مسحة من ملاحة   وتحت الثياب العارُ لو كان باديا

ما ثَمَّ إلا أنفاسٌ تركد وتخبث ، وعلل تنشأ وتحدث ، وزخارف حسن تعاهد ثم تنكث ، وتركيبٌ يطلبه التحليل بدَيْنه ، و يأخذ أثره بعد عينه[1] ، وأنس يفقد ، واجتماع كأنْ لم يعقد ، وفراق إن لم يكن فكأن قد[2] .

ومَنْ سَرَّه أن لا يرى ما يسوءه   فلا يتخذ شيئا يخاف له فقـدا

منغص العيش لا يأوى إلى دعة   من كان ذا بلد أو كان ذا ولد

والساكن النفسِ مَنْ لم ترض همته   سكنى مكان ولم يسكن إلى أحد

وقلت وقد مات سكن عزيز على أيام التغرب بسَلاَ عَظُم جَزَعى عليه :

يا قلب كم هذا الجوى والخفوت   ذَمَاءَكَ استبق لئـلا يفوت

فقـال لا حول ولا قولَ لى   قد كان ما كان فحسبى السكوت

فارَقَنِي الرشد وفارقتـه   لمـا تعشقت بشىء يموت

---

(١) هذا من قولهم فى مثل « تطلب أثرا بعد عين » يعنون أنه يطلب آثار الأشياء بعد أن فقد أعيانها وذواتها

(٢) « كأن » فى مثل هذه العبارة حرف دال على التشبيه ، واسمها ضمير شأن محذوف ، وخبرها جملة فعلية فعلها ماض محذوف ، وتقدير الكلام : فكأنه قد حصل ، ومثل ذلك قول النابغة :

أفد الترحل غير أن ركابنا   لما تزل برحالنا ، وكأن قد

والزمان لا يعتبر ، وحاصله خبر ، والحازم من نظر فى العواقب ، نظر المراقب ، وعرف الإضاعة ، ولم يجعل الحلم بضاعة ، إنما الحب الحقيقى حب يصعدك ويرقيك ، ويخلدك ويبقيك ، ويطعمك ويسقيك ، ويخلصك إلى فئة السعادة ممن يشقيك ، ويجعل لك الكون روْضاً ، ومشرب الحق حَوْضاً ، ويجنيك زهر المنى ، ويغنيك عن أهل الفقر والغنى ، ويخضع التيجان لنعلك ، ويجعل الكون متصرف فعلك ، ليس إلا الحب ، ثم الوَصْل والقرب ، ثم الشهود ، ثم البقاء بعد ما اضمحل الوجود ، فشفيت الآلام ، وسقط الملام ، وذهبت الأضغاث والأحلام ، واختصر الكلام ، ومحيت الرسوم وخفيت الأعلام ، ولمن الملك اليوم والسلام ، فالحذر الحذر أن يعجل النفس سيرها ، ويفارق القفص طيرها ، وهى بالعرض الفانى متثبطة ، وبناى الثقل مرتبطة ، وبصحبة الفانى مغتبطة (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ، أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى أن العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) وفى ذلك قلت :

أعشاق غير الواحد الأحد الباقى	جنونكم والله أعْيا على الراقى
جُنِنْتم بما يفنى وتبقى مضاضة	تعذب بين البين مهجة مشتاق
وتربط بالأجسام نفسا حياتَهَا	مباينة الأجسام بالجوهر الراقى
فلا هى فازت بالذى عَلِقَتْ به	ولا رأس مال كان ينفعها باقى
فراق وقَسْر وانقطاع وظلمة	قِنِى البعدَ من نيل السعادة يا واقى
كأنى بها من بعد ما كُشِفَ الغطا	صريعة أحزان لديغة أشواق
تقلب كفيها بخيطٍ موصَّل	رشيقة قدّ دون سبعة أطباق
فلا تطعموها السمّ فى الشهد ضَلَّةً	فذلك سم لا يداوى بدرياق
بما اكتسبت تسعى إلى مستقرها	فإما بوفر محسب أو بإملاق
وليس لها بعد التفرق حيلة	سوى ندم يذرى مدامع آماق

ولو كان مرمى الحزن منها إلى مدى ... لهان الأسى ما بين وخد وإعناق (١)

فجدُّوا فإن الأمر جد ، وشمروا ... بفضل ارتياض أو بإصلاح أخلاق

ولا تطلقوا فى الحس ثنى عنانها ... وشِيمُوا بها للحق لمحة إشراق (٢)

ودُسّوا لها المعنى رويدا وأيقظوا ... بَصِيرَتَهَا من بعد نوم وإغراق

ومهما أفاقت فافتحوا لاعتبارها ... مصاريع أبواب وأقفال أغلاق (٣)

وعاقبة الفانى اشْرَحُوا وتلطفوا ... بأخلاقها المَرْضَى تلطُّفَ إشفاق

فإن سكرت واستشرفت عند سكرها ... لماهية المسقى ومعرفة الساقى

أطيلُوا على روض الجمال خطورها ... إلى أن يقوم الوَجْد فيها على ساق

وخلوا لهيب الشوق يطوى بها الفلا ... إلى الوجد فى مسرى رموز وأذواق

فمـــا هو إلا أن تحط رحالها ... بمَثْوَى التجلِّى والشهود بإطلاق

وتَفْنَى إذا ما شاهَدَتْ عن شهودها ... وقد فنى الفانى وقد بقى الباقى

هنا لك تلقى العيش تضفو ظلاله ... وتَنْعَمُ من عين الحياة برقراق

وما قسم الأرزاق إلا بحجبيـــة ... فلا تطردِ السؤَّال يا خير رزاق

وقد أخذ الـكلام فى هذا الافتتاح حَدَّه ، وبلغ النهر مده ، فلآخذ أثر هذا الذى سَرَدْت ، فى تقرير ما أردت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ، فنقول : ينقسم هذا الموضوع إلى أرض ، وشجر غض ، وكل منها ميسورُ جِدِه ، وفن على حِدَه ، ماشئت من مرأى ومستمع ، فمن شاء أفرد ومن شاء جَمَع ، فلنبدأ بالأرض والفلاحة ، والتكسير والمساحة ، وتعيين حدود تلك الساحة ، ثم نأتى

---

(١) مرمى : مكان الرمى من قولهم « فلان يرمى إلى كذا » يريدون أنه يقصده بعمله ، والمدى — بزنه الفتى — الأمد ، والوخد والإعناق : ضربان من السير السريع

(٢) شيموا : فعل الأمر من قولهم « شام فلان البرق » إذا نظر أين يمطر

(٣) الأغلاق : جمع غلق — بفتح الغين واللام جميعا — ويراد به باب الدار لأنه يغلق على من يكون بداخلها

بالشجرة التى نؤمل جنَاها ، وننظر إنَاها[١] ، ونجعل الزاد المبلغ معناها ، قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

برنامج هذا الكتاب الذى يحصر الأجناس والفصول ، و يرد الفروع إلى الأصول ، و يسر الباحث عن مسائله بسبب الوصول ، بحول الله وقوّته .

خطبة الأعراس ، وتوطئة الغِراس ، وتنحصر فى جملتين :

الجملة الأولى : فى صفة الأرض وأجزائها ، وجعل الاختيار بإزائها ، وفيها رتب :

الرتبة الأولى ــ رتبة الأطباق المفروضة ، والاعتبارات المعروضة ، وفيه مقدمة وأطباق : المقدمة فى تعيين الأرض المذكورة ، الطبق الأوّل : طبق القلب ، الطبق الثانى : طبق الروح ، الطبق الثالث : طبق النفس ، الطبق الرابع : طبق العقل .

الرتبة الثانية ــ رتبة العروق الباطنة ، والشعب الكامنه ، وفيها فصول : الفصل الأول : فى العروق المعدنية ، الفصل الثانى : فى المقررات العينية ، الفصل الثالث : فى المدبرات البدنية ، الفصل الرابع : فى البحوث البرهانية .

الجملة الثانية : فى صفة الفلاحة والعمل ، المتكفل فيها بنيل الأمل ، وفيها اختيارات :

الاختيار الأول فيما يصلح للاعتمار من هذه الأرض ، وفيه فصول : الفصل الأول : فى أرض النفس المطمئنة ، الفصل الثانى : فى أرض النفس الأمَّارة ، الفصل الثالث : فى أرض النفس اللَّوّامة .

الاختيار الثانى فى محركات العزيمة ، لاعتمار هذه الأرض الكريمة ، وفيه فصول : فى الفصل الأول : فى الجذب وما يتصل بذلك ، الفصل الثانى : فى الوعظ المثمر لليَقَظَة ، الفصل الثالث : فى ذم الكسل .

الاختيار الثالث يشتمل على جلب الماء لسَقْى هذه الأرض من عين العلم فى جَدْوَلى العقل المحرر والنقل المقرر ، وفيه مقدمة فى فضل العلم وتعدد أجناسه ،

(١) ننظر ، هنا : بمعنى ننتظر ونترقب ، وإناها ــ بكسر الهمزة ــ نضجها ، وفى القرآن الكريم (إلى طعام غير ناظرين إناه) ومن الآية الكريمة أخذ هذه الفقرة

وفصول : الفصل الأول : فى جدول العقل ، الفصل الثانى : فى جدول النقل ، الفصل الثالث : فى مقدار الماء المجلوب ، للفَلْح المطلوب ، الفصل الرابع : فى غبار التكوين ، وسبب التلوين .

الاختيار الرابع : فى الحرث ، وإخراج لَبَن هذه الفلاحة من بين الدم والفرث ، وفيه أقسام : أوّلها : القليب[1] الأول ، ثانيها القليب[1] الثانى الذى عليه المعوّل ، ثالثها : فى سكة الأُردراع والتعمير ، وهو مظنة التثمير .

الاختيار الخامس : فى تنظيف الأرض المعتمرة من الأرض الخبيثة ، والجدر المعترضة والشعب المذمومة ، وفيه فصول : الفصل الأول : فى إزالة شكوك تسبق إلى المعتقد غالباً ، الفصل الثانى : فى قلع الشجر الذى يضر بهذه الأرض ويعاديها بالطبع .

الاختيار السادس : فى أمور ضرورية تلزم لهذه الفلاحة ، وفيه فصول : الفصل الأول : فى أمراض يشرع فى علاجها ، مما يرجع لطبع الأرض ومزاجها ، الفصل الثانى : فى اختبار أنواعها وأجزائها ، الفصل الثالث : فى أقوال تليق بأخماص الفلاح وإصحاره ، عند ملاحظة عجائب الكون وآثاره ، الفصل الرابع : فى الوقت المختار لغراسة الأسباب ، فى الحب اللباب ، وتنحصر فى مقدمة علمية ، وجرثومة[2] جرمية : المقدمة العلمية فى ترتيب المحبة والمعرفة ، الجرثومة الجرمية[2] تنقسم إلى بيان يعطى الصورة ، ويشرح الضرورة ، وإلى بطن وظهر ، وسر وجهر ، وباسط ، وبرزخ واسط ، فالباطن الشرع والنقل ، وينقسم إلى أصول : الأصل الأول : الكلام فى النبوة من حيث النقل ، والأصل الثانى : فى الإيمان والاعتبار العامى ، الأصل الثالث : فيما يتبع ذلك من اليقظة والتوبة فى حق غير المحتاج

---

(١) القليب ــ بفتح القاف ــ فى الأصل : البئر

(٢) جرثومة كل شىء : أصله

إلى ذلك ، الأصل الرابع : فى تقرير العناية والتوفيق فى حق غير المحتاج إلى ذلك ، الأصل الخامس : فى الموعظة والسماع من حيث تهذيب الجميع ، والظاهر الطبع والعقل ، وينقسم إلى أصول : الأصل الأول : جزء الفلسفة العلمى والعملى ، الأصل الثانى : سلامة الفطرة فى حق المستغنى عن ذلك ، الأصل الثالث : فى معرفة الجمال والكمال ، الأصل الرابع : فى الاعتبار الخاصى ، الأصل الخامس : السلوك بالفكر ، الأصل السادس : فى التشبيه بالمبدأ الأول ، باسط الذكر الباسط ، والبرزخ الواسط ، الصاعد من التخوم ، إلى النجوم ، وهو من أخص الأشياء بباطن الشجرة ، وأصولها المعتبرة ، ويشتمل على مقدمة وثلاثة أصول ، الأصل الأول : الأدعية والأذكار ، وله عشر شعب ، الأصل الثانى : أصل الأسماء ، وهى أصول الأرض والسماء ، وله تسع وتسعون شعبة ، الأصل الثالث : أصل السِّيمياء ، وهو الذى عفن بعضه و بقى الانتفاع ببعضه ، العمود المشتمل على القشر والعود ، والَجنى الموعود ، ينقسم قسمين : قشر ، وخشب ، ودر مَخْشَلب ، والقشر ظاهر يكسر ويحذو ، وباطن ينمى و يغذو ، فظاهره الذى يكسر و يحذو يتضمن الكلام فى المحبة وأقسامها من حيث اللسان ، لا مِنْ حيث نوع الإنسان ، و باطنه الذى ينمى و يغذو يتضمن الثناء على المحبة طبعا وعقلا ، وشرعا ونقلا ، الخشب الذى يتخذ منه النشب ينقسم إلى أقسام : القسم الأول : فى الحدود والمعرفات ، والأسماء الدلة عليها والصفات . القسم الثانى : معقول معناها ، المتجلى فيه نور سَنَاها . القسم الثالث : ارتباطها بالمقامات ، واختصاصها فيها بالكرامات . القسم الرابع : تبيين ضرورتها ، وإيضاح مزيتها . الفرع الصاعد فى الهواء ، على خط الاستواء ، من رأس العمود القائم ، إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجرم شريف : القشر الحدود للمعرفة والرسوم ، وخواص العارف الذى هو المعروف بها

والموسوم ، وينقسم إلى فصول : الفصل الأول : فى حدود المعرفة ورسومها[1] وما قيل فيها . الفصل الثانى : فى أوصاف العارف . الفصل الثالث : فى تفضيل العارف . الفصل الرابع : فى علوم العارف ، والجرم الشريف ، من الفرع المنيف ، ينقسم إلى ظاهر ، و باطن ، وقلب ، فالظاهر ينقسم إلى أقسام : الكلام فى الأخلاق ومنشئها وطباعها بحسب القوى النفسانية و إفراطها وتفريطها واعتدالها وعلاجها ، وفيه المجاهدات ، والباطن يتضمن الكلام فى أن النظر إلى وجه الله تعالى هو السعادة الكبرى بكل نظر واعتبار ، والقلب قلب الغصن يتضمن الرياضة والسلوك على المقامات كلها ، ويتفرع منه عشرة غصون : الغصن الأول : غصن فروع البدايات . الغصن الثانى : غصن فروع الأبواب . الغصن الثالث : غصن فروع المعاملات ، الغصن الرابع : غصن فروع الأخلاق . الغصن الخامس : غصن فروع الأصول . الغصن السادس : غصن فروع الأدوية . الغصن السابع : غصن فروع الأحوال . الغصن الثامن : غصن فروع الولايات . الغصن التاسع : غصن فروع الحقائق . الغصن العاشر : غصن فروع النهايات ، ولكل فروع أوراق ، ويلحق به صورة السلوك بالذكر حتى يتأتى الوصول ، وعلى المقصود الحصول ، والكلام على زهرات الطوالع واللوائح والبواده والواردات ، ونختم بالجَنَى ، المقترن بنيل المنى ، وهى الولاية

تفرع ضخام الغصون ، من شجرة السر المصُون ، وهى غصن المحبوبات وأقسامها ، وتنقسم إلى أربعة أفنان : الفن الأول : فرع الرب المحبوب ، الفن الثانى : فن العبد المحبوب . الفن الثالث : فن الدنيا المحبوبة . الفن الرابع : فن الآخرة المحبوبة . غصن المحبين ، وأصنافهم المرتبين ، ينقسم إلى مقدمة بيان ، وستة أفنان : الفن الأول : فى رأى الفلاسفة الأقدمين . الفن الثانى :

---

(١) الحد والرسم : من اصطلاح المناطقة ؛ فالحد ما كان بالفصل ، والرسم ما كان بالخاصة

فى رأى أهل الأنوار والإشراقيين . الفن الثالث : فى رأى الحكماء الإسلاميين . الفن الرابع : فى رأى المكملين بزعمهم المتممين . الفن الخامس : فى أهل الوحدة المطلقة من المتوغلين . الفن السادس : فى الصوفية سادة المسلمين .

غصن علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصَّبة ، وينقسم إلى ثلاثة أفنان : الفن الأول : فيما يرجع إلى حقوق المحبوب . الفن الثانى : فيما يرجع إلى باطن المحب . الفن الثالث : فيما يرجع إلى ظاهره .

غصن اختيار المحبين فى ميدان جهادهم ، وتباين أحوال أفرادهم ، وهو ثلاثة أفنان : الفن الأول : فن المجاهد الصريح . الفن الثانى : فن المنبت الجريح . الفن الثالث : فن الصريع الطريح .

جوائح الشجرة ، ومَضَار فلاحتها المعتبرة ، وينقسم إلى جوائح من نسبتها ، بالنظر إلى مائها وتُرْبتها ، وإلى ما هو راجع إلى الخواطر ، وهو على عدد الرياح ، وإلى ما سببه غَفْلة الفلاح ، عذر الطائر الصادح ، على فرض القادح ، وجود الهاجى والمادح .

صورة الشجرة ذات الحسن الباهر ، والجَنى والأزاهر ، وآثارها للحسن الظاهر ، بفضل المريد القاهر ، لا إله إلا هو سبحانه له الحمد ، انتهت الخطبة التى تدل على ما وراءها .

وقال رحمه الله تعالى فى آخر هذا الكتاب ما نصه : ونختم الكلام فى هذه الشجرة والاستدلال على شرف هذه الفلاحة الضمنية بهذه الأبيات :

فلاحتنا لها القِدْحُ المعلَّى ... وسَرْحتنا الضمينة للنجاح[1]

ألست ترى منادى الخمس نادى ... بمختلف الجهات أو النواحى

---

(١) القدح ـ بالكسر ـ واحد أقداح الميسر ، والمعلى : اسم أكبر الأقداح نصيبا ، والسرحة : الشجرة العظيمة ، أو التى لا شوك فيها

يردد فى الأذان لكل واع على الآدان حى على الفلاح

وهذا طائر على الشجرة صادح ، ولاحق كادح ، ومعتذرٌ إن قدح قادح ، وتعارض هاج ومادح . قال المؤلف : ولا بدّ لنا من درى على صادح هذه الأفنان ، وشادٍ يهيج أشجان الجنان ، ويثير شجو الرأفة والحنان ، و يبين مجال الضرورة لذوى الانصاف ، بكرم الأوصاف ، والناظرين إلى الهَنَات بعيون الإنصاف ، فيرحم من قد كان شره النَّقْد ، و يعذر مَنْ تشوّقَ لاستضعاف هـذا القَصْد ، والأعذار التى تقرر عنا هـذا الطائر عديدة ، ومبدئة فى الصدق مُعيدة ، وقريبة من الحق لا بعيدة ، فمنها أن هذا الفرض ، اليوم بأ كثر الأرض ، ميدان عدم فيه ولا حول ولا قوّة إلا بالله من بخيل كما يحب جوادا ، ونفير لا يجيبه إلا من يكثر سَوَادا ، قد طُمست الأعلام ، وسقط الحمد والمَلَام ، وما لجرح بميت إيلام[1] ، فمدلول هـذا الفن بهذه التخوم عنقاء مُغْرب[2] ، و إكسير يحدث عنه غير واصل ولا مجرب ، إنما يرجع فيه إلى كتب مُقْفلة ، وأغراض مغفلة ، وما عسى أن يعوّل المسكين مثلى على قاصر إدراكه ، مع اقتسام باله واشتراكه ، قصر العلم والعمل ، فاختلط المرعى والهَمَل ، وأخفق المسعى وخاب الأمل ، ومنها شواغل الدنيا التى اختطفت من المكاتب ، وموّهت بالمراتب ، ولقبت بالوزير والكاتب ، وأقامت العبدَ الذى لا يملك شيئاً مقام العاتب ، ومن كان بهذه المَثابة وإن عدّ يقظا حازما ، ونِحْريرا عالما ، فإنما هو غريق ، وتائه لا يبدو له طريق ، ولا ينساغ له رِيق ، ولا يطفأ ببرد اليقين منه حَريق ، ولا يربع عليه من قصاد الله تعالى فريق ، ونستغفر الله ! فالذى ألهم لهذه العيوب ، يتكفل بإصلاح القلوب ، ومكاشفة الغيوب ، وإن كانت النفوس للحق جاحدة ، فما أمرى إلا واحدة .

---

(١) هذا عجز بيت للمتنبى ، وصدره قوله :

* من يهن يسهل الهوان عليه *

(٢) « عنقاء مغرب » يقال بإضافة اللفظ الأول إلى الثانى ، وبوصف الأول بالثانى ، ويضرب ـ على كل حال ـ مثلا فيما لا وجود له

لا تعجبن لطالب نال العـــلا كهلا وأخفض فى الزمان الأوّل
فالخمر تحكم فى العقول مُسِنَّةً وتُداسُ أوّلَ عصرها بالأرجُلِ

ومنها الاشتغال بالهذَر ، عن العلم والنظر ، منذ أزمان عديدة ، ومُدَد مديدة ، فلم يبق مما حَصَّل ، و إليه مما فى الزمان القـديم توصل ، إلا رسم بَلْقع ، وسمل ما له مُرَقع ، ومنها أننى لم أنتدب إلى هذا الوظيف الذى قَلَّ من يتعاطاه ، و يثير قطاه ، و يقتعد مطاه ، من تلقاء نفس جاهلة ببعد مَدَاه ، ومَطْل جَدَاه ، ومطالبة مدعيه بما كسبت منه يداه ، فلا يتجاوز طوره ولا يتعداه ، و إن طالب الحق من شرط وصوله ، سلب فصوله ، وحالة موته ، وانقطاع حسه فضـلا عن صوته ، لـكنى خُضْت على عدم السباحة غمراً ، وامتثلت مع سقوط الاستطاعة أمراً ، وجئت بما فى وسعى انقياداً وامتثالا ، ومثلت مثالا ، فضرورتى بفضل الله تعالى مشروحـة ، والدعوى عن كَتِفِى مطروحة ، وعلى ذلك فقـد علم الذى يعلم الأسرار ، و يقرب الأبرار ، ويقيل العثار ، ويقبل الأعذار ، أن مدة الاشتغال به لم تجاوز شهرين اثنين ، بين كتب وكتم ، وابتداء وختم ، مع ما يتخلل الزمان من حمل لو رمى به رَضْوى لتَدَعْدَع ، أوأنزل على ثَبِير لخشع من خشية الله تعالى وتصدع ، مداراة عدو قد تكالب على الإسلام ، وسياسة سواد صم عن الملام ، و تعـدى حدود النهى والأحلام ، وارتقاب هجوم جيش الآجال وراية الشَّيْبِ من الأعلام ، وقد أنذر بالفجر انقشاع الظلام ، وكاد يصعد الخطيب فينقطع الـكلام [1] ، جعلت لنقله حصة من جنح الظلام الغاسق ، والليل الواسق ، وعاطيت حمياه نديم الغارق ، وتعرضت لاقتناص خياله الطارق ، وسرقته من أيدى الشواغل ، والليل معين السارق ، ولم يعمل فيه عبد القيس نظراً مُعَادا [2] ، ولا أنجز من تصحيحه علم الله تعالى ميعاداً ،

---

(١) اشير إلى ما جاء في السنة من أنه إذا صعد خطيب الجمعـة المنبر حرم على الناس الـكلام

(٢) أخذه من قول الشاعر ، وهوالفرزدق :

أعد نظرا يا عبد قيس لعلما أضاءت لك النار الحمار المقيدا

إنما هو كراس يفرغ من تسويده رجراج الحبر ، مختلط الترب بالتبر ، فيدفع ملوم الماسخ ، إلى يد الناسخ ، وكلفة المتثاقل ، إلى كف الناقل ، وتقذف صحيفته من الزبرة إلى الصاقل ، إذ كان الأمر — أيده الله تعالى ! — ونفعه حريصاً على تعجيل المعارضة ، ومتحريا سبيل الشرع فى هذه المصارفة والمقارضة ، والجفن المشرق يعلن بالتبريح ، وينتظر مساعدة الريح ، فمن وقف عليه من فاضل أنار الله بصيرته ، وجبل على الإنصاف سيرته ، أو مَنْ كان من أهل الله الذى يعلم أن ما سوى الله تعالى ظل وفَىْء ، ويتحقق معنى قوله (ليس لك من الأمر شىء) ، فقد أوجب الإنصاف أن يمحو اقترافى باعترافى ، ويغطى أوصافى بإنصافى ، والرحماء يرحمهم الرحمن [١] ، وقد عذر النمبرة سليمان [٢] ، ومع الاستسلام الأمان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا بأس أن نُعَرِّضَ بتلك الأخْوِنَةِ الخصيبة المثوى والمروج ، والجمل والفروج ، وفى السماء البروج ، وفى الأرض الفروج ، والأعرج يُسْتندر منه العروج ، ونمد الأيدى المستعملة فى التقصير ، إلى الولى النصير والناقد البصير ، اللهم استر بسترك فضائحنا المخلفة ، وقبائحنا المجمعة المؤلفة ، فهو كله تحويمٌ حولَ حِماك ، ودندنة يا كريم بباب رُحْماك ، وزند أنت قدَحْته ، وتألق بارق أنت ألحته ، فصِلِ السبب يا واصل الأسباب ، واجعلنا ممن تذكر فنفعته الذكرى وما يتذكر إلا أولو الألباب ، اللهم أطلع نفوسَنا الحائرة على عين الخبر ، واجذبها إلى المؤثر بزمام الأثر ، اللهم اجبر الضالة المُثْقَلَة الظهر ، وارفع عنها ملكة القهر ، وحيطة الدهر ، والسفر من بلد السر إلى بلد الجهر ، اللهم أعلق بعروة الحق أيدينا الخابطة ، وأظفر بعدوّ الهوى عزائمنا المرابطة ، اللهم أوصِلْ سببنا بسببك ، واحملنا إليك بك ، لا إله إلا أنت ، وصَلِّ على عبدك ونبيك محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله والصحابة أجمعين ، انتهى .

---

(١) ورد فى الحديث « الراحمون يرحمهم الرحمن » و « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »

(٢) كان سليمان يتفقد الطير ، فلم يجد الهدهد ، فتوعده بالعذاب ، فلما جاء الهدهد اعتذر له ، فقبل عذره ، ووردت هذه القصة فى سورة النمل من القرآن الكريم

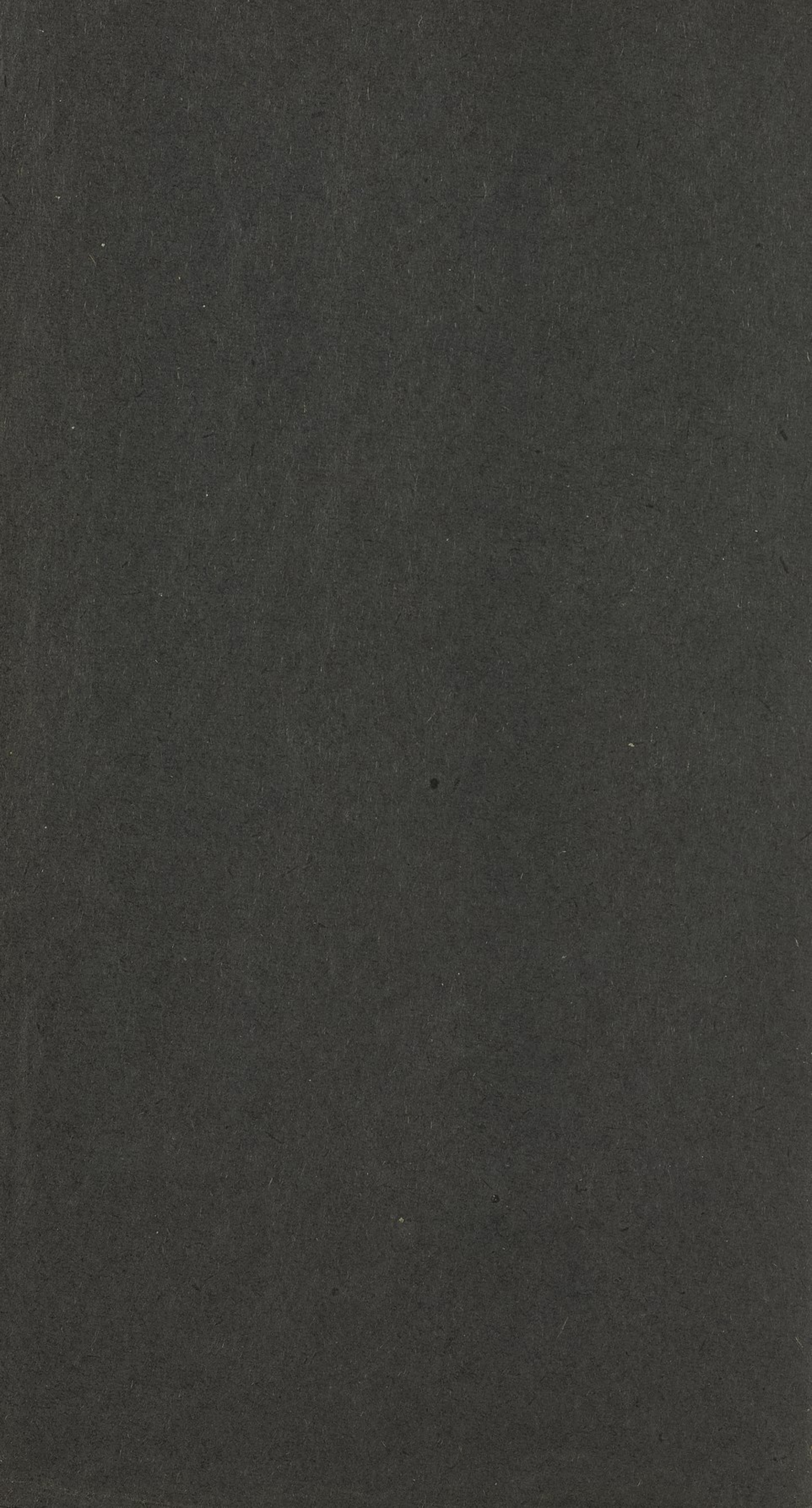
قد تم – بمعونة الله تعالى – الجزء الثامن من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، والتعريف بوزيره لسان الدين بن الخطيب » للشيخ أحمد بن محمد المقرى ، التلمسانى ، ويليه – إن شاء الله تعالى – الجزء التاسع مفتتحا بقول المؤلف « وقال – رحمه الله تعالى ! – آخر بعض تراجم الكتاب » نسأل الله أن يعين على إكماله ، بمنه وكرمه ! أمين .

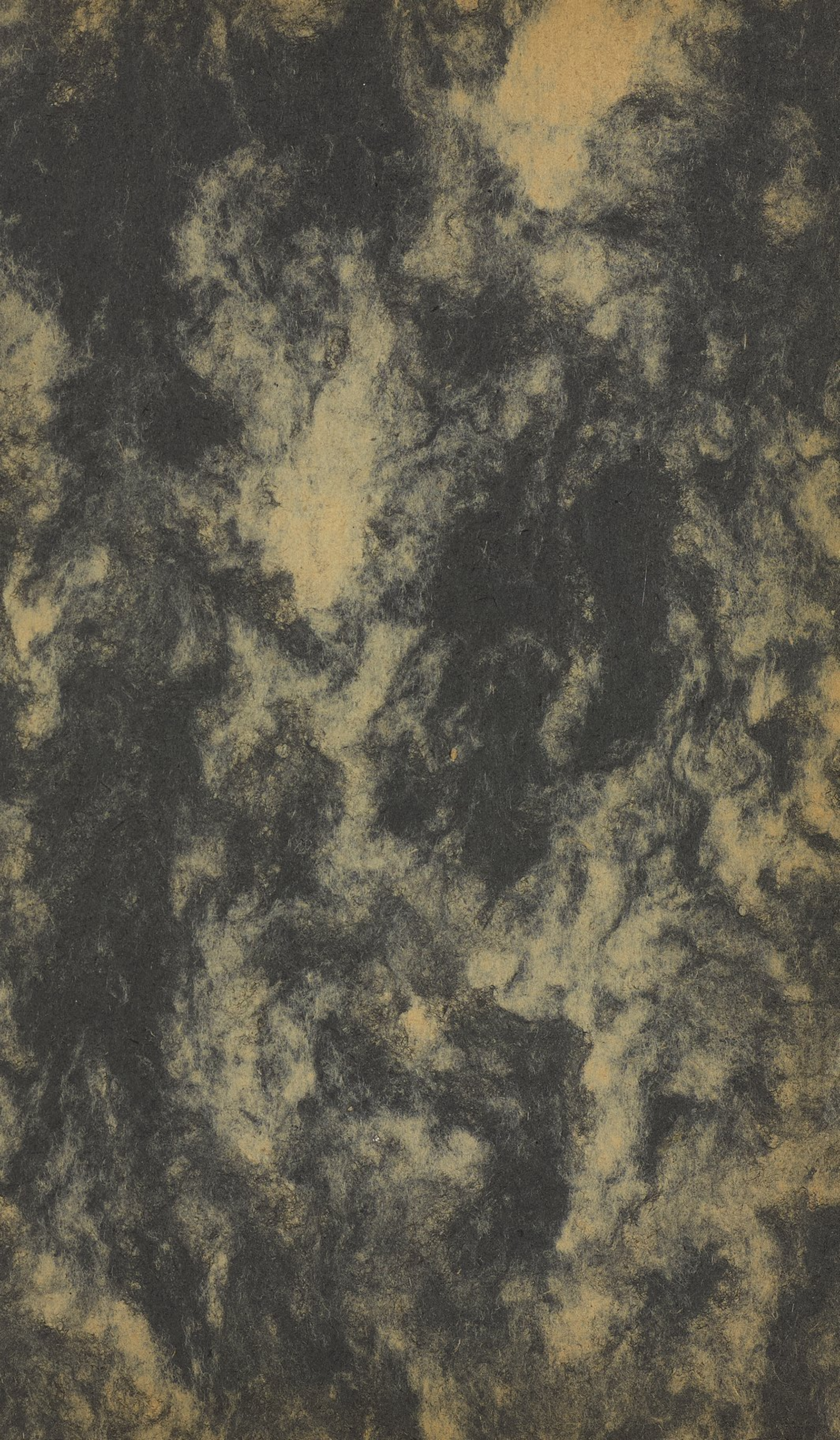
فهرس الجزء الثامن

من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

للشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

تمت — بحمد الله تعالى وتوفيقه — فهرست الجزء الثامن من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب » والحمد لله أولا وآخراً ، وصلاته وسلامه على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله رسوله المجتبى ، وعلى آله وصحبه .






COLUMBIA UNIVERSITY
0026814358

